الغزل فى العصر الجاهلى

الرسالة التى نالت الماجستير من جامعة فؤاد الأول بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

تأليف

أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة لجنة البيان العربي

الغزل فى العصر الجاهلى

الرسالة التى نالت الماجستير من جامعة فؤاد الأول بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

تأليف

أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة لجنة البيان العربى

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أما بعد ، فقد كان الموضوع الذى اخترته لرسالة الماجستير (المرأة من الشعر الجاهلى) ، وشرعت أجمع المصادر ، وأنقب فى المراجع ؛ لأجلو صورة المرأة العربية جلاء يعتمد على منهج علمى ، وبلغت من ذلك مرحلة بعيدة . ثم تكشَّف لى أن هذا الموضوع متشعب النواحى متعدد الفروع ، فلا تنهض به رسالة واحدة . فهنالك المرأة أماً ، وبنتاً ، وأختاً ، وزوجاً ، وحبيبة ، وقريبة ، وهنالك المرأة الشاعرة ، والمرأة المحاربة ، وهنالك الأَمَة والمغنية الخ ، وقد عرض الشعر لكل من هؤلاء عرضاً جديراً بالدراسة والاستنتاج .

فرأيت أن أقتصر الآن على أبرز ناحية من هذه النواحى ، هى المرأة الحبيبة ، وأن أجعل عنوان الرسالة (الغزل فى العصر الجاهلى) .

ولست أشك فى أن الغزل أصدق فنون الشعر الجاهلى وأحراها بالدراسة ؛ لأنه بنوعيه : عُذْرِيّ وحِسِّيّ تعبير صادق عن عاطفة صادقة .

ذلك بأنه لم تبتعثه مطامع فى كسب من أمير أو زلفى إلى ملك ، ولم يدفع إليه تكاثر بالمحامد وتفاخر بالفضائل ، ولم يوح به تَشَفٍّ من خصم أو تَنَقُّصٌ من قَدْرِ منافسٍ ، وإنما أزْجَتْه العاطفة الجيَّاشة ، والميل إلى الإفصاح عن التجربة الوجدانية التى جَرَّبها الشاعر .

ثم إن الغزل يصور من أحوال النفوس ما لا يصوره غيره ، لأنه يكشف عن دَخيلة المحب ، ويكشف عن سريرة المحبوبة ، وينبع من عاطفة المحب ، ويدور حول المرأة ، والحب والمرأة ينبوع ثَرٌّ حارٌّ يتدفق بالشعر فى كل عصر وفى كل

جيل ، والغزل — لهذا — لا يمثل عاطفة قائله وحده ، بل يمثل أيضاً العاطفة الإنسانية الخالدة ، فهو أصلح فنون الشعر لأن يكون عالميا ، يهز مشاعر القراء من كل جنس وقبيل . على أنه أقوى فنون الشعر العربى انطباعا بالبيئة ، وتأثراً بالعقلية ، وتمثيلا لأحوال المرأة ، كجمالها وتجملها وأخلاقها ، مما لم تصوره بقية فنون الشعر إلا ناقصاً ناصلا .

وهو إلى ذلك كله أبرز فنون الشعر تأثيراً فيما بعده من العصور معنىً وخيالا وأسلوبا ، وأبعدها عن النَّحْل والوضع ، لأنه لا يؤيد عصبية قبلية ، ولا يعضُد نزعة حزبية ، ولا يتصل بشىء مما كان يدعو أحياناً إلى وضع الشعر ونحْله .

ولا أعلم أن باحثاً قد خص هذا الموضوع بدراسة ، على حيويته وطرافته وعظم قيمته ، وجدارته بدراسة مفصلة مستقلة .

ولا أعلم أيضاً أن فناً من فنون الشعر الجاهلى قد نال حقه من الدراسة ، على ما للشعر الجاهلى من عظم القدر والأثر .

وإن الشعر الجاهلى — فى رأيى — لجدير بأن تستمد منه صور الحياة العربية ؛ لأنه مرآة العرب ، ومُجْتَلى عواطفهم ، ومَعْرِض أخلاقهم ، وديوان معتقداتهم وعاداتهم ، والمترجم عن مُثُلهم ، فهو الصَّدَى القوى الصحيح لحياتهم .

ولا يَغُضُّ من شأنه أن قد نُحِلَ قليلٌ منه ، لأن هذا المنحول قد نبه العلماءُ عليه ، ولأن الشعراء الذين نحلوه كانوا ذوى خبرة ودراية بالحياة العربية فى العصر الجاهلى ، فشعرهم بالنسبة إلى هذه الحياة كالصورة المنعكسة فى المرآة .

وليس من الصواب أن نعتمد فى دراسة الحياة العربية على التاريخ وحده ، بل الصواب أن نعتمد أولا على الشعر الذى صوَّر هذه الحياة وأحسن تصويرها .

ولست أنكر أنه عرضة لأن يعتوره الكذب ، وتتطرق إليه المبالغة ، ولكنى أرى أن الكذب والمبالغة يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدوَّن والآثار المكتوبة ، لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة أيضاً لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولذلك كثيراً ما تتعارض كتب التاريخ وتتناقض .

ولكن الشعر تسجيل آلاف من الشعراء من قبائل شتى فى زمن طويل ، فهو أوسع مجالا من التاريخ لاستنباط الحياة من سجلات متنوعة ، خلفها شعراء عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين . وإذا كان فى شعرهم ألوان من الخيال فإن من مميزات الأدب هـذا التخييل والتجميل الذى لا يخلو من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة ؛ لأنه يتناول ما يهمله التاريخ مما لا يتصل بالأحداث والحروب والسياسة .

لهذا كانت إلياذة هوميروس وما زالت — على أنها حافلة بالأساطير — مَرَاداً للباحثين ، يستنتجون منها كثيراً مما يتصل بحياة اليونان .

ويسعدنى أنى قد بدأت هذه المحاولة ، وكان لهذه الرسالة الفضل ، لأنى كنت أقرأ لأخرج رسـالة عن (المرأة من الشعر الجاهلى) فتبين لى أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بالحياة العربية كلها ، فألفت كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) وهو المحاولة الأولى .

وهأنذا أتبعه بهذه الرسالة ، وهى المحاولة الثانية ، وفى عزمى إذا شاء الله أن تـكون رسالة الدكتوراه (مكانة المرأة وشاعريتها فى العصر الجاهلى) ، وهى المحاولة الثالثة .

وقد رجعت فى إعداد هذه الرسالة إلى كل ما استطعت أن أرجع إليه من مصادر عربية وإفرنجية ، وحرصت على أن أعزُو كل نص أو فـكرة إلى المصدر الذى استقيتُ منه ، لتـكون الرسالة مصـــورة للأمانة العلمية ، وللجهد الذى تطلبته .

وأرجو أن أكون بهـذا قد أديت للأدب العربى بعض ماله فى قلبى من حب وإعزاز .

وبعد :

فإنى أزجى شـكرى لصاحب العزة الأستاذ عبد الحميد حسن بك ، فقد أشرف على إعداد الرسالة وتوجيهها صوب الـكمال . وأسجل شـكرى للجنة

المناقشة[١] : حضرات الأستاذ عبد الحميد حسن بك ، والأستاذ أحمد زكى صفوت ، والأستاذ عمر الدسوقى ، فقد انتفعت بمناقشاتهم وعلمهم ، وأشعر بسعادة إذ أعترف بأن إعجابهم بالرسالة قد توج جهدى ، وأذكى عزيمتى .

أحمد محمد الحوفى

---

(١) نوقشت الرسالة بكلية دار العلوم مساء ١٦ رمضان سنة ١٣٦٩ ، الموافق أول يوليه سنة ١٩٥٠ . فى حفل كبير من أساتذة اللغة العربية ورجال القلم ، وقد تصدرهم حضرة صاحب العزة الأستاذ إبراهيم مصطفى بك عميد الكلية وحضرات أساتذتها وكبراء خريجيها .

الفصل الأول

الغزل

حقيقته :

دارت على الألسن والأقلام منذ عهد بعيد هذه الكلمات الثلاث : الغزل ، والنسيب ، والتشبيب ، واختلف فى مدلولها ، أهى مترادفات تؤدى معنى واحدا ؟ أم هى مختلفات الدلالة ؟

ويحسن بى أن ألم فى إيجاز بما أدلى به اللغويون والأدباء ، ثم أختار الرأى الذى أميل إليه .

ابن سيده يقول إن الغزل تحديث الفتيان الجوارى ، والتغزل : تكلف ذلك ، والنسيب : التغزل بهن فى الشعر ، والتشبيب مثله (١) .

وابن منظور يقول إن الغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن ، والتغزل : التكلف لذلك ، وفى المثل هو أغزل من امرىء القيس (٢) ويقول فى موضع آخر : نسب بالنساء ينسب نسبا ونسيبا ومنسبة : شبب بهن فى الشعر وتغزل (٣) ، وفى موضع ثالث : شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب ، وهو يشبب بها أى ينسب بها (٤) ، ويقول الزبيدى مثل ذلك (٥) .

---

(١) المخصص ٤ / ٥٤ ـ ٥٥ . (٢) لسان العرب ٤ / ٤ (٣) لسان العرب ٢ / ٢٥٣
(٤) لسان العرب ٢ / ٤٦٣ (٥) تاج العروس مادة شبب ونسب وغزل .

وإذاً فالكلمات مترادفات فى رأى هؤلاء ، وهم من أكبر علماء اللغة .

فما رأى الأدباء ؟

ابن سلام — وهو أول من كتب فى تاريخ الأدب — يستعمل الكلمات الثلاث متحدة المعنى . يقول : « كان لكثير فى التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه فى النسيب » [١] .

ويقول : « كان عبيد الله بن قيس الرقيات غزلا ، وأغزل من شعره شعر عمر ابن أبى ربيعة . وكان عمر يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح ، وكان عبيد الله يشبب ولا يصرح ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر» [٢] .

ويقول : « سبق امرؤ القيس العرب إلى أشياء ابتدعها . . . منها رقة النسيب » [٣] .

فهو فى العبارة الأولى يقول إن كثيرا ذو تشبيب ، وفى العبارة الثانية يقول إن عبيد الله بن قيس كان غزلا ، وإن غزل عمر أحسن من غزله ، وإن عمر كان يصرح بغزله ولكن ابن قيس كان يشبب ولا يصرح . وإذن فالغزل والتشبيب بمعنى واحد .

ونعود إلى عبارته الأولى فنجده يقرر أن كثيرا كان له نصيب وافر فى التشبيب ، وأن جميلا مقدم عليه فى النسيب ، ثم نقرأ العبارة الثالثة فنجده ينسب إلى امرئ القيس رقة النسيب . وإذن فالنسيب والتشبيب معناهما واحد . وتنتهى بنا هذه النصوص إلى أن الغزل والنسيب والتشبيب كلمات مترادفة فى رأى ابن سلام .

وقد عبر جرير عن شعر عمر بن أبى ربيعة بأنه نسيب فى قوله : « إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومى » [٤] .

وعبر عنه نوفل بن مساحق بأنه غزلى [٥]

واستعمل أبو الفرج الأصفهانى الغزل دالا على النسيب فى مواضع شتى ، من

(١) طبقات الشعراء ١٨٤

(٢) الطبقات ٢٠٣

(٣) الطبقات ٢٧

(٤) الأغانى ١ / ٧٦

(٥) الأغانى ١ / ١١٣

ذلك قوله : « وكان العباس بن الأحنف شاعراً غزلا شريفاً مطبوعاً ، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء »[١] .

ورأى ابن رشيق أن « التغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأن الغزل إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وقد أوضح قدامة فى كتابه نقد الشعر أن الغزل غير التغزل »[٢] .

ولكنى لا أميل إلى التفرقة بين الغزل والتغزل ، لأن التغزل ليس تكلف الغزل كما قد يتبادر ، ذلك أن التاء هنا كالتاء فى مصادر أخرى مثل التقدم والترق والتعلم .

وكذلك جاء الغزل والتشبيب مترادفين فى قول الجاحظ :

« فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبب الرجال »[٣] .

وأرى أن الغزل والنسيب بمعنى واحد فى رأى أبى تمام ، لأنه عقد فى الحماسة بابا للنسيب ، اختار فيه قصائد تعبر عن أشواق المحب وأثر الحب فى نفسه ، وقصائد تصف جمال المرأة الجسدى ، ولم يفرد بابا للغزل ولا للتشبيب . ومن أمثلة ذلك مقطوعة لعبد الله بن عجلان النهدى[٤] وأخرى لعمر بن أبى ربيعة[٥] وثالثة لبكر بن النطاح[٦] . ولو أنه رأى أن الغزل غير النسيب وغير التشبيب لأفرد لكل منها بابا .

كذلك لم يفرد البحترى لكل منها بابا فى حماسته ، على أنه أغرق فى تقسيمها فجعلها أربعة وسبعين ومائة باب .

---

(١) الأغانى ٨ / ١٤
(٢) العمدة ٢ / ٩٤
(٣) رسالة العشق والنساء ١٦٥ من مجموعة رسائل الجاحظ .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ١٢٩ .
(٥) المرجع السابق ٣ / ١٣٩ .
(٦) المرجع السابق ٣ / ١٤٠ .

ولست أنكر أن بعض القدماء والمحدثين حاولوا التفرقة بين الغزل والنسيب والتشبيب ، ولكنهم اعتمدوا فى تفرقتهم على ذوق شخصى ، وهم لهذا قد اختلفوا .

فمثلا حاول التبريزى أن يفرق بينهما ، فقال : « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » [١]. فالغزل فى رأيه حب المرأة والميل إليها ، والنسيب هو التعبير عن هذا الحب . وفى هذا الرأى مخالفة لما ذكره اللغويون والأدباء من قبل .

واعترف الأستاذ السباعى بيومى بأن الكلمات مترادفة ، وأن التفرقة بينها متعذرة ، ثم حاول أن يخصص كلا منها بإطلاق فقال : « ويحسن أن نختص مطالع القصائد التى تعرض لذكر المرأة باسم التشبيب ، وهذا فرق ما بينه وبين الغزل والنسيب . أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن الغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف المرأة مدفوعا إلى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة . والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق صادراً عن وجدان وشعور لا يكونان إلا للمحبين المغرمين »[٢] .

وهذا الرأى الشخصى يختلف ورأى التبريزى السابق ، ويختلف ورأى الأستاذ محمد هاشم عطية إذ يقول :« وقد يكون من الخير أن نذكر بقدر ما نستطيع شيئاً نجعله شبيها بالتحديد لهذه الكلمات العامة . ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك فى الكلام وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة . وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال توخيا لتعليق القلوب وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بالغرض من الكلام . وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١١٢

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ١١٠ — ١١١

من التجنى وما يعرض له من ذكر محاسن النساء »(١) .

وهذان الرأيان يتفقان فى أن التشبيب هو الغزل التمهيدى ، ويختلفان فى غير ذلك ، فوصف جمال المرأة ومحاسنها وجاذبيتها نسيب عند الأستاذ هاشم ، وغزل عند الأستاذ السباعى .

لهذا رأيت أن آخذ برأى اللغويين والأدباء من القدماء فلا أفرق بين مدلولات هذه الكلمات .

وقد اخترت كلمة الغزل دالة على الأنواع كلها لأنها أخف نطقاً وأكثر شيوعا. وإلى ذلك ذهب الدكتور طه حسين، حيث يقول : « ينقسم الغزل أيام بنى أمية ثلاثة أقسام مستقلة : أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العفيف، والثانى غزل الإباحيين الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية ، والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين »(٢). ثم يقول فى موضع آخر : « نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية »(٣) . وهو يشير بهذا إلى الغزل فى كلامه السابق .

بواعث الغزل :

لماذا يتغزل الشاعر ؟

ا — يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب للمرأة التى اختارها قلبه ، وليعبر عن عاطفة إعجابه بجمال هذه المرأة كما يراها هو لا كما يراها غيره ، وهو فى الحالين يصور مشاعره ، ويصف آلامه وآماله ، ويكشف عما يختلج بقلبه ويعتلج بنفسه .

وسأفصل القول فى الحب وفى جمال المرأة ؛ لأنهما من بواعث الغزل ، ولأن جمال المرأة أيضاً — كما صورها الغزلون — ثمرة لهذا الغزل .

ب — ويتغزل لأنه مدفوع بميله الفنى إلى التعبير عما بنفسه .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٠٧ .

(٢) حديث الأربعاء ١ / ٢٣٣ .

(٣) حديث الأربعاء ١ / ٢٣٩ .

ووسيلة الشاعر للتعبير عن عاطفته هذا الشعر الحار الصادق الرائع ، يصور به عاطفته كما يصور الرسام عاطفته بدهـانه وألوانه ، وكما يصور الموسيقى عاطفته بأنغامه وألحانه ، وكما يصور النحّات المثّال عاطفته بإزميله وصوّانه .

الشاعر فنان ، لا بدّ له من أن يعبر عما يجيش بنفسه ، وهذا الميل الفنى باعث آخر من بواعث الغزل .

ولو أن المحبين كلهم مفطورون على القريض لكان من الطبيعى أن يتغزلوا جميعاً ، ولكنهم ليسوا كذلك . فقد يحب الرجل حباً حاراً عنيفاً ولكنه غير مفطور على الشاعرية ، فلا يتغزل ، وحينئذ ينفس عن عاطفته بشىء آخر ، كغناء أو نجوى لصديق ، أو يدع لأنامله أن تترجم عن مشاعره بموسيقى أو رسم أو نحت ، ولقد يجد برد الراحة فى بثه لمن أحبها بكلمات حلوة خلابة لهـا من الشعر روحه وإن لم يكن لها مظهره .

ولكن العرب أمة شاعرة [١] ، والشعر هو الفن الجميل الذى صوروا به عواطفهم ، وقد بقى من شعرهم فيض غزير مختلف الألوان والخصائص ، والغزل جدول مترع من هذا الفيض .

وبحسب العربى المحب أن يحدث حبيبته ، أو يحن إليها ، أو يراها ، أو يتفجع لرحيلها ، لتجيش عاطفته فيهدر بالقريض .

وقد اتسم غزلهم بالرقة إذا ما قيس إلى أدبهم ، لأنه تصوير لعاطفة الحب ، « وهذه العاطفة ناشئة من عدة انفعالات هى الحنو ، والجنس ، والاحترام ، والعطف » [٢] .

فهى تلهم شعراً فيه ليونة ومرونة واستمالة ، وحتى الحب اليائس يلهم شعراً يستدر العطف والإشفاق .

قال الجاحظ : « ولو أن رجلا من أدمث الناس وأشدهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبة لنفسه ، ثم جلس مع امرأة — وكان لا يُعْرَفُ بحسن الحديث — ثم

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد الحوفى ٩٥ — ١٠٣ .

(٢) العقل الباطن تأليف سادلر ٧٨ .

كان يعشقها لتناتج بينهما من الأحاديث ، ولتلاقح بينهما من المعانى والألفاظ ما كان لا يجرى بين دغفل بن حنظلة وبين بشار بن الحمرة ، وإنما هذا على قدر تمكن الغزل من الرجل » (١) .

قيمته الفنية :

الغزل وليد عاطفة الحب ، وتصوير لنفسية قائله ، فهو إذن يتسم بالصدق الشعورى ، ويمتاز من أبواب الشعر الأخرى كالمدح والوصف والهجاء والفخر ، لأن هذه الأغراض كثيراً ما كانت تنبعث عن ملق أو تَنَفُّج أو ادعاء ، فتحرم صدق الشعور وحرارة العاطفة ، فتجىء متكلفة فاترة ، غير مصورة لنفسية الشاعر. أما الغزل فقلما كان ينبعث عن محاكاة أو تكلف .

والغزل يتسم أيضاً بالصدق الفنى ، أريد القدرة على التعبير الصادق عن العاطفة ، والبراعة فى تصويرها ، حتى لكأن الشاعر يجسمها لقرائه وسامعيه ، فيشاركونه مشاركة وجدانية فى أفراحه وأتراحه ، ويشعر كل منهم أن هذا ليس تعبيراً عن عاطفة الشاعر وحده ، وإنما هو تعبير عن العاطفة الإنسانية الخالدة .

وإن الغزل الموسوم بالصدق الشعورى والصدق الفنى من أسمى أبواب الشعر العربى إن لم يكن أسماها ، وهو لهذا خليق بدراسة مفصلة وتحليل دقيق .

على أنه أيضاً الفن القولى الذى كان صادق التجاوب مع البيئة والعقلية والطبع كما سأفصل فى الفصل الأخير ، وإن شئنا الموازنة بينه وبين الأبواب الأخرى قلنا إنه كان أصدق تصويراً واستمداداً وتأثراً بالبيئة والعقلية والطبع من بقية أبواب الشعر العربى .

هذا إلى أنه سجل خالد ضخم نستشف من صفحاته كثيراً من ألوان الحضارة والأخلاق والعادات ، وسنرى فى الفصول التالية ، أن الشعراء الغزلين وصفوا جمال المرأة جسداً ونفساً ، ووصفوا تجملها من ملابس وحلى وطيب وتزين ، وتحدثوا بأخلاقها ، وسنرى وصف المحبين لمشاعرهم حين رحيل الحبيبة ، ووصفهم

(١) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١٦٥ .

للظعائن والحدوج ، وحديثهم عن الوشاة والعذال ، ووقوفهم بالأطلال الخ . وفى ذلك كله مدد لدراسة أحوال هذا المجتمع العربى تكشف عن حضارة ومدنية من ناحية ، وتكشف عن العواطف الإنسانية الخالدة .

على أن الغزل فن قديم زاوله الشعراء جميعاً ، وجودوه ، وشققوا معانيه ، وسنرى فى دراسة أنواعه وخصائصه كيف قلد بعضهم و كيف ابتكر آخرون ، ونقف على أثر البيئة فى هذا الفن من حيث التصوير والتعبير ومن حيث المعانى .

وشىء آخر يؤكد قيمة هذا الغزل أنه ظل قوياً حياً يؤثر فيما بعده من العصور تصويراً وتعبيراً إلى العصر الحديث .

ولست أبعد حين أستنبط من حب العرب للمرأة وغزلهم فيها أنهم لم يكونوا همجاً ، لأن العربى لم يسلك فى نيل المرأة ما كان يسلكه الإنسان الهمجى من اختطافها ليحوزها ، فلما ارتقى صار لا يخطفها لكن يستميلها ويستهويها ، بل كان العربى يجتذبها إليه بأعماله ، أو بأقواله ، أى بشعره الغزل . وليس أدل على جدوى هذه الوسيلة فى استهواء المرأة من كثرة الغزل العربى فى العصر الجاهلى ، ومن غنى اللغة بكلمات تدل على الحب وآثاره ، وتتصل بكثير من شئون المرأة فى الجمال والتجميل .

وبعد فإن الحب عاطفة شائعة تعمر قلوب كثير من الناس ، ولا تختلف حقيقتها كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، لذا كان تعبير المحب عن عاطفته تعبيراً عن عواطف المحبين أيضاً إذا ما نبع من قلب صادق الشعور وخيال صادق التصوير بارعه ، فنقرأ شعره الغزل فيهزنا ويعجبنا ؛ لأنا نلمس فيه الصدق الشعورى والصدق الفنى ، حتى ليخيل إلينا أنه تصوير لعواطفنا ، ومن هنا كانت قيمة الغزل التى تكفل له الخلود .

صلته بالنفس والعاطفة :

سأفصل القول فى بواعث الحب ، وظروف العرب المواتية له ، وأخلص من مناقشة آراء الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس إلى أن الحب الروحى الصافى المنقى

من جوعات الجسد لا يكون فى حب رجل لامرأة ، وهو الحب الذى ندرس نتاجه أعنى الغزل .

وقد قسم ستندال Standhall الحب إلى أربعة أنواع :

١ — الحب العاطفى أو التأثرى Passion Love ويمتاز بالقوة والعنف وشدة التعلق ، والشوق الحاد الجارف .

٢ — والحب الاستلطافى أو المنبعث عن ميل وشـفقة Sympathy Love وهو ألفة وصداقة أساسهما خفة ظل الصديق وقربه إلى النفس .

٣ — والحب الجسدى أوالشهوانى Sensual Love وهو الاشتهاء الجنسى ، ولا يستحق أن يضاف إلى أنواع الحب ، لأنه ضرب من الإيثار الجنسى لشخص دون غيره .

٤ — والحب الكمالى أو المنبعث عن عجب وخيـلاء Vainy Love وهو ضرب من الترف ، هو ولع بامرأة جميلة ، كما يولع الرجل بالفرس الجميلة لأنهـا قنية كمالية لا بد منها للمترف (١) .

فما نوع الحب العربى من هذه الأنواع؟ أو بعبارة أوضح : ما نوع الحب الذى نستشفه من الغزل العربى ؟ هل اجتمعت هذه الأنواع كلها عند العرب ؟ ثم ما موقفنا من ستندال وهو يقرر أن الحب الحسى لا يصح أن يسمى حباً ؟

أعتقد أن العرب أحبوا حباً عاطفياً ، وحباً جسدياً ، أما الحب الاستلطافى فلا نستطيع أن نطبقه على غزلهم ، لأنه كما يقول ستندال صداقة وألفة فهو إذاً من الهدوء بحيث لا تجيش له عاطفة بشعر ، وإن جاشت فهو عاطفى أو جسدى . وأما الحب العابث كما يسميه فما أحراه أن يكون حسيا ، ثم هو ليس منبعثاً عن عاطفة صادقة حتى يكون من أقسام الحب ، وإذاً فالحب الذى أوحى بالغزل الذى ندرسه إما عاطفى وإما حسى .

وقد حفلت كتب اللغة والأدب بالحب ، فذكرت أسماءه ، ومراتبه ، مما يدل على أن العرب قدروه وخبروه ، فمثلا يذكر الثعالبى أن أول مراتبه الهوى ، ثم

(1) On Love Standhall : Translated by Holland. P. 27.

العلاقة وهى الحب اللازم للقلب ، ثم الكلف وهو شدة الحب ، ثم العشق وهو فرط الحب ... الخ [١] .

ويذكر مثل ذلك داود الأنطاكى [٢] ، وشهاب الدين بن أبى حجلة [٣] ، وغيرهم .

ولكنى كما اخترت كلمة الغزل دون النسيب والتشبيب اخترت كلمة الحب للدلالة على هذه العاطفة فى جميع مراتبها .

والغزل على وثاقة صلته بالحب فيه تهذيب وصقل لعواطف المحبين الآخرين ، بل إن الشعراء الغزلين أنفسهم قد تخرجوا فى مدرسة الحب ، وتعلموا كثيراً من سابقيهم كما يقول هكسلى huxley وهو يبسط رأيه هذا فى عرض شائق أخاذ إذ يقول : « ترى لو لم يكن الأدب فكم يكون عدد المحبين ؟ أؤكد أنه سيكون أقل من القليل » .

ويستدل بدراسة العالم الألمانى زوخرمان للغريزة الجنسية عند حيوان ذكى هو القرد ، وحيوان غير ذكى هو الفأر ، على أن الحيوان الذكى لا تهديه الغريزة وحدها ، ولكن الحيوان غير الذكى يهتدى بها وحدها ، ويقول : وهذا هو حكم الغريزة والذكاء ، فكلما ازداد ذكاؤك عميت غريزتك ، والقرد ذكى ، ولذلك فإن غريزته لا تهديه إلا إلى القليل ، أما الفأر فينقصه الذكاء ، ولذا فإنه يهتدى بغريزته . ترى إذا كان هذا هو حال القرود فى أمر طبيعى يجرى فى دمها ، فما أكثر التعقيد إذاً فى النفس البشرية فى الرجال والنساء عند الإحساس بالحب والتعبير عنه ، إن معلمنا الأول هو الأدب ، وحتى أولئك المحبون الذين اشتهروا بغزارة العاطفة وتدفق المشاعر قد تخرجوا فى تلك المدرسة .

إن الفرق بين كبار العشاق — بين كليوباترة فى زينتها وامرأة الشارع فى تواضعها — هو الفرق بين الجاهل والمتعلم ، بين الذى قرأ والذى لم يقرأ ، إنه

---

(١) فقه اللغة للثعالبى ١١٦ .

(٢) تزيين الأسواق ١٥ — ١٧ .

(٣) ديوان الصبابة ٢٣ — ٣٠ .

الفرق بين الذين استجابوا من أعماقهم للعشق فى مدرسة الأدب والذين فترت استجابتهم ، كما يحدث بين التلاميذ فى الفصل الواحد .

وقد أوضح كيتس أن الكثرة الغالبة من الطائفة الثانية ، على أنه يجب أن نتذكر أن قيساً وليلى ، وأنطونى وكليوباترة موجودون بيننا بكثرة لا تخطر على بالنا ، ذلك أنه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم ، وكل وسائله فى هذا أن يحدس ويستنتج من تصرفاتهم وكلامهم ، ولكن ألفاظهم فى الأكثر الأعم لا تسترعى الانتباه ؛ لأن التعبير الرائع موهبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس — فليس ضعف التعبير دليلا على ضعف الشعور — بل من المؤكد أن عدد المعبرين فى جمال فنى أقل بكثير جداً من عدد المحبين(١) .

وبذلك يشترك الغزل مع الفنون الجميلة ، لأنها كلها تنبع من العاطفة ، وتترجم عن خلجات الفنان ، فالمحب يترجم عن عاطفته بغناء أو شعر أو موسيقى أو رسم أو نحت ، ولكن العربى كان يصور حبه فى الفن الجميل الذى يعرفه ، كان يصوره بكلمات ، ويتغنى أحياناً بهذه الكلمات ، ولكنها كلمات ذات ألوان وظلال وجرس وموسيقى .

سلطان الغزل :

وإذا كان الحب قد نبت وامتدت جذوره وبسقت أغصانه فى هذه البيئة المجدبة كأنما يعوضهم خصباً فى القلوب والأرواح قد حرمته أرضهم ، فإن شعراء الغزل قد كثروا جدا ، حتى لنجد فيهم أمراء أبناء ملوك كامرئ القيس ، وحكماء مجربين كزهير ، وأبطالا صناديد مثل عنترة وعمرو بن معد يكرب ، أو مجاناً مثل الأعشى ، أو صعاليك مثل عروة بن الورد .

وكان الناس يحتفون بسماع الغزل ، ويحرصون على روايته ، وتهش له نفوسهم . روى عن السيدة عائشة : « أهدينا يتيمة من الأنصار ، فلما رجعنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما قلتم ؟ قلنا : سلمنا وانصرفنا ، قال : إن الأنصار قوم

(1) Texsts and Pretexts. Aldous Huxley P. 137 — 139

يعجبهم الغزل ، ألا قلت ياعائشة : أتينا كم أتينا كم ، فحيونا نحييكم[١] .

وكان المحب لا يدع الغزل وإن أنزل به ما يكره ، لأنه غير مختار فى تنفيسه عن نفسه ، ينفجر إذا كتمَ حبه أو بثه . علم الإصبع بن محصن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب ، فآلى يميناً ليقتلنه إن تعرض لها أو زارهـا ، وليأسرنه ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه إن ذكرها فى شعر ، ولـكن مالـكا لم يطق أن يحبس غزله ، فعرض نفسه للأسر وحلق الرأس ، ورأى ذلك أهون عليه من أن يُحرم رؤيتها أو يدع الغزل فيها ، قال من قصيدة :

فما الحلق بعد الأسر شَرٌّ بقيةً ... من الصد والهجران وهى قريب
أحقاً عباد الله أن لست خارجاً ... ولا والجـــاً إلا علىَّ رقيب
ولا زائراً وحدى ولا فى جماعة ... من النـاس إلا قيل أنت مُريب
وهل ريبة فى أن تَحِنَّ نَجِيبةٌ ... إلى إلْـفها أو أن يحن نجيب[٢]

وأنذر عمر بن الخطاب الشعراء بأنه يجلد من يشبب بامرأة ، فلم يستطع حُميدٌ ابن ثور أن يدع الغزل ، وقال قصيدة منها :

نأتْ أم عمرو فالفؤاد مَشوقُ ... يحن إليها والهـــاً ويَتُـوقُ
أقول لعبـــد الله بينى وبينه ... لكِ الخيرُ خبِّرنى فأنت صديق
ترانى إن علَّلتُ نفسى بِسَرْحةٍ ... من السرح موجودٌ علىَّ طريق ؟
أبى الله إلا أن سَرْحَةَ مالك ... على كل أفنان العضـاهِ تروق
سقى السرحة المِحْلال والأبْرقَ الذى ... به السرح غيث دائم وبُرُوق[٣]

فذكر أم عمرو ، ثم كنى عنها بالسرحة ، ولـكنه فى ذلك غير مستور الغرض ولا بنجوة من عقاب عمر . على أن الجلد الذى هـدد به عمر ، والأسر والحلق فى تهديد الإصبع بن محصن ليست شيئاً إذا قيست بعقوبة أخرى أشد بالمحب نكالا ، ولـكنه كان ينزل هذه العقوبة بنفسه ، لأنه غير مختار فيما يعمل ، كان يتغزل فيمن أحبها ، وهو يعلم صرامة العقاب المعدِّ له ، ولـكنه يتغزل ليتخفف من الحب الذى

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/١٥٥ . (٢) الأغاني ١٩/٨٣ .
(٣) الأغانى ٤/٣٥٦ ومعجم البلدان ٥/٦٥ .

يحمله ، تغزل لِيُسرٍ إلى صديقه ، أو ليناجى ليلاه ، وليس على ثقة من أن غزله يشيع ، ولكنه لا بد أن يشيع ، وأنَّى لضوء الشمس أن يحجب ؟ ولشذى الروضة أن يحبس ؟ يشيع غزله ويشتهر حبه فيرفض آل المحبوبة أن يزوجوه ، لأن العرب « كانت لا تنكح الرجل امرأة شبب بها قبل خطبته [١] » ، وقد جروا على هذا فى جاهليتهم وصدر الإسلام [٢] .

وهم فى منعهم مدفوعون بغيرتهم على النساء [٣] ، وحسبهم من الثأر لشرفهم والقصاص من الشاعر أنهم حرموه ما أمَّل ، يدل على ذلك قول أبى ليلى وهو يعزى فى قيس : « ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكنى كنت امرأً عربياً أخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلى ، فزوجتها وخرجت من يدى ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان علىَّ فى ذلك [٤] » .

لهذا حُرِم عنترة زواج عبلة ، لأنه صرح بحبها وتغزل فيها [٥] .

على أن بعض العرب كانوا لا يحولون بين شاعر تغزل وبين حبيبته التى خطبها ، يدلنا على ذلك أن دريد بن الصمة رأى تماضر بنت عمرو — الخنساء — تهنأ ذَوْداً لها جربى ، فأحبها وقال :

حيوا تماضر واربعوا صحبى ... وقفوا فإن وقوفكم حسبى
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طالِىَ أينُقٍ جُربِ
متبذلا تبدو محاسنه ... يضع الهناءَ مواضع النُقْب
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... واعتاده داء من الحب [٦]

وخطبها إلى أبيها وقيل إلى أخيها معاوية وكان صديقه فرحب به ، ثم استشارها فرفضته لأنه شيخ كبير ، ولم يرفضه أبوها أو أخوها ، ولم ترفضه هى لأنه تغزل فيها قبل أن يخطبها .

---

(١) الأغانى ٢٠ / ١٨١ . (٢) تزيين الأسواق ١٢٢ .
(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد الحوفى ٢٧٣ — ٢٧٥ .
(٤) الأغانى ٢/ ٩٠ . (٥) بلوغ الأرب للألوسى ١ /١٤٢ .
(٦) الأمالى ٢ / ١٦١ .

بل حملهم الغزل على أن تغزل بعضهم فى زوجته ، وهو وإن خالف المتعارف المألوف بعيد عن العقاب ، وما حيلته إذا كان يحب زوجته حباً حاداً كما يحب حبيبته ؟

تغزل زهير بن أبى سلمى فى زوجته أم أوفى [١] ، وبدأ معلقته بالغزل فيها :

أمن أمِّ أوفى دِمْنةٌ لم تكلم بحومانة الدُّرَّاج فالمتثَلَّم

وتغزل امرؤ القيس فى زوجته أم جندب :

خليليَّ مرا بى على أم جُندُب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تُنظِرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيَّب
عقيلة أتراب لها ، لا دميمةٌ ولاذات خَلْقٍ إن تأملت جانب [٢]

وتغزل حسان بن ثابت بالشعثاء زوجته [٣] .

ومثل ذلك حدث فيما بعد فى العصر الأموى من الحارث بن خالد المخزومى ، إذ شبب بزوجته أم عمران [٤] .

---

(١) الأغاني ٩/١٥٠ . (٢) ديوان امرئ القيس ٣١ جانب : ضخم قصير .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/١٢٠ (٤) الأغانى ٣/٣٣٠.

الفصل الثانى

جمال المرأة فى نظر الشاعر

تمهيد

مظاهر الجمال :

فى الكون أفانين من الجمال تُنَضِّره ، تتجلى فى السماء الصافية ونجومها المتلألئة ، وفى منظر الشروق والغروب ، وفى البحر الساجى ، والجدول الرقراق ، والمروج الخضر ، والحدائق النضر ، وتتجلى فى الإنسان والحيوان ، وفى حلو النغمات والألحان ، وفى الرائع البارع من فن القول ، والعبقرى الممتع من الصور والتماثيل وغيرها .

فى الطبيعة جمال ، وفى الإنسان جمال ، وفى إنتاج الإنسان نفسه جمال . وهذا الجمال قد يكون فى الشكل ، وقد يكون فى اللون أو الصوت أو المعنى .

ولع الإنسان به :

« والإنسان بطبعه يدرك الجمال بصورة ما ، ولعل جميع بنى الإنسان لهم هذه المقدرة ، فإنا نرى الإعجاب بالروائع على اختلاف نوعها ومبعثها تبدو علاماته فى مظاهر الناس وانفعالاتهم ومباهج حياتهم ، وما من إنسان إلا له نوع من الجمال يُطْرِبه ويوقظ إعجابه ، لأنه قد خلق مزودا بعوامل الاستجابة لما هو منسجم متناسق ، والاندماج فيما يساير حسن التقسيم الذى أبدعه الله على غراره ، وجمال التكوين الذى أفاضه عليه ، وفيه عاطفة كالأوتار الحساسة تهتز لما يحفزها مما يموج فى عالم النفس ويسبح فى ميدان الحس ، وفيه ميل ونفور : ميل إلى الرائق الصافى ، ونفور من الجهم المضطرب ، وفيه حب لما يبعث الرضا والاطمئنان ،

وبغض لما يجلب الاشمئزاز والاضطراب . فى الإنسان كل ذلك ، وفيه أيضاً بواعث تحمله على التفكير فيما حوله مما يطرق سمعه ، ويقع عليه بصره ، ويجتذب انتباهه . ومن الواضح أن هذا يصل به إلى أن يفكر فى مظاهر الجمال فى شتى ألوانه ، على قدر ماله من استعداد نفسى وثقافى[1] » .

حقيقة الجمال :

هل يكون الجمال صفة فى الشىء نفسه ؟ أو هو شعور خارجى ينبع من المدرك ؟ أتتصف الروضة والقصيدة واللحن والمرأة بالجمال لأن فيها خصائص جعلتها جميلة حقا ؟ أم تتصف بالجمال لأن المدرك لها أحس هذا الإحساس نحوها فوصفها بأنها جميلة ؟

للباحثين مذاهب فى هذا .

(ا) « منهم من يرى أن سر الجمال وفلسفته الفنية إنما ترجع إلى روعة الشىء نفسه ، وهذا يستدعى وضع القوانين المرتبطة بقيم الأشياء والحكم عليها على أساس خصائصها الخارجية . فماذا عسى أن تكون هذه الخصائص ؟ أهى فى اللون ، أم فى الشكل الهندسى ، أم فى التناسب والتناسق ، أم فى وحدة التجانس أم فى النسب الرياضية بين الأجزاء ، أم فى شىء آخر تخفى علينا معالمه وحدوده ؟

(ب) ومنهم من يرى أن الجمال إنما ينبع من النفس ، ويرجع إلى الظروف النفسية التى تحيط بالإنسان ، وينكرون أن تكون هناك أحوال فنية موضوعية مستقلة عن رد الفعل من جانبنا ، وذلك لأن الأشياء التى تظهر جميلة فى رأى بعض الناس قد تظهر كئيبة فى نظر آخرين ، والجميل فى حال طفولتنا ليس من الضرورى أن يكون جميلا فى نظرنا حين نكبر ، وكذلك فى حالة الشعوب المختلفة فإنها تتفاوت فى موازين الجمال ومعاييره ، وأصحاب هذا الرأى لا يقولون إن الشىء جميل ، بل يقولون إنه من بعض نواحيه يثير فينا تجارب لها قيمة فى نظرنا ، لأنها تلائم حالنا وما نتطلب . والجمال بناء على هذا لا ينبع من الحقائق الخارجية بل ينبع

(١) الأصول الفنية للأدب ٩ عبد الحميد حسن .

من داخل نفوسنا ومن تجاربنا التى يحددها موقفنا إزاء الأشياء ، ووجهة نظرنا إليها ، وهو إذن فى الأثر النفسى الذى تحدثه فينا الأشياء ، وفى النشاط الروحى وما يتصل به من تجارب فى هذه الناحية[١] » .

والحق إن الإحساس بالجمال أمر يتوقف فى معظم الأحوال على طبيعة الشخص أكثر مما يتوقف على طبيعة الشىء ، ويضرب جاريت على ذلك مثالا فى قوله : والآن لنأخذ صورة مألوفة جد ، صورة العذراء وطفلها ، فنجد أن من الواضح جدا أن تأثير هذه الصورة فى المسيحيين يختلف عن تأثيرها فى المسلمين أو البوذيين ، ولا أحسب كذلك أن المشاعر التى تثيرها صورة العذراء فى الرجل هى نفس ما تثيره فى المرأة ، أو أن تأثيرها فى المرأة الأم يساوى تأثيرها فيمن ليست أما ، كما أن الضوء والتلوين فى الصورة لا يحدثان نفس الأثر فى ساكن العروض العليا الذى تعود ضوءاً وألواناً معينة ، وساكن العروض الاستوائية الذى تعود ضوءاً وألواناً أخرى .

وكذلك يختلف تأثير أشكال الأشخاص وأحجامهم فى سكان بلد كل أهله طوال نحاف عنه فى سكان بلد آخر كلهم قصار سمان ، وبذا يختلف تأثير الصور دائما فى الرجل الأبيض عنه فى الأسود ، وتبدو تماثيل الأجسام العارية التى رسمها تتنان وربنس ورنوار سمينة سمناً معيباً فى نظر المتشبعين بالذوق الإغريقى البحت[٢] .

(حـ) ويرى فريق ثالث أن الجمال صفة فى الأشياء ، ولكنه راجع إلى ما بينها وبين نفسية المدرك من تجاوب وتفاعل ، وإذن فإن مجال البحث عن الجمال هو فى الصلة بين العقل والشىء الجميل . « فليس الجمال نابعاً من الشىء وحده ، ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما ينبع من هاتين الناحيتين ومما بينهما من تجاوب .

وإذن فالجمال من الناحية الذاتية هو ما ينسجم مع الإحساس بالكمال العقلى ، ومن الناحية الموضوعية هو ما يتجلى فيه التناسق والتوازن[٣] » .

نعم ، إن الجمال يتطلب أن تكون فى الأشياء مزايا تكسبها جمالا ، ويتطلب

---

(١) الأصول الفنية للأدب ١٤ — ١٥ عبد الحميد حسن .

(٢) فلسفة الجمال ٢٢ — ١٢٤ . ف . جاريت ترجمة عبد الحميد يونس وزميليه .

(٣) الأصول الفنية للأدب ١٥ عبد الحميد حسن .

أيضاً استجابة من المدرك تشعره بهذا الجمال ، ومثل ذلك كالحلوى فيها صفة الحلاوة ولكن الإحساس بهذه الحلاوة متوقف إلى حد كبير على تذوق الشخص نفسه .

« ولماذا نظن أن إحساسنا الخاص — وهو أمر يرتبط بعقولنا — أقل شأنا أو قيمة أو صدقا من صفات الجمال[1] ؟ » .

وإذاً فالجمال الذى نصف به ما نحب هو فى الحقيقة إحساس ذهنى ، لأن هذه الأشياء التى نحبها ونصفها بالجمال قديرة على أن تبتعث فينا هذا الإحساس .

« ولا مراء أن ثمة أشياء طبيعية — بنوع خاص — خليقة بإثارة مثل هذه الإحساسات فى كل الجنس البشرى أو جله ، وإن كان هذا النوع المعين من الجمال الذى نراه عاطفة معينة أو زهرة معينة أو ضوءاً معيناً يختلف بين الناس بل يختلف عند الشخص الواحد فى أوقات مختلفة[2] » .

إدراك العرب للجمال :

وقد أدرك العرب الجمال ، وتذوقوه ، أدركوه فى الطبيعة ، وأدركوه فى المرأة وأدركوه فى فن القول « وكان العربى شاعر طبيعة ، يتأمل فيها ، ويبثها آلامه ، وينسى عندها أحزانه ، ويحبها و يُفتَن بها ، ويصورها كما امتثلتها نفسه . تثير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ، ورمالها ، وآلها ، وآبارها ، وواحاتها ، ونجومها ، وبرقها ومطرها . فالشاعر الجاهلى إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدوياً أو راعياً ، كما صنع شعراء العصور الوسطى والقديمة الأوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية وتحرر من قيود الماضى فإنه صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بَعْدُ فى بيئة مشابهة .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة[3] » .

(١) فلسفة الجمال . جاريت ٨٩ .

(٢) فلسفة الجمال . جاريت ٩٢ .

(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٢ سيد نوفل .

وأدرك العرب الجمال فى فن القول ، فاحتفوا بالشعر ، وطربوا له ، ورفعوا شعراءهم مكاناً علياً .

وأدركوا جمال المرأة الجسدى والنفسى فأحبوها وافتنّوا فى وصف جمالها ، كما سنرى .

أولا : جمال المرأة الجسدى

التجاوب بينهم وبين جمال المرأة :

أدرك العرب جمال الجسد بحواسهم كلها علياً ودنيا ، وعلماء النفس يقسمون الإدراكات الحسية إلى هذين القسمين ، ويريدون بالعليا ، الإبصار والسمع ، وبالدنيا اللمس والذوق والشم ، وإنما اعتبروا الإبصار والسمع من الإدراكات العليا لأسباب ، منها أنهما الوسيلتان لإدراك الجمال . فالعين تبصر الصور الجميلة والتماثيل الأنيقة ، والمناظر الرائعة ، والأذن تدرك النغمات الموسيقية والأغانى الحلوة ، والأصوات المنسجمة ، وليس بخاف ما لهذه وتلك من الآثار فى غذاء الروح وترقية الشعور وتهذيب العواطف(١) .

وسنرى فى وصفهم للجمال أن إدراكهم البصرى غلاب ، وهذا طبيعى لأن العين هى الطريق الرئيس للانفعالات العاطفية ، فالقوام والمشية والحركة والإشارة والملابس والرشاقة والسمنة إلخ كلها من مقاييس الجمال والجاذبية ، والعين مصدر الحكم عليها ، « ويعتبر بعض علماء النفس أن العين إحدى المناطق الشهوية فى الإنسان ، وعن طريق العين يقدر الإنسان قيمة الشخص الجنسية بطريقة لا شعورية(٢) » .

وكانت المرأة العربية جميلة كما سأبين ، فهى من هذه الوجهة ينطبق عليها المذهب الموضوعى Obiective وهو قائم على أن منشأ الجمال الاتساق والانسجام فى الألوان والأشكال والأساليب والنغمات ، سواء أكان هذا الانسجام طبيعياً أم

---

(١) فى علم النفس الابراشى وحامد عبد القادر ٢/١٠٠

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ٦٣ الدكتور موريس الديك .

صناعياً ، فهو صفة خارجية تتحقق فى عالم المادة أو المعنى[١] . كما ينطبق على الرجال الذين أدركوا جمالها وأعجبوا به المذهب الذاتى أو المذهب النفسى الشخصى Subiective الذى يرجع الجمال إلى حالة شعورية تحدث للانسان عند اتصال عقله بالشيء الذى يعده جميلا .

والشعراء والمحبون عامة خير من يدرك هذا الجمال الجسدى ، ويدرك الجمال النفسى ، لأن « الجمال لا ينبع من الأشياء وحدها ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما هو فى هاتين الناحيتين وفيما بينهما من تجاوب[٢] »

وبذا توافر الجمال فى المرأة ، وتوافر إدراكه وتذوقه فى الرجل ، وحدث تجاوب بين إدراك الرجل وجمال المرأة ، فنتج عنهما الحب من ناحية ، والغزل من ناحية ، وبعض هذا الغزل تصوير لمحاسن المرأة الجسدية والمعنوية كما سيتضح من دراسته .

هل زين الشاعر جمال المرأة بخياله ؟

ولقد يقال إن هذا الجمال الذى سأفصل القول فيه لم يكن واقعياً كله ، فإن الشعراء زينوه ووشوه ، ووصفوا الحبيبات بما ليس فيهن ، وأنا لا أدفع هذا كله ، ولا أقبله كله ، لأن هذه الصورة العامة للجمال ليست مستقاة من شاعر واحد ، بل هى مستقاة من الشعراء جميعاً ، فهى تمثل الذوق العربى أدق تمثيل ، وعلى فرض أن فى بعضها تهويلا فإن هذا التهويل لا يبعدنا عن النموذج الذى يحبه العرب ، « وخلاصة رأى شوبنهور فى معنى الجمال الفنى أن مهمة الفن هي فصل الشكل (القالب) عن المادة لا أن يحكى لنا الشكل والمادة معا حكاية صحيحة محكمة ، لأن الفن موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة ، لا بالكائنات التى توجد فى الحياة مرة واحدة ثم تمضى ، فالذى يعنى الفنان من الجميل أنه قالب يصلح أن يكون نموذجاً عاماً لأفراد كثيرين أو للنوع كله[٣] » .

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى حامد عبد القادر ١٠٣ .
(٢) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ١٦ .
(٣) مراجعات فى الأدب والفنون . العقاد ٧٣ .

فليس غرض الفنان أن يحاكى الواقع محاكاة لا تصرف فيها ، فينقل صورة من الطبيعة أو من المرأة خلواً من عاطفته وخياله ، ولكنه يحاكى الطبيعة ويستمد منها ويضيف إليها ، هو كالرسام الذى يستوحى من الطبيعة منظراً ويشكله بألوانه ودهانه تشكيلا ينم على عبقريته .

والشاعر الذى يصف المرأة على حالها بغير أن يضفى على وصفه من خياله وعاطفته مثله مثل المصور الذى يلقط بالمصورة مناظر ، وشتان بين المصور اللاقط والمصور الرسام فى ميزان النقد والفن . يقول بندتو كروتشه :

« إن الأشياء الجميلة لا تؤثر تأثيرها إلا إذا أمكن أن تدرك بروح الفنان الذى أضفى عليها قيمتها ، وحدد جانب الجمال فيها ، والطبيعة خرساء ما لم ينطقها الإنسان[1] » .

مقومات جمال المرأة :

تلتقى نظرة الشعراء إلى الجمال الجسدى عند معنى واحد : هو التناسب والتناسق والانسجام . وهذا ذوق الفطر السليمة التى لم يفسدها الترف ، ولم تطغ عليها بدع الحضارة .

فقد استحسنوا من المرأة الوضاحة والصباحة والهيَف والرشاقة والخفرَ ، وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الرِّدْفين بارزة النهدين إلخ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن الفطرة كما يقرر علم جمال الأعضاء « وهم فى ذلك أصح أذواقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل فى استواء الأعضاء .

فما يعيب المرأة عضوياً — أو فزيولوجيا — أن تكون رَسْحاء ضئيلة الردفين ، فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها ، وأن يمتلىء فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة فى تكوين الجسم لا يوافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق فى المرأة ، لأن

---

(١) المجمل فى فلسفة الفن . كروتشة ٦٣ . ترجمة سامى الدوربى .

ضخامة المدة قد تؤذى الجنين وتضغط عليه في الرحم ، وتشير إلى التزيد من الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة فى جسم الإنسان .

فالذوق العربى في دقة الخصور وبروز الأرداف ذوق محمود يزكيه حب التنسيق كما يزكيه تكوين وظائف الأعضاء[١] » .

ومما يدل على نظرتهم الصائبة إلى جمال الجسد قول أعرابى لابن عمه :

« اطلب لى امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء ، جعدة ، تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة منكبيها ، وحلمتى ثديها ، ورانفتى أليتيها ، ورضاف ركبتيها ، إذا استلقت فرميت تحتها بالأترجة العظيمة نفذت من الجانب الآخر» ، فقال له ابن عمه : « وأنى بمثل هذه إلا فى الجنان » ؟

ويشبه هذا قول أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض فلقى امرأة معها ولدان لها يلعبان تحت خصرها برمانتين ، فطلقنى ونكحها[٢] » وسئل أعرابى عن النساء — وكان ذاهم بهن — فقال : أفضل النساء أطولهن إذا قامت وأعظمهن إذا قعدت[٣] .

والجميلة فى نظر أعرابى آخر هى التى « عذبت ثناياها ، وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، ونعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها ، فتلك هم النفس ومناها »[٤] .

وما من شك فى أنهم أدركوا جمال المرأة إدراكاً كلياً . وسأفصل القول فى جمالها عامة ، وفى جمالها تفصيلا . ولست أعنى أن الشاعر أدرك كل جزء على حدة ، ثم ضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض ليرى أهى جميلة أم لا ؟ لست أعنى ذلك لأن الجمال يدرك دفعة واحدة على أنه كلٌّ ، « فعندما نستمع إلى لحن موسيقى لا نستطيع أن نتريث حتى ندرس العلاقات بين كل صوت والذى بعده ، ومع ذلك

---

(١) شاعر الغزل : عباس العقاد ٩٤ .

(٢) عيون الأخبار ٤/٥—٦ فرعاء : ذات هيئة حسنة . جعدة : محكمة الخلقة . المشاشة : رءوس العظام . الرانفتان : أسفل الألية . الرضاف : الجلد الذى على الركبة . الأترجة : ثمر كالليمون .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ٣ .

(٤) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٦٣ .

فهذه العلاقات نفسها هى التى تخلق اللحن وتخلق جماله ، فنحن نفقه العلاقات فى طريقة لاشعورية أو ضمنية . فالإدراك الجمالى قائم على انتباهنا إلى النموذج العام نمسك به فى ومضة واحدة ، وإن كانت الأجزاء ملموحة فى الذهن (١) .

الجمال الجسدى عامة فى نظر الرجل

المرأة الجميلة فى نظر امرئ القيس خفيفة اللحم ليست رَهْلة ولا ضخمة البطن مسترخيته ، وصدرها صقيل كأنه المرآة ، وإذا ما أعرضت أو نظرت بدا خدها الأسيل الذى لا كزة فيه ، وسحرت بعينيها التى تشبه عين غزالة ترأم جآذرها وتحنو عليها وتميل بعنقها ميلاً لطيفاً ، وجيدها طويل ملتف كجيد الظبى الخالص البياض ، ليس به قبح حين ترفعه ، وليس عاطلا من الحلى ، ويزين ظهرها شعر أسود شديد السواد كثيف طويل كعذق النخلة المتراكب المتدلى ، وله ذوائب مجدولات مرتفعات تضلُّ المُشطُ فيما تثنى منها وتجعد ، وفيما أرسل ولم يتجعد . وخصرها صغير لطيف كأنه سير مجدول مستدير لين ، وساقها كعود البردى الريان بياضاً ولدونة واستدارة .

وهى مترفة منعمة ، وتتناول ما تريد ببنان لطيف منسرح غير كز ولا غليظ يشبه نوعاً من الدود يعيش فى الكثيب ، ويشبه أيضاً الأغصان الدقيقة من شجر الإسحل ، ولونها أبيض يشبه أول بيضة للنعامة التى شربت من ماء نمير لم تكدره السابلة ، ووجهها مشرق حتى ليضيء الظلمة ، فكأنه سراج راهب منقطع للعبادة فى الصحراء .

وهى فتانة ، لا يستطيع الحليم الرزين أن يصرف نظره عنها ، ولا يستطيع الا يعشقها إذا ما رآها تخطر أمامه فى درعها ومِجْولها :

إذا قلت هاتى نوِّلينى تمايلت ... على هضيم الكَشْح ريَّا المُخَلْخَلِ
مُهفهفةٌ بيضاء غيرُ مُفاضَةٍ ... ترائبها مصقولةٌ كالسَّجنجل

(١) كيف يعمل العقل ٢/٢٤٧ — ٢٤٨ .

تَصُدُّ وتُبْدِى عن أسيلٍ وتتقى بناظرة من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وجيدٍ كجيد الرِّئْم ليس بفاحش إذا هى نَصَّتْـه ولا بمعطَّل
وفرعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنو النخلة المتعَثْـكِل
غدائره مُسْتَشْزِراتٌ إلى العـلا تَضِلُّ المدارَى فى مُثَنًّى ومُرْسَل
وكشحٍ لطيفٍ كالجَديل مُخَصَّرٍ وساقٍ كأُنْبوب السَّقِيِّ المذَلَّل
وتُضْحِى فتيتُ المسك فوق فراشها نئومَ الضُّحا لم تَنْتطق عن تَفَضُّل
وتعطو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه أساريعُ ظبى أو مساويك إسْحِل
كبِـكْرِ المقاناةِ البياضَ بصُفرة غذاها نَمِـير المـاء غيرُ المحلَّل
تضىء الظـلامَ بالعِشاء كأنها منَارَةُ مُمسَى راهبٍ مُتَبَتِّـل
إلى مثلهـــا يرنو الحـــليم صَبابة
إذا ما اسْبكَرَّتْ بين دِرْعٍ ومِجْـــول (١)

وهذه أوصافٌ لجسدٍ جميل متناسق حقاً . فهى طويلة ممشوقة وذلك يتطلب أن يكون خدها أسيلا ، وصدرها صقيلا ، وشعرها طويلا . وهى ذات خصر نحيل كالجديل ، وذلك يتناسب مع الساق الملتفة المنسرحة ، ومع الأصابع الطوال الملتفة ، وبياض لونها يتسق معه سواد شعرها وسواد عينيها .

وقد صورها قيس بن الخطيم تصويراً آخر لا يجافى ذوق امرئ القيس :

رَدَّ الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ما ذا عليهم لو أنهم وقفـوا ؟
فيهم لَعُوبُ العِشاء آنسة الد ل عَرُوبٌ يســوءها الخُلُفُ
بين شُـكول النسـاء خِلقَتُهَا قَصْـدٌ فـلا جَبْلة ولا قَضَف
تَغْتَرِقُ الطرف وهى لاهيـةٌ كأنمـا شَفَّ وجهَهـا نُزُف
قضى الله حـين صـور الـ خالقُ ألا يُكِنَّها سَـدَف

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .

تنام عن كُبْر شأنها فإذا ... قامت رُوَيداً تكاد تَنْغرف
حوراء جيداء يستضاء بها ... كأنها خُوط بانَةٍ قَصِف
تمشى كمشْىِ الزهراء فى دَمِث الر ... مل إلى السهل دونه الْجُرُفُ
كأن لبَّاتِها تضمَّنها ... هَزْلَى جرادٍ أجْوازُه خُلُف
كأنها درة أحاط بها الـ ... غوَّاصُ يجلو عن وجهها صَدَف[1]

فهى وسط بين الهزال والضخامة ، ذات نظر آسر ، مخدومة منعمة ممتلئة العجيزة ، سوداء العين ، طويلة العنق ، مشرقة الوجه ، لدنة كأنها خوط بانة ، قطوف المشى كأنها مهاة تمشى فى رمل لين تغوص فيه أخفافها متجهة إلى سهل ملآن بالحفر ، ونحرها مستو مصقول كأنه أواسط الجراد ، وجهها مشرق كالدرة التى نزع عنها صدفها .

وقد حفل كعب بن زهير بنموذج للجمال لا ينافى هذا ، بل يوافقه فى بعض صفات ، ويزيد عليه بعضاً ، حفل بغُنَّة صوتها ، وكحل عينيها ، ووصف هيف خصرها وامتلاء عجزها ، وقال إنها وسط بين الطول والقصر ، ثم وصف ريقها وشبهه بالخمر الممزوجة بالماء ، ووصف هذا الماء بالبرودة والصفاء :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغَنُّ غَضِيضُ الطرف مكحول
هيفاءِ مقبلةً عجزاء مدبرةً ... لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظَلْمٍ إذا ابتسمت ... كأنه مَنْهَل بالراح مَعْلول
شُجَّتْ بذى شَبِمٍ من ماء مَحْنِيةٍ ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمول
تَنْفى الرياحُ القذى عنه وأفرطه ... من صَوْب ساريةٍ بيضٌ يعاليل[2]

(١) الأصمعيات ١/٤٥ ، الأغانى ٣/٢٢ . جبلة : غليظة . قضف : نحافة. تنغرف : تنقطف من دقة خصرها . قصف : لين ، الزهراء : البقرة الوحشية . دمث : لين. جرف : ج جرف وهو ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض . خلف : جمع خليف وهو السهم الحديد الطرير . أجوازه : أواسطه . يجلو : يعلو . (٢) جمهرة أشعار العرب . القرشى ٣٠٨ محنية : منعرج الوادى . أفرطه : ملأه .يعاليل : ج يعلول وهو الغدير الأبيض .

وهذه النماذج تتفق مع نموذج طرفة ، فحبيبته تسارق النظر بعينين كعينى المها فى سعتهما وشدة سوادهما وبياضهما ، ولها خد أسيل كخد الغزال الصغير ، وخصر يشبه فى استوائه وطياته خصر المهاة المطفل التى تنفرد بوحيدها وتحنو عليه وتميل ، وهذا أبين لحسنها من أن تكون فى قطيع ، وهذه المهاة تنتقل بين الأفنان ترعى زهرها ، وتورق ورقها ، وتجنى من أطرافها الغضة ، فهى فى مرعى وخصب حسن ، تجتزئ به عن شرب الماء ، وذلك أهضم لكشحها وأتم لحسنها . ويتدلى على ظهر المحبوبة شعر منسدل طويل ملتف غزير ، وهى رقيقة جداً حتى لتحسب أنها تحتمل مشقة حين ترفع عينيها لتنظر . ثم وصفها بالبدانة ، ووصف أسنانها بأنها رقاق بيض كالأقاحى ، ووصف ريقها بالكثرة حتى لا تتغير رائحته ، وشبهه فى طيبه وبرده بالماء البارد الممزوج برضاب المسك هبت عليه ريح من الشمال وهو فى مسيله فسكن واستقر ، وذلك أدعى لصفائه وبرودته ، ثم عاد إلى وصف عجزها فقال إنها تقوم من مكانها فتشبه رملا ينهال من كثيب ، وهى لذلك تدفئ الضجيع شتاء وتبرده صيفاً ، وهو غير ملوم فى حبها ، لأنها من نسوة جميلات منفعمات مخدومات قليلات الأولاد ، لا يرضعن ، وذلك أصلح للاستمتاع بهن ، يتأودن كسحائب رقاق ، أو كنبات صغير لين اسمه المسلوج ، شديد الخضرة والتثنى :

تخلس الطرف بعينى برْغزٍ ... وبخدَّىْ رشأٍ آدمَ غِرّ
ولها كَشحا مهاةٍ مُطْفِلٍ ... تقْتَرِى بالرمل أفنان الزَّهَر
وعلى المَتْنَيْنِ منها واردٌ ... حَسَنُ النَّبْت أثيثٌ مُسْبَكِرّ
تحْسب الطرف عليها نجدةً ... يا لَقَوْمِى للشباب المُسْبَكِرّ
بادنٌ تجلو إذا ما ابتسَمَتْ ... عن شَتيت كأقاحِى الرمل غُرّ
بدَّلَتْهُ الشمسُ من منبته ... بَرَداً أبيض مصقول الأُشُر
وإذا تضحك تبدى حَبَباً ... كرُضاب المسك بالماء الخصِر
صادفته حَرْجَفٌ فى تَلْعَةٍ ... فَسَجا وَسْط بَلاَطٍ مُسْبَطِرّ
وإذا قامت تداعَى قاصفٌ ... مال من أعلى كثيب مُنْقَعِرْ

تطـرد القُرَّ بِحَرٍّ صـادق ... وعكيكَ القيظ إن جاء بقُرّ
لا تلمنى إنهـا مِن نسـوة ... رُقَّدِ الصيف مقـاليتَ نُزُر
كنبات المَخْـر يَمْأَدْن كما ... أنبت الصيف عساليج الخضِر (١)

وليس يفترق هذا الذوق عن ذوق عمرو بن معد يكرب (٢) ، والأعشى (٣) ، وربيعة بن مقروم (٤) ، وعبد الله بن عجلان (٥) ، والمرقش الأكبر (٦) ، والمزرِّد ابن ضرار (٧) ، وأبى الذيَّال (٨) .

جمال الجسد تفصيلا فى نظر الرجل

١ — الطول :

أحبوا المرأة الطويلة ، ولا أقصد بالطول أن تفرع الرجال ، وإنما أقصد ألا

(١) ديوان طرفة ٤٧ . برغز : ولد البقر . رشأ : ظبى قوى فمشى مع أمه . آدم : مشرب لونه سواداً أو بياضاً . تقترى : تتبع . وارد : شعر طويل مسترسل . أثيث : غزير ملتف . مسبكر : مسترسل. نجدة : شدة . الشباب المسبكر: التام . بادن : ضخمة كاملة البدن . تجلو : تكشف . شتيت : ثغر متفرق الأسنان . غر : بيض . بدلته الشمس . . . : كان الطفل إذا سقطت له سن قذف بها نحو الشمس وقال : يا شمس أعطيتك سنا من عظم فأعطينى سنا من فضة . برداً : ثغراً نقياً كالبرد . الأشر : تحزيز فى أطراف الأسنان . حببا : طرائق من ريقها ، يريد أن فمها كثيرالريق وإذا قل ريق الفم تغيرت رائحته . رضاب المسك : قطعه . حرجف : ريح الشمال إذا عطفت أو الريح الشديدة الباردة . تلعة : مسيل الماء إلى الوادى . سجا : سكن واستقر . البلاط : أرض مستوية فى صفاة ، مسبطر : سهل ممتد . تداعى: مال لينهال . قاصف : ما مال من الرمل وانهال. منقعر: منقلع من أصله. عكيك القيظ: شديد الحر مع سكون الريح . وهذا كقول الآخر :

سخنة فى الشتاء باردة فى الصيـ ... ـف سراج فى الليلة الظلماء

مقاليت : جمع مقلات وهى التى لا يعيش لها ولد . نزر : قليلات الأولاد . بنات المخر : سحائب يأتين قبل الصيف منتصبات رقاق . يمأدن : يتحركن ويتثنين . العساليج : جمع عسلوج وهو اللين المخضر من الأغصان . الخضر : نبت أخضر .

(٢) الأصمعيات ١ / ٤٤ . (٣) الديوان ٣٢ ، ١١٩ ، ٦٧ .
(٤) الأغانى ١٩ / ٩١ . (٥) الحماسة لأبى تمام ٢ / ٧٥ .
(٦) المفضليات ٢ / ٤٤ . (٧) المفضليات ١ / ٩٢ .
(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

تسمى قصيرة وذلك أنسب لشكلها العام وقوامها الذى أغرموا به ، ومن شأن الطول أن يبرز محاسن الصدر والخصر والردفين ، ومن شأنه أن يتناسب مع طول العنق وطول الشعر وانسراح الساعدين والساقين ، ومن شأنه أن يساعد على مرونة الحركة والتثنى ، فهو إذن صفة لازمة للاتساق العام . قال كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول (١)

وقال سلامة بن جندل :

ليست من الزُّلِّ أردافاً إذا انصرفت ولا القصار ولا السُّود العناكيب (٢)

٢ — اللون والوجه :

وهم جميعاً كلفون باللون الأبيض ، ويتضح هذا من وصفهم للوجه ؛ لأنه الجزء البارز الفاتن .

(ا) وصفوه بالبياض ، قال امرؤ القيس :

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامُها تُعَفِّى بذيل الُمرط إذ جئت مَوْدِقى (٣)

وقال :

ومثلك بيضاء العوارض طَفْلَةٍ لعوبٍ تُنَسِّينى إذا قمتُ سِرْبالى
إذا ما استحمت كان فيض حميمها على مَتْنَتَيْهَا كالُجمان لَدَى الجالى (٤)

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨ .

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٦ . الزل أردافاً : الناحلات أردافاً . العناكيب : جمع عنكب وهى القصيرة الضعيفة . نفى عنها هذه الصفات ، والمراد أنها من صميم العرب ، وليست أمة .

(٣) ديوان امرىء القيس ١١٩ . ولسان العرب ١٢ / ٢٥١ جم عظامها : يصفها باللين والبضاضة فكأن السمن قد أخفى عظامها ، فهى جماء لا عظم بها . مودق : موضعى أو آثار قدمى .

(٤) ديوان امرىء القيس ١٤٠ الحميم : الماء الحار . متنتيها : جانبى ظهرها . الجمان : الفضة . الجالى صيرف الدراهم .

وقال الأعشى :

والبيض قد عَنَسَتْ وطال جَرَاؤُها ونشأن فى قِنٍّ وفى أذْوادِ[١]

وقال النابغة الذبيانى :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بِجَنْبَىْ نخلةَ البُرَما[٢]

وقال المزرد بن ضرار :

وبيضاء فيها للمُخَالِمِ صَبْوة ولهوٌ لمن يرنو إلى اللهو شاغل[٣]

وبالبياض وصف بشر بن أبى خازم[٤] وحسان[٥] وركاض[٦]، ولكنا نجدهم يصفونها أيضاً بالصفرة كقول قيس بن الخطيم :

صفراء أعْجَلَها الشبابُ لِداتِها موسومةٌ بالحسن غيرُ قَطوب[٧]

وكقول الأعشى :

بيضـــاء ضَحْوتَها وصف راء العشيةَ كالعَرارة[٨]

وكقول النابغة الذبيانى :

صفراء كالسِّيَراء أُكْمِلَ خلقُها كالغصن فى غُلَوائِهِ المتأوِّدِ[٩]

---

(١) ديوان الأعشى ٩٩ ولسان العرب ١٨ / ١٥٥ عنست : كبرت ولم تتزوج . جراؤها : بفتح الجيم وكسرها أى شبابها وفتاؤها . قِن : ضرب بالعصا أو تفقد بالبصر وتتبع للأخبار ، يريد أنهن نشأن فى رعى . أذواد : جمع ذود وهو ثلاثة أبعرة إلى عشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو ما بين الثنتين والتسع .

(٢) ديوان النابغة الذبيانى ٦٥ ، نخلة : بستان عبد الله بن معمر . وذكر البكرى فى معجم ما استعجم فى كلامه على نخلة أن البرم بفتح الباء ثمر الأراك . وفى اللسان بضم الباء وفتح الراء على أنها قدور من حجارة . يريد النابغة أنها ليست سوداء الرجل إذا انفلتت وأظهرت قدمها بل هى بيضاء ناعمة رخصة القدم . وهى لا تبيع قدور النحاس لأنها مصونة عن الكسب مخدرة .

(٣) المفضليات ١ / ٩٢ المخالم : المغازل المصادق . صبوة : خفة إلى اللهو .

(٤) المفضليات ٢ / ١٣٤ (٥) ديوان حسان ١٠ .

(٦) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١ (٧) ديوان قيس بن الخطيم .

(٨) ديوان الأعشى ١١١. (٩) ديوان النابغة ٢٨ ، السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلوائه : علوه .

وكقول قيس بن الخطيم :

حَوْراء ممكورةٌ مُنَعَّمَـةٌ كأنما شَفَّ وجهَها نُزُف[1]

فكيف تتفق الصفرة مع البياض ؟

ليس المقصود بالاصفرار ما ينشأ عن هزال ومرض وضعف ، إنما المقصود به صفرة « تضرب فى اللون من طول المكث فى الكن والتضمخ بالطيب ، كما تضرب فى بيضةِ الأدحى واللؤلؤة المكنونة » ، وقد شبه الله عز وجل فى كتابه ، فقال : « كأنهن بيض مكنون » ، وقال الشاعر :

« كأن بيض النعام فى ملاحفها »[2] .

ويعزز ذلك قول امرئ القيس :

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل[3]

وقول الأعشى إنها بيضاء فى وقت الضحا وصفراء فى العشى ، لأنها فى وقت الضحا لا تتطيب ، وفى وقت العشاء تتطيب ، فيصفر لونها ، ويعزز ذلك أيضاً قول ابن منظور : « سميت المرأة عاتكة لصفائها وحمرتها ، وامرأة عاتكة مُحمَرَّة من الطيب »[4] . ذلك أن الطيب هو الذى يضيف إلى البياض لوناً آخر أصفر أو أحمر حسب مادته ولونه .

(ب) ولم يكفهم أن نعتوا الوجوه بالبياض ، بل جروا مع الخيال فقالوا إنها مشرقة وضَّاءة منيرة ، قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشا كأنها منارة مُمْسَى راهب متبتل[5]

وقال مرة أخرى :

يضىء الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت فى قناديل ذُبَّال[6]

---

(١) الأغانى ٣/١٨ نزف : بضم فسكون وحرك للضرورة ، خروج الدم ، أراد أن فى لونها الأبيض صفرة .

(٢) العقد الفريد ٣/٢٢٣ المطبعة العامرية الشرقية بمصر .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٣١ . (٤) لسان العرب ١٢ / ٣٥٠ .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣١ . (٦) الديوان ١٣٩ .

(ح) وشبهوها تشبيهات تدل على مقدار إشراقها كالشمس فى قول طرفة :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها　　　عليه نقى اللون لم يتخدد[1]

وفى قول سويد بن أبى كاهل :

تمنح المرآة وجهاً صافياً　　　مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع[2]

وشبهوها بالدنانير فى الإشراق ، قال المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا　　　نير وأطراف الأكف عنم[3]

وشبهوها بالصحيفة فى بياضها ، قال المخبَّل السعدى :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا　　　ظمآن مختلج ولا جهم[4]

وبالدرة النفيسة ، وهنا ينصرفون كعادتهم عن المشبه ، ويذهبون فى وصف المشبه به كل مذهب ، حتى ليخيل إلى القارئ أن المشبه به هو الذى يعنون « وهذا الجزء هو أقرب أجزاء القصيدة العربية إلى الذوق الغربى »[5] .

قال المسيَّب بن علس :

كجمانة البحرى جاء بها　　　غواصها من لجة البحر
صلب الفؤاد رئيس أربعة　　　متخالفى الألوان والنجر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا　　　ألقوا إليه مقالد الأمر
وعلت بهم سجحاء خارمة　　　تهوى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ما ساء ظنهم　　　ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيه بتهلكة　　　ثبتت مراسيها فما تجرى
فانصب أسقف رأسه لبد　　　نزعت رباعيتاه للصبر
أشفى يمج الزيت ملتمس　　　ظمآن ملتهب من الفقر
قتلت أباه ، فقال أتبعها　　　أو أستفيد رغيبة الدهر

---

(١) ديوان طرفه ٩ .　　　(٢) المفضليات ١/١٨٩ .
(٣) المفضليات ٢ / ٣٨ .　　　(٤) المفضليات ١/١١٣ .
(٥) Arabic Literature. Gibb. P. 19

نَصَفَ النهارُ ، الماءُ غامِرُه ورفيقُه بالغَيب لا يَدْرى
فأصاب مُنْيَتَهُ فجاء بها صَدَفِيَّةً كمضيئةِ الجَمْر
يُعطَى بها ثمناً ويمنعها ويقول صاحبه ألا تشرى ؟
وترى الصَّرَارِى يسجدون لها ويضمها بيديه للنَّحْر
فتلك شبه المالكية إذ طلعَتْ ببهجتها من الخِدْر (١)

ويتضح من قوله كيف أطال فى وصف الدرة والحصول عليها ، وكيف صور المشقات والجهود التى بذلت فى استخراجها من البحر الهائج ، حتى لقد ترصدها الغواصون شهوراً ، ولم يقدر على صيدها إلا صياد فارع الطول صبور ضامر خفيف ، اطَّلَى بالزيت ليقى جسده من الماء الأجاج ، تدفعه الرغبة إلى أن ينال هذه الدرة لأنه شديد الحاجة والمسْغَبة ، وهو عاقد العزم على أن ينالها ؛ لأن أباه كان يبتغيها من قبل فغرق ، فلا بد أن يثأر منها ، وقد قضى نصف النهار يفتش عنها ، والماء يغمره ، ولم ينثن حتى فاز بها ، فأخرجها متلألئة كالجمر ، وأغلى ثمنها لقاء نفاستها ولقاء ما احتمل فى الحصول عليها من أينٍ ومخاطر ، وإن الملاحين ليشاركونه فى إعجابه بها فيسجدون لها ، وإنه ليضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة النفيسة تشبه الحبيبة حين تشرق من خدرها .

وقد ترسم الأعشى خاله المسيب فى تخيله هذا وتخييله ، لأنه كان راويته وتلميذه ، ولكنه تصرف فى التصوير بعض التصرف ، فجعل مارداً من الجن يحرس هذه الدرة ، ولا يغفل عنها ليلا ولا نهاراً حتى لا يأخذها غواص ، وجعل هذا الغواص الذى ظفر بها مترقباً لها مذ كان شاباً :

كأنها درة زهراء أخرجها غواصُ دَارِينَ يخشى دونها الغَرَقا
قد رامها حِججاً مُذْ طرَّ شاربُه حتى تَسَعْسَعَ يرجوها وقد خَفَقا
لا النفسُ تُوئِسه منها فيتركها وقد رأى الرَّغب رأى العين فاحترقا

---

(١) ديوان المسيب بن عباس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ سجحاء : السجحاء الناقة التامة الطويلة الظهر والمراد هنا الموجة العالية . خارمة : تنهبط بهم فى وهاد من البحر . وفى الديوان خادمة. أسقف : نحيل خفيف الناصية. الصرارى : الملاحون. وفى الديوان الصوارى.

ومارِدٌ من غُواة الجن يحرسها ... ذو نِيقةٍ مستعدٌّ ، دونها تَرَقا
ليست له غفلة عنها ، يُطِيفُ بها ... يخشى سُرَى السارين والسَّرَقا
فى حَوْمِ لجَّةِ آذِىٍّ له حَدَبٌ ... من رامها فارقتها النفس ، فاعتلقا
من نالها نال خُلْداً لا انقطاع له ... وما تمنى فأضحى ناعماً أَنِقا
تلك التى كلفتك النفسُ تأملُها ... وماتعلَّقْتَ إلاالحيْنَ والحُرَقا[1]

وسلك هذا المسلك فى إيجاز المخبل السعدى فى قوله :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ... ظمآنُ مختلَجٌ ولا جَهْم
كعقيلة الدُّرِّ استضاء بها ... محراب عَرْشٍ عزيزها العُجم
أغلى بها ثمناً وجاء بها ... شَخْتَ العظام كأنه سهم
بلبانه زيت وأخرجها ... من ذى غوارب وَسْطه اللُّخم[2]

وشبهوها بالبرد ، قال حسان :

يحملن حُوًّا حُورَ المدامع فى الرَّ ... يطِ وبيضَ الوجوه كالبرَد[3]

وشبهوها بالمصباح فى البيعة أو الدير ، قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسَى راهب متبتل[4]

وقال :

يضىء الفراشَ وجهُها لضجيعها ... كمصباح زيت فى قناديل ذُبَّال[5]

---

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ تسعسع : هرم . خفق : ذهب أكثر عمره من خفق الليل إذا ذهب أكثره . الرغب : الرغبة . ذو نيقة : ذو كياسة وحيلة . مستعد دونها ترقا : معد ومحضر لأجلها سفيطا كالذى تدخر فيه المرأة طيبها وأداتها وهى المسمى أيضاً بالحفش ، فكلمة مستعد هنا بمعنى معد ، وقد فسر ابن منظور البيت بذلك (راجع اللسان مادة ترق وعد) . السرق : السرقة . فى حوم لجة آذى : فى موضع الهياج من البحر المائج . له حدب : ماؤه متراكب فى جريه . الحين : الهلاك .

(٢) المفضليات ١/١١٣ شخت : دقيق . اللخم : كبار السمك .

(٣) ديوان حسان ١٣ .

(٤) الديوان ١٣١ . (٥) الديوان ١٣٩ .

٣ — العين :

هى النافذة التى يطل منها الشاعر على دِخْلة محبوبته ، وتطل منها عليه ، هى منبع الجاذبية التى يستأسر لها الحبيب ويلتذ الأسر ، « وليس غريباً أن يقع الحب من أول نظرة ، لأن لشكل العين ولونها وبريقها دوراً هاماً فى اختيار المحبوب ، وكثيراً ما تغنى الشعراء بما فى العين من جاذبية وما لهـا من أثر ، ويتصل بحاسة النظر المعانى التى يسبغها الإنسان على أجزاء الجسم ومظاهره [١] » .

وشكل العين المناسب لأعضاء المرأة العربية هو المتسع ، على أن تكون دعجاء كحلاء ، قال سويد بن أبى كاهل :

تمنح المـرآة وجهـا واضحـا　　مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع
صـافىَ اللونِ وطرفا ساجيا　　أكحل العينين ما فيه قَمَع [٢]

وقال عمرو بن معد يكرب :

كأن الإثمـد الحـارىَّ فيهـا　　يُسَفُّ بحيث تبتدر الدموع [٣]

وشبهوا العين بأجمل عين يرونها ، وهى عين المهاة وعين الغـزال ، قال امرؤ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى　　بناظرة من وحش وجرة مُطفل [٤]

وقال معن بن أوس :

سبتنى بعينَىْ جُـؤْذرٍ بخميلة　　وجيدٍ كجيد الرئم زَيَّنه النظم [٥]

وشريك لهما فى هذا علقمة [٦] والمزرد بن ضرار [٧] .

---

(١) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٣ .
(٢) المفضليات ١ / ١٨٩ . قمع : ضخامة وورم .
(٣) الأصمعيات ١ / ٤٣ الحارى : الحيرى والنسب إلى الحيرة حارى وحيرى .
(٤) الديوان ١٣٠ وجرة : موضع . مطفل : ذات أطفال .
(٥) ديوان معن بن أوس ٣ .
(٦) شعراء النصرانية ٥٠٥ .
(٧) المفضليات ١/٩٢ .

وقال الحادرة :

وتصدَّفَتْ حتى استبتك بواضح　　صَلْتٍ كمنتصِبِ الغزال الأتلع

وبمقلتىْ حوراء تحسب طرفها　　وسنانَ، حرَّةِ مستهلّ الأدمع[١]

أما جاذبية النظرات فسأتكلم عنها فى الجمال المعنوى .

٤ — الخد :

وصفوه بأنه أسيل ، والأسيل فى اللغة الأملس المستوى الطويل المسترسل[٢] وهو بشكله هذا متسق مع الجمال العام .

قال المرقش الأكبر :

ورُبَّ أسيلةِ الخدين بكر　　منعَّمة لها فرعٌ وَجِيدُ

لهوتُ بها زماناً من شبابى　　وزارَتْها النجائبُ والقصيد[٣]

وقال امرؤ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتّقى　　بناظرة من وحش وَجرةَ مُطْفِلِ[٤]

وبذلك وصفه بشامة بن عمرو[٥] والمسيب بن علس[٦] .

٥ — الفم : (الشفتان والأسنان والريق)

غشاء الشفتين ذو حاسية جنسية كبيرة تجعل القبلة مثلا أعلى لحاسة اللمس من الناحية الجنسية ، ويسبب تلامس الشفاه انطلاق تيار قوى من التهييج لا يدانيه إلا تلامس المباشرة ، والقبلة هى الرسول الروحى لعاطفة الحب ، وعندما يستسلم شخصان لحرارة القبلة تمتزج نفساهما امتزاجاً تاماً[٧] .

(١) ديوان الحادرة والمفضليات ١ / ٤٢ .
(٢) القاموس المحيط مادة أسل .
(٣) المفضليات ٢ / ٢٤ النجائب : النوق الجياد .
(٤) الديوان ١٣٠ مطفل : لها طفل تنعطف إليه .
(٥) المفضليات ٢ / ٥٤ .　　(٦) المفضليات ٢ / ٥٩ .
(٧) الاضطرابات الجنسية الدكتور موريس الديك ٥٩ .

ومن آثار الحب تعمد مس اليد ، وما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء[١] .

وأرجح أن الشعراء أكثروا من الحديث عن الفم ، لأنه ينبوع متعة ، حتى العذريون أولوه اهتمامهم ، ولا شك أن من جمال المرأة طيب فمها ، فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سليم لتنظر امرأة فقال لها : « شمى عوارضها وانظرى إلى عقبها[٢] » وهو فى ذلك جارٍ على فطرة سليمة .

(أ) وقد افتن الشعراء فى وصف حلاوة الريق ، وتشبيهه ، فهو خمر وشهد فى ذوق المرار الفقعسى ، حتى إنه ليهنئ السواك الذى تستاك به :

هنيئاً لُخُــوطٍ من بَشَامٍ تَرَفُّه ... إلى بَرَدٍ شُهْدٌ بِهِنَّ مَشُوب
بما قد تَسَقَّى من سُلافٍ وضمه ... بنانٌ كهُدَّابِ الدمقسِ خضيبُ[٣]

وليست بأطيب منه الخمر الطيبة الرائحة المعتقة التى ثوت فى دنها عشرين عاما محبوسة لا يتسرب إليها الهواء ، اشتراها خَمِّيرون من تاجر يغالى فى ثمنها ؛ ليست هذه الخمر بأطيب من ريقها ليلا حيث تتغير طعوم الأفواه ، ذلك فى قول المرقش الأكبر :

وما قهوةٌ صهباء كالمسك ريحُها ... تُعَلَّى على النَّاجُود طَوْراً وتُقْدَح
ثَوَتْ فى سِباَء الدَّنِّ عشرين حِجَّةً ... يُطانُ عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّح
سباها رجال من يهودَ تواعدوا ... لِجِيلانَ يُدْنيها إلى السوق مُرْبِح
بأطيبَ من فيها إذا جئتُ طارقاً ... من الليل بل فوها ألذ وأنصح[٤]

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم ١٢ .

(٢) النهايه لابن الأثير . مادة عرض ، العوارض : الأسناق التى بين الثنايا والأضراس

(٣) لسان العرب ١٩ / ١١٦ الخوط : الغصن . البشام : شجر عطر الرائحة يستاك بقضبه . ترفه : تقبله بأطراف شفيتها . برد : يريد به الأسنان . سلاف : خمر .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢١١ والمفضليات ٢ / ٤٢ صهباء : شقراء أو حمراء . تعلى : ترفع ، الناجود : المصفاة . تقدح : تغرف بالقدح . سباء الدن : أسره وحبسه . يطان : يجعل على دنها الطين . قرمد : طين يطلى به رأس الدن . تروح : تعرض للريح وتبرد . سباها : اشتراها . جيلان : بلد من بلاد العجم . أنصح : أخلص وأطيب .

ويشبه تصوير الأسود بن يعفر[1] تصوير المرقش :

وشبه زهير ريقتها بعد نومها بخمر جيدة من عانة بالجزيرة :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقَتْ   من خمر عانةَ لما يَعْدُ أنْ عَتَقا[2]

وشبهها عبيد بن الأبرص بالخمر المختومة بالمسك ، التي يُغالى بها التجار لأن الذى عتقها فارسى أو رومى خبير بتعتيقها :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتَبَقتْ   صهباء صافيةً بالمسك مختومه
مما يغالى بها البياع عتَّقها   ذو شارب أصْهب يُغْلى بها السِّيمه[3]

وقال إن ريقها خمر مشعشة ممزوجة بماء صاف فى أباريق من فضة :

إذا ذقت فاها قلت طعم مُدامةٍ   مشعشعةٍ تُرْخى الإزار قَديح
بماء سحاب فى أباريق فضة   لها ثمن فى البائعين ربيح[4]

وقال المسيب بن علس : إن ريقها خمر من عانة خالطها ماء من جدول مَعِينٍ ينبت على حوافه القصب :

ومهاً يرِفُّ كأنه إذْ ذقته   عانيَةٌ شُجَّت بماء يراع
أو صوبُ غاديَةٍ أدَرَّتْهُ الصَّبا   ببَزِيلِ أزْهَرَ مُدْمَجٍ بِسياع[5]

وجعل امرؤ القيس ريقها مشوباً بالخمر والماء الصافى وريح الخزامى والشهد :

---

(١) المفضليات ٢ / ٢١٨ .

(٢) لسان العرب ١٧ / ١٧٥ عانة : بلد على الفرات ينسب إليه الخمر العانية .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ٢١ اغتبقت : شربت ليلا . صهباء : خمر أو هى المعصورة من عنب أبيض . شارب أصهب : عمر ، والمراد أنه عجمى . السيمة : المساومة والثمن .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٨ . مشعشعة : ممزوجة بغيرها . ترخى الإزار تمد لى أسباب اللهو . قديح : ما يبقى فى أسفل الدن ، يريد أنها خمر مركزة ، أو قديح بمعنى مغروفة بالقدح .

(٥) ديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١/٥٩ مها : بلور ، شبه ثغرها به لصفائه . يرف : يلمع . عانية خمر منسوبة إلى عانة بلد على الفرات . شجت : مزجت . يراع : قصب . صوب غادية : ماء سحابة . أدرته : استخرجت ماءه الصبا لأنها لينة تمر بسهولة وذلك لأنها أصفى لماء السحابة . أزهر : إبريق أبيض . بزيل : مثقوب والمراد أنها خمر من دن أبيض . السياع : الطين .

كأن المـــدام وصوْبَ الغمام وريح الخُزامى وذَوْبَ العسل
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابهـــــا إذا النَّجم وسْط السماء استقل[١]

وجعله عنترة خمراً ممزوجة بالعسل :

و بين ثنـاياها إذا ما ابتسمت مُدِيرُ مُدَامٍ يمزج الراح بالشهد[٢]

وريقها فى مذاق أوس بن حجر خمر ورمان وتفاح :

كأن ر يقتها بعد الـكرى اغتبقت من ماء أدكن فى الحانوت نَضَّاح
أو من مُعَتَّقة وَرْهَاء نَشْوتُها أو من أنابيب رمان وتفاح[٣]

وكذلك حسان بن ثابت[٤] وعدى بن زيد[٥] :

وشبهه امرؤ القيس بالشهد المذوب فى الماء النمير :

ومُؤَشَّرٍ عـــذبٍ ، مذاقتهُ بَرَدُ القِلال بذائب النحل[٦]

وجعله طرفة ماء بارداً ممزوجاً بالمسك .

وإذا تضحك تبـــدى حَبَباً كـرُضاب المسك بالماء الخصر[٧]

والريق فى مذاق المرقش الأصغر ماء السحاب[٨] ، وفى مذاق ربيعة بن مقروم شهد[٩] ، وفى مذاق أبى الذيال خمر ممزوجة بالماء والمسك والزنجبيل[١٠] .

(ب) أما الأسنان فقد راقهم بياضها ، واستواؤهـا وانسجامها فشبهوها بالأقحوان ، قال طرفة :

بادنٌ تجـــلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كأقاحى الرمل غُر[١١]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٧١ . (٢) ديوان عنترة ٧٣ .

(٣) ديوان أوس بن حجر ٣ ورهاء : حمقاء النشوة أو فى نشوتها عجرفة.

(٤) ديوان حسان ٨ . (٥) الأغانى ٢/١٥٤ .

(٦) ديوان امرئ القيس ١٤٩ مؤشر : ثغر ذى أسنان محززة . برد القلال : الماء البارد المنحدر من أعلى الجبال . ذائب النحل : الشهد .

(٧) ديوان طرفة ٥١ . (٨) المفضليات ٢ / ٤٥ .

(٩) المفضليات ٢ / ٦٣ . (١٠) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

(١١) ديوان طرفة ٥١ .

وقال عبيد إن أسنانها كالأقحوان النديّ النابت فى الربوة :

وتبسم عن عذب اللثات كأنه أقاحى الرُّبا أضحى وظاهره ندِى(١)

وشبهها المسيب بن علس بالبلور :

إذ تستبيك بأصْلَتِيٍّ ناعم قامت لتفتنه بغير قناع
ومهاً كأنه إذ ذقته عانيَّة شُجَّتْ بماء يراع
أو صوب غادية أدرته الصَّبا ببزيل أزهر مدمَج بسياع(٢)

والمرأة لا تهمل أسنانها ، بل تنظفها ، وتَسَوُّكها كما تنظف وتسوك المرأة المعاصرة ، قال الأعشى : إنها تجلو أسنانها بريشتى حمامة :

تجلو بقادمَتَىْ حمامةِ أيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُه بالإثْمِدِ(٣)

وقال سويد بن أبى كاهل :

حُرَّةٌ تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمس فى الغيم سطع
صَقَلَته بقضيب ناضر من أراكٍ طيِّب حتى نصع(٤)

والأسنان الجميلة هى المؤشرة المحززة لأن ذلك دليل صغر السن ، قال امرؤ القيس :

ومُؤَشَّرٍ عذبٍ ، مذاقته بَرَد القِلال بذائب النحل(٥)
. . . . وذى أُشُرٍ تَشُوفه وتنوص(٦)

وقال طرفة : إنها لم تقضم بأسنانها ما يذهب بتحززها .

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ٣٠ .

(٢) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ ، والمفضليات ٢/٥٩، المها : البلور . اليراع : القصب أى بماء جدول على حوافه القصب . صوب غادية : ماء سحابة . بزيل أزهر : دن أبيض .سياع . طين وما يشبهه مما يختم به الشيء .

(٣) ديوان الأعشى ٩٧ أسف لثاته بالإثمد : ذر الإثمد على اللثة لتسود .

(٤) المفضليات ١ / ١٨٩ . (٥) الديوان ١٤٩ .

(٦) الديوان ١٠٤ .

سقته إيَاةُ الشمس إلا لِثاتِهِ أُسِفَّ —ولم تَكْدِمِ عليه— بإثمد(١)

(ح) والذى يناسب هذه الأسنان البيض أن تكون الشفة لمياء لعساء ليبدو بريق الأسنان وضاحاً ، قال امرؤ القيس إن لثتها سوداء مثل النيلج :

منابته مثلُ السَّدوسِ ، ولونه كشَوْكِ السَّيَالِ فهو عَذْبٌ يفيضُ(٢)

وقال الأعشى إن لثتها سوداء كأنما ذر عليها إثمد :

تجلو بقادِمَتَيْ حمامة أيكة بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُه بالإثمِدِ(٣)

وقال طرفة :

وتَبْسِمِ عن ألْمَى كأن منوِّرا تخلَّل حُرَّ الرمل دِعْصٌ له نَدِى

سقته إياة الشمس إلا لثاته أُسِفَّ —ولم تَكْدِمْ عليه— بإثمد(٤)

ومن جمال اللثة أن تكون قليلة اللحم ، قال قيس بن الخطيم :

تَنْكَلُّ عن حَمِشِ اللِّثات كأنه بَرَدٌ جَلَتْهُ الشمس فى شُؤْبوب(٥)

٦ — العنق والنحر :

مما يشاكل الجمال العام للمرأة العربية أن يكون عنقها طويلاً كفيلاً بإبراز مفاتن وجهها ، ومحاسن نحرها وصدرها ، ومنسجما مع أسل خديها ، واسترخاء شعرها على متنيها ، وأن يكون إلى طوله لدناً مدمجاً سهل التثنى والانعطاف ، قال المرقش الأكبر :

---

(١) ديوان طرفة ٩ . إياة الشمس : شعاعها وضوؤها أسف عليه بإثمد : ذر على لثته الإثمد . لم تكدم عليه : لم تعض عظما فيؤثر فى ثغرها ويذهب تحزيز أسنانها .

(٢) الديوان ١٠٤ منابته : الهاء عائدة على الفم . السدوس: النيلج الأسود . السيال: ما طال من شجر السمر . يفيض : يسيل على الأرض .

(٣) ديوان الأعشى ٩٧ .

(٤) ديوان طرفة ٨ شؤبوب : دفعة من المطر أو شدة حرارة الشمس . ألمى : أسمر اللثة . منوراً : بريد به الأقحوان. تخلل حرالرمل : توسطه ونبت بينه وذلك أنعم لنبته ونوره وحر الرمل: أكرمه وأحسنه لونا . الدعص: كثيب من الرمل ليس بكبير . له : الهاء للمنور.

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٦ .لثة حمشة : قليلة اللحم . تنكل : تبسم . شؤبوب : دفعة من المطر أو شدة حرارة الشمس .

نواعم أبكار سرائر بُدَّنٌ حسان الوجوه لينات السوالف[١]

وقد شبهوا الجيد الجميل بجيد الظبية ، قال علقمة :

وجيد غزال شادن فَرَدَت له من الحَلْى سِمْطَىْ لؤلؤ وز برجد[٢]

وكذلك شبهه امرؤ القيس :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نَصَّته ولا بمعطَّل[٣]

وقال الحادرة إن عنقها ناصع صقيل أملس طويل كعنق الغزال الطويل العنق :

وتصدَّفتْ حتى استبتك بواضح صَلتٍ كمنتصب الغزال الأتلع[٤]

وهذا الجيد الطويل الصقيل اللدن قائم على نحر مشرق صقيل حالٍ ، قال امرؤ القيس إن منحرها كالمرآة :

مُهَفْهَفَةٌ بيضاء غير مُفاضـة ترائبها مصقولة كالسجنجل[٥]

وقال حاتم إن نحرها نيِّر كجبينها :

ونحراً كفَى نورَ الجبين يزينُه توَقُّدُ ياقوت وشَذْرٌ مُنَظَّما[٦]

٧ — الصدر :

ليس فى الحب ما يجتذب خيال الرجل أكثر من صدر المرأة ، يجتذب الفتى بما لا يستطيع مقاومته ، ولذلك تجد يد الفنان تعمد إلى إبرازه فى النحت والتصوير[٧] ، وقد شبه عمرو بن كلثوم الثدى بحق من عاج ، وراعى فى تصويره هذا ما بين الثدى الجميل وحق العاج من استدارة ولون وصلابة وصفاء :

وثديا مثل حق العاج رَخْصاً حَصَاناً من أكُفٍّ اللامسينا[٨]

---

(١) المفضليات ٢/٣١ سرائر : صفوة النســاء لأن السر والسريرة لب كل شيء وأفضله (القاموس المحيط) . (٢) شعراء النصرانية ٥٠٥ .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . (٤) ديوان الحادرة ٥ الأتلع : الطويل العنق .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . (٦) شعراء النصرانية ١١٨ .

(٧) الحياة والحب لأميل لودفيج ٢٢ .

(٨) المعلقات العشر ٩٨ .

ووصفه المنخل اليشكرى بالبروز :

الكاعب الحسناء تر فل فى الدِّمَقْس وفى الحرير

ووصفه النابغة الذبيانى بالثبات والبروز :

والبطن ذو عُكَنٍ لطيفٌ طيُّه والنحر تَنْفُجُهُ بثدى مُقْعَد[(١)]

٨ — الشعر :

ما لون الشعر الذى يوائم البشرة البيضاء والعين السوداء والشفة اللمساء والثنايا البيض ؟ لا شك أنه اللون الأسود وحده . وكذلك كانت المرأة العربية ، وكان تذوق العربى للجمال .

ومن تمام الانسجام أن يكون هذا الشعر الأسود طويلا متسقاً مع القوام الفارع ، والقد الأهيف ، والجيد التالع . وكذلك كانت المرأة وكان ذوق الرجل .

قال المرقش الأصغر إن شعرها أسود فاحم طويل كالحبال :

ألا حبذا وجهٌ ترينا بياضه ومُنْسَدِلاتٌ كالمثانى فواحما[(٢)]

وقال عنترة : إن الليل استمد ظلامه من شعرها :

خَطَفَ الظلامُ كسارق من شعرها فكأنما قَرَنَ الدجى بدياجى[(٣)]

وتمدحوا طول الشعر واسترساله . قال المثقب العبدى :

وهن على الظِّلام مُطَلَّباتٌ طويلات الذوائب والقرون[(٤)]

كما مدحوا غزارته وكثافته . قال امرؤ القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقِنْوِ النخلة المتعثكل[(٥)]

---

(١) ديوان النابغة ٢٨ وأساس البلاغة مادة قعد . عكن : جمع عكنة وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . تنفجه : ترفعه . ثدى مقعد : ملء الكف ناهد لا ينكسر .

(٢) المفضليات ٢/٥٤ . المثانى : الحبال . (٣) ديوان عنترة ٣٩ .

(٤) شعراء النصرانية ٤٠٦ . الظلام : ظالمهن للرجال وفى لسان العرب ١٧/٣٤٥ (وهن على الرجائز واكنات) والقائل المزق العبدى .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . متعثكل : متداخل كثيف أو متدل .

وقال طرفة :

وعلى المَتْنَيْنِ منهـــا وارد حسن النبت أثيثٌ مُسْبَكِرّ[١]

وبعضهم استملح الشعر الجُعد المتثنى المتكسر المتموج قال عنترة :

ويطلع ضوء الصبح تحت جبينها فيغشاه ليلٌ من دجى شعرها الجعد[٢]

وقال المخبل السعدى :

وتُضِلُّ مِدْراها المواشطُ فى جَعْد أغمَّ كأنه كَرْمُ[٣]

وشبه بعضهم الشعر الكثيف المتدلى بعناقيد الكرم ، كما فى قول المخبل السعدى السابق ، وكما فى قول النابغة الذبيانى إن شعرها طويل غزير كالعناقيد المدلاة على الدعائم المغطية لها :

وبفاحمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نبتُه كالكرم مال على الدعام المسند[٤]

واتفق معه فى هذا التشبيه معن بن أوس[٥] وربيعة بن مقروم[٦] والمخبل السعدى[٧] .

وشبهه آخرون تشبيها متأثراً بالبيئة أيضاً ربما لا نستملحه اليوم ، شبهوا الضفائر بالحيات ناظرين إلى الليونة والطول والضخامة والشكل والاملاس . قال المنخل :

يَعْكُفْنَ مثل أساود التنْـ ـوم لم تُعْكَفْ لِزُور[٨]

وقال المزرد بن ضرار :

وأسْحَمَ ريانَ القُرونِ كأنه أساود رُمَّانَ السِّبَاطُ الأَطاول[٩]

وطبيعى أن تعنى المرأة بشعرها كما تعنى بغيره من محاسنها فتطيله إن كان

---

(١) ديوان طرفة ٤٨ .

(٢) ديوان عنترة ٧٢ . (٣) المفضليات ١ / ١١٤ . أغم : كثيف .

(٤) ديوان النابغة ٣١ . رجل : مسرح مرجل .

(٥) ديوان معن بن أوس ٤ (٦) المفضليات ٢ / ١٣ .

(٧) المفضليات ١ / ١١٤ .

(٨) الأغانى ١٨ / ١٥٥ . يعكفن : يضفرن ويمشطن . التنوم : نوع من الشجر.

(٩) المفضليات ١ / ٩٢. رمان : موضع ببلاد طيء. السباط : اللينة.

قصيراً . روى عن السيدة عائشة : « وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ». وفى رواية ابن الأثير فى النهاية : « ولا بأس أن تَمْرَى المرأة عن الشعر فتصل قرناً من قرونها بصوف أسود »(١). وهذه الإباحة من السيدة عائشة دليل على أن العربيات كن يزاولن ذلك .

ومن ضروب العناية أن تمشطه وتسرحه قال امرؤ القيس إن مشطها يضل فى شعرها المسترسل والمتثنى :

غدائره مستشزرات إلى العلا تَضِلُّ المدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَل(٢)

وقال المخبل السعدى إن المواشط يسرحنها فتغوص الأمشاط فى شعرها الكثيف :

وتُضِل مدراها المواشط فى جَعْدٍ أغمَّ كأنه كرم(٣)

وقال الأعشى إنها تسرح شعرها اللين لترده عن وجهها(٤) .

ومن ضروب العناية بشعرها أن تطيبه ، قال سويد بن أبى كاهل :

وقرونا سابغاً أطرافها غللتها ريحُ مسك ذى فَنَع(٥)

٩ — المعصم والأصابع :

وصفوا المعصم بأنه ملآن ريان ، قال بشر بن أبى خازم :

دارٌ لبيضاء العوارضِ طَفْلَةٍ مهضومةِ الكَشْحين رَيَّا المعصم(٦)

ووصفوا الأصابع بالطول والانسراح واللين ، حتى لقد شبهها امرؤ القيس بدود أبيض رءوسه حمر يرى فى كثيب اسمه ظَبْى ، وبخُوط من شجر الإسحل :

وتَعْطُو برَخْصٍ غير شَثْنٍ كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحِل(٧)

---

(١) عيون الأخبار ٤ / ١٠٢ . (٢) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .
(٣) المفضليات ١ / ١١٤ . (٤) ديوان الأعشى ٥ .
(٥) المفضليات ١ / ١٨٩ . غللتها : دخلت فيها . فنع : قوة وسطوع.
(٦) المفضليات ٢ / ١٤٦ العوارض : جانبا الفم من أسنانها . طفلة : رخصة لينة .
(٧) ديوان امرئ القيس ١٣١ . تعطو برخص : تتناول ببنان لطيف . غير شثن : ليس بكز ولا غليظ . أساريع ظبى : دود بيض حمر الرءوس ترى فى الكثيب المسمى بظبى . إسحل: شجر كالأراك تتخذ من فروعه مساويك .

وشبهها المرقش الأكبر بثمر العنم ، وهو أحمر طويل يشبه به البنان المخضوب:

النشر مسك والوجـــوه دنا نيرُ وأطـراف الأكف عَـنَم

١٠ – الساق :

والانسجام العام يقتضى أن تكون الساق ريا مدمجة ملتفة بيضاء لدنة .

لذلك شبهها امرؤ القيس بعود من البَرْدِيِّ نابت على مجرى الماء ، وقد شذب وسوى :

وكشح لطيف كالجديل مُخَصَّر وساق كأنبوب السَّقِيِّ المذلَّل (١)

وجعل المزَرِّد بن ضِرار ساقيها عودين من البردى رويا من ماء صاف :

وتخطو على بَرْدِيَّتين غـــذاهما نميرُ المياه والعيون الغَلاغل (٢)

وأشبهه قيس بن خطيم فى التصوير وشطر التعبير :

تخطو على برديتين غـــذاهما غَدِقٌ بساحةِ حائرٍ يعبوب (٣)

وقد شبه المخبل العدى حبيبته بالبردى فى بياضها وصفائها واستوائها :

بَرْدِيَّةٌ سبَق النعيمُ بهـــا أقرانَها وغلا بهـــا عَظْمُ (٤)

١١ – الوسط : (الخصر ، الردف ، البطن)

نظر الشعراء إلى نواح من جمال الوسط ، تجعله منسجما مع المنظر العام للجسد :

(ا) فالخصر نحيل هضيم فى جسم ممتلئ عَبْل ، قال علقمة :

صِفرُ الوِشاحين ملء الدرع خَرْعَبةٌ كأنها رشَـــأٌ فى البيت مَلْذُوم (٥)

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . السقى : البردى . المذلل : الممهد.

(٢) المفضليات ١ / ٩٢ . الغلاغل : ج غلغل وهو الماء الذى يجرى بين الشجر .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم . غدق : كثير . حائر يعبوب : بستان يرويه جدول كثير الماء .

(٤) المفضليات ١ / ١١٢. غلا : ارتفع يعنى أن النعيم زاد فى شبابها حتى ارتفعت على لداتها وكبرت قبلهن .

(٥) ديوان علقمة ١٣ . خرعبة : لينة رخصة لحيمة رقيقة العظم — ملذوم : ملثوم .

وهو يشبه سيراً من الجلد اللين المجدول ، فى ذوق امرئ القيس :

وكَشْحٍ لطيف كالجديل مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأنبوب السقِيِّ المذلَّل [١]

(ب) وتحت الخصر كفل ممتلئ ينوء خصرها بشده ، قال الأعشى :

يكاد يصرعها لولا تشددها ... إذا تقوم إلى جاراتها الكسل

صفر الوشاح وملء الدرع بَهْكَنَةٌ ... إذا تَأَتَّى يكاد الخصر يَنْخَزِلُ [٢]

وهى كذلك فى رأى قيس بن الخطيم [٣] .

وكفلها الريان تحت خصرها الضامر يشبه الكثيب ، قال طرفة :

وإذا قامت تداعى قاصف ... مال من أعلى كثيب منقعر [٤]

وما أجمل منظرها وهى تقبل هيفاء البطن والخصر وتدبر ريا الروادف والعجز ، قال كعب بن زهير :

هَيْفاء مقبلةً عَجْزاء مدبرةً ... لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طول [٥]

وكذلك صورها النابغة الذبيانى [٦] وأبو الذيَّال [٧] .

(ح) والبطن ضامر أيضاً بضمور الخصر ، قال بشر بن أبى خازم :

نَبيلَةُ موضع الحِجْلين خَوْدٌ ... وفى الكَشْحَيْنِ والبطن اضْطِمار [٨]

وذو ثنيات تزيده جمالا ، قال النابغة :

والبطن ذو عُكَنٍ لطيف طيه ... والنحر تَنْفُجُهُ بثدى مُقْعَدِ [٩]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .
(٢) ديوان الأعشى ٤٢ بهكنة : ضخمة الخلق ينخزل : ينقطع .
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ .
(٤) ديوان طرفة ٥٢ . قاصف : منهال من الرمل . منقعر : منقلع من أصله .
(٥) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٠٨ .
(٦) ديوان النابغة الذبيانى ١٤ ، والأمالى ١ / ١٧ .
(٧) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .
(٨) المفضليات ٢/١٣٩ . نبيلة موضع الحجلين: جميلة الساقين . الحجل: الخلخال. خود: شابة.
(٩) ديوان النابغة ٢٨ . عكن : طيات. تنفجه : ترفعه . مقعد : ناهد ملء الكف .

وشبه عنترة هذه العكن بالثوب الرقيق المطوى طيات لطيفة ، ولكن البطن مع تثنيه متماسك أملس :

وبطنٌ كطى السابريَّة لينٌ أقبُّ لطيف ضامر الكشح مدمج[(١)]

جمالها الجسدى فى نظر المرأة

هذا هو النموذج الحبيب إلى الرجال لأنه يمثل أنواع الجمال الجسدى ، وأرى أن أستعرض شيات الجسد الجميل فى ذوق المرأة ، لأتبين أكان ذوق الرجال متفقاً مع ذوق النساء أم لا ، وإن كنت أومن أن الرجل أخبر بجمال المرأة من المرأة نفسها ، ولعل سبب ذلك أنها ليست فى حاجة مثله إلى إدراك الجمال ، لأنه يجتذبها برجولته ومكانته لا بوسامته وقسامته ، وأما هى فتجتذبه بجمالها ودلها وخفة روحها ، وهو ينظر إلى الجميل جملة لا تفصيلا ، وهى تنظر إليه تفصيلا لا جملة .

بعث الحارث بن عمرو الكندى ملك كندة امرأة عاقلة فصيحة اسمها عصام لترى جمال بنت عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وعقلها ، فرأتها ثم وصفتها له بقولها :

« رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن قطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سُوداً بُجَمَم[(٢)] ، تقوساً على مثل عين ظبية عَبْهَرَة[(٣)] ، بينهما أنف كحد السيف ، حَفَّتْ به وجنتان كالأُرْجوان فى بياض كالجمان ، شُقَّ فيه كالخاتم ، لذيذ المُبْتَسَم ، فيه ثنايا غُر ذات أشر[(٤)] ، تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد ، فى

---

(١) ديوان عنترة ٣٤. السابرية : الثياب الرقاق وهى بينة التثنى لطيفة . أقب : ضامر. مدمج . أملس متماسك .

(٢) حمم : فحم . (٣) عبهرة : جامعة للحسن .

(٤) أشر : تحزيز .

رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت فى صدر كصدر الدُّمية ، وعضدان مُمْدَمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمَسّ ولا عرق يُجَسّ ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تُعقَد إن شئت فيهما الأنامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طُوِى طىَّ القباطىّ المُدمَجة ، كُسِرَ عُكَناً كالقراطيس المدْرَجة ، تحيط بتلك البطن سُرَّة كالمدْهُن المجلُوّ ، خلف ذلك ظهر كالجدول ، ينتهى إلى خصر يكاد يَنْبتر ، وكفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت ، يحمله فخذان لُفّا ، وتحتهما ساقان خَدْلتان[1] وشّيتا بشعر أسود كأنه حَلق الزَّرَد ، يحمل ذلك قدمان كحَذْو اللسان[2] » .

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها منه وتزوجها[3] .

وهذه الأوصاف التى بسطتها عصام لا تجافى ولا تنافى فى كثير ولا قليل الأوصاف التى بسطها الشعراء . أما شعر الساقين فسيأتى شبيه له فى وصف حواء لعائشة بنت طلحه ، وكذلك وصفت بلقيس حين قدمت على سليمان وهو دليل على تصون الفتاة وأنها لا تزاول ما يزاول النساء ، أو هو وصف للواقع وليست هذه حادثة فردية ، فقد وصفت امرأة خبيرة بالنساء مثل هذا الوصف ، تلك هى حواء ، « وهى امرأة مخضرمة كانت تعيش بالمدينة وتعلم النساء (أشياء) ، وكانت لها سقيفة يجتمع فيها رجالات قريش ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس فى سقيفتها إلا أهدى إليها ، جاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص ، وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر ، فقالوا لها : يا خالة ، قد خطبنا نساء من قريش ، ولسنا ننتفع إلا بنظرك إليهن فأرشدينا بفضل علمك فيهن ، فقالت لمصعب : من خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة ، قالت وأنت يابن الصديق ؟ قال : أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة ، قالت : فأنت يا بن أبى أحيحة ؟ قال زينت بنت عمرو بن عثمان ، فخرجت إلى عائشة بنت طلحة واحتالت عليها حتى جردتها من ثيابها ، ثم نظرت إليها

---

(١) خدلتان : ممتلئتان .   (٢) حذو اللسان مثله .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ٢ / ١٩٢ ، وجمهرة الأمثال لأبى هلال ٢٩ ، والعقد الفريد ٣ / ٢٢١ ، وأعلام النساء لعمر رضا كحالة ٢ / ١٠٢٠ .

وهي تمشي أمامها ، فارتجّ كل شيء منها ، ثم أقبلت على مثل ذلك ، فقالت : فداك أبي وأمي ، خذي ثوبيك ، ثم أتت الأخريين على مثل ذلك ، ثم رجعت إلى السقيفة فقالت : يابن أبي عبد الله ، ما رأيت مثل عائشة بنت طلحة قط ، ممتلئة التّرائب ، زجّاء العينين ، هَدِبَة الأشفار(١) ، مَمْحطوطة المتنين(٢) ، ضخمة العجيزة ، لفّاء الفخذين ، مسرولة الساقين(٣) ، واضحة الثغر ، نقية الوجه ، فرْعاء الشعر ، إلا أنني رأيت خَلَّتين هما أعيب ما رأيت فيها : أما إحداهما فيواريها الخفُّ وهي عُظْمُ القدم ، والأخرى يواريها الخمار وهي عُظْم الأذن .

وأما أنت يابن أبي أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط ، إلا أن في الوجه رِدَّةً(٤) ، ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس إليه ، وهي مَلاَحَةٌ تعتز بها .

وأما أنت يابن الصديق فوالله مثل أم القاسم ، ما شبهتها إلا بخوط بانةٍ تتثنى أو بِخُشْفٍ(٥) يتقلب على زمل(٦) » .

وهذا الوصف كسابقه مسايرٌ لأوصاف الرجال ، وصاحبته امرأة ذات بصر بالجمال ، ولم تخف على باعثيها العيوب التي رأتها ، وأشارت عليهم بما يواريها ويلطفها .

جمالها النفسي والخلقي

لم يقتصر الغزلون على الاحتفاء بجمال المرأة الجسدي ، بل احتفوا أيضاً بجمالها الروحي ، وليس جمال الروح بأقل تأثيراً في نفس الرجل من جمال الجسد ، بل لعله أعمق منه أثراً وأبعد غوراً وأقوى اجتذاباً .

يقول إميل لودفيج : « الرجل العاشق لا يرى الجمال بل يبصر السحر وحده ،

---

(١) هدبة الأشفار : طويلة شعر أشفار العين .

(٢) محطوطة المتنين : ظهرها مصقول ممدود جيل وكأن ظهرها وجنبيها دلكت وصقلت بالمحط الذي يدلك به الجلد ويصقل .

(٣) مسرولة الساقين : مكسوة الساقين بالشعر .

(٤) ردة : بكسر الراء معناها الامتلاء .

(٥) خشف : ولد الظبي .

(٦) المحاسن والأضداد . ١٧٠ — ١٧٢

والأختان إذا ما عرضتا على رجال الخيال فضلوا أكثرهما سحراً على أكثرهما جمالا، وفى الآداب لا يُسبَغ الجمال الكامل على البطلة ، وفى الحقيقة إن هيلانة الباهرة الجمال كانت امرأة روح[1] » .

وهذا الجمال الروحى والجاذبية الروحية سلطان غلاب ذو عدة قوى ، قد تجتمع كلها فى امرأة فتصير المثل الأعلى فى الجاذبية ، وقد يجتمع بعضها ويتخلف بعضها ولكن هذا لا يفقد المرأة سحرها وجاذبيتها .

ولم ينحصر الغزلون فى دائرة التعبير عن مشاعر الحب ، ووصف جمال المرأة وأثرها فى خلق الرجل ونفسيته وغير ذلك ، بل جالوا فى دائرة أخرى صوروا فيها بعض نواح من نفسية المرأة وأخلاقها .

ولست أزعم أنهم تحدثوا عن نفسية المرأة وأخلاقها حديثاً مستوعباً مفصلاً كأنهم من علماء النفس التحليليين ، لأن هـذا التحليل المستوعب يبعد بهم عن دائرة الغزل ، ولأنه لم يـكن فى مقدورهم ، ولأنهم كانوا منصرفين إلى أنفسهم أكثر من انصرافهم إلى نفسية المرأة .

وإذا كان المحدثون ما زالوا يدينون بأن المرأة (لغز) عسير الحل بعيد الغور ، فقد كان أحرَى بها أن تكون فى نظر الجاهليين أعسر حلا وأبعد غورا .

وقد كان العذريون أحفل بتصوير نفسية المرأة وأخلاقها من الحسيين ، لأن هؤلاء كانوا عاكفين على لذاتهم ، منصرفين إلى تصوير الجمال الجسدى أولاً وقبل كل شىء . وقد يشتركون مع العذريين فى الحديث عن الأخلاق والنفسـية حين يزهدون فى اللذة والمتعة .

وأستطيع أن أحصر هذا الجمال المعنوى فى عدة مظاهر :

١ — جاذبيتها العامة ، ذلك أن المرأة ذات طابع عام يجتذب قلب الشاعر ، فيخضع له ، ويسميه رُقًى ، كأنها فى نظره سـاحرة تهوم بجمالها الروحى عليه فتنومه تنويماً (مغناطيسيا) . قال سويد بن أبى كاهل إنها تيمته وخبلت عقله ، واجتذبته إلى حبها بسحرها الذى يشبه الرُّقَى ، ولم يستطع أن يقاومه لأنه كفيل

(١) الحياة والحب ٥٠ .

باجتذاب الوعول من قمم الجبال ، فالسحر الذى يختلب الوعول أحق بأن يختلب الإنسان :

خبَّلتنى ثم لمـــا تَشْفِنِى ففؤادى كلَّ أوْبٍ مُنْتَزَع
ودَعتنى برُقاها إنهـــا تُنْزِل الأعْصَم من رأس اليَفَع (١)

وقد صور ربيعة بن مقروم سحر المرأه تصويراً آخر ، إذ جعلها قديرة على أن تُصْبِى الراهب الأشيب الذى صبغته الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين الصبوات ، فهو يعيش فى ديره دائم الضراعة لربه فى جنح الظلام والناس نيام ، حتى أضنته العبادة وأطلحه السحر فاغضوضن وجهه وتخدد لحمه ، فهو عزوف عن الدنيا عيوف للذاتها ومباهجها ، ولكنها لو عرضت له وتصدت لتسحره لصبا ، ولكاد يهجر ديره ورهبانيته :

لو أنها عرضت لأشْمَطَ راهبٍ فى رأس مُشْرِفة الذُّرى مُتَقَبِّل
جآَرٍ ســـاعات النيام لربه حتى تخدَّد لحمـــه مُسْتَعْمل
لصبا لبهجتها وحُسْنِ حـديثها ولهمَّ من ناموسه بتنزل (٢)

ويشترك معه النابغة الذبيانى فى هذا التصوير (٣) .

ومن الجاذبية العامة دلال المرأة وغرارتها أو تظاهرها بالغرارة ، قال قيس بن الخطيم :

فيهم لعوب العِشاء آنسه الدَّ ل عَرُوبٌ يسـوءها الْخُلُف
تَغْـترق الطرف وهى لاهيـة كأنما شَـفَّ وجهَها نُزُف (٤)

٢ — نظراتها :

سبق وصف العيون فى (الجمال الجسدى) ولكن النظرة الجاذبة الخالبة من

---

(١) المفضليات ١ / ١٩٠ . الأعصم : الوعل . اليفع : المرتفع .

(٢) الأغاني ٢٠ / ٩٢ مستعمل : يصح أن يكون معناها أنه مسرع . ولعل الصواب متعمل أى مجتهد فى عبادته .

(٣) ديوان النابغة الذبيانى ٣٠ .

(٤) الأغانى ٣ / ٢٢ . عروب : ضاحكة عاشقة حريصة على اللهو . نزف : نزيف .

الجمال المعنوى لا الجسدى ، فقد تكون المرأة جميلة العين ولكنها غير جاذبة النظرات . وقد صور عنترة تأثير النظرات بأن العيون مكحولة بالسحر لا بالكحل :

واستوكنوا ماء العيون بأعين مكحولة بالسحر لا بالإثمد (١)

ومن أسلحة النظرة أن تكون العين ناعسة كأن النوم يهوّم عليها فتغالبه ، فهى مفتّحة مغمضة ، وهذا أجمع لفتونها ، كما قال عدى بن الرقاع العاملى — من بعد — :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم
وَسْنان أقصده النعاس فرنّقت فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم (٢)

وهذا هو النظر بالعين المطروفة فى قول طرفة :

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رِسْلها مطروفة لم تَشَدَّدِ (٣)

وفيما رواه الأصمعى :

ومطروفةِ العينين خفّاقة الحشا منعمةٍ كالريم طابت فَطُلَّت (٤)

ولقد يعبَّر عن العين آنئذ بأنها ميتة ، قال المنخل :

ديار للتى قتلتك غَصْباً بلا سيف يُعَدُّ ولا نبال
بطَرْفٍ مَيِّتٍ فى عَينِ حَيٍّ له خَبْلٌ يزيد على الخبال (٥)

ويصور امرؤ القيس أثر النظرة بأنه يريع قلبه :

إذا نال منها نظرة ريع قلبه كما ذَعَرَتْ كأسُ الصبوح المخمّرا (٦)

ويتأثر عنترة بفروسيته ومكابدته الحرب وخبرته بأدواتها ، فيصور أثر النظرة

(١) ديوان عنترة ٦٩ .
(٢) معجم البلدان ٣ / ٣٧ . جاسم : قرية بين دمشق وطبرية .
(٣) لسان العرب ١١ / ١١٨ وديوان طرفة ٢٦ .
(٤) لسان العرب ١١ / ١١٨ .
(٥) الأغانى ١٨ / ١٥٤ .
(٦) ديوان امرئ القيس ٦٩ .

فى قلبه بوقع النبل :

يا من رمت مهجتى من نبل مقلتها بأسهم قاتلات بُرْؤُها عَسِر (١)

ويصوره مرة أخرى بوقع السهم العميق الأثر الذى لا يخطئ :

رمَتْ عبيلة قلبى من لواحظها بكل سهم غريق النّزْع فى الحَوَر

فاعجَبْ لهن سهاما غير طائشة من الجفون بلا قوس ولا وتر (٢)

٣ — حركتها :

سبق الإعجاب بالحركة فى وصف بعض أعضاء الجسد كالعنق والخصر .

والحركة ذات أثر بالغ فى الجمال الروحى ، لأنها مرتبطة بالخفة واللباقة والرشاقة والتثنى ، فهى تضيف إلى جمال الأعضاء حياة « وللحركة أهمية بالغة ؛ فالشخص النائم يوحى بالإجلال كالشخص الميت ، والحب عند الحركة يلوح صراعاً . وإذ أن كل حركة تثير أعصاب المشتهى فإن السكون يبطل هذه الإثارة ، وعن الحركة يصدر أقسى ما يُحَقَّق وأسرعه » (٣) .

والشعراء يشيدون بالحركة الهينة اللينة التى يميد لها الجسم أو العضو كأنه غصن بان ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الضَّجيع ابتزَّها من ثيابها تميل عليه هَوْنةً غير مِجْبال

كحقفِ النَّقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مَسٍّ وتَسْهال (٤)

وتعجبهم المشية المتمهلة البطيئة الخطا ، لأنها أدل على الرزانة ، وأنسب بالمرأة المنعمة ، وأكشف عن جمالها ، ولأنها دليل على ثقل ردفيها ، قال الأعشى إنها تمشى متأنية كما يمشى فى الوحل مجروح الرجل ، وإنها تنتقل من بيت جارتها إلى بيتها فى تؤدة كتؤدة السحابة لا الرياح تزجيها ولا ركود الهواء يوقفها :

---

(١) ديوان عنترة ٨٠ . (٢) ديوان عنترة ٨٥ .

(٣) الحياة والحب لأميل لودفيج ١٩ .

(٤) ديوان امرئ القيس : ١٤ . ابتزها : جردها . هونة : لينة . مجبال : غليظة فظة. حقف النقا : كثيب مستدير من الرمل .

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجِى الوجِل
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل(١)

ويشبه قيس بن الخطيم مشيتها المتمهلة الرزينة بمشية مهاة فى رمل ناعم إلى سهل ذى حفر ، فهى تتأنى ، وتقدر لكل خطوة موضعها :

تمشى كمشْىِ الزَّهْراء فى دَمِث الر مل إلى السَّهْلِ دونه الجُرُف(٢)

ويشبهها امرؤ القيس بمشية من أضعفه النزف ، فى كثيب غير ممهد فينقطع مشيه :

وإذ هى تمشى كمشى النزيف يَصْرَعُه بالكثيب البَهَر(٣)

وقد بقى هذا الإعجاب بالمشية المتمهلة إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فعمر بن أبى ربيعة يشبه مشيتها بمشية البقرة :

بيضاً حساناً خرائداً قُطُفا يمشين هَوْناً كمشية البقر(٤)

والمرار بن منقذ يشبه مشيتها بمشية الغمامة والقطاة :

قُطُف المشى قريبات الخطا بُدَّنا مثل الغمام المزْجَرّ
يتزاورن كتقطاء القطا وطعمن العيش حلوا غير مر(٥)

وسيأتى تفصيل ذلك .

٤ ــ صوتها وحديثها :

والصوت والحديث من ينابيع الجاذبية ، ولقد يستهوى الصوت ويجتذب كما تجتذب النظرة والحركة والجمال ، لذلك يرى العالم اللغوى سِبِرْبر Sperber أن

(١) ديوان الأعشى ٤٢ ، وشعراء النصرانية ٣٦٦ .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ . الزهراء : البقرة الوحشية البيضاء . الجرف : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض .
(٣) ديوان امرئ القيس ٦٨ . (٤) الأغانى ١ / ١٠٣ .
(٥) المفضليات ١ / ٨٧ . المزجر : المرتفع وهو دائماً رقيق صاف . القطا : طائر معروف سمى بذلك لثقل مشيه .

الغريزة الجنسية كانت مصدر الكلام والتخاطب[1] .

وفى الحياة البدائية صرختان تستجيب لهما الأنثى بنظرتها : صرخة الطفل الجائع لتطعمه ، وصوت الرجل الذى ثارت رغبته الجنسية لتستجيب له ، وللموسيقى تأثير كبير على الجهد العضلى لا ينكر ، كما ثبت أن لها تأثيراً على الجهاز التنفسى والدورة الدموية عند الإنسان والحيوان ، وكثير من الرجال والنساء أحبوا مغنيات أو مغنين مع أن هؤلاء لا يمتازون بجمال . وكما ينتج الحب والجاذبية عن الصوت يصح أن ينتج عنه النفور والكراهية[2] .

لا عجب إذاً فى أن تأثر الغزلون بصوت الحبيبة والمرأة عامة ، وسباهم حديثها وسيأتى وصفهم لصوت القيان وتأثيره فى نفوسهم .

(ا) وهم جميعا يحبون الصوت الأغن الذى يشبه بُغام الظباء ، قال عنترة :

فيا طالما مازحت فيها عُبَيْلَةً   ومازحنى فيها الغزال الْمُقَنَّعُ
أغنُّ مليح الدَّلِّ أحور أكحل   أزجُّ نقى الخد أبلح أدعج[3]

وقال كعب بن زهير :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول[4]

ويحبون أن يكون الصوت رخيما ، قال طرفة :

فحيَّوْنى يوم زَمُّوا عيرهم   برخيم الصوت ملثوم عَطِر[5]

وقد صرح معن بن أوس بأثر الصوت المنغَّم الرخيم فى الحب :

تصيد ألباب الرجال بأُنْسها   ويقتلهم منها التدلل والنَّغْم[6]

(ب) ويستطيبون حلاوة حديث المرأة ويلتذونه ، فهو فى سمع قيس بن الخطيم عذب شهى لذيذ مستطرف ، ولكنها لا تسترسل ، بل تصمت أحيانا فتختزن

---

(١) Psychology of Sex. P. 58. Havelock. Bllis

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٢ .

(٣) ديوان عنترة ٣٣ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٠٨ .   (٥) ديوان طرفة ٥٣ .

(٦) ديوان معن بن أوس ٤ .

هذا الحديث المشتهى ، وكل حديثها جديد شائق :

ولا يَغَثُّ الحديث ما نطقت وهو بفيها ذو لذة طَرِفُ
تخزنه وهو مشتهًى حَسَنٌ وهو إذا ما تكلمت أُنُفُ[١]

وهذا الحديث المشتهى لا مجافاة فيه للعفة ، فالمرأة تجود على سُمَّاعها بحديثها الحلو البرىء ولا تفوه بغيره ، قال سويد بن أبى كاهل :

تُسْمِع الحُدَّاثَ قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يُسْتمع[٢]

ولقد يجمع الشاعر إعجابه بالحديث إلى إعجابه بالفم والبسمات ، قال الحادرة :

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المَكْرَع[٣]

وكذلك جمع المزرد بن ضرار إعجابه باللهو إلى إعجابه بالحديث[٤] ؛ وأعجبهم من الحديث أن يكون بصوت خفيض ، قال الأسود بن يعفر النهشلى :

ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامساً فبلغن ما حاولن غير تناد[٥]

أما أثره فى نفوسهم فإنه قوى عميق ، صور لبيد حديثها بأنه خمر مزج بها عصير رمان طازج :

كأن الشَّمول خالطت فى كلامها جَنِيًّا من الرمان لدنا وذابلا
لذيذا ومنقوفا بصافى مُخِيلَةٍ من الناصع المختوم من خمر بابلا[٦]

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ ، والأغانى ٣ / ٢٢ والأصمعيات ١ / ٤٥ . أنف جديد شهى .

(٢) المفضليات ١ / ١٩٠ .

(٣) ديوان الحادرة ٥ المكرع : المقبل والمراد الفم .

(٤) المفضليات ١ / ٩٢ .

(٥) المفضليات ١ / ١٩ .

(٦) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أوالباردة منها. منقوف : مصفى ممزوج . مخيلة : سحابة ممطرة .

وصوره الحكم بن ريحان بأنه عسل :

كأنما عسل رُجْعَانُ منطقها ... إن كان رَجْعُ الكلام يشبه العسلا[١]

وظل ولع الشعراء بحلاوة حديث المرأة إلى ما بعد العصر الجاهلى ، بل ظل التصوير نفسه ، كقول عمر بن أبى ربيعة :

وحديث بمنزلة تنزل العصـ ... ـم رخيم يشوب ذلك حلم[٢]

وظلت المرأة العربية توصف بأنها حلوة الحديث ظريفة ، يدل على ذلك قول أبى الغصن الأعرابى : خرجت حاجا فلما مررت بقباء تداعى أهله وقالوا : « الصَّقِيل ، الصَّقيل » ، فنظرت وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل ، فلما رميناها بالحَدَق ألقت البرقع على وجهها ، فقلنا إنا سَفْرٌ ، وفينا أجْر ، فأمتعينا بوجهك ، فانصاعت ، وأنا أعرف الضحك فى وجهها ، وهى تقول :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفك رائدا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيتَ الذى لا كلُّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر[٣]

وقال أبو حازم المدنى : بينا أنا أرمى الجمار رأيت امرأة سافرة من أحسن الناس وجهاً ترمى الجمار ، فقلت : يا أمة الله ، أما تتقين الله ؟ تسفرين فى هذا الموضع فتفتنين الناس ؟ قالت : أنا والله يا شيخ من اللواتى قال فيهن الشاعر — العَرْجِىّ — :

من اللاء لم يحججن يبغين حِسْبَةً ... ولكن ليقتلن البرىء المغفَّلا

قلت : فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار[٤] .

٥ — ابتسامها :

بسمة المرأة من أنواع مفاتنها وعوامل إغرائها ، وقد سبق وصف الشعراء لها

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٢٩ (٢) الأغانى ١ / ١٢٥ .
(٣) عيون الأخبار ٤ / ٢٢ .
(٤) الأغانى ١ / ٤٠٤ ، وعيون الأخبار ٤ / ٢٩ . وأبو حازم المدنى هو ابن دينار ، من وجوه التابعين روى عن سهيل بن سعد وأبى هريرة ، وروى عنه مالك وابن أبى ذئب ونظراؤهما .

ولأثرها فى الكلام على (الفم والأسنان) ، ولكن ذلك لا يمنع من إفرادها بكلمة هنا .

فالنابغة الذبيانى يصور ضحكها شركا قديراً على قنص الوعول لأنه جاذب خالب ويصور ابتسامها مغريا للسحاب على الإبراق :

وإن ضحكت للعُصْمِ ظلت دوانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يَبْرُقِ[١]

والحادرة يصف تبسمها بالحسن ، والإغراء له على أن يشتار رحيق الفم :

وإذا تنازعك الحديثَ رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المكرع[٢]

٦ — عنقها :

كانت المرأة العفيفة الممنعة العسيرة المنال هى المثل الأعلى فى نظر الرجال . قال على بن أبى طالب : « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل ، فإذا كانت المرأة مَزْهُوَّة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها[٣] » .

وقد صرح سليك بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التى تجود بوصلها ، ويعلق بالممنعة التى لا تأتى ريبة :

من الخفِرات لم تَفْضَح أخاها ولم ترفع لوالدها شَنارا
يعاف وصالَ ذاتِ البذل قلبى وأتبع الممنَّعة النَّوارا[٤]

وللعفة مظاهر شتى ؛ فقد تكون فى خلاط المرأة للرجال وتحديثهم ، على أن تخالطهم وتحدثهم فى تصون ، فلا يسمعون منها غير الجد العف من القول . قال سويد بن أبى كاهل :

تسمع الحداث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يستمع[٥]

وقال كعب بن رواع :

ويخالها المرِحُ السفيه تُحبه ونَوَالُها غَيْرَ الحديث بعيد[٦]

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ٣٩ .
(٢) المفضليات ١ / ٤٢ .
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣٤٦/٤ .
(٤) الأغاني ٤ / ٣٦٤ .
(٥) المفضليات ١ / ١٩٠ .
(٦) المؤتلف والمختلف ١٢٨ .

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجابا بينها وبين النـاس ، فلا يجرؤ أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته ، وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس :

منعمـة ما يستطاع كلامها ... على بابها من أن تُزَار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تُـفْـشِ سره ... وتُرْضِى إياب البعل حين يئوب (١)

وقد يجاورها المحب شهوراً كثيرة ، ولـكنه لا ينال شيئا ، قال قيس بن الحدادية:

أجِدَّكَ إن نُـعْمٌ نأت أنت جازع ... قد اقـتربت لَوَ ان ذلك نافع
قد افـتربت لوان فى قرب دارها ... نوالا ولـكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا فى شهـور كثيرة ... فما نوّلتْ والله راء وسـامع (٢)

ويشبه هذا قول الشاعر :

فـكيف صـبرت أو ترجو مهاة ... منعمـة تزار ولا تزور
جلَتْ بَرَداً فهشَّ له فؤادى ... فـكدت إليه من شـوق أطير
بَرَهْـرَهةٌ يحـار الطرف فيها ... وليس ينال من خَولَ اليسير (٣)

وقد صور رجل من بنى أسـد تصون محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطلب ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها فى شىء :

وإنى لأرجو الوصل منك كما رجا ... صدى الجوف مرتاداً كُدَاه صَلُود
وكيف طِلابى وصل من لو سألته ... قذَى العين لم يُطلَبْ وذاك زهيد
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى ... أراك صحيحاً والفؤاد جليـد (٤)

وقد استهوى الخلق الطاهر الأعشى — وهو صاحب خمر ولذة حسية — :

(١) المفضليات ٢ / ١٩١ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٦ . (٣) برهرهة : بيضاء ناعمة شابة .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ١٩٠ ومعجم البلدان ٦ / ٢٩٦ الجوف : المطمئن من الأرض. كداه : جمع كدية الأرض الغليظة. مرتاداً : طالباً منصوب على الحال، صلود قليلة الماء أى أرجو وصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا ماء فيها .

ليست بســـوداء ولا عِنْفِصٍ ‏ ‏ داعرةٍ تدنو إلى الداعر
عَبْهَرَةُ الخلق بُلاخيـــــة ‏ ‏ تَشـوبه بالخلق الطاهر(١)

وهى لذلك طيبة السمعة لا تتناولها الألسن ؛ قال الشنفرى :

فيا جارتى وأنت غير مُليمة ‏ ‏ إذا ذُكرتْ ولا بذات تَقَلَّت
أميمة لا يُخْزِى نَثَاهَا حليلَها ‏ ‏ إذا ذُكر النسوانُ عَفَّت وجَلَّت
إذا هـو أمسَى آب قرة عينه ‏ ‏ مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتَها ‏ ‏ إذا ما بيوت بالملامة حُلت
فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها ‏ ‏ إذا ما مشت ولا بذات تَلَفُّت
كأن لها فى الأرض نِسْياً تقصه ‏ ‏ إذا مامشت و إن تحدثك تَبْلَت(٢)

* * *

وقد اشتهرت المرأة العربية بالعفة منذ القدم ، وكانت عفتها نعمة على قومها ، لأنها أنقذتهم من خزى ومعرة ، وذلك أن الفطيون اليهودى ملك على المدينة ، وكان الأنصار — الأوس والخزرج — قد نزلوا بها من قبل ، وكان الفطيون رجل سوء فاجرا ، وكانت اليهود تدين بألا تزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها ، وقيل إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضاً ، ثم إن أختاً لمالك بن العجلان الخزرجى تزوجت ، فلما كان زفافها خرجت إلى مجلس قومها وفيه أخوها مالك ، وقد كشفت عن ساقيها ، فقال لها : « لقد جئت بسوء » ، فقالت : « الذى يراد بى الليلة أشد من هذا ، أدخل على غير زوجى ! ؟ » . ثم عادت فدخل عليها أخوها ، فأشارت عليه أن يدخل مع النساء ، فإذا خرجن ودخل الفطيون قتله ، فذهب

(١) ديوان الأعشى ١٠٤ عنفص : بذيئة قليلة الحياء أو داعرة . عبهرة : عظيمة حسنة الخلقة . بلاخية : طويلة لينة .

(٢) الأغانى ٢١ — ٩١ والمفضليات ١ — ١٠٦ تقلت : لا يقال إنها تبغضت تبلت : تنقطع فى كلامها لا تطيله .

مع النساء فى زى امرأة ومعه سيفه ، فلما خرجن قتله مالك وخرج هارباً ، فقال بعضهم فى ذلك :

هل كان للفطيون عقرُ نسائكم حكم النصيب فبئس حكم الحاكم
حتى حباه مالك بمُرَشَّةٍ حمراء تضحك عن نجيع قاتم[1]

واستنجد مالك بأبى جبيلة ، عظيم غسَّان ، فأباد كثيراً من اليهود الذين بالمدينة وصار العز بها للأوس والخزرج[2] . وقد سبق فى مقدمة الغزل الحسى مايزيد عفة المرأة العربية وضوحاً .

٧ — حياؤها :

حياء المرأة من الرجل وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، بل إن الحياء يتناول مالا تتناوله العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ولكنها تبدى محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، ولكن المرأة الحيية لا تفعل ذلك ، وقد ذهب شوبنهور إلى أن المرأة أقل حياء من الرجل « لأنها لاتعرف الحياء بمعزل عن غريزة الاحتجاز الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ، فيستترون فى الحمامات العامة ولكن المرأة لاتستتر مع المرأة إلا لعيب جسدى تواريه »[3] ولكن ذلك غير صحيح ؛ لأن المرأة تستحى حيث لا احتجاز ، ولأن النساء تعودن ألا يستحى بعضهن من بعض فى كثير من الأحيان ، كما أن بعض الرجال لايستحى بعضهم من بعض ، ولكن النساء يستحين من الرجال .

وحياء المرأة من مكملاتها فى نظر الرجل ، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها ، وقد أعجب به العرب لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المتكملة لصفات الأنوثة .

قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسم ، وهن فى بيوتهن مستورات :

---

(١) طعنة مرشة : واسعة ذات رشاش من الدم .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ / ٢٤١ ومعجم البلدان ٣ / ٤٥٢ .

(٣) هذه الشجرة ١٢١ العقاد .

نواعم ما يضحكن إلا تبسما   إلى اللهو قد مالت بهن السوالف [١]

وقال حاتم :

يضيء لها البيتَ الظليلَ خَصاصُهُ   إذا هي يوماً حاولت أن تَبَسَّما [٢]

وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مُقَنَّعة لا تلتفت ؛ وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها   إذا ما مشت ولا بذات تَلَفُّت

كأن لها فى الأرض نِسْياً تقصه   على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَت [٣]

ومن حيائها أن تقل زوراتها لجاراتها ، فيعذرنها ويزرنها ، وليست مستهينة بهن ولكنها ذات حياء وخفر ، قال قيس بن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها   وتَعْتَلُّ عن إتيانهن فتُعْذَر

وليس لها أن تستهين بجارة   ولكنها منهن تحيا وتَخْفَر [٤]

وهن يحببنها لأنها حيية لا تتسقط أخبارهن ، ولا تتجسس على دخائلهن ، قال الأعشى :

ليست كمن يكره الجيران طلعتها   ولا تراها لسر الجار تختتل [٥]

وقال عنترة إنها غضيضة الطرف [٦] .

وقد نشأ عن العفة والحياء أن أقل الشعراء من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً بحب ، وأرى أن الذوق العربى كان لا يرتضى ذلك ، لأن العرب أميل إلى المرأة المتصونة البعيدة المنال التى تلهب القلب حباً فى عزة وشمم وتسام ، أما المرأة الجريئة المتهالكة على الرجل فإنها لا تثير إلا طُلَّاب الجسد ، وهى فى نظرهم لا توحى ولا تحيى القلب بالحب ، وسنرى أنهم عابوا فى العصر الإسلامى عمر بن أبى ربيعة لأنه

---

(١) ديوان أوس بن حجر ١٤ .   (٢) الأغانى ١٥ / ١٥٩ .

(٣) الأغانى ٢١ / ٩١ والمفضليات ١ / ١٠٧ ومحاضرات الأرباء ٢ / ١٣٦ النسى الشيء المفقود . تقصه : تبحث عنه . أمها : قصدها الذى تريده . تبلت : تقطع كلامها لا تطيله

(٤) الأغانى ١٥ / ١٥٩ .   (٥) شعراء النصرانية ٣٦٧ .

(٦) ديوان عنترة ١٤٣ .

صور بعض النساء مشغوفات به طالبات له ، مثل قوله :

قالت الصغرى وقد تَيَّمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه (١) .

٨ — تقلبها :

وقد وصفوا المرأة بالتقلب والغدر والتلون ، وقالوا إنها تمنى وتخلف ، وتملى للرجل حتى يستوثق من وفائها له وانحصارها فيه ، وإذا بها تنكث عهدها ، وتهدم ما بنى .

وقد يكون مردُّ ذلك إلى العفة والحياء ، ذلك أن الرجل يفهم من كلمة أو إشارة أو حركة أن المرأة راضية بأن تواصله ، ثم لا تحقق ما فهمه أو توهمه ، فيتهمها بالنكول والغدر والتقلب .

وقد يكون مرده إلى أنها تَعِد فى لحظة غفل فيها ضميرها ، فإذا ما استيقظ برئت مما وعدت ، واحتجزها حياؤها وعفتها من أن تنيل شيئاً ، فيصفها الرجل بالتلون والإخلاف .

ولقد يكون مرجع هذا إلى أنها مسوقة بالفطرة الجنسية التى خلقت فيها قبل أن تنشأ الآداب الاجتماعية والدينية « فقد أغرتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر الأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبناء من أحسن الآباء . فلم يكن مما يوافق هذه الفطرة فى العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحد ، ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقد يغلب أحدهم رجلها الذى تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه .

وكانت الحرب فى بداية الحياة الإنسانية مقياس القدرة والرجحان بين الرجال ، فكان من شأن المرأة أن تسلم لظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع كلما دارت رحى

---

(١) الأغانى ١ / ١١٩ .

الحرب بين غالب ومغلوب ، وبين شجاع قوى وشجاع أقوى منه[1] » .

لهذا وصفها شعراء العصر الجاهلى بالتلون ، ووصفها المتنبى بقوله : « ومن عهدها ألا يدوم لها عهد » وأبغضها المعرى ، وذمها ، ورأى السلامة فى الابتعاد عنها ، واتفق معه فى نظرته السوداء إليها شوبنهور .

ويقول المثل اللاتينى : « يجب أن يكتب على الهواء أو الماء ما تقوله المرأة لحبيبها[2] » .

ولكنها فى الحقيقة وإن تقلبت وتلونت فى حبها للفرد فإنها تثبت على حبها للنوع ، فهى « وفية للحياة لا لهذا الرجل أو ذاك ، وصادقة فى الحب لا فى إرضاء أهواء من تحب ، فهى وفيـة بالفطرة رضيت أم لم ترض ، وهى صادقة بالإلهام حيث أرادت وحيث لا تريد[3] » .

وليس معنى هذا أن للمرأة أن تتحلل من خلق الوفاء والثبات ، وأن تستسلم لدواعى هذه الفطرة التى كانت لها منذ فجر الحياة ، فإن وسيلة نيل المرأة قد تبدلت ، والأحوال الاجتماعية قد تطورت ، وصارت الآداب الاجتماعية والدينية هادياً إلى سواء السبيل ، ومن شأن هذه الآداب أنها تهذب الفطرة ، وتصفيها من عيوبها ، فعلى المرأة أن تستجيب للأخلاق الاجتماعية والدينية فتصدق فى حبها إن أحبت ، وتفى .

ولكن المرأة كانت عفيفة حيية أو كانت أكثر خضوعاً لفطرتها الأصيلة ، فخاتلت وراوغت وتلونت .

قال الأعشى إنها تمنى بالقرب ثم تبتـلى بالبعد ، فمن الطيش أن يحبها :

أرى سفها بالمـرء تعليق قلبـه ... بغانية خَوْدٍ متى تَدْنُ تَبْعُدُ[4]

وطالبها المثقب العبدى ألا تعد موعداً مكذوباً :

ولا تعدى مواعد كاذبات ... تمرُّ بها رياح الصيف دونى[5]

(١) هذه الشجرة ١٢٦ عباس العقاد .

(٢) Benham's. New Boak of Quotations P. 581.

(٣) مطالعات فى الأدب والحياة . العقاد .

(٤) شعراء النصرانية ٣٨١ . (٥) شعراء النصرانية ٤٠٥ .

واحترق ثعلبة بن صعير بإخلافها وعودَها ، فراض نفسه على ألا يرجو تحقيق مواعيد من هذه الحبيبة البخيلة المخلافة وإن أقسمت على الدم الذى يتحالفون عليه ، لأن الغوانى لا يثبتن على ودهن لفقير ولا لغنى :

سئم الإقامةَ بعد طول ثوائه ... وقضى لُبانته فليس بنـاظر
لِعداتِ ذى أرْبٍ ولا لمواعدٍ ... خُلُفٍ ولو حلفت بأسْحَم مائر
وعدتك ثُمّتَ أخلفت موعودها ... ولعل ما منعتك ليس بضائر
وأرى الغوانى لا يدوم وصالها ... أبدا على عُسُر ولا لميـاسر[1]

ولهم تصاوير شتى لهذه الحبيبة المخلفة ، فهى فى نظر كعب بن زهير كالغربال لا يمسك الماء ، وكعرقوب الذى ضرب مثلا فى الغدر بأخيه :

وما تدوم على العهد الذى عَهِدت ... إلا كما تمسك المـاء الغرابيل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل[2]

وهى كذلك فى رأى علقمة :

وقد وعدتك موعداً لو وفت به ... كموعود عرقوب أخاه بيثرب
وقالت : متى يُبْخَلْ عليـك ويُعْتَلَلْ ... تَشَكَّ وإن يُكشف غرامك تدرب[3]

وعهدها فى مثل كلام الحداد الذى يتنقل بالبادية فيقيم بالموضع أياماً فيكسد عمله فيشيع أنه مرتحل الليلة وإن لم يرد أن يرحل ، ليستعمله من يريد ، ولذلك قالوا فى أمثالهم : إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبِّح[4] .

فالعلاقة بين وعد المرأة ووعد القين الكذب المتعمد والعزم على عدم الإنجاز ،

(١) المفضليات ١ / ١٢٦ . ذى أرب : الأرب بكسر الهمزة وفتحها وسكون الراء الدهاء والمكر .
(٢) حماسة البحترى ٨٣
(٣) ديوان علقمة ٦ .
(٤) لسان العرب ١٧ / ٢٣١ ومجمع الأمثال للميدانى ١ / ٣٦ .

ويذكر أبو هلال تعليلا آخر لوعد القين أنه إذا أتى قوماً حسّن لهم عمله أول الأمر حتى يثقوا به ثم يفسده بعد ذلك[١]، والعلاقة هنا واضحة أيضاً لأن المرأة تمنى وتعد فيثق بها الرجل ثم لا تنيله شيئاً مما وعدت .

قال نهشل بن حَرِى :

وعهد الغانيات كعهد قين ... ونَتْ عنه الجعائلُ مستذاقِ
كبرق لاح يعجب من بعيد ... ولا يَشْفِي الحوائمَ من لَمَاقِ[٢]

وشبه طفيل الغنوى النساء بشجر مرّ ولكنه لا غنى للناس عن أكله :

إن النساء كأشجار نبتن لنا ... منها المرار وبعض المر مأكول
إن النساء متى يُنْهَيْنَ عن خلق ... فإنه واجب لابد مفعول

فالمرأة فى نظره قد تكون كالشجرة المرة ولكنها تغرى الرجل بأكلها ، وهى فى نظره مولعة بأن تفعل ما أمرت بتركه .

٩ — ليست ثرثارة :

ووصفوا المرأة بأنها نزرة المقال ، غير ثرثارة ، والحق إن هذه صفة مستحبة فى النساء على ندرتها فيهن ، لأن من طبعهن أن يفضنَ فى المقال ، ويشققن الحديث طرائق وألواناً .

قال النابغة إنها كتومٌ لغضبها وأسبابه ، فلا تذيعه ولا تذيعها ، وإنها نزرة الحديث بمسراتها وأسبابها ، وهذا غريب عجيب من المرأة لأنها إذا غضبت أو ابتهجت اندفعت فى حديثها اندفاعاً .

إذا غضبت لم يَشْعُرِ الحىُّ أنها
أُرِيبَتْ وإن نالت رِضاً لم تُدَهْدِق[٣]

(١) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٦ .

(٢) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٦ ومجمع الأمثال للميدانى ١ / ٣٦ ولسان العرب ٤٠١/١١ . ونت عنه الجعائل : قصرت عنه الأجور. مستذاق : مجرب . الحوائم : العطاش . لماق : شىء .

(٣) ديوان النابغة ٣٩ تدهدق : تضحك ضحكا يخرجها عن وقارها .

وقال أوس بن حجر إنهن لا يتخطفن الحديث ويتناهبنه ، ولسن يتكلمن معاً فى آن واحد كما تفعل النساء ، وإذا حُدِّثن بسر فإنهن لا يذعنه :

ليس الحديث بنُهْبَى بينهن ولا   سر يحدِّثنه فى الحى منشور[١]

١٠ — بم تستمال :

(ا) وقد اختلفوا فى وسيلة استمالة المرأة ونيل إعجابها ورضاها ، أيستميلها الشباب والمال؟ أم المداهنة والملاينة ومعسول القول؟ أم البطولة والشجاعة والكرم والمجد ؟ وأكثر الشعراء على أن المرأة يستهويها الشباب — لأنه مجال البطولة والقوة —ويستهويها المال — لأنه وسيلة الكرم والزعامة — فليس الشباب هو المقصود وحده وإن كان حبيباً إلى المرأة ، وليس المال هو المقصود وحده وإن كان من مغرياتها ، وإنما هما مقصودان لذاتهما ، ولما يحققان من سؤدد وزعامة وعظمة . وليس من شك فى أن البيئة العربية كانت تقيم صرح الأخلاق على دعائم أقواها وأعظمها الكرم والشجاعة ، فهما الأساس وهما القياس ، فلا عجب أن تقدر النساء الرجال على قياسهما ، وقد سبق فى آثار الحب والحبيبة فى نفس الشاعر أن الحب كان يدفعه إلى البطولة والمجد دفعاً .

من رأى المرار الفقعسى أن المرأة لا تستمال بجفاء المعاملة ولا بالانشغال عنها بأعمال أخرى ، ولا بالثراء ، وإنما تستمال بالكلام المعسول والوعود الكاذبة وإظهار الحب لها والوجد بها :

وليس الغوانى للجُفاة ولا الذى   له عن تقاضى دَيْنهن هموم
ولكنما يَسْتَنْجِزُ الوعد تابعٌ   مُناهُنَّ حلَّافٌ لهن أثيم
وما جُعِلَتْ ألبابهن لذى الغِنَى   فييأس من ألبابهن عديم[٢]

ويرى علقمه بن عبدة ، وامرؤ القيس ، والأعشى ، وعنترة ، وعبيد بن الأبرص ، والأسود بن يعفر وغيرهم من شعراء العصر الجاهلى ، ثم جران العود

(١) ديوان أوس بن حجر ٩ .   (٢) عيون الأخبار ٤ / ٤٥ .

النميرى وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما من شعراء العصر الإسلامى ، يرون أن الشباب والمال — وما يستتبعان من محامد طبعاً — هما وسيلة اجتذاب المرأة ونيل إعجابها .

قال علقمة إنه بصير بوسائل إرضاء النساء عليم بنفسيتهن ، وإنه يرى أنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الشاب الفتى :

فإن تسألونى بالنساء فإننى ... بَصِيرٌ بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب
يُرِدْن ثراء المال حيث علمنه ... وشَرْخُ الشباب عندهن عجيب (١)

وقد أعجب هذا القول أبا عمرو بن العلاء فقال : أعلم الناس بالنساء عبدة بن الطيب حيث يقول (الأبيات) (٢) .

وقال امرؤ القيس :

ويارب يوم قد أروح مُرَجَّلا ... حبيباً إلى البيض الكواعب أمْلَسَا
يُرَعْن إلى صوتى إذا ما سمعنه ... كما ترعوى عِيطٌ إلى صوت أعْيَسَا
أراهن لا يحببن من قل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقُوِّسا (٣)

وقال الأعشى :

وأرى الغوانى حيث شبت هجرننى ... ألاَّ أكون لهن مثلى أمردا
إن الغوانى لا يواصلن امرأً ... فقد الشباب وقد يصلن الأمردا (٤)

وعتب عنترة على عبلة لأنها هجرته ونكثت عهودها وهو لا يزال شاباً فى نعمة :

ألا يا عبل ضَيَّعْتِ العهودا ... وأمسى حبلك الماضى صدودا

---

(١) ديوان علقمة ٣ وحماسة البحترى ٢٨٩ وعيون الأخبار ٤ / ٤٥ والعقد الفريد ٣ / ٢١٨ والمفضليات ٢ / ١١٩ والشعر والشعراء ٥٩ .

(٢) العقد الفريد ٣ / ٢١٨ .

(٣) ديوان امرىء القيس ٩٨ أملس : لم ينبت شعر لحيته . عيط : نوق فتية شابة لم تحمل . أعيس : فحل قوى على الضراب .

(٤) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ٢ / ١٣٨ .

وما زال الشباب ولا اكتهلنا ولا أبلى الزمانُ لنا جديدا (١)

وقال عبيد :

وقد علا لمتى شيب فودعنى منها الغوانى وداع الصارم القالى (٢)

وتحدث عن تبرم زوجته بشيبه فقال :

ألا عتبت على اليوم عِرسى وقد هبَّتْ بليل تشتكينى
فقالت لى كبرت ، فقلت هَنَّا لقد أخلفتُ حينا بعد حين
تُرينى آية الإعراض منها وفظَّتْ فى المقالة بعد لين
ومطت حاجبيها أن رأتنى كبرت وأنْ قد ابيضت قرونى
فقلت لها رويدك بعض عتبى فإنى لا أرى أن تزدهينى
فإن يك فاتنى أسَفَىِ شبابى وأضحى الرأس منى كاللَّجين
فقد ألج الخِباء على العذارى كأن عيونهن عيون عِين (٣)

وقال الأسود بن يعفر :

لما رأت أن شيب المرء شامله بعد الشباب وكان الشيب مسئوما
صدَّتْ وقالت : أرى شيباً تفرَّعه إن الشباب الذى يعلو الجراثيما (٤)

* * *

(ب) الشيب والحب :

١ — وإذْ كان من خلق المرأة — وما زال — أن تحب الشباب لأنه قوة وفتوة وحيوية ومجلى للبطولة ، فقد تفجع الشيب على شبابهم المنصرم ، وتحسروا على فوته ، وأسفوا لحرمانهم من لذاته .

---

(١) ديوان عنترة ٥٦ . (٢) ديوان عبيد القصيدة ٥ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ عرسى : زوجى . هنا : تنحى وأبعدى . اللجين : بفتح اللام زبد أفواه الإبل . العين : البقر الوحشى .

(٤) المفضليات ٢ / ٢١٨ تفرعه : صار فى فروعه أى شعره . الجراثيم : ج جرثومة . وهى أصل الشجرة تجمع الرياح التراب إليه ، فالشباب يعلو ويرتفع ما لا يقدر عليه الشيوخ .

قال سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب … أودى وذلك شأوٌ غير مطلوب
ولّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه … لو كان يدركه ركض اليعاقيب
أودى الشباب الذى مجدٌ عواقبه … فيه نَلَذُّ ولا لذات للشيب [1]

وقال علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب … بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيب [2]

٢ — وصرح بعضهم بأن الشيب لا يلائم الحب ، فقد عجب النابغة من أن يعلق بحب وقد وخط الشيب رأسه :

علقتَ بذكر المالكية بعد ما … علاك مشيب فى قذالٍ ومفرقِ [3]

وقال عبدة بن الطبيب :

فعدِّ عنها ولا تشغلك عن عمل … إن الصبابة بعد الشيب تضليل [4]

وقال الأعشى :

وإن أخاك الذى تعلمين … ليالينا إذ نحل الجفارا
تبدل بعد الصبا حلمه … وقنّعه الشيب منه خمارا [5]

وقال أوس بن حجر :

صَبَوْتَ وهل تصبو ورأسك أشيب … وفاتتك بالرهن المُرامِق زينب [6]

وقال الشمردل بن ضرار الضبى :

الآن لما علاك المشيب … وأبصرت فى العارضَيْنِ القَتِيرا
وبان الشباب بلذاته … فولى وأصبحت شيخا كبيرا

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ٧ وشعراء النصرانية ٤٨٧ : اليعاقيب ج يعقوب ذكر القبج وقيل ذوات العقب والبقاء من الخيل .

(٢) العمدة ١ / ٣١ والمفضليات ٢ / ١٩١ .

(٣) ديوان النابغة ٣٩ .

(٤) حماسة البحترى ٣١٣ والمفضليات ١ / ١٣٤

(٥) معجم البلدان ٣ / ١١٢ وشعراء النصرانية ٣٨١ . الجفار : موضع بنجد .

(٦) ديوان أوس بن حجر ١ .

تطرّبْتَ واحتجت للغانيات هيهات حاولت أمراً عسيراً(١)

وقال النابغة الذبياني :

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع(٢)

وقال حسان :

وكيف لا ينسى التصابى بعد ما تجاوز رأس الأربعين وَجرّبا

وقد بان ما يأتى من الأمروا كتست مفارقه لوناً من الشيب مُغْرِبا(٣)

٣ — ولكن الشعراء عوضوا هذا الحرمان بشيئين : حديث عن صبواتهم فى شبابهم ، ودفاع عن شيبهم .

يمثل النوع الأول عروة بن الورد فى قوله :

ويدعوننى كهلا وقد عشت حقبة وهن عن الأزواج نحوى نوازع(٤)

وامرؤ القيس فى قوله :

ألا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليوم أننى كبرت وألا يحسن السرَّ أمثالى

كذبْتِ لقد أُصْبِى على المرء عِرْسه وأمنع عرسى أن يُزَنَّ بها الخالى(٥)

ويمثل النوع الثانى شعراء اعتذروا عن شبابهم بأن تتابع الأيام لابد أن يشيب ، وكأنهم ينذرون الحسان بأنهن سيشبن أيضاً وييبس عودهن فلا يستبين رجلا ، أو بأن حوادث الأيام والمخاطرات والمغامرات هى التى شيبت رءوسهم على صغر أسنانهم ، فهذا نخار لهم .

قال الأعشى :

وقد قالت قُتَيْلة إذ رأتنى وقد لا تعــدم الحسناء ذاما

أراك كبرت واستحدثت خلقا وودَّعْتَ الكواعب والمداما

---

(١) حماسة البحترى ٣١٥ . (٢) ديوان النابغة ٤٩ .

(٣) ديوان حسان ١٢ .

(٤) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٣ وفى حماسة البحترى ٣٠٨ أن القائل مسعود بن مصاد الكلبى .

(٥) ديوان امرىء القيس ١٣٩ يزن بها : يتهم .

فإن تك لِمَّتى يا قَتْـلُ أضحت ... كأن على مفـــارقها ثَغَاما
وأقصر باطلى وصحـوت حتى ... كأن لم أجر فى دَدَنٍ غلاما
فإنْ دوائر الأيام يفـنى ... تتابع وقعها الذَّكَر الُحساما[١]

وقال عروة بن الورد :

ويدعوننى كهلا وقد عشت حقبة ... وهن عن الأزواج نحوى نوازع
فما شاب رأس من سنين تتابعت ... طوال ولـكن شيبته الوقائع[١]

وقال يزيد بن عبد المدان :

فإن تك صدت عن هواها فراعها ... نوازل أحـــداث وشيب مجلل
فيارب خيل قد هديت بشَطْبَة ... يعارضها عَبْلُ الجرادة هيكل[٣]

نموذج الجمال بعد العصر الجاهلى

صورت نموذج الجمال من شعر العصر الجاهلى ، وأرى أن أعقبه بتصوير نموذج الجمال من شعر العصر الإسلامى ، وسيتبين أن النموذج لم يتغير ، وأن الفطرة التى رسمت النموذج الأول هى الفطرة نفسها التى رسمت الثانى ، وسيتبين أيضاً أن المرأة الجميلة فى الإسلام — وقد تحضرت — لم تزد على المرأة فى الجاهلية ، وقد آثرت أن أكثر من الاستدلال بشعر عمر بن أبى ربيعة لأنه أستاذ عصره فى البصر بجمال النساء ، قال فيه النُّصَيب : « لَـعُمر بن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال »[٤] ، وقال فيه جرير : « إن أنسب الناس المخزومى ، يعنى عمر بن أبى ربيعة »[٥] وقال فيه عبد الله بن مصعب : « إن لشعره لموقعاً من القلب ومدخلا لطيفاً ، ولو كان شعر يسحر لـكان هو[٦] » .

---

(١) ديوان الأعشى ١٣٤ وشعراء النصرانية ٣٨٦ الثغام : شجر له نور أبيض . ددن : لهو .
(٢) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٣ .
(٣) شعراء النصرانية ٨٧ شطبة : سيف . عبل : هيكل : ضخم .
(٤) الأغانى ١ / ٧٤ . (٥) الأغانى ١ / ٧٦ .
(٦) الأغانى ١ / ٧٨ .

١ ــ الجسد عامة :

ممتلىء ريان ، نحيل العظام ، ضامر الخصر ، قال عمر :

ممكورَةٌ رَدْعُ العبير بها جَمّ العظام لطيفة الخصر(١)

وقال :

خَدَلَّجَةٌ إذا انصرفت رأيت وشاحها قَلِقا(٢)

ومثله فى ذلك المرار بن منقذ :

فهى هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يُشد المؤتَزَر

وإذا تمشى إلى جاراتها لم تكد تبلغ حتى تنبهر

دفعت رَبْلَتُها رَبْلَتَها وتهادت مثل ميل المنقعر

وهى بَدّاء إذا ما أقبلت ضخمةُ الجسم رَداحٌ هَيْدَكُرُ(٣)

وساقها ممتلئة ، قال عمر :

وساقا تملأ الخلخا ل فيه تراه مختنقا(٤)

وقال المرار بن منقذ :

يضرب السبعون فى خلخالها فإذا ما أكرهته ينكسر(٥)

والتفت معن بن أوس إلى كفلها وكعبها وساقها أيضاً :

لها كفل رابٍ وساق عميمة وكعب علاه اللحم ليس له حجم(٦)

وجمع ذو الرمة كثيراً من أوصاف جسدها التى تتفق مع ذوق من قبله فى قوله :

---

(١) الأغانى ١ / ١٩٤ ممكورة : ممتلئة الساقين مدمجة الخلق . ردع : أثر . جم لعل أصلها جاء .

(٢) الأغانى ١ / ١٠٤ .

(٣) المفضليات ١ / ٨٨ الربلة : اللحمة فى باطن الفخذ . المنقعر : المنقلع ويريد النخلة . بداء : بعيدة ما بين الفخذين مع كثرة لحم . رداح : عظيمة . هيدكر : شابة ممتلئة حسنة الدل

(٤) الأغانى ١ / ١٠٤ .

(٥) المفضليات ١ / ٨٩ السبعون : المراد سبعون مثقالا .

(٦) ديوان معن بن أوس ٣ .

عجزاء ممكورة خمصانة قلق عنها الوشاح وتم الجسم والقصب[١]

والتفت نابغة بني شيبان إلى عكن بطنها :

وأعظمها مبتلة رواء وذو عكن وإن طعمت خضيد[٢]

وصور المتنبي قوامها بأنه غصن ، وكفلها بأنه كثيب :

أذا الغصن أم ذا الدعص أم أنت فتنة
وذيا الذي قبلته البرق أم ثغر ؟[٣]

هذه اللمحة إلى الجسد عامة توضح أن نموذج الجمال الذي رسمه شعراء الجاهلية ما زال حياً جذاباً .

وسيزداد هذا وضوحاً من لمحة إلى الأعضاء تفصيلا .

٢ ـ الشعر :

أعجبوا بالشعر الكثيف الأسود الطويل قال عمر بن أبي ربيعة وهو يوازن بين حبيبته والغزال :

وأنك غير أفرع وهي تدلى على المتنين أسحم قد كساها[٤]

وقال المرار بن منقذ :

راقه منها بياض ناصع يؤنق العين ، وصاف مسبكر
تهلك المدراة في أفنانه فإذا ما أرسلته ينعفر[٥]

وشبه معن بن أوس شعرها بالكرم :

ووحف يثنى في العقاص كأنه عليها إذا دنت غدائرها كرم[٦]

٣ ـ العين :

ما زال إعجابهم بالحور ، قال عمر :

---

(١) ديوان ذو الرمة ٤ .

(٢) ديوان نابغة بني شيبان ٣٢ .

(٣) ديوان المتنبي ١/٣٣٤ .

(٤) الأغاني ١/١٩٩ .

(٥) المفضليات ١ / ٨٨ .

(٦) ديوان معن بن أوس ٣ .

أحور المقلة كالبدر إذا قُلِّد الدّر فقلبي مُمْتَحَن (١)

وشبه المرار بن منقذ عينها بعين الغزال :

ولها عينا خَذُول مُخْرِف تَعْلَقُ الضالَ وأفنانَ السَّمُر (٢)

وشبهها معن بن أوس بعين البقرة :

سبتنى بعينى جؤذر بخميلة وجيد كجيد الرئم زيّنه النظم (٣)

وشبه المتنبى أثر النظرة بالسيف :

رأين التى للسحر فى لحظاتها سيوف ظُباها من دمى أبداً حمر (٤)

٤ ـ العنق :

استملحوا طوله ، وامتلاءه فى استدارة ، وقد عبر عمر عن طوله بكناية لطيفة هى أن مسقط قرطها طويل :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبدُ شمس وهاشم (٥)

ووصفه المرار بن منقذ بالطول :

صَلْتَةُ الخد طويل جيدها ناهد الثدى ولما ينكسر (٦)

ووصفه معن بن أوس بالطول والاستدارة والامتلاء (٧) .

٥ ـ الأسنان :

بيض غر تشبه الأقحوان ، قال نابغة بنى شيبان :

وتبسم عن غر رواء كأنها أقاح بريّان من الروض مشرق (٨)

(١) الأغانى ١ / ٥٧ .

(٢) المفضليات ١ / ٨٨ خذول : تدع القطيع وتتخلف على ولدها . مخرف : دخلت فى الخريف . تعلق : تأخذ .

(٣) ديوان معن بن أوس ٤ .

(٤) ديوان المتنبى ١/٣٣٤ .

(٥) الأغانى ١ / ١٢٧ .

(٦) المفضليات ١ / ٨٨ .

(٧) ديوان معن بن أوس ١٧ .

(٨) ديوان نابغة بنى شيبان ٢

وكذلك شبهها عمر :

وتبـــدت ثم أبدت واضــح اللون نحيضا
وعِـــذابَ الطعم غُرًّا كأقاحى الرمـل بيضـــا (١)

ووصفها المرار بن منقذ بأنها مؤشَّرة :

وإذا تضـحك أبدى ضحكها أقحوانا قيـدته ذا أُشُر (٢)

٦ — الريق

قالوا إنه كالعسل المبرد بالثلج ، قال المرار بن منقذ :

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحوانا قيـــدته ذا أُشُر
لو تطـعَّمت به شـــبهته عسلاً شِيب به ثلج خَصِر (٣)

وهو فى ذوق عمر مشوب بالخمر :

وكأن فاها بعد ما رقدت تجرى عليه سـلافة الخمر (٤)

أو مشوب بمسك وماء بارد :

من يُسقَ بعـد المنام ريقتهـا يسق بماء مسك وبارد خصر (٥)

وهو فى مذاق النابغة الشيبانى مشوب برضاب المسك والكافور والراح :

كأن رضاب المسك فوق لِثاتها كافور دارىٍّ وراحا تُصَفَّق
حَمَتْهُ من الصادى فليس تنيله وإن مات ، ماغنَّى الحمام المطوَّق (٦)

وفى مذاق جران العود مشوب بخمر قوية التأثير :

كأن ثناياها العـــذاب وريقها ونشوة فيها خالطتهن قَرْقَف (٧)

---

(١) الأغانى ١ / ١٧٨ نحيض : بض ممتلىء .
(٢) المفضليات ١ / ٨٧ قيدته ضربت فيه بإبرة ثم أسفته دخان شحم .
(٣) المفضليات ١ / ٨٨ .
(٤) الأغانى ١ / ١٩٤ . (٥) الأغانى ١ / ١٧٠ .
(٦) ديوان نابغة بنى شيبان ٢ .
(٧) ديوان جران العود ١٥ قرقف : خمر شديد التأثير .

وكذلك فى ذوق المتنبي :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمـــر بفِيَّ بَرُودٌ وهو فى كبدى جمر[1]

٧ ـ الثدى :

وصفه المرار بن منقذ بأنه ناهد ، قاعد غير متدلّ ، وغير محدد الطرف ، فهو يشبه أنف الظبى الأخنس ، وهو يرفع درعها عن صدرها الريان :

صَلْتَةُ الخد طويل جيـــدها ناهد الثـدى ولما ينـكسر

مثل أنف الرئم يُنْبِى درعَها فى لَبـانٍ بادنٍ غير قَفِرِ[2]

وبرع عمر غاية البراعة فى تصوير هذا المنظر الفاتن ، منظر الثديين الناهدين يرفعان القميص من الأمام عن الصدر فلا يمسه ، بينا يرفع الردفان القميص عن الظهر فلا يلمسه :

أبت الروادف والثُّدِىُّ لقُمصها مس البطـون وأن تمس ظهورا

٨ ـ اللون :

وصفه الإسلاميون كما وصفه الجاهليون بالبياض ، وبأنه مشوب بصـفرة ، قال ذو الرمة :

كحلاء فى بَرَج صفراء فى نَعَج كأنها فضة قد مسها ذهب[3]

وقال الفرزدق :

خرجن إلىَّ لم يُطْمَثْنَ قبــلى وهن أصح من بيض النعام[4]

٩ ـ الحديث :

راقتهم حلاوته ، فشبهوه كسابقيهم بالعسل وبالعنب ، قال جران العود النميرى:

---

(١) ديوان المتنبي ١ / ٣٣٤ .

(٢) المفضليات ١ / ٨٨ ينبى : يرفع . قفر : قليل اللحم .

(٣) ديوان ذى الرمة ٥ .

(٤) ديوان الفرزدق ٢ / ٨٣٦ وشرح المعلقات السبع للزوزني ١٥ .

ينازعننا لذًّا رخيما كأنه عَوَائرُ من قَطْر حَداهن صَيِّف
رقيق الحواشي لو تسمَّع راهب ببُطْنَانَ قولاً مثله ظل يرجُف[١]

وقال الفرزدق :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه جَـنَى النحل أو أبكار كرم يقطَّـف[٢]

١٠ — المشية :

أعجبوا بالمشية المتأنية ، المتبخترة ، فشبهها عمر بن أبي ربيعة بمشية المهاة :

بيضاً حساناً خـرائداً قُطُفا يمشين هَوْناً كمشية البقر[٣]

وشبه المرار بن منقذ مشيتها بمشية القطاة :

قُطُف المشي قريبات الخطا بُدَّنا مثـــل الغمام المزمخر
يتزاورن كتَقْطاء القطا وطعمن العيش حلواً غير مر[٤]

١١ — وصوروها مبغضة للشيب أيضاً ، وليسوا مقلدين لسابقيهم وإنما هم يقررون حقيقة واقعة ، قال المرار بن منقذ :

عجبٌ خـولة إذ تنكرنى أم رأت خولة شيخا قد كبر
وكساه الدهر سِبًّا ناصعا وتحنّى الظهر منـه فأُطِرْ
إن ترى شـيباً فإني ماجد ذو بلاء حسن غير غمِرْ
ما أنا اليـوم على شيء مضى يا بنة القـوم تولى بِحَسِرْ

ثم أخذ يعدد مفاخره ولذاته الماضية[٥] .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

---

(١) ديوان جران العود ٢١ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢ / ٥٥٢ . (٣) الأغانى ١ / ١٠٣ .

(٤) المفضليات ١ / ٨٧ تقطاء : من القطو وهو تقارب الخطو .

(٥) المفضليات ١ / ٨٠ سبا : خمارا وعمامة والمراد شيبا . أطر انحنى . غمر : غير مجرب .

صرمت حبلك البَغومُ وصدت عنك فى غير ريبة أسماء
والغوانى إذا رأينك كهلا كان فيهن عن هواك التواء(١)

١٢ — وصوروها ملولا متقلبة كما صورها الجاهليون ، قال عمر :

أسكين ما ماء الفرات وطيبه منى على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيتِ وقلما ترعى النساء أمانة الغُيَّاب(٢)

وقال مجنون ليلى :

وَمنَّيْتِنِى حتى إذا ما رأيتنى على شرف للناظرين يُريب
صددت وأشمت العدو بصَرْمنا أثابك ياليل الجزاء مثيب (٣)

وقال :

وتحسب ليلى أننى إذ هجرتها حِذار الأعادى إنما بى هُونها
ولكنْ ليلى لا تفى بأمانة فتحسب ليلى أننى سأخونها (٤)

١٣ — وصوروها معجبة بالبطل العظيم ، الماجد الكريم ، عزوفاً عن الثقيل الأحمق البخيل :

ولن يستهيم الخرَّدَ البيض كالدمَى هِدَانٌ ولا هلباجة الليل مُقْرِف
ولا جَبِلٌ تِرْعِيَّةٌ أَحْبَنُ النَّسا أغم القفا ضخم الهراوة أَغْضَف
حليفٌ لوَطْبَىْ عُلْبة بِقَرِيَّةٍ عظيم سواد الشخص والعود أجوف
ولكنْ رفيق بالصبا مُتَبَطِرقٌ
خفيف ذَفِيفٌ سابغ الذيل أهيف(٥)

---

(١) الأغانى ١ / ١٦٤ . (٢) الأغانى ١ / ١٦٢ .
(٣) الأغانى ٢ / ٦٤ . (٤) جمهرة الأمثال لأبي هلال ١٦٩ .

(٥) ديوان جران العود ٢٣ هدان : ثقيل أحمق . جبل : غليظ . ترعية : منصرف إلى المال والأنعام . النسا : عرق فى الفخذ . أحبن : مصاب بداء الحبن يكبر منه البطن . أغضف : طويل الأذن فى استرخاء . متبطرق : ليست فى المعاجم ولعلها من بطريق وهو الوضيء المعجب . ذفيف : سريع . أهيف : خمصان البطن ليس بثقيل الجسم .

١٤ — وصوروها بخيلة ممنَّعة ، قال جميل :

ويقلن إنك يابثين بخيلة　　نفسى فداؤك من ضنين باخل[١]

ومخلفة للوعد ، قال جميل :

ما أنت والوعد الذى تعدينني　　إلا كبرق سحابة لم تمطر[٢]

وقال ابن الرومى :

يا سائلى بالغوانى من صبابته　　سائلْ بهن فقد صادفت وصَّافا

هن اللواتى إذا لاقيتهن ضحا　　لاقيت صدًّا و إِسرافًا و إخطافا

أرضيننا حُسْنَ قدٍّ زانه بَشَرٌ　　صافٍ وأسخطننا مَطْلاً و إخلافا[٣]

---

(١) الأغانى ٨ / ١٠١ الدار .　(٢) الأغاني ٨ / ١٠٢ الدار .

(٣) ديوان ابن الرومى ٢١٥ .

الفصل الثالث

تجمل المرأة فى نظر الشاعر

هل من الطبيعى أن تستغنى المرأة الحسناء بجمالها الموهوب فلا تزينه وتنمقه بجمال آخر مجلوب ؟

وهل من الطبيعى أن تَرْضَى بحظها المرأة التى حُرِمَتْ بعض الصباحة والملاحة ، فلا تَزَيَّنُ وتتجمل لتستعيض ما فقدته ؟

ليس هذا ولا ذاك بطبيعى ؛ لأن التجمل يكاد يكون طبيعة من طبائع المرأة ، سواء فى ذلك الحسناء وغير الحسناء ، وسواء فى ذلك المتحضرة والمتبدية .

وسنرى أن هدف المرأة من تجملها أن تحقق نموذج الجمال الذى صوره الشعراء ، فى نطاق الاتساق والانسجام والتآلف ، حتى ليلتبس الجمال المطبوع بالتجمل المصنوع .

ويحسن أن أمهد للتجمل بكلمة فى ملابس المرأة ، لأنها المظهر العام لها ، ولأنها نوع من التجمل أيضاً .

ملابسها

(١) الحجاب :

كانت بعض النساء محجبات ، وليس من موضوعى هذا أن أفصل القول فى السفور والحجاب ، وحسبى أن أشير إليه بلمحة ، لأنه وثيق الصلة بالحلى والملابس وغيرهما مما تجملت به المرأة لتفتن الرجال .

ومما يدل على تحجب بعضهن قول عدى بن زيد :

يسارقن م الأستار طَرْفاً مُفَتَّرا
وُيبْرِزْنَ من فَتْق الخدور الأصابعا[(١)]

وقول المهلهل فى رثاء أخيه كليب :

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبأة الخدور[(٢)]

ولقد يكتفين بالقناع ، يدل على ذلك قول الشنفرى :

فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت[(٣)]

وقولهم فى أمثالهم « إن الْعَوَان لا تُعَلَّم الخِمْرة » أى لا تحتاج إلى تعليم الاختمار ، يضربون ذلك مثلا للرجل المجرب[(٤)] .

وقد روى فى سبب اعتلاق عبد الله بن علقمة بصاحبته حبيش أنه نزل ضيفاً عند آلها فأجلسوه فى متحدَّث لهم ، فخرجت حبيش وعلى وجهها سِبٌّ أخضر ، فوقفت تحلب ناقة وهو ينظر ، فضرب الهواء السبّ فكشف عن وجهها ويديها[(٥)] وقد أتت هند بنت عتبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالأبطح متنقبة وأعلنت إسلامها ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال الرسول مرحباً بك[(٦)] .

ويدل على ذلك أيضاً قول أم عود بنت وقدان تحرض على الثأر :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحِّشوا بالأبْرَق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نُقُبَ النساء فبئس رَهْطُ المرْهَق[(٧)]

وكان هذا الحجاب شائعاً عند الأثينيين القدماء ، ثم انتشر فى الدولة البيزنطية ،

---

(١) الأغانى ٢ / ١٥٠ . (٢) الأمالى ٢ / ١٣٢ .
(٣) الأغاني ٢١ / ٩٠ .
(٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٣٩ ومجمع الأمثال للميدانى ١ / ١٧ العوان : الثيب أو بنت الثلثين .
(٥) تزيين الأسواق ٨١ . (٦) السيرة الحلبية ٣ / ١١٠ و١١١ .
(٧) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٤ / ٥٥ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض التى بها حجارة ورمل . المرهق : المضيق عليه .

وكان شائعاً أيضاً عند الفرس القدماء وعند الهندوس حتى فى عصر المهابراتا[١] ، وقد أشار إليه هوميروس بقوله على لسان هكطور : « لست أرى العار إذا اشتجرت النصول بين الطروادبين والطرواديات الطويلات النقاب » . ومن هذا ومن ذكر قناع إيقاب وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات نرى أن اليونانيات استعملن النقاب[٢] .

فهو — على معنى أنه ستر للعورة ، أو أنه كالخمار ونحوه — قديم ، شاع قبل النصرانية ولم تغير منه شيئاً ، وظل معروفاً فى أوروبا إلى القرون الوسطى ومابعدها ، ولا تزال آثاره باقية هناك ، أما المبالغة فيه وحبس النساء ، فقد نشأ من سوء الظن المتبادل بعد الترف وكثرة الجوارى وفساد الأخلاق[٣] .

(ب) السفور :

وكان بعضهن لا يختمرن ، فمثلا نساء الأنصار لم يتخذن الخمر إلا لما نزل قوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن[٤] » وقد نزلت الآية الكريمة « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفور رحيما » ، وأورد الطبرى فى تفسيرها : قل لهن لا تتشبهن بالإماء فى لباسهن إذاهن خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن ، ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهن ، لئلا يعرض لهن فاسق إذا علم أنهن حرائر بأذى من قول . واختلف فى الإدناء الذى أمر الله به ، فقال بعضهم هو أن يغطين رءوسهن ووجوههن فلا يبدين إلاّ عيناً واحدة ، وقال بعضهم بل يشددن جلابيبهن على جباههن . وروى عن ابن عباس أن الحرة كانت تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وإدناء الجلباب أن تتقنع وتشد جبينها ، وروى عن مجاهد أن المراد أن يتجلببن

(١) مركز المرأة فى الإسلام للسيد الأمير على الهندى ٢٤ .
(٢) الإلياذة ترجمة البستانى ٤٧٥ .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى جرجى زيدان ٥ / ٧٧ .
(٤) المرأة العربية — عبد الله عفيفى ٢ / ٦٩ .

فيعلم أنهن حرائر . وعن قتادة أن المراد أن يقنعن على الحواجب ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يُؤْذَيْنَ ، لأن المملوكة كانت إذا مرَّت تناولوها بالإيذاء ، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء[١] .

والذى أستنتجه من ذلك أن بعض العربيات كن قبل نزول الآية الكريمة ، سوافر على أى نوع من أنواع السفور .

وقد نهى الله تعالى نساء النبي عن تبرج الجاهلية الأولى « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضَعْن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولامعروفاً ، وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرَّجْن تبرج الجاهلية الأولى » ، واختلف فى الجاهلية الأولى ، فقيل ما بين عيسى ومحمد ، وقيل ما قبيل الإسلام ، وقيل غير ذلك[٢] ، وقيل ليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى وجاهلية أولى بل هى أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، والمراد تبرج الجاهلية القديمة[٣] .

وقد فهمَتْ بعض المسلمات أن الأمر خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فظللن على سفورهن كسُكَيْنة بنت الحسين[٤] .

ولم يكن السفور عاماً كما لم يكن الحجاب عاماً ، يدل على ذلك أن السفور كان فى بعض الأحوال مقصوراً على حالات الحزن والرعب .

يقول مهلهل فى رثاء كليب :

كنا نغَار على العواتق أن تُرَى ... بالأمس خارجةً عن الأوطان
فخرجن حين ثوى كليب حُسَّراً ... مستيقنات بعـــده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا ... إذْ حان مصرعه من الأكفان
يَخْمِشْنَ من أَدَم الوجوه حواسرا ... من بعده ويَعِدْنَ بالأزمان[٥]

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٣ وتفسير النيسابوى ٢٢ / ٣٢ وتفسير الرازى ٥ / ٢٤٩
(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٤ وتفسير النيسابورى ٢٢ / ١٠ .
(٣) النيسابورى ٢٢ / ١٠ وبلوغ الأرب ١ / ١٩ — ٢٠ .
(٤) الأغانى ١٤ / ١٥٩ و ١٠ / ٥١ .
(٥) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ / ١٨٩ .

وقال أيضاً :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً ... وذراعَ باكية عليها بُرْنُس

تبكى عليك ولستُ لأمَ حُرَّةٍ ... تأسى عليك بعَبْرة وتَنَفَّس[(١)]

ويذكر الربيع بن زياد مثل ذلك[(٢)] .

ويشير طرفة إلى الكشف عن السوق حين الهول والفزع من الحرب والتأهب للفرار ، وهن يفعلن ذلك خشية السَّبى فيسفرن ليُظَنَّ أنهن إماء :

يوم تُبْدِى البيض عن أسْوُقها ... وتَلُفُّ الخيل أعْراج النَّعَم[(٣)]

وقال عوف بن عطية بن الخرع التيمى :

ولنعم فتيـانُ الصباح لقيتم ... وإذا النساء حواسرٌ كالعُنْقُر

من كل واضعةِ الخمارِ وأختُها ... تَسْعَى ومِنْطَقها مكان المئزَر[(٤)]

وأشار إلى ذلك الحارث بن عباد فى قوله :

قربا مربط النعامة منى ... سوف تبدو لنا ذوات الحجال

ولقد تسفر المرأة فى الأعياد والأفراح والمناسبات البهجة ، كأن تحتفل قبيلة بنبوغ شاعر أو قدوم قائد ، وقد راب عنترة أن احتجبت منه عبلة يوم مآبه من حرب داحس والغبراء ، فقال :

إن تُغْدِفى دونى القناع فإننى ... طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئِمِ[(٥)]

ولقد تسفر الحسان إدلالاً بحسنهن ، أو جرياً على عرف فى قبائلهن ، قال المسيب بن علس :

أرَحَلْتَ من سلمى بغير متاع ... قبل العُطَاسِ ورُعْتَها بوداع

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٢ / ١٩٧ وأخبار المراقسة للسندوبى ٥٦ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣ — ٢٦ .

(٣) ديوان طرفة ١٠٤ والأغانى ٥ / ٤٤ . وشعراء النصرانية ٣١٤ — أعراج : جمع عرج مابين الخمسين والمائة إلى المائتين من الأبل .

(٤) المفضليات ٢ / ١٢٧ : العنقر : أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض

(٥) ديوان عنتره ١٤٨ .

إذ تستبيك بأصْلَتِيٍّ ناعم قامت لتفتنه بغير قناع[1]

وقال الشنفرى :

عُفَاهِيَةٌ لا تقصر الستر دونها ولا ترتجى للبيت إن لم يبيت[2]

وقد ذكر الأصمعى أن المرأة قد تلقى خمارها لحسنها وهى على عفة ، وأنشد بيتاً لأبى النجم[3] :

وذكر الجاحظ أن الحجاب لم يكن فى الجاهلية ، وأن شريفات النساء خالطن الرجال فى الجاهلية والإسلام[4] .

ولم يكن حرج فى أن تغشى المرأة مجامع الرجال وتخطب أو تشعر ، أو تحرض على القتال ، أو تقاتل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها ، فأدعها إلى فرصة أخرى .

وبحسبى أن أذكر أن حليمة ضمخت مائة من فرسان أبيها لتحمسهم على الاستبسال[5] . وأن الخنساء أنشدت النابغة شعراً فى سوق عكاظ[6] ، وأنها هى وهند بنت عتبة تعاظمتا فى عكاظ بمصيبتيهما[7] .

وجاء الإسلام فأبقى على نوع من السفور الذى لا تظهر فيه مواضع الزينة « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » والمراد بما ظهر منها ما لا سبيل إلى إخفائه عند معاناة العمل ، كالخواتم والثياب وكمحاسن الوجه ، وجمال الشكل ، فإن فى تَسْتّر كل ذلك حرجاً[8] .

---

(٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١ / ٥٨ .

(٢) الأغاني ٢١ / ٩١ عفاهية : ضخمة .

(٣) شرح المفضليات لابن الأنبارى ١ / ١٢٠ .

(٤) رسالة القيان للجاحظ من مجموعة رسائل للجاحظ ٥٦ .

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ٢ / ١٥٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١١ .

(٦) مقدمة أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء للأب لويس شيخو .

(٧) الأغاني ٤ / ٣٤ .

(٨) تفسيرالبيضاوى ٤٦٧ طبعة الآستانة .

(ج) أنواع ملابسها

لبست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفة فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن ، وعُمان والبحرين والشام والعراق ، وما اجتلبته من بلاد فارس والهند[١] ، ومصر .

وتنوعت مادتها ، فكان منها الحرير بأصنافه : ديباج ودمقس وسندس وإستبرق ، وكان منها الخز ، والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها[٢] .

وأنواعها عدة ، يهمنا منها ما أكثر الشعراء من ذكره .

(ا) غطاء الرأس والوجه :

١ — الخمار :

هو كالقناع ، كل منهما شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، ويظهر أن الأصل أن يكون على الرأس ، ثم تسدل المرأة بعضه على جزء من الوجه ، إذا احتاجت إلى ذلك ، قال البحترى :

عَجِلَتْ إلى فضل القناع فأثرت ‏ ‏ عَذَباتُه بمواضع التقبيل

وقد ذكره عنترة فى قوله لعبلة :

إن تُغْدِ فى دونى القناع فإننى ‏ ‏ طَبٌّ بأخذ الفارس المستلئم[٣]

وذكره عروة بن الورد :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ‏ ‏ ولم يُلْهنى عنه غزال مُقَنَّع[١]

---

(١) المرأة العربية لعبد الله عفيفى ١ / ١١٠ .

(٢) الدمقس : الديباج أو القز . السندس : ضرب من الديباج الرقيق . الاستبرق : الديباج الغليظ أوديباج يعمل بالذهب أوثياب صفاق من حرير . الخز : ويردابه كالأرنب تسمى بذلك ، ووبر من الأرانب يجتلب من شمالى العراق .

(٣) ديوان عنترة ١٤٨ .

(٤) شعراء النصرانية ٩١٣ .

ومن أسمائه النصيف [١] قال النابغة :

سقط النَّصِيف ولم ترد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليـــــد [٢]

وقال ثعلبة بن صُعَيْر فى وصف النعامة :

فَبَنَتْ عليه مع الظلام خباءها   كالأَحْمَسِيَّة فى النصيف الحاسر [٣]

ومن أسمائه النقاب ، ويسمى الجزء الذى يستر الفم منه اللِّثام ، والجزء الذى على الأنف اللِّفام [٤] قال قيس بن الحدادية :

نشرت على فيهـــا اللثامَ وأعرضت
وأمعَنَ بالـكحل السَّحِيق المـــدامع [٥]

٢ — والبُخْنُقُ : البرقع الصغير أوقطعة من نسيج توضع تحت الخمار لتقيه من الدهن ولتقى الدهن من الغبار [٦] ، قال عنترة :

فخر الرجال سلاسل وقيود   وكذا النساء بَخَانِقٌ وعقود [٧]

(ب) ما على الجسد :

١ — الرَّيْطة :

هى كل ملاءة غير ذات لِفْقَيْن كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، أو كل ثوب لين رقيق [٨] قال سلمى بن ربيعة يذكر لذاته :

والبِيضَ يَرْفُلْن كالدُّمَى   فى الرَّيْطِ والمُذْهَب المصون [٩]

---

(١) النصيف : الخمار (القاموس المحيط) .
(٢) ديوان النابغة ٢٩ .
(٣) المفضليات ١ / ١٢٨ حضنت بيضها بجناحيها كالمرأة من الحمس وهم قريش وخزاعة وبنو عامر وكنانة .
(٤) القاموس المحيط مادة لثم ولفم والأمالى ١ / ٤٢
(٥) الأغانى ١٣ / ٧ .
(٦) القاموس مادة بخق .   (٧) ديوان عنترة ٦٤ .
(٨) القاموس المحيط مادة ربط .   (٩) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ٨٣ .

وقال الأعشى :

والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات ، على أعجازها العِجَلُ(١)

وذكر الرمق — عبيد بن سالم الخزرجى — الريطة وغيرها فى مدحه لأبى جبيلة الغسانى :

أمثال غِزْلان الصَّرا ئم يأتَزِرْن ويرتدينا

الرَّيْطَ والديباج والزَّ رَدَ المضاعَفَ والبُرِينا(٢)

وذكرها حسان فى قوله :

يحملن حُوًّا حُورَ المدامع فى الر يط و بيض الوجوه كالْبَرَد(٣)

٢ — المِرْط : كساء من صوف أو خزّ(٤) ولا بد أنه كان طويل الذيل ينجر على الأرض ، قال امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مِرْط مُرَحَّل(٥)

ويظهر من هـذا النص أنه كان مزيناً بصور الرحال ، وينص على ذلك الفيروزابادى فى قوله : المرَّحل بُرُدٌ فيه تصاوير رَحْل ، والمرَّجل إزار من خز فيه عَلَم(٦) .

وكرر امرؤ القيس هذا فى قوله :

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامها تُعَفِّى بذيل المِرْط إذ جئت مَوْدِقى(٧)

٣ — والوصائل : ثياب يمنية مخططة(٨) قال لبيد :

(١) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى دولاب السق ، يصف الشاعر إعجازهن بالضخامة .

(٢) الأغانى ١٩ / ٩٦ الصرائم : جمع صريمة وهى القطعة من معظم الرمل . الزرد الدرع المزرودة . البرين : جمع برة وهى الخلخال .

(٣) ديوان حسان ٣٣ حو : جمع حواء : ذوات شفاه حمر ضاربات إلى السواد .

(٤) القاموس المحيط مادة مرط

(٥) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرحل : فيه صور الرحال .

(٦) القاموس المحيط مادة رحل

(٧) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ١٢ / ٢٥١ .

(٣) القاموس المحيط مادة وصل .

غرائر أبكار عليها مهابة　　وعونٌ كرامٌ يرتدين الوصائلا[١]

٤ — البُرْد : ثوب موشى، والمجسد: ثوب مصبوغ بالجساد وهو الزعفران، قال طرفة فى وصف القينة :

نداماى بيض كالنجوم وقينة　　تروح علينا بين برد ومُجْسَد

رحيبٌ قطاب الجيب فيها رفيقة　　بجَسِّ الندامى بَضَّةُ المتجرَّد[٢]

٥ — الصدار : شيء تلبسه على صدرها ، قال عروة بن الورد يفخر بسباياهم من طَيِّئ :

ترى كلَّ بيضاء العوارض طَفْلةً　　تُفَرِّى إذا شال السماكُ صِدَارها[٣]

وكانت الحزينة تتخذ من الشعر صدارها كما فعلت الخنساء[٤] .

٦ — الوُشاح : أديم عريض مرصع بالجوهر تشـــده المرأة بين عاتقها وكشحيها[٥] ، قال عنترة :

والشمس بين مُضَرَّج ومُبَلَّج　　والغصنُ بين مُوَشَّح ومُقَلَّد[٦]

وقال أبو على : لا يكون الوشاح وشاحاً حتى يكون منظوماً بلؤلؤ أو ودع ، وأنشد :

وتكسو الوشاح الرِّخْو خَصْراً كأنه　　إهانٌ ذَوَى عن صُفْرة فهو أخلق[٧]

٧ — السابرى : ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تَصُدُّ عن المأثور بينى وبينها　　وتدنى علىَّ السابرىَّ المضلَّما[٨]

٨ — المُذْهَب : ما جعل نسجه بخيوط من ذهب ، يقول سلمى بن ربيعة :

---

(١) ديوان لبيد ٢٢ .

(٢) ديوان طرفة ٢٦ .　　(٣) شعراء النصرانية ٩١١ تفرى : تشق .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨ / ٦٧ والمحاسن والأضداد ١٤٣

(٥) القاموس المحيط مادة وشح .

(٦) ديوان عنترة ٦٩ الشمس : وجوه الجوارى . مضرج : محمر . مبلج : نقى ، الغصن : القد . مقلد : عليه قلادة وهى للعنق .

(٧) المخصص ٤ / ٩٨ .　　(٨) ديوان امرىء القيس ١١٣ .

والبيضُ يَرْفُلْنَ كالدُّمَى في الرَّيْط والمُذْهب المصُون[١]

٩ — الخال : ضرب من برود اليمن الموشاة ، وهو أيضا الثوب الناعم[٢] .

١٠ — المراجل : ضرب من برود اليمن المحكم ، والُممرْجل : ضرب من ثياب الوشى فيه صور المراجل ، ويقال لها المراحل أيضا ، وفى الحديث : « حتى يبنى الناس بيوتاً يوشونها وشى المراحل »[٣] . والبرد المرجَّل ما فيه صور كصور الرجال[٤] » .

١١ — المطَّير : ضرب من البرود[٥] . ولعلها سميت بذلك لأن بها صور بعض الطيور .

(د) لون الملابس :

أكثر الألوان شيوعاً فى وصف الشعراء اللون الأحمر ، وسيأتى فى وصف الحدوج أن ستائرها حمر كالدم ، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :

عَقْلاً وَرَقْماً تظل الطير تتبعه كأنه من دم الأجواف مَدْمُوم[٦]

ويمثل ذلك شبهها الحطيئة[٧] .

كذلك كان اللون الغالب على الملابس اللون الأحمر ، قال ركاض :

وَلَبِنَ السُّيُوبَ حُمْرَةً قُرَشِيَّةً زُبَيْرِيَّةً يَعْلُمْنَ فى لونها عَلَما[٨]

وقال أوس بن حجر إن ملابسهن منوعة الألوان ، وواسعة :

يَلْبَسْنَ رَيْطا وديباجا وأكسيةً شتى بها اللون إلا أنها قُور[٩]

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ٨٣ . (٢) لسان العرب ١٣ / ٢٤٢ .
(٣) لسان العرب ١٣ / ٢٩١ . (٤) اللسان ١٣ / ٢٨٣ .
(٥) اللسان ٦ / ١٨٦ والقاموس المحيط مادة (طير) .
(٦) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج ، أو ضرب من الوشى. الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . مدموم : مطلى .
(٧) ديوان الحطيئة ٣٧ .
(٨) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١ السيوب : شقق رقاق تتخذ منها الخمر .
(٩) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء وهى الواسعة .

وقد بقى هذا اللون مفضلا عند العرب إلى العصر العباسى ، يدل على ذلك قول المتنبي :

مَنِ الجآذرُ فى زى الأعاريب ... حُمْرَ الحُلَى والمطايا والجلابيب[1]

حليهــــا

(ا) غرام النساء به :

حلى المرأة من أخص خصائصها فى كل عصر ، وفى كل شعب ، تضيف به إلى جمالها جمالا ، وتزهى به وتفاخر وتكاثر ، وتختلب ألباب الرجال ، وقلما تبدو المرأة عاطلا من حلى ، وإن قيل إنها غنيت بجمالها عن حليها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، قال الشماخ :

دار الفتاة التى كنا نقول لهـا ... يا ظبيةً عُطُلاً حُسَّانَةَ الجيد[2]

والزينة من شيات الأنثى من بنى الإنسان ، ولـكنها من شيات الذكر فى الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكر من الطيور وغيرها بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما فى عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر . « وإذا كانت أزياء النبـلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرنا اليـوم على المسرح ، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة ما لا نبصر نظيره فى عصرنا[3] » .

(ب) شيوعه فى الأمم القديمة :

وكان الحلى شائعاً فى العصور القديمة عند الأمم التى اتصل بهـا العرب ،

---

(١) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ١ / ١١٤ الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعاريب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر . يقول : إنهن متحليات بالذهب الأحمر وممتطيات النوق الحمر ولا بسات ثيابا حمرا ، يريد أنهن من نساء الأشراف والملوك لأن الحمرة لوز ملابسهم ، والنياق الحمر أكرم النياق عند العرب .

(٢) معجم البلدان ٨ / ٥٢٥ . (٣) الحياة والحب لأميل لودفيج ٢٢ .

فالإسرائيليات كن يتأنقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنُّطَف والأساور والرُّعَل والعصائب والمصاعيد والمناطق وأوانى الطيب والخواتم والأحراز وأخراص الأنوف والخلع والمعاطف والأحزمة والمرايا والأقمصة والتيجان والأُزُر(١) .

وأسرفت المرأة الرومانية فى زينتها إسرافاً حمل كاتو على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها ، واحتدت المناقشة بين كاتو فى التريبيون و بين أحد الأعضاء من الموافقين على أن تطلق للمرأة حريتها فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض أن النساء لا يستطعن أن يلتحقن بالوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات ولا جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن أشغال عامة ، فما الذى يستطعن عمله إن لم يخصصن أوقاتهن للزينة والملبس(٢) ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالعصائب والخواتم والأساور والخلاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار واللآلىء ، والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً والكحل بالإثمد كذلك .

وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشعر المستعار فجملوه كثيفاً ثقيلاً مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء(٣) .

وكذلك كانت المرأة العربية حالية محتفية بحلاها ، وقد كنى القرآن الكريم عن الإناث بأنهن منشآت فى الحلية : « أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

(ح) أصناف الحلى :

تنوعت الحلى ، وتعددت أصنافها لكل عضو من أعضاء الزينة ، فهنالك التاج والقرط والشَّنْف والحِب والخِرص والقلادة والوشاح والسوار والمعضد والدُّملج والخاتم والخلخال الخ(٤) .

(١) سفر أشعيا ٣ / ١٨ — ٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : جمع أرعلة وهى الإكليل من ريحان وآس .
(٢) المرأة فى مختلف العصور ٢٧ — ٢٩ .
(٣) الحضارة المصرية القديمة جوستاف لوبون ٧٥ — ٧٦ .
(٤) المرأة العربية ١/١١٤ — ١١٦ .

وقد ساعد على كثرة الحلى أن اللؤلؤ فى خليج فارس ، والمرجان فى البحار المحيطة ببلاد العرب ، والتجار يفدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب ، والفضة ، والزمرد ، والزبرجد ، والياقوت وغيرها مما فى الجزيرة .

١ — فكانت حلى العنق قلائد من ذهب ، قال المثقب العبدى :

أرين محاسنا وكنَنَّ أخرى من الأجْياد والبَشَر المصون
ومن ذهب يَلُوحُ على تَرِيبٍ كلون العاج ليس بذى غضون[(١)]

وقلائد من ياقوت وشذر وجزع من اليمن ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :

تحملن ياقوتا وشَذْراً وصِيغَةً وجَزْعاً ظَفَارِيًّا ودُرًّا توائما[(٢)]

وقد يكون العقد من لؤلؤ وزبرجد ، قال طرفة :

وفى الحىِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ
مُظاهِـــــر سِمْطَىْ لؤلؤ وزَبَرْجد[(٣)]

وقد يصاغ الياقوت دقيقاً على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

غرائر فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمة يُحَلَّيْنَ ياقوتا وشذْراً مُفَقَّرا[(٤)]

وقد أشار إلى العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء مثل قيس

---

(١) المفضليات ٢/٨٩ .

(٢) المفضليات ٢/٤٥ . تحلين : لبسن الحلى. وليس فى المعاجم تعدية هذا الفعل. الشذر: اللؤلؤ أوقطع صغار من الذهب . صيغة : مايصنع من الذهب ، وليست هذا الصيغة فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرها الخرز اليمانى ، وهو من أنفس الجواهر . ظفار : بلد باليمن . توائم : اثنين اثنين .

(٣) ديوان طرفة ٧ أحوى: شبه المرأة بالظبى الأحوى الذى فيه سواد وبياض. المرد : ثمر الأراك المدرك ، أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لابس ثوبا فوق آخر . سمط : خيط من لؤلؤ . شبه المرأة بالظبى فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

(٤) ديوان امرىء القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات : مفقر : مصوغ على شكل فقار الجرادة .

ابن الخطيم[١] وعلقمة[٢] والمثقب العبدى[٣] وعنترة[٤].

وللحلى وسوسة حلوة ، لم ينسها الأعشى :

تسمع للحَلْىِ وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ ... كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِل[٥]

ووصفوا الحلى بالإشراق ، قال النابغة الذبيانى .

ترائبُ يستضىء الحَلْىُ منها ... كجمر النار يُذْرى بالظلام[٦]

٢ — أما الأذن فلها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرهما ، قال المرقش الأكبر : إن لقرطها ذلاذل جميلة :

يُهَدِّلْنَ فى الآذان من كل مُذْهَبٍ ... له رَبَذٌ يعيا به كلُّ واصف[٧]

وقد كنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بانَ الخليطُ الأُلَى شاقوك إذ شَحَطوا

وفى الحدوج مهاً أعناقُها عِيَطُ

ناطوا الرِّعَاثَ لِمَهْوًى لو يَزِلُّ به

لانْدَقَّ دون تلاقى اللَّبَّة القُرُط[٨]

وقال النابغةُ :

إذا ارتعَشَتْ خاف الجبانُ رِعاثَها ... ومن يتعلقْ حيثُ عُلِّقَ يَفْرق[٩]

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١ .
(٢) ديوان علقمة ٩ .
(٣) شعراء النصرانية ٤٠٦ .
(٤) ديوان عنترة ٧٠ .
(٥) ديوان الأعشى ٤٢ عشرق : نبت له ورق يطير إذا يبس. زجل : يصوت فيه الريح
(٦) ديوان النابغة ٧٣ .
(٧) المفضليات ٢ / ٣١ . ربذ : عذبة .
(٨) ديوان عبيد بن الأبرص القصيدة ٢٢ : العيط طول العنق وهو أعيط وهى عيطاء . والجمع عيط بكسر العين وسكون الياء وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا : علقوا .
(٩) ديوان النابغة ٣٩ .

وقال سيَّار الأبانى إن حلقة قرطها المشدود بأذنها حتى لايسقط مشدودة على قرط يشبه فقر الجرادة أو فقر أمير النحل :

كأن خُوقَ قُرْطها المعْقُوب ـ على دَبَاةٍ أو على يَعْسُوب[1]

٣ — ومن حلى الساعد السوار وهو من ذهب ، قال النابغة :

وأبْدَتْ سوارا عن وُشُوم كأنها بقيةُ ألواح عليهن مُذْهَب[2]

والدُّمْلُج ما يلبس فى العضد ، قال عنترة :

وتحتى منها ساعد فيه دُمْلُجٌ مضىء وفوقى آخر فيه دملج[3]

وقد يكون فى الساعد حلى من مرجان ، قال لبيد :

وعالَيْنَ مَضْعُوفاً وفَرْداً سُمُوطه جُمَانٌ ، ومرجان يشد المفاصلا[4]

٤ — وفى الساق الخلخال ، قال تعالى : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » قال الزجاج : كانت المرأة ربما اجتازت ، وفى رجلها الخلخال ، وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة فنهى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبدين ذلك لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه[5].

قال الأعشى :

وساقان مَارَ اللحم مَوْراً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصَلْصِل[6]

وبعد فقد وصف القرآن الكريم الحور العين فى سُوَرٍ شتى[7] ، وأستطيع أن أستنتج من وصفهن ووصف حليهن أن العرب كانوا يعرفون ذلك ويألفونه .

---

(١) الأمالى ١ / ١٨٤ . الخوق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لئلا يزيغ .
(٢) ديوان النابغة ٢٨ .
(٣) ديوان عنترة ٣٥ .
(٤) ديوان لبيد ٢٢ . مضعوفاً : ثياباً مضعفة .
(٥) لسان العرب ١٣ / ٢٨٤ .
(٦) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : اضطرب وتحرك .
(٧) سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

طيبهـــا

(١) أثر العطور فى الجاذبية :

أغرمت المرأة العربية كما أغرمت النساء الأخر بالطيب ، لأنه نوع من التجمل وضرب من الجاذبية ، فالروائح مثيرة للجهاز العصبي ومنبهة له . وهى « ذات أثر عظيم فى العاطفة ، فمن المعروف أن بعض الروائح لها تأثير سحرى لا يقـاوم ، فهناك حالة شاب اعترف أنه كثيراً ما أغرى الفتيات اللائى يراقصهن بمسح وجوههن بمنديل كان قد مسح به عرق أبطه . وقد سجل التاريخ أن الملك هنرى الرابع ملك إنجلترا هام عشقاً بفتاة تدعى جبريل لما أن مسح وجهه بمنديلهـا حين كان يراقصها فى إحدى الحفلات .

وهكذا تظهر بوضوح تلك العلاقة التى لا أشك فيها بين الغشاء المخاطى الشمى للأنف وبين الجهاز التناسلى للرجل والمرأة ، وما يترتب على هذه العلاقة من إيقاظ المشاعر وإلهاب العواطف ، أو إثارة شعور الاشمئزاز كما فى حالات بخر الفم . ومن الطبيعى أن ينشأ من اختلاف الأمزجة والميول آثار مختلفة للروائح المنبعثة من الأشخاص ، فليس غريباً أن تتضارب أحكام الناس على الرائحة المنبعثة من شخص واحد ، فبينما نرى شابا يصد عن فتاة ، لأنه لا يطيق رائحتها إذا بنا نجد آخر يرى أن أشد ما يجذبه نحوها رائحتها ، وما يقال عن الرائحة المنبعثة من الجسم يقال عن تأثير الروائح العطرية . فهناك تشابه كيماوى بين الروائح المنبعثة من مصادر مختلفة تنتج نفس التأثير الجنسى الذى ينتج من رائحة الجسم[١] » .

كان طبيعياً إذاً أن عنيت المرأة العربية بعطرها عناية كبرى . ولم تنفرد بهذه العناية ، ولم يكن الجوُّ الحار هو الدافع إليها ، فإن الأمم الأخرى لم تقل عنايتهـا بالعطور عن الأمة العربية .

---

(١) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٠ .

(ب) عناية الأمم القديمة بالعطور :

فالفرس أغرموا بالورد وتغنوا به فى أشعارهم . وكان المترفون منهم يستحمون بالماء المعطر[١] . والبابليون عنوا بالعطور وحفظوها فى أوان من زجاج من أوعية (الألباستر) . وكانت بابل سوقا رئيسة للاتجار فى المواد العطرية[٢] .

وقد أكثر المصريون من صناعة العطور والروائح الذكية والمراهم والكحل ، والأطلية للحواجب والأهداب والشفاه ، ووضعوها فى قوارير صغيرة من المينا الملونة ، فافتتنت بها النساء واستعملنها وأتقن استعمالها أمام المرايا المعدنية ذوات الأيدى البديعة الصنعة[٣] . وعرفوا من الأعشاب العطرة أنواعا كثيرة ، منها خشب الصندل والكافور والكندر والسكبيج والعرعر وغيرها ، واستخرجوا منها عطورا[٤] . وبلغ من عنايتهم بها أن حفظوها فى أوعية نفيسة من (الألباستر) و (الديورايت) وغيرها من الأحجار القيمة[٥] .

وسجل الفراعنة عنايتهم بالعطور على آثارهم ، ومن أمثلة ذلك رسم على جدران الكرنك يبين رمسيس الثانى يتضرع إلى الإله آمون أن يمنحه النصر ؛ لأنه قدم إليه ثلاثين ألفاً من الثيران وجميع ما طابت رائحته من الأعشاب الزكية قربانا[٦] .

وكانت النساء المصريات يستحممن بالماء العطر[٧] . وعن قدماء المصريين نقل اليهود صناعة العطور إلى البلاد الشرقية الأخرى[٨] ، ولعل العرب قد عرفوها عن هذا الطريق .

وكان للعطور هذا الشأن عند الإغريق ، فكانوا يستحمون بها كما كانوا يعطرون كل جزء من الجسم بعطر خاص به . وقد طلب منهم سقراط أن يخففوا من

---

(١) سحر العطور للدكتور الشحات ١٥ .
(٢) سحر العطور ١٥ .
(٣) الحضارة المصرية القديمة : جوستاف لوبون ١٠٦ .
(٤) سحر العطور ١٣ . (٥) سحر العطور ١١ .
(٦) سحر العطور ٩ .
(٧) سحر العطور ١٠ . (٨) سحر العطور ١٣ .

هذا الولع فلم يستمعوا إليه . وحاكاهم الرومان فى الولع بالعطور ، حتى هال الأمر قيصر ، فصرخ يوما فى بعض رجاله وقد قدموا إليه وروائح العطور تفوح منهم « تعالوا إلىَّ ورائحتكم الثوم[١] » .

وكان العرب على صلة بالرومان عن طريق الغساسنة ، فلعلهم تأثروا بهم . واشتهر الهنود باستعمال العطور فى حفلاتهم الدينية والخاصة ، بل استعملوها فى غسل معبوداتهم من الحيوان ، وأرَّثوا النار المقدسة التى كانوا يوقدونها فى حفلات الزواج بزيوت وأعواد عطرة كخشب الصندل[٢] .

وقد كان العرب على صلة تجارية بالهند منذ العصر الجاهلى ، فلعلهم تأثروا بهم أيضا . وكذلك فعل الصينيون ، وأفضل الروائح عندهم المسك ، ولعل سبب ذلك كثرة الغزلان المسكيّة هناك[٣] .

(ح) عناية المرأة الحديثة بالعطور :

ولم يكن الغرام بالعطور دَيْدَن الأمم القديمة وحدها ، فإن عناية المرأة الحديثة بعطرها ليست أقل شأنا ، فقد أغرمت الفرنسيات بالعطور حتى قيل إن ثمن العطور التى كانت تبتاعها مدام لامباردو سنويا بلغ مليوناً ونصف مليون جنيه . وكانت مدام تالين تستحم بخلاصة النباتات العطرية وتدلك جسمها بعد ذلك باللبن المعطر[٤] .

وأولعت السيدات فى إنجلترا بالعطور ولعاً كان من نتائجه أن شكا الرجال فى القرن الثامن عشر من أنهم انخدعوا فى بعض النساء بتأثير عطورهن ، فتم زواج ما كان يمكن أن يتم . لذلك أصدر البرلمان سنة ١٧٧٠ م هذا القرار : « جميع النساء من مختلف الأعمار والرتب والمهن سواء كن عذارى أو متزوجات أو أرامل يعرضن أنفسهن للعقاب إن أغوين أحداً من رعايا جلالة الملك بالعطور أو الدهان ، لأنهن استخدمن وسائل خداعة ، ويعتبر الزواج باطلا[٥] » .

---

(١) سحر العطور ١٣ .
(٢) سحر العطور ١٦ .
(٣) سحر العطور ١٧ .
(٤) سحر العطور ٢٣ .
(٥) سحر العطور ٢٢ .

أنواع طيبهـــا

بعض الطيب أعواد تتبخر بها كالصندل والساج واللُّبْنَى والعود والنَّد والرَّند [١] .

وبعضه دهن تدّهن به كالعنبر والمسك والغالية والبان [٢] .

١ ــ المسك :

دهن يتخذ من نوع من الغزلان ، يقطن فى مناطق عدة كجبال الهند الشمالية ووسط آسيا فيما بين خطى طول ٧٠° ، ١٧٠° وفيما بين خطى عرض ١٥° ، ٦٥° ويكثر فى الصين [٣] . وللمسك شهرة وقيمة عند العرب ، لأنه هو والعنبر قويا الرائحة . وأهل الشرق أميل إلى استعمال العطور القوية لأنهـا هى التى تلائم الجو الحار . والرجال يستطيبون رائحة المسك فى المرأة ، ويمدحونها بأنها ممسَّكة ؛ لأن هذا دليل النظافة والتجمل والثراء ، قال امرؤ القيس :

إذا قامتا تضوَّعَ المســكُ منهما   نسيمَ الصَّبا جاءت بريّا القرنفل
وتُضْحِى فتيتُ المسك فوق فراشها   نئومَ الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ [٤]

فهى تنثر المسك على فراشها كما تَذُرُّوه على جسمها . ولقد تمسَّك فاهـا ووجهها ، يدل على ذلك قول عنترة :

تبيت فتاتُ المسك تحت لثامها   فيزداد من أنفاسها أرَجُ النَّدِ [٥]

---

(١) اللبنى شجرة لها عسل ينضح فيها يتبخر به والعامة تقول حص لبان (القاموس مادة لبن وعسل) والرند شجر طيب الرائحة . الند : المسك يعجن بالورد .

(٢) الغالية : أزكى أنواع الطيب عندهن وتتخذ من المســك المعجون بالعنبر والبان . البان : شجر يطول فى استواء وورقه كورق الأثل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حب يعتصر فيخرج دهناً .

(٣) سحر العطور ٨٨ .

(٤) ديوان امرئ القيس ١٢٥ ، ١٣١ .

(٥) ديوان عنترة ٧٢ ، الند : طيب معروف أو العنبر (القاموس المحيط) .

ولقد تَغَلَّل به شعرها كما تطيب جسمها وفراشها ، فتسطع رائحته ، قال سويد بن أبي كاهل :

وقروناً سابغاً أطرافُها   غَلَّلَتْها ريح مسك ذى فَنَعٍ[(١)]

وقال علقمة إن مسك مفرقها قوى يشمه المزكوم :

كأن فأرةَ مسك فى مفارقها   للباسط المتعاطى وهو مزكوم[(٢)]

٢ — الزَّنبق :

هو دهن الياسمين ، ونوع من الورد[(٣)] له نور أصفر حسن الرائحة ، وكانت المرأة تطيب به كما تطيب بالمسك ، وقد تجمعهما معاً ، قال امرؤ القيس .

وفوق الحوايا غِزْلة وجآذرٌ
تَضَخَّمْنَ من مسك ذكى وزَنْبَق[(٤)]

وأعجب الأعشى برائحة المسك والزنبق فى محبوبته ، فعبر عن إعجابه بهذه الصورة المليحة : إذا تحركت المحبوبة سطع مسكها وزنبقها ، وليست الروضة المعشبة العالية المخضرة التى يجودها الغيث وتضاحك الشمس أزاهيرها النامية المحفوفة بالنبات الكثيف ، ليست هذه الروضة الفواحة بالشذى ، وإن هبت عليها نسمات الأصيل فعطرت الجو بشذاها بأطيب من رائحة المحبوبة :

إذا تقومُ يَضُوعُ المسك أصْوِرَةً   والزنبق الورد من أردانها شَمِلُ
ماروضة من رياض الحَزْن مُعْشِبةٌ   خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرِقٌ
مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مكتهل

---

(١) المفضليات ١ / ١٨٩ . فنع : قوة .

(٢) ديوان علقمة ١٣ وشعراء النصرانية ٤٩٩ ، والمفضليات ٢ / ١٩٧ الباسط : الذى يبسط يده إليها .

(٣) القاموس المحيط مادة زنبق .   (٤) ديوان امرئ القيس ١١٧ .

يوما بأطيب منهـا نشرَ رائحةٍ ولا بأحسن منها إذْ دنا الأُصُل[١]

٣ — وقد يُخلَط بالمسك سَناً ، قال امرؤ القيس إنهن تحلين ياقوتاً وشذرا ، وعطراً من السنا المخلوط بالمسك الجيد القوى الرائحة موضوعاً فى حُقّه مما يصنع لملوك حِمْيَرْ باليمن :

وريح سَناً فى حُقَّةٍ حِمْيرية تُخَصُّ بمَفْرُوكٍ من المسك أذْفَرا[٢]

٤ — وقد ذكر امرؤ القيس أنواعاً أخر من العطور والبخور هى البان والأَلْوِىّ (العود) المجلوب من الهند ، والرند ، واللبنَى ، والكباء (عود البخور) :

وباناً وأَلْوِيًّا من الهند ذاكيا ورَنْداً ولُبْنَى والكِباءَ المقَتَّرا[٣]

٥ — وذكر المرقش الأصغر أنها تتبخر ليلا بالكباء :

فى كل مُمْسَى لهـا مِقْطرة فيهـا كِباء مُعَدّ وحميم[٤]

٦ — العنبر :

دهن يخرجه نوع من الحوت ، وهو ذو ألوان عدة « أحصى منها العالم باوتشر عشرة ألوان : فمثلا فى الخليج الفارسى العنبر الرمادى الغامق ، وفى ساحل إفريقية الشمالى العنبر ذو اللون الذهبى ، وفى مدغشقر العنبر البنى الضارب إلى الحمرة[٥] » ، وأرجح أن الادِّهان بالعنبر كان السبب فى تلك الصفرة التى وصف الشعراء بهـا الحسان كما سبق ؛ لأن العنبر الذى يستخرج من شاطىء إفريقية الشمالى ذو لون ذهبى ، قال المرار بن منقذ :

---

(١) ديوان الأعشى ٤٣ وشعراء النصرانية ٣٦٧ . أصورة : جمع صوار : الرائحة الطيبة . كوكب : نور . مكتهل : يانع .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٨ . السنا : نبت ذكى الرائحة .

(٣) الديوان ٦٩ . المقتر : الساطع الرائحة .

(٤) المفضليات ٢ / ٤٨ . مقطرة : مجمرة . كباء : عود البخور . حميم : ماء حار تستحم به .

(٥) سحر العطور ٨٢ .

عَبِقَ العنـــبرُ والمسكُ بهـا فهى صفراء كعُرْجُون العُمُر

وهى لو يُعْصَرُ من أردانهـا عبقُ المسكِ لـكادت تنعصر(١)

٧ — الـكافور والزعفران ، قال النمر بن تولب :

أَنَاةٌ عليهـا لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد مفصَّل

يُرَبِّبُها التَّرْعِيبُ والمحضُ خِلْفَةً ومسك وكافور ولُبْنَى تؤكَّل

يُشَنُّ عليها الزعفران كأنه دمٌ قارتٌ تُعْلَى به ثم تَغْسِل(٢)

* * *

ولقد يذكر الشاعر إعجابه بالرائحة ولا يسميها ، كما فعل حسان فى قوله :

هَمُّها العطر والفراش ويعلو ها لجين ولؤلؤ منظوم

لويدب الحَوْلِىُّ من وَلَدِ الذَّرِّ عليهـا لأنْدَبَتْها الـكلُوم(٣)

وكما فعل الشنفرى فى قوله إنه بات فى بيت معطر كأنما أحيط بريحان ندِىّ مرت عليه ريح فحملت رائحته ، وهذا الريحان نابت فى مرتفع من وادى حَلْيَةَ بتهامة ، ومعلوم أن نبات الحزن أطيب ريحاً وأسير عطراً من نبات الوهاد :

فبتنا كأن البيت حُجِّر حولنا برَيْحانة رِيحَتْ عِشاءً وطُلَّت

بريحانة من بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرت لها أَرَجٌ ، ماحولها غيرُ مُسْنِت(٤)

وحار قيس بن الخطيم فى نوع الرائحة التى تضوع من جلبابها فقال :

كأن القرنفـل والزنجبيل وذاكى العَبِير بجلبابها(٥)

---

(١) المفضليات ١ / ٩٠ . العمر : نخلة السكر وهو تمر جيد .

(٢) جمهرة أشعار العرب ١٩٦ : أناة : متأنية فى مشيتها لثقل ردفيها . أجواز الجراد : أواسطه . يربيها : يغذوها . والترعيب : قطع السنام . المحض : اللبن الخالص . يشن : يصب . قارت : متجمد .

(٣) ديوان حسان ٩٩ . الحولى : ما أتى عليه حول . الذر : صغار النمل . أندبتها : أثرت فيها .

(٤) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٨ حجر : أحيط . ريحت : مرت بها ريح فحملت عطرها . حلية : واد بتهامة وبطن حلية فى أرض غليظة . مسنت : مجدب .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٢٣ ولسان العرب ١٨/٣١٤ .

ولقد يشم الرجل رائحة المرأة التى لم تتطيب فيستطيبها . قال امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئتُ طارقاً   وجدت بها طيبا وإن لم تَطَيَّب[١]

ولقد يصفها بأن القليل من الطيب يغنيها ، لأن بشرتها صقيلة ملساء لا تتشرب به أنشد ابن الأعرابى : —

خَوْدٌ يكون بها القليل تمسه   من طيبها عَبَقاً يطيب ويكثر

شَكَرَ الكرامةَ جلدُها فصفا لها   إن اليتيمة جلدها لا ينكر[٢]

ترف الحبيبة :

وبعد : فهذا التطيب والتحلى والتجمل يسهل علينا أن نصدق تصوير بعض الشعراء لترف الحبيبات ونعمتهن ، فهن مكفيات العمل مخدومات ، ينمن إلى الضحا ، وينمن فى الصيف ، وهن منعمات رقيقات لو دب النمل على قميص إحداهن لأثر فى جسدها البض .

قال طرفة :

لا تلمنى إنها من نسوة   رُقَّدِ الصيف مَقَالِيتَ نُزُر[٣]

وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لودب مُحْوِلٌ   من الذَّر فوق الإتب منها لأثَّرا[٤]

وقال المرار بن منقذ :

قد نرى البيض بها مثل الدُّمى   لم يَخُنْهُنَّ زمان مُقْشَعِرٌ

يَتَلَهَّيْن بنومات الضحا   راجحات الحلم والأنس خُفُرُ[٥]

---

(١) ديوان امرىء القيس ٣١ .

(٢) شكر : نشر . اليتيمة : التى لا نظير لها .

(٣) ديوان طرفة ٥٣ .

(٤) ديوان امرىء القيس ٧٤ .

(٥) المفضليات ١/٨٧ .

غـرام الرجال بالطيب :

أولع العرب بالطيب ، وأولع المصريون القدماء بالأدهنة والعطور المختلفة [١] ، كما أولع غيرهم ، وقد روت السيدة عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان « يصبح مُحْـرِماً ينضح طيباً » وقالت « كأنى أنظر إلى وَبِيص الطيب فى مفرق النبى صلى الله عليه وسلم وهو محرم [٢] وعنها « كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطيب ما يجد حتى أجد وبيص الطيب فى رأســه ولحيته [٣] وكان ابن عباس يطلى جسده بالمسك .

ومدح كعب بن زهير قوماً بقوله :

المطعمون إذا أزمــــة أزمت والطيبون ثيــــاباً كلما عَرِقوا

وكان ابن مسعود إذا خرج إلى المســجد عرف جيرانه ذاك بطيب رائحته . وقال أبو الضحا : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لى لكان رأس مال . وأحرم ابن عباس والغالية على صلعته كأنها الرُب [٤] .

ويقول الأعشى إن الثلاثة الحمر قد استنفدت ماله : الخـْمر واللحم والتطيب بالزعفران وما زال بها مولعاً :

إن الأحامرة الثلاثة أهلـكَتْ مالى وكنتُ بها قديما مُولَعـاً
الخمـرَ واللحمَ السمينَ وأطَّلِى بالزعفران ، فلن أزال مُوَلَّعا [٥]

ومدح المسيب بن علس بنى شيبان بأنهم يطيبون [٦] وكذلك مدح ابن عنقاء الجهينى بنى غطفان [٧] .

---

(١) سمر العطور ١٠ . (٢) الزبيدى ١/١٦١ ، ١٦٢ وبيص : بريق .
(٣) فتح المبدى ٣/٢٩٩ .
(٤) عيون الاخبار ١/٣٠٣ . (٥) شعراء النصرانية ٣٩٨ .
(٦) عيون الأخبار ١/٣٠٤ والشعر والشعراء ٦٠ .
(٧) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٥٩

فإذا كان الرجال مولعين بالطيب يضمخون به جسومهم ، فمن الطبيعى أن تكون النساء أكثر ولوعاً ؛ لأنه ضرب من التجمل والتزين والنعمة ، ولأنه يروق الرجال ويجتذبهم كما سبق .

على أن بعض الآباء أوصوا بناتهم بالماء ولم يوصوهن بالطيب ، ولم أجد فى وصية أم لابنتها هـذه النزعة ، مما يدل على أن الرجال يحفلون فى وصاتهم لبناتهم يوم الزفاف بالمـاء لأنهم على علم أن المرأة تحفل بالطيب من تلقاء نفسها ، بذلك أوصى عامر بن الظرب ابنتـه[1] وقيس بن خالد[2] . وبذلك أوصى فى الإسلام الفرافصة الكلبى ابنته نائلة يوم زفافها إلى سيدنا عثمان[3] وأوصى أسماء بن خارجة بنته هنداً لما زفها إلى الحجاج بن يوسف[4] .

ولا يمـكن أن يكون المراد بهذه الوصاة أن تحفل البنت بالماء وحده وتهمل الطيب ، لأن الطيب مفضل عنـد العرب رجالا ونساءً كما سبق ، ولأن وصايا الأمهات خاليات من هذا .

خضـــابها

سبق أن اللون الأحمر محبوب عند النساء والرجال ، كسوابه الحدوج واتخذوا منه ملابس ، وصنعوا حليا من المرجان والجزع والذهب ، ومن تتمة التجميل أن تختضب النساء باللون الأحمر فتبدو أكفهن حمراً ، وأناملهن حمراً « وكان الخضاب مستحسناً عند الرجال والنساء ، وأصله هندى أخذه الفرس عن الهنود[5] ، ثم انتقل من الفرس إلى بلاد العرب قبل الإسلام . ويقـال إن أول من خضب من أهل مكة عبد المطلب[6] ، وقيل بل المغيرة بن شعبة . ولما اتسع الإسلام وانساح العرب فى الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة ،

---

(١) عيون الأخبار ٤/٧٦ والأغانى ١٥/٧٠ .
(٢) لأغانى ١٩/١٣١ وجمهرة الأمثال ١٨٥ والعقد الفريد ٣/٢١١ ومجمع الأمثال ٢/١٥٣
(٣) الأغانى ١٥/٧٠ وعيون الأخبار ٤/٧٦ وشرح نهج البلاغة ٤/٣٠٨ .
(٤) الاغانى ١٨/١٢٨ وعيون الاخبار ٤/٧٧ وأحياء علوم الدين للغزالى ٢/٤١ .
(٥) مروج الذهب للمسعودي ١/١١٥ .
(٦) لطائف المعارف لابن قتيبة ٨ .

وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الأسود [١] ، وكان حسان يخضب لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاربيه وعنقه بالحناء دون سائر لحيته فيبدو كأنه أسد والغ فى دم [٢] .

فلا عجب أن اختضبت النساء وأن نوه الرجال بخضابهن . قال النابغة فى وصف المتجردة :

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه　　فتناولته واتَّقَتْنَا باليـــــد

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنـانه　　عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقد [٣]

وقال الأعشى :

وأرتك كفاً فى الخضـــا　　ب وساعداً مثل الجبـاره [٤]

وأكثر ما يكون الخضاب بالحنـاء فى الأيدى والأرجل ، وبالكَتَم [٥] المزوج بالحناء فى رءوسهن ، لأنه يكسب الشعر نعومة وفخومة .

أنواع أخرى من تجملها وتجميلها

تبين من وصف جمال المرأة أنهـا ممتلئة ، كحلاء ، عيناء ، زجّاء ، بلجاء ، بيضاء ، شماء ، مأشورة ، فلجاء ، لمياء ، جَيداء ، غيداء ، أثيثة الشـعر ، مشرقة النَّحرِ ، مهضومة الخـصر [٦] ، طويلة ، ملتفة الساقين والساعدين . . . الخ ؛ ويندر أن تستكمل امرأة هذا الجمال طبيعةً ، فلا بد لها من أن تتجمل بمـا يحقق هذا المثال أو يدانيـه ، على ألا يستعلن بأنه متكلف ، لأن الطبع العربى يمج

(١) ألف باء للبلوى ٢/٣٤٤ .　　(٢) الاغانى ٤/٣ .

(٣) ديوان النابغة ٢٩ .

(٤) ديوان الأعشى ١١٢ الجبارة : السوار أو الدملج .

(٥) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه .

(٦) عيناء : واسعة العين فى سواد . زجاء : دقيقة الحاجبين فى طول . بلجاء : بعيدة مابين الحاجبين ولا شعر بينهما . شماء : دقيقة الأنف مستوية القصبة : مأشورة : ذات أسنان محززة مذببة الاطراف . فلجاء : متباعدة مابين الثنايا والرباعيات . لمياء : سمراء اللثة والشفة . غيداء : يتثنى عنقها وأعطافها لينا .

التكلف . وكانت هنالك مجمِّلات كاللواتى يجلون العروس ، منهن النامصات ، والفالجات ، والواشرات ، والواصلات ، والواشمات [١] يحترفن بذلك .

ومن أنواع التجمل والتجميل : التنميص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتلمية ، والوَشْر ، والوشم ، والوَصْل [٢]. وأكثر من وصلن شعورهن يهوديات العرب ، وآية ذلك ما حدث البخارى « أن معاوية خطب عام حجه — وقد تناول قصة من شعر كانت بيد حرَسِىٍّ — وقال : ما كنت أرى يفعل ذلك إلا اليهود . أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن مثل ذلك [٣] » . ولكن قد مرَّ بنا أن السيدة عائشة لم تر فيه ما يحرم ، وفسرت الواصلة بأنها البغىُّ فى شبابها القَوَّادة فى كبرها .

---

(١) النامصات نازعات الشعر (القاموس المحيط مادة نمص) الواصلة : المرأة التى تصل شعرها بشعر غيرها .

(٢) التنميص : نزع ما بين الحاجبين من شعر حتى يصيرا كأنهما أبلجان، التزجيج : حف الحاجبين وإطالتهما بالإثمد . التفليج تفريق ما بين. الثنايا والرباعيات . التلمية . خضاب الشفة واللثة بالأثمد . الوشر : تحزيز الأسنان وتحديدها لتحكى الأشر لأنه من صفات الشابات . الوشم : معروف ، وأكثر ما يكون بالذراع والشفة واللثة . الوصل : إطالة الشعر بشعر معار .

(٣) إرشاد السارى ٨/٤٧٥ والمرأة العربية ١/١٤٧ .

الفصل الرابع

الحب

صلة الغزل بالحب :

الغزل هو الحديث إلى المرأة ، والحديث عن المرأة ، هو الحديث الذى يستميل المرأة بالتنويه بجمالها وسحرها وتفوقها على لداتها ، ويستميلها بوصف حب الرجل لها أو قصر قلبه عليها ، وما يلقى فى حبه من وجد وأرق وشوق ، وما يصطرع فى حبه من ألم وأمل .

وسواء أكان الغزل عذرياً أم حسياً فإنه تعبير عن حب الرجل للمرأة ، وبديهى أننى أقصد الغزل الصادق الذى تزجيه عاطفة ، لأن الغزل الصناعى ليس له من الغزل إلا اسمه .

وإذاً فبين الحب والغزل وشائج قوية ، بل الصلة بينهما أقوى من أن تكون وشائج ؛ لأن الحب عاطفة والغزل إحدى الوسائل للتعبير عن هذه العاطفة ، هو وسيلة الشاعر لإبراز ما يختلج فى نفسه .

سلطان الحب :

شغل الناس بالحب منذ القدم ، وصور الشعراء جحيمه ونعيمه مذ كان الشعر ، وتملَّى الناس تصوير الشعراء طويلا ، وأصغوا إلى حديثهم مَلِيًّا ، لا لأن الحب ترف أو كمالى ، بل لأنه غريزة من غرائز الإنسان .

وإذا كان التاريخ قد أفرد بعض المتيمين بالذكر كمروة ، وعبدالله بن العجلان ، وقيس بن الملوَّح ، وجميل بن معمر ، وجيته ، ولامرتين ، وروميو ؛ فإن لهم أنداداً عاشوا ،

وأنداداً يعيشون فى كل زمان ومكان وإن لم يشتهر أمرهم ، أو يسجَّل تاريخهم .

والحب ديمقراطى لا يختص بسهامه قبيلا دون قبيل ، بل يصهر بحرارته الملك المتوج كما يصهر راعى الإبل ، ويَتَسلَّل إلى قلب العبقرى كما يَنسَلُّ إلى قلب الرجل العادى ، ويقتحم على السياسى والقائد والثرى ، كما يقتحم على المملق والفارغ والجندى . فالحياة كلها ميدانه ، والناس كلهم فرسانه ، فلا حَرَمَ يتحصن منه . ولا طائفة من الناس تختص به ، يغزو بسلطانه الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات بله بعض الطير والحيوان .

« هو العمل الفنى الوحيد الذى يُسْهم فيه أكثر الناس تجرداً من الذوق الفنى ولو مرة واحدة فى الخيال [١] » .

لهذا كان الحب محور كثير من القصص ليثير الشوق ويمتلك الانتباه ، ولهذا حفل به علماء النفس يدرسونه ويحللونه ، واحتفى به الأدباء يعرضون من صوره ، ويكشفون عن سره ، ويؤرخون لأبطاله .

لماذا نحب ؟

وقد حار العلماء فى أمره ، وتباينوا فى منشئه والغاية منه ، ودار بعضهم حوله دوران المتهيب أن يلج بابه ، أو العاجز عن اقتحامه ليستكنه سره ، يقول ابن حزم : « الحب أوله هزل وآخره جد ، رقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة [٢] » .

ويحاول فى موضع آخر أن يتعرف سببه ، فيرده إلى تعارف بين الأرواح فى عالمها الأول « الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع، يقول الله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ، فجعل علة السكون أنها منه ، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن يُستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً

---

(١) الحياة والحب . إميل لودفيج ٢٤ .

(٢) طوق الحمامة ٤ .

ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس » (١) .

فهو لا يعزو الحب إلى جمال المحبوب جسداً ولا خُلقاً ، وإنما يعزوه إلى ما سماه اتصالا بين أجزاء النفوس في عالمها الأول الرفيع . وهو بتغاضيه عن جمال المحبوب وأثره في الحب واستدلاله بأن الجمال لو كان هو السبب في الحب لما رأينا من يحب امرأة أقل جمالا من غيرها ، هو بهذا لايجحد أثر الجمال الجسدي والجمال الروحي فحسب ، بل يريد الناس أن يحبوا كلهم طرازاً واحداً من النساء ، و يغفل تأثير ذوق الشخص وميوله في حبه ، فلقد يجد هذا من الحسن والملاحة والجاذبية في امرأة مالا يجده ذاك .

ولعل ابن حزم متأثر في رأيه هذا بأفلاطون ، فقد ذهب إلى ما يصح أن نعده أصلا وتفصيلا لما أجمله ابن حزم ، وذكر رأيه هذا في كتيب ضمنه محاورات أجراها على ألسنة جماعة من الفلاسفة اجتمعوا في وليمة ، ويعرف هذا الكتاب في اليونانية باسم سمبوزيوم Sumposium واشتهر باسم الوليمة أو المائدة الأفلاطونية Banquet جاء فيها على لسان أرستوفانس Aristophanes أن الناس في ماضيهم السحيق كانوا ثلاثة أجناس : الذكر ، والأنثى ، والخنثى ، فالذكر صدر عن الشمس ، والأنثى عن الأرض ، والخنثى عن القمر ، وكان الفرد بوجهين وأربع أذان وأربع عيون الخ ...

وكان عظيم القوة ، حتى لم يتورع أن يستخدمها في معصية الآلهة وتحديهم ، وضاق الآلهة بتطاوله ، فتداولوا فيما يعملون لكفه عن هذا التطاول ، وتحيروا ، لأنهم ما كانوا يريدون للانسان الفناء ، ثم أشار عليهم زيوس بوسيلة تحد من قوة هذا الإنسان ولكن لا تفنيه ، وهي أن يجزأ كل إنسان إلى نصفين ، كل منهما يمشي على رجلين ، ووافق الآلهة على ذلك ، وعهدوا إلى زيوس أن ينفذه ، ففعل وقطعهم أنصافاً بالمدية ، وطلب إلى أبولو أن يدير وجه كل نصف إلى قسيمه حتى

---

(١) طوق الحمامة ٦ .

يروا عمل المدية فيهم فيكونوا أكثر طاعة ... ثم شفاهم ، وبعد هـذا صار كل منهم يحن إلى حاله الأول ، فيبحث عن نصفه ويشتاق إليه ، فتراه إذا وجده ضمه إليه وطوقه بذراعيه ، وعانقه ، فعز عليه أن يفارقه ، وهكذا المحبون كل يبحث عن قسيمه ، ويجرى وراء نصفه ، فالذى يحب النساء هو الذى انشق من الخنثى ، والذى يحب الذكور هو الذى انشق من الذكر ، وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد .

وفى الختام يقول باوسانياس : وإذا اتخذنا الآلهة أولياء وأطعمناهم وأرضيناهم فسيظفر كل منا بنصفه الذى انفصل عنه ، وطريق السعادة فى الحياة أن نمكن للحب فى حياتنا فيجد كل منا محبوبه الحقيقى ، ويرجع إلى حياته الأولى حياة الاتحاد والشمل المجتمع(١) » .

وما من شك فى أن هذا رأى خيالى ، ولا جدوى من ورائه إلا أن الحب صلة بين روحين أو بين قلبين لا نستطيع أن نعرف كنهها . ولم يتأثر بهـذا الرأى ابن حزم وحده ، بل كان له صدى عند غيره ، وإن لم يوردوه على حقيقته ، ولعله قد وصـل إليهم مقتضباً أو محرفاً ، فمثلا يذكر أبو القاسم الأصبهانى أن بعض المتفلسفين زعموا أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ، ثم قطعها أنصافاً ، فجعل فى كل جسد نصفاً ، فكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق ، وتفاوت حالها فى القوة والضعف على حسب رقة الطبائع(٢) .

ويبدى بعض علماء النفس الحديث رأياً فى الحب جديراً بالملاحظة ، فيقرر أدلر Adler أننا نحب لنكمل ما ينقصنا ، فيحب الرجل امرأة فيهـا قدر من الأنوثة يكمل ما ينقصه ، وتحب المرأة رجلا فيه قدر من الرجولة هو الذى ينقصها ، وذلك أن أدلر « يؤمن إيماناً كبيراً بخنوثة الناس Hermaphrodisme وكثيراً ما يذكرها ويدلل عليها فى مؤلفاته ، ولعله على صواب فى ذلك ، إذ أن كثيراً من البحوث البيولوجية الحديثة تؤيد وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث

(١) Plato's : Lysis Sumposium Gorgias, edited, by Lamb, pp. 135-147

(٢) محاضرات الأدباء ٢/٢٣ .

فى الكائن الحى الواحد ، وقد قال فرويد من قبل أدلر بذلك الرأى ، فذكر أن من الطبيعى أن توجد بالمرء درجة معينــة من الخنوثة التشريحية ، إذ أنه فى كل فرد سواء أكان ذكراً أم أنثى بقايا لعضو التناسل عند الجنس الآخر ، بحالة أولية ، وهى عاجزة عن أداء أية وظيفة ، أو قد تقوم بأداء بعض الوظائف التى تخالف وظائفها الأصيلة ، وقد استحدث من تلك الحقائق الفكرة القائلة بأن الكائن الحى كان مخنثاً فى الأصل ، وأنه اتخذ خلال عملية التطور وجهة التوحيد الجنسى ، مع احتفاظه ببعض البقايا المشوهة من خصائص الجنس المقابل .

ويرى أدلر أن الازدواج الجنسى فى الناس كافة ، ويذكر أن (لاكير) كشف أن هرمونات الجنس الآخر توجد فى بول الناس جميعاً وأن (بران) استوثق من دراسته لحالات تسعة من اللواطيين من صحة ذلك الكشف ، أى من وجود هرمونات الأنثى فى بول الذكر ووجود هرمونات الذكر فى بول الأنثى ، وذكر أن دراسة التوائم قد تؤدى يوماً إلى التثبت من الخنوثة التى فى الأفراد ، وتعين على فهم تلك الحقيقة[١] » .

الغاية من الحب :

وقد كان — وما زال — الغرض من الحب مثار نزاع كما كان سبب الحب مثار نزاع ، فقد جاء فى المائدة الأفلاطونية على لسان سقراط أن الحب ليس هو البحث عن القسيم مطلقاً — كما قال أرستوفانس — بل البحث عن القسيم الخير ، لأن العضو السقيم يُبتر إذا أُيس من شفائه ، والوسيلة التى يسلكها الحب هى السعى للاتصال بالجميل والاتحاد به عن طريق الجسم والروح معاً ، ففى سن معينة يظهر فينا هذا الميل للاتصال والاتحاد ، وهو ميـل مقدس لأنه سبيل الخلود للمخلوق الفانى ، وهـذا الاتصال لا يكون مع البغيض المنفور منه — والقبيح بغيض والجميل محبوب — وحين ينضج فى الفرد هذا الدافع يشعر بالميل إلى الاتحاد بالجميل ليتخفف من وزر يشعر بثقله ، فالحب إذاً ليس للجميل ولكنه للاتحاد به ،

(١) علم النفس الفردى ٩٤ .

وهذا الاتحاد المقدس يحفظنا من الفناء ، والناس فى الحب فريقان : فريقٌ لا يعبأ بغير المادة ولا يرغب إلا فى الجسد ، وهؤلاء يحبون النساء ، وينشدون الخلود بالنسل ، وفريق ينشد الفضائل ، وهؤلاء يطلبون الجمال والأشياء الجميلة[١]

فالغرض من الحب إذاً يختلف باختلاف المحبين ، فالراغبون فى المتعة الجسدية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل لينسلوا ويخلدوا ، والطامحون إلى الروحانية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل لأنهم ينشدون الجمال والكمال فحسب .

ولهذا الرأى صداه فى قول ابن سينا : « القوة الحيوانية تهدف إلى التوليد والتكاثر ، وكل قوة نفسية تستفيد من انضمامها إلى قوة أعلى منها رتبة ، فتعظم الأفعال الصادرة عنها فى كمها وكيفها بحسن الإتقان ولطف المأخذ ، فإذا جاوزت القوة النطقية القوة الشهوانية وانضمت إليها استعانت بها على حفظ النوع وبقائه ، ونشأ من تجاورهما عِشقُ حُسْنِ النظم واعتدال التركيب[٢] » .

وكذلك نجد ابن حزم جانحا إلى النوع الثانى من الحب ، الذى ذكره سقراط لأن الحب فى رأيه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، فلا بد أن يكون بعيداً من الغرض ، مبرأ من الغاية ، لأن الاتصال هو الذى يوجبه على المتحابين[٣] .

وبذلك يقول بما قاله أبو بكر محمد بن داود الظاهرى من قبله ، وما قاله الغزالى وبويس جبون من بعده ، من أن الحب سرور بالمحبوب لذاته لا لأنه يقضى شهوة أو يحقق رغبة .

ولكن هذا رأى أقرب إلى الخيال ، أو هو رأى محب ُحرم الخلوة والاتصال والوصال ، وأحرى به ألا ينطبق على حب الرجل للمرأة ، بل ينطبق على الصداقة العالية ، كما سنبين ، ولذلك مال إخوان الصفا إلى أن الحب شدة شوق إلى الاتحاد[٤] كما قال أرستوفانس فى المائدة الأفلاطونية ، وذهب ابن سينا إلى أن غاية

---

(١) Plato's : Lysis Sumposium, P. 257.

(٢) رسالة العشق لابن سينا من جامع البدائع ٧٧/٨٠ .

(٣) طوق الحمامة ٦ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ٣/٦٥ .

هذا الاتحاد بقاء النوع الإنسانى « لمّا اقتضت العناية الإلهية استبقاء الحرث والنسل ، وامتنع المراد فى مدة البقاء فى الشخص الكائن أو جبت الحكمة صرف العناية إلى الأنواع والأجناس فطبعت فى كل واحد من الأشخاص شوقا إلى تأثير ملازمة توليد المثل ، وهيأت لذلك فيه آلات موافقة[١] » .

على أنه يذكر فى موضع آخر أن الحب الذى يهدف إلى متعة حيوانية جدير بالمنقصة ومضر بالنفس الناطقة ، وليس من خصائصها ، وأن حب الجميل باعتبارٍ عقلىٍّ وسيلةٌ إلى الرفعة ؛ لولوعه بما هو أقرب فى تأثيره من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، ولذلك لا يكاد أهل الفطنة من الظرفاء والحكماء ممن لا يسلك طريق المتعشقين يخلو من شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية[٢] .

فنحن أمام رأيين : رأى يرى أن الحب شوق إلى الاتحاد للانسال والخلود ، ورأى يجعله روحانيا صرفا لا صلة له بالمتعة الجسدية ، ونريد أن نصطفى لأنفسنا رأياً منهما ، لأن له صلة وثيقة بالغزل وأنواعه كما سندرسه .

ويحسن بنا أن نعرج على المحدثين لنبلو ما عندهم ، فهذا ماكس نوردو يرى أن الحب شوق إلى الاستمتاع الجسدى « كل أثر ينبه فى الدماغ — بأى شكل من الأشكال — مركز التناسل سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم آتياً من تداعى الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل ، وصورة الجمال الأول فى نظر الرجل هى المرأة فى سن النضج الجنسى والاستعداد لتجديد النسل ، أى المرأة فى عنفوان الشباب والصحة ، ففى محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة الجنسية من نفس الرجل بأقوى الإحساسات وأشد الخواطر ، وتثير رؤية (الظاهرة) وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التى يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور[٣] » .

وقد عزا فرويد إلى الغريزة الجنسية الحبَّ وغيره ، وتعسف فى نظريته وعممها لأنه نسب الحب — على أشكاله وضروبه — إلى الغريزة الجنسية . لكن الحب

(١) رسالة العشق من جامع البدائع ٧٧ . (٢) رسالة العشق ٨١ .

(٣) مراجعات فى الآداب والفنون . عباس العقاد ٨٠ .

عاطفة معقدة ، وهى لا تشمل الميول الانفعالية النزوعية الجنسية والوالدية فحسب ، بل تتصل بها كل الغرائز تقريبا وبخاصة غريزتا الزهو والخشوع ، وقد أدى الخلط بين الغريزة الجنسية وعاطفة الحب إلى كثير من النقاش والجدل ، « لإسراف فرويد فى توسيع نطاق الميول الجنسية وأثرها فى الحياة الإنسانية ، وفى تعيين أصل جنسى لكل الاضطرابات العقلية والعصبية وللأحلام ولضروب النشاط المختلفة التى ليست لها علاقة واضحة بالجنس[١] » .

ولم يطمئن بعض تلاميذ فرويد إلى تعميمه هذا ، فاعتزلوا مذهبه ، واصطنعوا لأنفسهم مذهبا جديدا ، فمثلا أدلر Adler خالف أستاذه فى اعتباره الغريزة الجنسية أقوى الغرائز فى الإنسان ، وأشدها تحكما فى مصائره ، وذهب إلى أن الإنسان محكوم فى جميع أعماله وتصرفاته بغريزة أخرى هى حب السيطرة ، فهو سعيد ما دامت هذه الغريزة راضية ، وشقى ما دام غير قادر على إرضائها ، ويذهب أدلر إلى أبعد من ذلك ، فيعد الغريزة الجنسية نفسها مظهراً من مظاهر حب السيطرة ، وينظر إلى الحب على أنه مظهر من مظاهر هذه الغريزة[٢] .

من التعسف إذاً أن يرد فرويد وأنصاره سلوك الإنسان إلى الغريزة الجنسية ولا يعفون من هذا رغبة أو خالجة ، وكثيراً ما توجد غريزة التناسل بمعزل عن حب الجمال ، وكثيرا ما يُحَب الجمال بمعزل عن غريزة التناسل ، وأقوى الناس شغفا بالجمال هم أرقاهم فى مدارج الإدراك ومراتب الذوق ، وأشدهم شوقا إلى المتع الروحية ، ولقد تكون الغريزة الجنسية ذات عُرام فيمن يهبطون فى مدارج الإدراك والذوق ولا يحفلون بمتع الروح ، « ولا معنى لأن يقال إننا نستجمل المرأة لأن غريزة التناسل تسوقنا إليها ، وتضطرنا إلى حبها ، إذ لو كان الأمر كذلك لأغنتنا تلك الغريزة عن الجمال ، ولأصبحت كلمة المرأة مرادفة لكلمة المرأة الجميلة ، وأصبح وصف الجمال فضولا لا يضيف إلى الأنوثة شيئاً من عنده ، وإنما الأولى أن يقال إن غريزة التناسل تعجز بمفردها عن سوق الأحياء إليها ؛

(١) علم النفس الفردى . إسحق رمزى ٤٨ .

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة . الدكتور موريس الديك ٤٥ .

فتتخذ من الجمال شركا توقعهم به فى أسرها ، فكأنه الحلوى التى يكسى بها الدواء لتشتهيه النفس إذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه[١] » .

وبعد : فما أعزو إلى الغريزة الجنسية والرغبة فى النسل والخلود كل أنواع الحب ، وما أنحيها بعيداً من الحب ، لأن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز تغلغلا فى النفس وتسربا فى مناحى الإدراك والوجدان والنزوع ، وهى على صلة قوية بتذوق الجمال ومطالب الفنون ، يتأثر بها الشعراء فيما ينظمون ، والمصورون والنحاتون فيما يصورون وينحتون ، والمغنون فيما يغنون وينشدون .

فبعضُ الحب بل أكثره جاذبيةٌ بين رجل وامرأة تبدأ مستورة الغرض روحانية الغاية ، ثم تنكشف عن الغرض رويداً رويداً .

والحب الذى يحرم فيه المحب متعته هو الحب الحار الموحى بالغزل الحار . يقول هكسلى : « حيثما وجدت القيود وضيقت على المحب وجد الحب الحقيقى ، لأنه قائم على الحرمان ، وحيثما كان الوصل خفت حدة الحب[٢] » .

وبعضه تظل الروحانية تظلله ، لأن ثمة ما يمد ظلها من حرمان ، أو يأس ، أو حواجز وعجز .

وإلا ففيم كانت لهفة العشاق على الزواج من حبيباتهم ؟

ولم ماتوا من الكمد أو جُنوا عندما حيل بينهم وبين هذا الزواج الذى ارتبط بحبهم ؟ وهم كثير فى العصر الجاهلى والإسلامى ، فقد مات مسافر بن عمرو لما حرم زواج هند بنت عتبة التى أحبها[٣] ، وكذلك مات عبد الله بن العجلان[٤] ، والصمة بن عبد الله[٥] ، وعروة بن حزام[٦] ، والمرقش الأكبر[٧] ، وجن

---

(١) مراجعات فى الآداب والفنون . العقاد ٨٦ .

(٢) Huxley. P. 120. (٣) الأغانى ٨/٤٨ .

(٤) الأغانى ١٩/١٠٢ — ١٠٥ والشعر والشعراء ٢٧٤ ومصارع العشاق ٨ .

(٥) تزيين الأسواق . الأنطاكى ٩١–٩٢ .

(٦) الاغانى ٢٠/١٥٢ والشعر والشعراء ٢٣٧ والامالى ٣/١٥٧ والنوادر ١٥٧ والدر المنثور ٣٤٦ .

(٧) الشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الاسواق ٨٨ .

بعضهم من حبه اليـائس ، كما جن قيس بن الملوّح [١] ، وقطع المرقش الأصغر إبهامه وَجْداً على فاطمة بنت المنذر [٢] .

فلو أن حبهم روحانى صرف ما اشتهوا هـذا الزواج ، بل لنفروا منه إن عرض عليهم .

ثم إن بعض هؤلاء العشاق قد تصدروا الحب العذرى ، ووسموا بأنهم أبطاله ، فإذا استطعت أن أعثر فى شعرهم على تعابير دالة على الإعجاب بالجسد الجميل ، وعلى الشوق الى الاستمتاع به ، فقـد اهتديت إلى تأكيد أنه لا يوجد حب أفلاطونى روحى صرف . والحق إن فى شعرهم هذا وذاك ، فلم يستطع أبطال الحب العذرى أن يتحللوا من الإعجاب بالجمال الجسدى ، بل إنهم أعجبوا به ، وشـادوا بحسنه ، فعروة بن حزام يصف جسد عفراء بقوله :

كأن وِشَاحَيْها إذا ما ارتدتهما ... وقامت عِنانا مُهْرَةٍ سَلِسان

يَعَضُّ بأبْدَانٍ لهـا ملتقاهما ... ومَتْنَاهما رِخْـوَان يَضطربان

وتحتهما حِقْفَان — قد ضَرَبَتْهُما ... قِطَارٌ من الجَوْزَاءِ — مُلْتَبِدَان [٣]

وقيس بن ذريح وصف جسد لبنى بقوله :

إذا ما مشت شبرا من الأرض أَرْجَفَتْ ... من البُهْر حتى ما تزيدُ على شبر

لها كـفل يرتجُّ منها إذا مشت ... ومَتْنٌ كغصن البان مُضْطَمِر الخصر [٤]

ويصف قيس بن الملوح ريق ليلى بقوله :

كأن على أنيابهـا الخمرَ شَجَّها ... بماء الندى من آخر الليـل عاتق

---

(١) الاغانى ٢/١٤ ، ٣٧ والشعر والشعراء ٢٢١ والكامل للمبرد ١/٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/١٣٤ .

(٣) النوادر لأبى على القالى ١٦١ وتزيين الاسواق للأنطاكى ٧٨ الوشاح : أديم عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . الحقف : أصل الجبل شبه رد فيهابه . قطار : قطر ومطر . الجوزاء : برج فى السماء والمراد هنا السماء ملتبدان متداخلان .

(٤) الأغانى ٨/١١٦ .

وإن زعم أنه لم يذقه إلا توهما :

وما ذقته إلا بعينى تفرسا ... كما شيم فى أعلى السحابة بارق(١)

ويصف جسدها بقوله :

أبى القلب أن ينفك من ذكر نسوة ... رقاق ولم يُخْلَقْنَ شؤما ولا نُكدا

إذا رحن يسحبن الذيول عَشِيَّةً ... ويقتلن بالألحاظ أنفسنا عمدا

مَشَى عَيْطَلَاتٌ رُجَّحٌ بخصورها ... روادفُ وَعْثَاتٌ تردُّ الخُطارِدَا

وتهتزُّ ليلى العامرية فوقها ... ولاثت بسِبِّ القَزِّ ذا غُدُرٍ جَعْدا

إذا حَرَّكَ المِدْرَى ضفائرَها العُلا ... مَجَجْنَ نَدَى الريحانِ والعنبرَ الوردا(٢)

ويقول أيضاً :

بيضاء خالصة البياض كأنها ... قمر توسَّطَ جُنْحَ ليل مُبْرَد

موسومة بالحسن ذات حواسد ... إن الجمالَ مظِنة للحسَّد

وتَرَى مدامعُها تُرَقْرِقُ مُقْلَةً ... سوداء ترغب عن سواد الإثمد(٣)

وكذلك يصف جميل بثينة وصفا جسديا فى قوله :

قناة من المُرَّان ما فوق حَقْوِها ... وما تحته منها نَقًا يَتَقَصَّف

لها مُقْلَتَا ريم وجِيدُ جَدَايةٍ ... وكشحٌ كطَيِّ السابريَّةِ أَهْيَف(٤)

ولم يقتصر هؤلاء الذين زعموا الحب العذرى على وصف الجسد ، بل تعدوا ذلك إلى التصريح بالمتعة الجسدية ، فالمجنون يطلب من الله أن يتيح له قبلة من ليلى :

دعوت إلهى دعوةً ما جهلتها ... وربى بما تخفى الصدور بصير

---

(١) الأغانى ٢/٣٢ عاتق : خمر معتقة . شيم : انتظر ونظر .

(٢) الأغانى ٢/٨١ عيطلات : حسنات الجسم طويلات العنق . روادف : كبيرات الأرداف . وعثات : سمينات . سب القز: خمار الحرير.

(٣) الأغانى ٢/٨٣ مبرد : بارد .

(٤) الأغانى ٧/٨٦ . المران : الرماح الصلبة اللدنة . الحقو : الكشح والإزار أو معقدها . النقا : القطعة من الرمل . جداية : غزال . السابرى : ثوب رقيق جيد .

لئن كنتَ تُهدِى بَرْدَ أنيابها العلا لأفقَرَ منى إننى لفقـــير [1]

وجميل يتحدث عن العناق :

كأن فَتِيتَ المسك خالط نشرها تُعَلُّ به أردانُها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ويغدو به من حِضنها من تعانق [2]

ويتحدث عن حلاوة الريق وحاجات النفس :

ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى أظل إذا لم ألق وجهك صادياً
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات إليك كما هيا [3]

ويقول إنها كانت تجود مرة بحديثها ومرة بريقها :

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

ثم هو يقسم لها يميناً صادقة ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان قد مسه جلد غير جلدها :

حلفت يميناً يابثينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسّنى وباشرنى دون الشعار شَرِيت [4]

ويقول قيس بن ذريح إن لبنى أجمل النساء كاسية وعريانة ، وإنها أجمل ضجيع نائمة ويقظى :

يا أكمل الناس من قَرْنٍ إلى قدم وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نِعْمَ الضجيع بُعَيْدَ النوم تجلبه إليك ممتلئاً نوماً ويقظانا [5]

وقد روى أن توبة بن الحُمَيِّر كان عفيفاً فى حبه ، ولم ينل من ليلى منالا ، ولكن فى قول ليلى ما ينبئ بأنه قد صبا إلى متعة جسدية أيا كانت هذه المتعة ، ولم يكفَّ عما اشتهى إلا باحتجازها هى وامتناعها ، قالت ليلى :

---

(١) الأغانى ٢/٤٧ . (٢) الأغانى ٧/٨٩ .
(٣) الأغانى ٧/٩٠ وراجع أيضا ١٠٠ و ١٠١ .
(٤) شريت : أصيب جلدى بقروح لاذعة .
(٥) الأغانى ٨/١١٨ .

وذى حاجة قلنا له : لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وخليل (١)

وتوبة هذا كان أحيى من الفتاة كما تقول ليلى :

وتوبة أحيى من فتاة حيية وأجرأ من ليث بخَفَّانَ خادر (٢)

لا أستطيع أن أتصور إذاً حباً روحانياً صرفاً مبرأ من نزوات الجسد ما دام طلقاً من حواجز وأرصاد ، وكيف أتصوره وحياة أبطال الحب العذرى تنطق به ؟

يقول إميل لدفيج فى هذا المعنى : « ثبت أن الحب فى كل دور وتحت كل سماء ولدى كل جيل حادث جثمانى ، وقد يكون الحب غير ذى نتائج روحية ، والحب قد حدث على هذا الوجه فى ألوف المرات ، ولكن الحب لم يحدث قط بلا نتائج جثمانية ، حتى إن بظلة أشد ما وجد من الحب الروحانى — بياتريس — تم لها الفوز بمنظرها الجثمانى حينما رآها الشاب دانتى على الجسر ، فسحر بمظهر هذه المرأة المجهولة (٣) » .

وكأنما أحس أفلاطون بأن حب المرأة لا بد أن تشوبه المتعة الجسدية ضئيلة أو غير ضئيلة ، ففضّل حب الذكور على حب الإناث ، إذ قسم الحب إلى سماوى علوى وأرضى عامى ، وميز السماوى بأن محوره حب الذكور لا النساء ، وجعله متعلقاً بالروح ، فلا يعبأ بالجسد ولا يحتفل بلذاته ، لأنه حب عقلى ينشد الأرواح الصافية والنفوس العالية والعقول الراجحة ، وغايته تحرر العقل وتبادل النفع الفكرى ، وهو وسيلة إلى الخلود ، والناس مختلفون فى فهم الخلود ، فمنهم من يسعى إليه عن طريق النسل ، ومنهم من ينشده بالروح والعقل ، وهؤلاء هم الخالدون حقاً .

كان أفلاطون ينظر إلى الحب هذه النظرة ، وهو ما يسميه علم النفس الحديث Homosexual Love .

أما الحب الجنسى — وهو العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة — فقد اعتبره

(١) الأغانى ١٠/٦٥ .
(٢) الأغانى ١٠/٧١ خادر : مقيم فى أجمته .
(٣) الحياة والحب : إميل لودفيج ١٦ .

حاجة جسمية لا تختلف عن الحاج الجسمية الأخرى مثل الطعام والشراب (١) .

وقد قرر فى (الجمهورية) أن « من طبع الحب المشروع الرغبة فى الجمال المتزن بطبع رزين متزن ، فلا يصح أن يلامســه جنون ولا دعارة ، لأن اللذة لا تدانى الحب ، ولا — يأتى المحب وحبيبه شيئاً من هــذا النوع ، ومع أن المحب يلاصق محبوبه ويرافقه ويقبــله قبلة الأب ابنه بسبب جماله — إذا ارتضى المحبوب منه ذلك — يجب أن ينظم علاقاته به على وجه لا يأذن بتجاوز هذا الحد إلى ما وراءه ، وإلا عُذل لفظاظته وعدم ذوقه (٢) » .

البيئة العربية والحب

١ — عاش العرب فى بيئة غنية بالجمال المطبوع وإن حرمت كثيراً من ألوان الجمال المصنوع ، فهنالك يبزغ القمر وضاح الجبين بساماً ، ويبعث أشعته الفضية للمدلج والساهر فيخلب لبه ، وتلتمع النجوم سوافر فى سماء أضحيانة تناغى وتناجى ، وهنالك السكون الرهيب الباعث على التأمل ، والبراح الفسيح المتكشف ، والحرية المطلقة ، وتحلل الحياة من أشاغيل المدنية وضجيج الحضارة ، هنالك ينفسح الوقت لأن يخلو الشخص إلى نفسه ، وأن ينضِّر حيــاته بالحب ، ويملأ فراغه بالتفكير فيمن يحب .

٢ — والعربى حساس يأسره الجمــال ، تمثل جمال بيئته « ذلك بأن الشاعر العربى القديم كان شاعر طبيعة ، يتأمل فيها ، ويبثها آلامه ، وينسى عندها أحزانه ويحبها ، ويفتن بها ، ويصورها كما امتثلتها نفسه ، تثير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانهــا ورمالها وآلها وآبارها وواحاتها ونجومها وبرقها ومطرها ، فالشاعر الجاهلى إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدوياً أو راعياً كما صنع شــعراء العصور الوسطى والقديمة الأوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية وتحرر من قيود المــاضى فإنه

(١) Greek Love in The Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٢) جمهورية أفلاطون ٧٩ ترجمة حنا خباز .

صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعد فى بيئة مشابهة . وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة[(١)] » .

لكن جمال المرأة أغلى أفانين الجمال ، لأنه الجمال الحى الواعى الذى لا ينضب الإعجاب به ، وقد كانت المرأة العربية ذات جمال جسدى وروحى كما سبق ، فلا جرم كان جمالها ذا سلطان على الرجال ، ولا جرم أن أحبوها ، وأكثروا الغزل فيها . قال عمرو بن معد يكرب فى سلطان جمال المرأة :

والغانيات يُقَتِّلنَ الرجال إذا ... ضَرَّجن بالزعفران الرَّيْط والنُّقُبا
إنَّ الغوانى قد أهلكننى تَعباً ... وخلتهن ضعيفات القوى كذبا[(٢)]

وقد قيل لعذرى : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تَنْماث كما ينماث الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ » فقال : « إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها[(٣)] » .

٣ — وكانت المرأة العربية ذات مكانة رفيعة فى البيئة العربية ، فطالما تقرب الشعراء إليها ، وخطبوا ودها ، وطالما شَجُع الرجال وكَرُموا مرضاة لها ، وطالما أشهدها الأبطال على بلائهم ومفاخرهم كما سيجىء ، وعرف العرب لها قدرها ، حتى لقد وزنها جثامة بن عقيل بن عُلَّفة بالرجال :

أيعذِر لاحينا ويَلْحَيْنَ فى الصبا ... وما هن والفتيان إلا شقائق[(٤)]

وفى أمثالهم : « إن النساء شقائق الأقوام » والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق اثنين ، وأراد بالأقوام الرجال ، ومعنى المثل إن النساء مثل الرجال ، وشققن منهم ، فلهن مثل ما عليهن من الحقوق[(٥)] .

وما من شك فى أن هذه المكانة التى للمرأة مضافة إلى العوامل الأخرى ، من بواعث حب الرجل لها ، لأن الحب عاطفة يمازجها الإعجاب والاحترام ، والمرأة

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٢ سيد نوفل .
(٢) الأغانى ١٤/٣٧ وفى الأصل النبيط بدل الريط .
(٣) عيون الأخبار ٤/١٣١ .
(٤) معجم البلدان ٤/١٤٦ يعجب من أن يعذرهم لائموهم فى الحب ثم لا تعذرهم المحبوبات
(٥) معجم الأمثال للميدانى ١/٢٦ .

الممتهنة ليست أهلا لأن تُحَب ولا أن يتقرب إليها الرجال . لذلك يقول العلامة مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب[١] » .

ويكفى للدلالة على علو قدر المرأة فى العصر الجاهلى أن أرسم لها صورة مجلى كأنها المعالم إلى الطريق ، أما التفصيل فأدعه إلى بحث آخر .

(ا) كانت تتمتع بحق الملكية والتصرف فيما تملك ، ويلاحظ أننا بصدد تملكها لا بصدد طريقة هذا التملك ولا بصدد حقها فى الميراث[٢] .

وحقيقة كانت القبيلة تتكون من المحاربين فحسب ، ولكن النسب إلى القبيلة شيء وحق الملكية شيء آخر ، وقد غفل المؤرخون العرب عن هذه التفرقة وقالوا : إن النساء والأطفال ما كانوا يرثون . فهل هذا صحيح ؟

إننا نميل إلى الشك فى ذلك ، فقد كثر ذكر الوصاية على اليتامى فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ومعنى ذلك أن لهم مالا ورثوه[٣] . وظل حق المرأة فى الامتلاك والتصرف فى ملكها إلى أواخر عصر ما قبل الإسلام وعلى الأخص فى مكة[٤] .

وأوضح مثال على ذلك السيدة خديجة ، فقد كان لها مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالا من قريش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمن وفى الشام ، وتقاضى أجره منها أربع بكرات فى رواية ، وقلوصين فى رواية أخرى[٥] .

وفى القرآن الكريم ما يدل على هذه الملكية وعلى حق التصرف فيها : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة[٦] » ويقول الطبرى فى تفسير

---

(١) Introduction to Social Psychology. P. 365

(٢) Muslem law An Historical introduction to The Law of inheritance by Russell and Suhrawardy. P. 29—30

(٣) المرجع السابق ٢٧ — ٢٨ .

(٤) المرجع السابق ٢٤ .

(٥) إنسان العيون ١٤٧/١ — ١٥٢ .

(٦) سورة النساء .

الآية إن ابن المتوفى أوقريبه كان أحياناً يعضل زوجته فيمنعها من زواج غيره حتى تموت أو ترد إليه صداقها لتفتدى به[١] .

ويذكر الزمخشرى فى تفسير الآية أن الرجل كان إذا تزوج امرأة ولم توافقه حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدى منه بمالها وتختلع[٢] . وسواء أكان هذا أم ذاك فإن للمرأة مالا ، وإن لها أن تتصرف فى هذا المال .

وقد اختلعت بنت عامر بن الظرب من زوجها فى الجاهلية[٣] .

وملكية المرأة صريحة فى قول حاتم الطائى لزوجته :

تلوم على إعطائى المال ضَلَّةً ... إذا ضنَّ بالمال البخيل وصرَّدا
تقول ألا أمسك عليك فإننى ... أرى المال عند المسكين معبَّدا
ذرينى وحالى إن مالك وافر ... وكل امرئ جارٍ على ما تعوَّدا[٤]

وإذا كانت المرأة قد حُرمت الميراث فى العصر الجاهلى[٥] ؛ فقد كانت هنالك طرق أخرى للملكية كالتجارة والوصية والهبة والهدية ، وبذلك كانت المرأة العربية خيراً من الرومانية « لأن زوج المرأة الرومانية كان هو الذى يملك مالها ويقيم عليها وصياً قبل موته[٦] » فهى محرومة حق الملكية وحق التصرف فيها .

وكانت أيضاً خيراً من المرأة الإنجليزية ، لأنها لم تملك إلا فى عام ١٨٨٢ م ، مع أنها كانت تؤدى أعمالا مضنية ولكن أباها أو زوجها هو الذى يستولى على أجرها[٧] ، فهى أيضا لا تملك ولا تتصرف . وما زالت المرأة الفرنسية إلى اليوم محرومة حق التصرف فى ملكها .

(ب) على أنها إلى حقها فى التملك والتصرف فى ملكها كانت كثيراً

---

(١) تفسير الطبرى ٤/٢٠٧ — ٢٠٩ .
(٢) الكشاف ١/١٩٧ . (٣) عيون الأخبار ٤/٧٦وبلوغ الأدب ٢/٥٣ .
(٤) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠ .
(٥) تفسير الطبرى ٤/٧٦ ، ٨٥ و ٥/١٩١ — ١٩٦ والكشاف ١/١٩٠ والنيسابورى ٤/١٩٥ .
(٦) المرأة فى العصور لأحمد خاكى ٢٥ — ٣٠
(٧) المرأة فى العصور ٩٤ .

ما تستشار فى زواجها ، فمثلا خطب دريد بن الصمة الخنساء وألح عليها أخوها مُعاوية أن تقبله زوجا فرفضت[١] ، واستشار علقمة بن حفصة ابنته الزباء لما خطبها الحارث بن سليل[٢] ، وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائى لما خطب إليه الحارث ابن عوف[٣] ، وتخيرت ماوية بنت عفزر حاتما الطائى من خطابها الثلاثة[٤] .

(حـ) وكانت الزوجة تستمتع بمشاركة زوجها فى شئونه ، وينصاع إلى مشورتها ، فقد رفض أوس بن حارثة أن يجيب الحارث بن عوف إلى خطبته ، ثم حملته زوجته على أن يقبل فاستجاب لها[٥] ، وكذلك فعل غيره[٦] ، وأطاع الحطيئة زوجته فقعد عن سفر[٧] .

(ء) وكانت المرأة تشارك الرجال فى الحياة العامة ، فقد اشتركت عاتكة بنت مرة — زوجة عبد مناف بن قصى وأم هاشم والمطلب وعبد شمس — فى حلف الأحابيش[٨] ، ويقرب من هذا ما صنعته بعد ذلك فى حلف المطيبين أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب[٩] .

(هـ) وكانت تجير كما يجير الرجال ، فيمتنع من تجيره من الأذى والعدوان ، فقد أجارت سبيعة بنت عبد شمس[١٠] ، وأجارت أم هانئ بنت عبد المطلب اثنين من أحمائها يوم فتح مكة[١١] ، وأجارت زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام زوجها أبا العاص يوم بدر فأُطلق بغير فداء وُرد عليه ماله[١٢] ، وأجارت امرأة

---

(١) الأغانى ٩ / ١١ والأمالى ٢ / ١٦١ والشعر والشعراء ١٢٢ وعيون الأخبار ٤ / ٤٦

(٢) المحاسن والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ٧٠ ومجمع الأمثال ١ / ١١٠ .

(٣) الأغانى ٩ / ١٤٢ وجمهرة الأمثال ١٨٣ .

(٤) الأغانى ١١ / ١٠٤ والشعر والشعراء ٧٢ وجمهرة الأمثال ١٥٤ .

(٥) الأغاني ٩ /١٤٢ . (٦) مجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٢٦٣ .

(٧) الأغانى ٢ / ١٧٧ . (٨) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٧٩ .

(٩) سيرة ابن هشام والتعليق عليها ١ / ١٤٣ وتاريخ اليعقوبى ١ /٢٨٨ ، ٢/ ١٦ .

(١٠) الأغانى ١٩ / ٧٩ .

(١١) سيرة ابن هشام وفتح البارى ٣٧/٨ .

(١٢) الإصابة ٨ / ٩١ .

من دوس جماعة من قريش فأمضى الدوسيون إجارتها [١] ، وأجارت ريطة بنت جِذْل الطعان دريد بن الصمة حين أسرته كنانة [٢] .

(و) وكانت تشارك فى الحياة الأدبية ، فتنافس الرجال فى قرض الشعر ، كالخنساء ، فقد أنشدت النابغة بعكاظ فأعجب بشعرها وقال لها : لولا أن هذا الأعمى — يعنى الأعشى — أنشدنى قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم ، ثم فضلها على حسان [٣] ، واحتكم امرؤ القيس وعلقمة إلى أم جندب زوجة امرئ القيس فأنشداها قصيدتين [٤] .

(ز) وكانت العصمه بيد الزوجات ، يطلقن رجالهن متى شئن ، والأمثلة على هذا كثيرة [٥] .

(ح) وكان العرب حراصاً على كرامتها وإعزازها والضن بها ، حتى لقد تنشب حرب من جراء امتهانها ، كما حدث فى اليوم الثانى من أيام الفجار الأول ، إذ اعتدى شباب من قريش وكنانة على امرأة من بنى عامر ، فثار العامريون وقاتلوا بنى كنانة [٦] . وكما حدث بين اليمنيين وبين ربيعة ومضر ، إذ اعتدى لبيد بن عتبة الغسانى على زوجته عَمْرة بنت الحُباب من تغلب ، وتنقص من قدر كليب بن ربيعة التغلبى ، فاقتتل الفريقان وانهزم اليمنيون [٧] .

(ط) وكانت تشترك مع الرجال فى الحروب فى الجاهلية [٨] ، بل قادت المحاربين فى ذلك العصر كما فعلت أم قِرْفة فى الجاهلية ، وكما فعلت هى وابنتها

(١) الإصابة ٨ / ٢٦٥ .
(٢) الأمالى ٢ / ٢٧١ — ٢٧٣ .
(٣) مقدمة أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء ٢٤ .
(٤) الأغاني ٢١ / ١١٢ .
(٥) الأغانى ١٦ / ٩٩ ، ١٠٢ وأخبار النساء لابن القيم ٥٤ والمحبر ٣٩٨ وذيل الأمالى ١٥٣ ومجمع الأمثال ١ / ٣١٨ ومعجم البلدان ٦ / ٣٠٧ .
(٦) الاغانى ١٩ / ٧٤ .
(٧) المرأة العربية ١ / ٥٩ وبكر وتغلب ١٥ — ٢٥
(٨) المعارف لابن قتيبة ٢٨٠ وديوان قيس بن الخطيم ١٤ وديوان حسان ١٣ وشعراء النصرانية ٢٤١ وأيام العرب ١٣٢ / ١٦٢ .

سلمى فى حرب الردة[١] ، وكانت تحرض على الثأر ولا تقر حتى تشفى غليلها[٢] .

واحتفظت بهذه المشاركة فى الحرب وبالتحريض على الثأر فى صدر الإسلام[٣] .

وهذه المرأة التى كانت قديرة على إشعال الحرب وتأريثها والاصطلاء بحرها كانت قديرة أيضاً على نشر لواء السلام وحقن الدماء ، كما فعلت بُهَيْسة بنت أوس الطائى إذ حملت زوجها الحارث بن عوف على أن يصلح بين عبس وذبيان قبل أن يدخل بها — وهى عروس — فصدع بمشورتها وأصلح بين الحيين ، وتحمل ديات القتلى[٤] .

وليس من موضوعى أن أتبسط فى بيان مركز المرأة فى الحياة الجاهلية ، فإن لهذه الدراسة فرصة أخرى أرجو أن تهيأ لى قريباً ، ولكن هذا لا يمنعنى من أن ألمّ بمكانة المرأة فى العصر الجاهلى إلماماً مجملا .

وقد اعترف لها بمكانة عالية رَسِل Russell كما مرّ ، كما اعترف لها المستشرق الإنجليزى نيكلسون Nicholson فى قوله : « كان مركز المرأة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيما ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفى بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكن يعتبرن عبيداً أو سرارى ، بل أنداداً ورفيقات ، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا .

ولعل فروسية العصور الوسطى متأثرة بحياة العرب فى الجاهلية . وقد جاء بكتاب الليدى آن ومستر ويلفرد بلانت المسمى « القصائد الذهبية السبع فى العصر الجاهلى » بالمقدمة ص ١٤ هذه الفقرة : كانت الشهامة والخروج بالخيل بحثاً عن المغامرات وإنقاذاً للعذارى من السبى ، ومساعدة للنساء اللائى نزل بهن الضيق ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٢٣٤ وتاريخ اليعقوبى ٢ / ٧٤ وسيرة ابن هشام ٤/ ٢٩٠

(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٠٢ وديوان الخنساء ١٠٦ وحماسة البحترى ٣٣ والأمالى ٢/٢٢٦ وبلاغات النساء لابن طيفور ١٦٧ .

(٣) الإصابة ٨/٨ ، ٨٠ ، ١٩٩ ، ٢٣٥ وتاريخ ابن الأثير ٢/٦١ وألف باء للبلوى ٢/٢١٠ وسيرة ابن هشام ٣/٦ ، ١٣ و ٤/٧٥ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩ ، ٣٦٦ والتمدين الإسلامى ٣/٥٤ ، ١٤٧ و ٥/٥٧ .

(٤) الأغانى ٩/١٤٣ .

كانت هذه فضائل عربية وأعمالا مجيدة يتحلى بهـا الفارس ، ذلك الرجل النبيل الأصل [(١)] » .

ثم شرع نيكلسون يذكر بعض شهيرات النساء ، ويعرض مواقفهن المشرفة

٤ — ثم هم ذوو فراغ ؛ لأن أكثرهم رعاة يسيمون الإبل والشاء ، وقليلاً منهم تجـار يترددون على الأسواق بين الفينة والفينة ، وأقل من هؤلاء زراع وصناع ، وهؤلاء جميعاً فى أوقاتهم سعة ، وفى أعمالهم دعة ، وهذا الفراغ فى هذه البيئة مجال خصيب للحب ينبت فيه وتمتـد جذوره وتعلو سوقه ، يقول الجاحظ : « رجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه يُشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن ؛ لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وفى ملك رقاب الأمم ما يشـغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق [(٢)] » ، والجاحظ على صواب ؛ لأن الحب لا يعشش ويفرخ إلا فى القلوب الفارغة له ، أما القلوب المشغولة بالـكدح فى طلب القوت ، أو بالعمل العظيم الذى ينتهب الوقت ، فإنها ليست من أوكاره ، وإن أوى إليها حيناً من الدهر ، شعر بضيقها ، وفرَّ عنهـا إلى أوكار أرحب ، وأهنأ وأنعم .

وقد ردد داود الأنطاكى رأى الجاحظ ، فجعل أشد الغرام ما كان عن فراغ ، وبنى على هـذا أن أخف الناس عشقاً الملوك ، ثم مَنْ دونهم ، لاشتغالهم بتدبير الملك ، وقدرتهم على مرادهم ، ومَنْ دونهم أفرغ له ، لقلة الاشتغال ، حتى يكون المتفرغون له هم أهل البـادية ، لأنهم غير مشغولين بعوائق ، ولذا فهم أكثر الناس موتاً بالحب [(٣)] .

وما زال الفراغ إلى اليوم من الظروف المواتية للحب ، ولهـذا يقول إميل لودفيج : إن الحب فى أمريكا نادر لأن الناس هنالك مشاغيل بالعمل الذى لا يفتر [(٤)] .

---

(١) A Literary History of The Arabs. Nicholson. P. 87—92,

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من رسائل الجاحظ .

(٣) تزيين الأسواق . داود الأنطاكى ٩ .

(٤) الحياة والحب ٦٢ — ٦٣ .

ويقرر أن الريف أكثر ملاءمة للحب من المدن ، لأن الحب يتطلب حياة هادئة لا كد فيها ، وفى الأمثال : العطلة أم كل علة ، ولو استبدلنا كلمة الشهوة بكلمة العلة لم نخطىء إلا قليلا ، ولا يصح أن نزدرى العطلة وفق آداب القرون الوسطى ، بل يجب أن ننشدها مصدراً للفلسفة والشعور[١] .

٥ — وفى البيئة العربية كان الفتيان يخالطون قريباتهم وبنات أعمامهم ، وكثيراً ما كانوا ينشئون معاً فى بيت واحد ، فإذا ما كبر الفتى ونضجت الفتاة تحابا ، كما أحب عروة بن حزام عفراء بنت عمه[٢] ، وكما أحب الصمة بن عبد الله ابن مسعود بن رقاش ريا بنت مسعود بن رقاش[٣] ، وكما أحب المخبل القيسى ميلاء بنت عمه[٤] ، وكما أحب المرقش الأكبر بنت عمه أسماء[٥] .

٦ — ثم كان الفتيان يحدثون ويخالطون غير القريبات ، فى مضارب الخيام ، وفى الفضاء ، وفى الترحال ، وفى رعى الأغنام ، كما أحب قيس بن الملوح ليلى — فى العصر الإسلامى — وهما يرعيان الغنم معا ، يدل على ذلك قوله :

تعلقت ليلى وهى ذاتُ ذُؤابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البُهْم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البُهم[٦]

وكانت ظروف الحياة مدعاة للخلاط والحديث ، ولقد يخشى أهل الفتاة مغبة هذا الحديث فيحاولون أن يمنعوه ، وربما لا يستجاب لهم ، فمثلا كان القَتَّال الكلابى يتحدث إلى ابنة عم له اسمها العالية ، فرآه أخوها فنهاه ، وحلف لئن رآه ثانية يتحدث إلى أخته ليقتلنه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها ، فأخذ السيف وبصر القتَّال به فخرج هاربا[٧] .

وعلم الإصبع بن مِحْصَن بحب مالك بن الصمصامة لأخته جنوب ، فآلى

---

(١) الحياة الحب ٣٨ .

(٢) الأغانى ٢٠/١٥٢ والشعر والشعراء ٢٣٧ والأمالى ٣/١٥٧ والنوادر ١٥٧ .

(٣) تزيين الأسواق ٩١ .

(٤) الأغانى ٢١/١٦٠ .

(٥) الأغانى ٥/١٨٠ والشعر والشعراء ٥٤ .

(٦) الأغانى ٥/١٨٠ .

(٧) الأغانى ٢٠/١٥٩ .

يميناً لئن عرض لها أوزارها ليقتلنّه ، ولئن عرّض بها فى شعره أوذكرها ليأسرنّه ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه ، فبلغ ذلك مالكا فقال :

فما الحلق بعد الأسر شرٌّ بقيّةً ... من الصدِّ والهجرانِ وهى قريبُ
أحقا عبادَ الله أن لستُ خارجا ... ولا والجاً إلا علىَّ رقيب
ولا زائراً وحدى ولا فى جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبةٌ فى أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب[1]

ولقد يبيحون الحديث ثقة بعفة الرجال والنساء ، وكرامة أنفسهم عليهم ، قال سويد بن أبى كاهل اليشكري :

تُسْمِعُ الحدَّاث قولا حسناً ... لو أرادوا غيره لم يستمع[2]

فلم يكن الحديث محظوراً دائماً ، وإنما كان يباح كثيرا « لما يرون من النقص فى الرَّيْب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران ، وما يعرف بعضهم عن بعض من الوفاء والتحرز من العار[3] » .

وقد روى أن سبب حب قيس بن الملوح لليلى أنه جلس يحدث نسوة وفيهن ليلى ويقص عليهن شعرا فأعجب ليلى وأعجبته[4] .

وطالما تغنى الشعراء بعذوبة حديث النساء وسحره ، ووصفوه بالجد والحياء والعفة كما سيجىء فى حديث المرأة ، وهذا أدعى إلى تعلق الفتى بالفتاة ، وإعجابه بنبلها ، قال عدى بن زيد :

هيَّج الداءَ فى فؤادك حورٌ ... ناعمات بجانب المِلْطاط
آنسات الحديث فى غير فحش ... رافعات جوانب الفُسْطاط[5]

ولقد يجر الحديث إلى مجالسة ، ومؤانسة ، قال حسان :

ولقد تجالسنى فيمنعنى ... ضيق الذراع وعلَّةُ الخفَرَ[6]

---

(١) الأغانى ١٩/٨٣ . (٢) المفضليات ١/١٩٠ .
(٣) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ . (٤) الأغانى ٢/١٢ ، ٤٢ .
(٥) معجم البلدان ٨/١٤٩ الملطاط : طريق على ساحل البحر (٦) ديوان حسان ٤٤

ولقد يلتقى المتحابون فيتباثون الشكوى ، وينفض الشاعر ما بدخلته أمام محبوبته ، ويسكب فى سمعها وقلبها من رُقَىَ شعره ، ثم لا يزيد على ذلك ، قال محمد ابن يحيي المدنى : « سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها يفرح إن رأى من رآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، فاليوم يشير إليها وتشير إليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حبا ولم ينشدا شعرا ، وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه[١] .

٧ — وكانت النساء والرجال يجتمعون فى طوافهم بالأصنام ، يدل على ذلك قول الأزهرى : الدَّوّار صنم كانت العرب تنصبه ويجعلون حوله موضعاً يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدَّوّار ، ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأن نعاجه عذارى دَوَارٍ فى مُلاء مُذَيَّل

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة[٢] ، ويرى هشام ابن محمد الكلبى أن الدّوار هو الطواف بالأصنام والأوثان والحجارة الغُبْر المنصوبة[٣] .

وسواء أكانت اللغة قد أطلقت الكلمة على صنم أم على موضع الطواف به ، أم على الطواف نفسه ، فإن بيت امرئ القيس يكشف عن صلة بين العذارى والطواف بالأصنام .

ولا بد أن الطائفات بالأصنام والأوثان والأنصاب كن يتخذن زينتهن ، ويطفن فى رشاقة ودلٍّ فيصبين الرجال ، يدل على ذلك قول عامر بن الطفيل — وقد أتى أخواله غَنِيّ بن أعصر يوماً وهم يطوفون بنصب لهم ، فرأى فى فتياتهم جمالاً وهن يطفن بالمنصب — :

ألا ياليت أخوالى غَنِيًّا عليهم كلما أمسوا دَوار[٤]

(١) أخبار النساء ١٨ .

(٢) تاج العروس مادة (دور) وفى القاموس المحيط : الدوار مثل كتان وتضم الدال أيضاً وبتخفيف الواو أيضا : الكعبة وصنم . وقد شبه إناث البقر الوحشى فى مشيها وطول أذنابها بجوار يدرن حول الصنم وعليهن الملاء الطويل المهدب .

(٣) الأصنام ٣٣ ، ٤٢ .

(٤) الأصنام ٤٢ .

وكان المحب يمني نفسه أن يلقى حبيبته فى الدوار إذا كانت حاله لا تتيح له أن يلقاها فى غيره ، يقول الحادرة : إن سمية هجرتنى وحرمتنى أن أراها ، وليس لى أن أرجو لقاءها إلا فى يوم الدوار ، على أنى فى شك من لقائها فى هذا اليوم :

أمسَتْ سُمَيَّةُ صَرَّمتْ حبلى ونأت وخالف شكلها شكلى
ورجاؤها يوم الدَّوَار كما يرجو المقامر نَيْلَة الخَصْل(١)

٨ — على أن الأسواق الكبرى ومواسم الحج فى الجاهلية كانت مشاهد يفد إليها العرب من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ومن طبيعة المرأة أن تأخذ زينتها فى هذه المواطن ، فيراها الفتيان فيعلقون بها ، قال قيس بن الخطيم :

وعهدى بها أيام نحن على مِنى وأحسِنْ بها عذراء ذات ذوائب(٢)

وقد بقى موسم الحج والاجتماع مثاراً للحب وللغزل إلى الإسلام ، وهو عصر تصوُّن أكثر من العصر الجاهلى ، فقد روى فى سبب حب جميل لبثينة أنه : « خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزيَّن ويبدون للرجال فى كل عيد ، فرأى بثينة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحبِّ فأعجبنه ، وعشق بثينة(٣) » .

وانتهز قيس بن الملوح فرصة الحج ليرى ليلى ، فرآها ، وأطال النظر إلى بنانها المخضوب وهى تقذف الجمار :

فلم أرَ ليلى بعد موقف ساعة بخيف مِنًى ترمى جمار المحصَّب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البُرد أطراف البنان المخضَّب(٤)

وأفاض عمر بن أبى ربيعة فى ذكر موسم الحج ، وكان ربيعاً لغزله ، فقد أبصر حسناء مَرَّة بين المقام والحجر :

أبصرتها ليلة ونسوتَها يمشين بين المقام والحجر
بيضاً حساناً نواعماً قُطُفا يمشين هَوْناً كمشية البقر(٥)

---

(١) ديوان الحادرة ١٤ نيلة الخصل : نيل الغلب ، أى كما يرجو المقامر أن يغلب خصمه لأن الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس . وأحرز خصله أى غلب .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١١ (٣) الأغانى ٧/٦٧ .
(٤) الأغانى ٢/٢٠ المحصب : موضع رمى الجمار بمنى .
(٥) الأغانى ١/١٧٠ قطف : قريبات الخطا .

وأبصرها مرة ترمى الجمار :

فلقيتها تمشى بها بَغَلاتها ترمى الجمار عَشِيَّةً فى موكب[(١)]

لهذا يحب عمر موسم الحج ، فيقول :

حبذا الحج والثريا ومن بالْ خَيْفِ من أجلها ومُلْتَقَى الرِّحال[(٢)]

وكذلك كان موسم الحج عند عبيد الله بن قيس الرقيات ، فقد حجت رقية بنت عبد الواحد العامرية ، فطافت ليلة بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وكان من ورائها عبيد الله فأهوى يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفحته بردتها فارتدع . ثم قال لصاحبه فِنْد : من هذه ؟ فقال له : إنها رقية ، فقال :

من عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى عند الطواف

وقال أيضا :

سائلا فِنْداً خليلى كيف أرْدَانُ رقَيَّه

إننى عُلقت خَوْداً ذات دَلٍّ بَخْتَرِيه[(٣)]

٩ — وكانت الأديار فى العصر الجاهلى كثيرة ، وكان العرب على صلة بها ، وكانت ينبوعاً آخر للحب .

منها دير هند الصغرى — بنت النعمان بن المنذر — بالحيرة[(٤)] ، ودير هند الكبرى — بنت هند أم عمرو بن هند — بالحيرة أيضا[(٥)] ، ودير سعد[(٦)] ، ودير عمرو بجبال طيىء ، وقد ذكره زهير[(٧)] والأخطل يذكر دير أُبَّى على جانب الفرات[(٨)] ، وبالحيرة أيضا دير اللُّج بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس[(٩)] ، وبها دير حنظلة الطائى وكان قد نسك فى الجاهلية وتنصر وبنى هذا الدير[(١٠)] ، ودير حَنَّه

---

(١) الأغانى ١/٢٠١ . (٢) الأغانى ١/٢١٣ .
(٣) الأغاني ٥/٩٦. بخترية : حسنة المشى والجسم مختالة (٤) معجم البلدان ٤/١٨٢ .
(٥) المعجم ٤/١٨٣ . (٦) المعجم ٤/١٤٦ .
(٧) المعجم ٤/١٥٩ . (٨) معجم البلدان ٤/١٦٧ .
(٩) معجم البلدان ٤/١٦٧ . (١٠) معجم البلدان ٤/١٣٤ .

بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع[١] ، ودير عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغسانى وهو الذى صالح خالد بن الوليد لما غزا الحيرة[٢] ، وبالقرب من الموصل دير العذارى ، سمى بذلك لأن به نساء عذارى قد ترهبن وأقمن للعبادة[٣] . ولم يكن الدير محبسا للزهادة والعبادة فحسب ، بل كان مشربا للخمر المعتقة ، ومجلسا محببا إلى الندامى ، قال عدى بن زيد فى دير علقمة بالحيرة :

نادمت فى الدير بنى عَلْقَما   عاطيتُهم مَشمُولةً عَنْدَما
كأن ريح المسك من كأسها   إذا مزجناها بماء السما
علقمُ ما بالُك لم تأتنا   أما اشتهيت اليوم أن تَنعما
من سره العيش ولذاته   فليجعل الراح له سُلَّما[٤]

وكان الدير أيضاً مبعث حب وغزل . فإن الفتيات يشخصن إليه زائرات مزدانات ، فيسبين قلوب الفتيان ، قال أبو دؤاد الإيادى لصاحبه :

بل تأمَّلْ وأنت أبصرُ منى   قَصدَ دير السَّوَا بعينٍ جليَّه
لمن الظعن بالضحا واردات   جدولَ الماء ثم رُحْن عَشيَّه
مظهرات رَقْماً تُهال له العيـ   ـنُ وعَقْلاً وعَقْمةً فارسية[٥]

وقيل فى دير اللج إنه حبيب إلى القلب ، يحل به غزال جميل حلو النغم ، إذا رجع الإنجيل وتمايل سبى واجتذب وهاج الحنين :

سقى الله دير اللجِّ غيثا فإنه   على بعده منى إلىَّ حبيب

---

(١) معجم البلدان ٤/١٣٥ .

(٢) معجم البلدان ٤/١٥٤ .   (٣) معجم البلدان ٤/١٥٦ .

(٤) معجم البلدان ٤/١٥٨ مشمولة : خمر عرضت لريح الشمال فبردت . العندم : دم الأخوين والبقم (وهو شجر أحمر الساق يصبغ بطبخة) والمراد أن الخمر حمراء .

(٥) معجم البلدان ٤/١٥٠ الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . العقل ثوب أحمر يجلل به الهودج أو ضرب من الوشى . العقمة : بفتح العين وكسرها المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر ، وبالكسر الوشى .

يُهيّج ذكراه غزالٌ يَحُلّه أغنُّ سَحورُ المقلتين ربيب
إذا رجّع الإنجيلَ واهتز مائدا تذكر محزونٌ وحنّ غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابلُ أسقامٍ به ووجيب(١)

ويقول ورد بن الورد الجعدى فى دير حبيب :

وإن مرّ ركْبٌ مُصْعِدون فقلبه مع الرائحين المصعدين خَبيبُ
سل الريح إن هبت شمالاً ضعيفة متى عهدها بالدير دير حبيب
متى عهدها بالنَّوْفَليَّاتِ حبذا شواكلُ ذاك العيش حين يطيبُ(٢)

وطالما جرع عبد المسيح بن بقيلة مرارة من حب علق به من دير الجرعة بالحيرة من حسناء زائرة للدير لا راهبة :

كم تجرعت بدير الجرَعه غُصَصاً كبدِى بها منصدعة
من بدور فوق أغصانٍ ، على كُثُب زُرْنَ احتساباً بِيَعه(٣)

ولقد تهجع الحبيبة بالدير ، ومحبها يقضى الليل أرِقاً ، قال المرّار الفقعسى :

أحقّاً ياحريزُ الرهنُ منكم فلا إصعادَ منك ولا قُفولا
تصيح إذا هجعت بدير توماً حمامات يَزِدْنَ الليل طولا
إذا ما صحن قلتُ : أحِسُّ صبحاً وقد غادرن لى ليلاً ثقيلا
خليليَّ اقْعُدَا لى علّلانى وصُدَّا لى وسادى أن يميلا(٤)

وكان سبب عشق عدى بن زيد لهند بنت النعمان بن المنذر أنه رآها فى خميس الفِصْح تتقرب فى البيعة فوقعت فى نفسه ، ثم قصدت بيعة توما بعد ذلك فتبعها(٥) ثم تحابا ، وتزوجها .

---

(١) معجم البلدان ١٦٧/٤ سحور المقلتين : شديد سحرهما . ربيب : مربوب معتنى به وجيب : خفقان .

(٢) معجم البلدان ١٣٢/٤ ولم يعرف ياقوت موضع هذا الدير . وفى البيت الثانى إقواء خبيب : الخبيب ضرب من العدو . النوفليات : شىء من صوف تختمر عليه نساء العرب ، والمراد هنا النساء . شواكل : مذاهب وطرق .

(٣) معجم البلدان ١٣١/٤ . (٤) معجم البلدان ١٢٩/٤ .

(٥) الأغانى ١٢٨/٢ — ١٣٢ .

ثم كانت المرأة العربية — على جمالها الجسدي والروحي الذي فصلته — لقنة لبقة راوية للشعر ، وبحسب الشاعر الغزل أن يجد هذه التي تجاوبه ، وتدرك نفثاته وخلجاته ، وتفهم قيمة الدر الذي ينظمه إعجاباً بها وشوقاً إليها ، وأخبارهن في ذلك كثيرة ، منها أن الفارعة بنت أبي الصلت أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الطائف قصائد من شعر أخيها أمية ، إحداها القصيدة التي مطلعها :

باتت همومي تسري طوارقها أكفُّ عيني والدمع سابقها (١)

وكانت ريَّا بنت مسعود بن رقاش حبيبة الصمة بن عبد الله بن مسعود بن رقاش تتذاكر معه الشعر (٢) .

وقد كان ذلك في الإسلام أيضاً ، فإن قيس بن الملوح جلس يحدث نسوة فيهن ليلى ويروي لهن شعراً فأحب ليلى وأحبته (٣) .

١١ — ثم كانت هنالك مجالس للغناء مشهودة ، وطالما تغنى الشعراء بجمال القيان ، كقول طرفة :

نداماي بيض كالنجوم وقَيْنةٌ تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَد
رحيبٌ قِطابُ الجيب منها رفيقةٌ بجَسِّ النَّدامى بَضَّةُ المتجرَّد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرَتْ لنا على رِسْلها مطروفةً لم تَشدد
إذا رجَّعَتْ في صوتها خلتَ صوتها تجاوُبَ أظآرٍ على رُبَعٍ رَدِي (٤)

وقول سلامة بن جندل :

وعندنا قينةٌ بيضاء ناعمة مثلُ المهاة من الحورِ الخراعيب

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر ٨/١٥٦ .
(٢) تزيين الأسواق ٩١ — ٩٢ (٣) الأغاني ٢/١٢ ، ٤٢ .
(٤) ديوان طرفة ٢٥ نداماي : صحبي على الشراب . بيض : أعلام مشاهير . برد : ثوب موشى . مجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران . أي تروح إلينا وعليها برد ومجسد . قطاب الجيب : مجتمعه . ووصفه بالسعة لأنها كانت تجعله كذلك ليبدو صدرها . رفيقة بجس الندامى : يلمسونها ويجسونها فلا تخشن لهم أو المراد بالجس الطلب أي تجيبهم إلى ما يطلبون من غنائها . بضة : بيضاء ناعمة. المتجرد : ما سترته الثياب من الجسد، على رسلها : على مهلها. مطروفة : فاترة الطرف . لم تشدد : لم تجتهد وتجهد وإنما أخذت تغني بغير مشقة .

تُجرى السواكَ على غُرٍّ مُفلَّجة ... لم يَغْرُها دَنَسٌ تحت الجلابيب[١]

وقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيانَ يعزفن بالدفِّ ... لفتياننا وعيشاً رَخِيًّا

يتبارين فى النعيم ويَصْبُبْـ ... ـن خلال القرون مسكا ذكيا

إنما همهن أن يتحليـ ... ـن سُمُوطاً وسُنبُلاً فارسيا

من سُموط المرجان فصِّل بالدرِّ ... فأحسنْ بِحَلْيهنَّ حُلِيًّا[٢]

ويظهر أن أكثر القيان كن غير عربيات ، ولعل العرب أنفوا من صناعة الغناء وإن كانوا قد طربوا له . يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه فى الجاهلية عند جبلة بن الأيهم ، وجاء فى وصفه أنه سمع عشر قيان : خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة [٣] . ولكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللائى يغنين غناء أهل الحيرة ، أهن فارسيات أم عربيات ؟ ويدل على ذلك أيضاً أن الدكتور بيرون ذكر فى كتابه عن النساء العربيات أن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ويستنتج أن أكثرهم من الأحباش لأن أكثر العبيد كانوا أحباشاً [٤] . ومما يؤيد رأيه هذا أن العرب عرفوا القنين واستعملوه فى الجاهلية ، والقنين من أسماء الطنبور عند الأحباش ، ولا شك أن أدوات الموسيقى وثيقة الاتصال بالغناء ، وقد ذكر الجاحظ من مفاخر السودان تفوقهم فى الغناء والرقص [٥] .

ويدل على ذلك أيضاً أن المستشرق ليال Lyall يقول إنهن كن فارسيات أو يونانيات من سوريا وأنهن كن يغنين بالعربية وربما كن يغنين بلهجة أجنبية[٦]

---

(١) المفضليات ١/١١٨ المهاة : البقرة الوحشية . الخراعيب : جمع خرعوب ، وهى الشابة الحسنة القوام الرخصة اللينة. غر : بيض. مفلجة : ذوات فلج وهو تباعد ما بين الأسنان. لم يغرها : لم يلصق بها ، أراد أنها عفيفة .

(٢) الأغاني ٩/١٦٤ الدار . سموط : قلائد .

(٣) الأغانى ١٦/١٤ . (٤) بلال راعى السماء . العقاد ١٥٠ .

(٥) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٥٤

(٦) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤ شوقى ضيف .

وأن فون كريمر يذهب إلى أنهن كن فارسيات أو يونانيات يغنين بلسانهم اليوناني أو الفارسي (١) .

كانت القيان يغنين بلغات غير عربية أحياناً ، كما سبق في قول حسان ، وكما ذكر أبو الفرج عن الأعشى أنه كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران، ويقيم عندهما ما شاء، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي، وفي ذلك يقول الأعشى :

وكعبةُ نجرانَ حتمٌ عليـ ـك حتى تُناخي بأبوابها
نزور يزيدَ وعبد المسيح وقيساً همُ خيرُ أربابها
وشاهدُنا الجُلُّ والياسمِـ ين والمُسْمِعاتُ بِقصَّابِها
وبَرْبَطُنا دائمٌ مُعْمَلٌ فأيُّ الثلاثة أُزْرِي بها ؟ (٢)

ولكنْ هنالك نصوص صريحة الدلالة في أنهن أيضاً كن يغنين باللغة العربية ، من ذلك قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبحتُ كُمَيْتاً قرْقفاً أُنفاً من طيِّب الراح ، واللذاتُ تعليل
صِرْفاً مِزاجاً وأحياناً يُعَلِّلنا شِعْرٌ كمُذْهَبةِ السَّمّان محْمول
تُذرى حواشيهُ جَيْداءُ آنسةٌ في صوتها لسماع الشَّرْب ترتيل (٣)

ومن ذلك أنه كان بمكة قينتان فارسيتان لعبد الله بن جدعان تغنيان الناس (٤) والغناء للناس يترجح أن يكون بالعربية ليفهموه ، لأنه غناء للشعب ، ومن ذلك أيضاً أنه كانت بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء ، فتيقظ له وأصلحه (٥) .

---

(١) A History of Arabian Music. Farmer. P. 17.

(٢) الأغاني ٦/٦٩ — ٧٠ ومعجم البلدان ٤/١٧٩ المسمعات : المغنيات . القصاب : الزمار . البربط : العود (معرب) .

(٣) المفضليات ١/١٤٣ كميتا : خمرا في لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها رعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجا : نشرب بها خالصة لطيبها وكأنها ممزوجة بالماء لسهولتها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشي مقارب أو الأصباغ التي تزوق بها السقوف . محمول : مروي ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشي أغانيها تطريبا وترجيعا . حواشيه : أطرافه . جيداء : طويلة الجيد . آنسة : منبسطة متحدثة . نصفدها : نعطيها . سرابيل : ثياب .

(٤) الأغاني ٨ / ٣٢٧ الدار (٥) الأغاني ٩ / ١٥٧ ساسي

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأسلمت ، وشكت إليه حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت : إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء ، فوصلها صلى الله عليه وسلم ، ثم رجعت إلى قريش حاملة كتاب حاطب بن أبى بلتعة وارتدت عن الإسلام (١) .

وقد تغنت القيان بشعر الهجاء أيضاً ، فقد كان لابن خطل قينتان تغنيانه بهجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله وقتلهما ، فقتل وقتلت إحدى قينتيه ، واستؤمن رسول الله للأخرى فأمنها وأسلمت (٢) .

وكانت هريرة — محبوبة الأعشى — وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مَرْثد ، وكانتا تغنيانه النصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٣) ، والنصب غناء عربى صرف .

لهذا لا أوافق على أنهن كلهن كن غير عربيات ، كما ذهب ليال وفون كريمر ، وأرى أن بعض القيان كن عربيات . ويعزز ذلك أيضاً أن ماوية بنت عفزر كانت على سمو مكانتها تلقى فتيان العرب فيفضون إليها بأشعارهم فتوقعها ، وتلقيها عليهم بصوت يهزهم هزاً (٤) .

وقد كانت القيان ينبوع متعة ومبعث حب ، افتتن فيه الشعراء افتتانا ، لأنهم كانوا يجتمعون فى مجالس الغناء ، فيشربون ويسمعون ويطربون ويعشقون .

وقد أحب الأعشى هريرة ، وتغزل فيها كثيراً ، وكانت هريرة وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مَرْثَد (٥) .

وظلت القيان ينبوع حب إلى ما بعد العصر الجاهلى كما كن فى العصر الجاهلى ، فمثلا يتحدث أبو الجديد أنه سمع رقطاء الحبَطية ، فأحبها وزف خلفها زفيف النعامة ثم أودعها قلبه ، وخلّفه لديها ، وعاد يهوى كالرخمة بغير قلب (٦) ، وقد أحب ابن

---

(١) إنسان العيون ٣/٨٧ .
(٢) إنسان العيون ٣/١٠٥ .
(٣) الأغانى ٨/٧٧ ساسى .
(٤) الأغانى ١٠/١٧ ساسى .
(٥) الأغاني ٨/٧٧ .
(٦) الأغانى ١/٢٨٨ .

الرومى المغنية مظلومة وتغزل فيها (١) ، وأحب المغنية وحيد ، وأوحى إليه حبها بقصيدة حارة رائعة صرح فيها بأنه متيم معمود (٢) .

واشتهر عبد الرحمن بن أبى عمار الْـقَسّ بحب سلامة (٣) .

ثم كانت الإماء مثار نوع آخر من الحب والغزل كما سأوضح فى الغزل الحسى

١٢ — وقد اتصف كثيرمن رجال العرب بصفات نفسية تحببهن إلى النساء ، وسأوضح هذا فى آثار الحب والحبيبة فى نفس الشاعر ، كما اتصف بعضهم بجمال جسدى ، حتى لقد كانوا يتعممون بمكة — كما قيل — مخافة الافتتان بهم ، وقد ذكر محمد بن حبيب كثيراً منهم ، لحنظلة بن عثمان بن عمرو ، والحضر ، والزبرقان بن بدر ، وسبيع الطهوى ، وأعفر اليربوعى ، وزيد الخيل الطائى ، وقيس بن الحطيم ، وامرئ القيس بن حجر (٤) .

* * *

فى هذا المجتمع الذى تواتى ظروفه الحب كانت الرؤية الأولى كافية لأن تصيب سهامه القلوب ، والحب فى أكثر حالاته وليد نظرة ولَقْيَة ، فما هو إلا أن ينظر الفتى العربى فتاة من قريباته أو من غيرهن ويروقه جمالها حتى يعلق بها وتصير ليلاه . وليس العاشق بالخيار فى هذا ، وليس لأحد أن يسأله : كيف أحببت من النظرة الأولى ؟ كيف أحببت قبل أن تتعارفا ؟ لأن روح النوع هى التى ألهمت وأوحت .

وليس يقع الحب من النظرة الأولى نادراً ، بل إنه الأعم الأكثر ، وأمثلته شتى ، منها « غرام الصبى دانتى بالصبية بياتريس ، والرجل بترارك بالمرأة لورا ، وقد استأثر هذا الحب على ما فيه من حرمان بمجامع قلب الشاعرين مدى حياتهما ، وقد جلا شكسبير هذه الحقيقة فى قوله : لم يحب قط من لم يحبب لأول نظرة » (٥)

(١) ديوان ابن الرومى ٢١٥ .

(٢) ديوان ابن الرومى ٩٨ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ١٧ والأغانى ٦/١٣٦ و ٨/٦ .

(٤) المحبر لأبى جعفر محمد بن حبيب ٢٣٢ .

(٥) ملخص رأى شوبنهور . هلال نوفبر ١٩٣٤ .

وقد أحب عبد الله بن علقمة حبيبته من أول نظرة لما رآها تحلب ناقة وقد ضرب الهواء سِبتًا أخضر على وجهها فانكشف[١] .

وروى أن قيس بن الملوح أحب ليلى من أول لقاء ومن أول نظرة[٢] كما أحب دريد بن الصمة تماضر بنت عمرو — الخنساء — من النظرة الأولى وعبر عن حبه بقصيدة منها :

حيُّوا تماضر واربَعُوا صَحْبِي وقِفُوا فإن وقوفكم حَسْبِي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم واعتاده داء من الحب[٣]

ويكاد الأدباء والمجربون للحب يدينون بأثر النظرة الأولى ، فإذا كان شكسبير يرى أن الذى لم يقع فى شرك الحب من النظرة الأولى فليس بمحب حباً حارا غلاَّبا فإن إميل لودفيج يري كذلك أن الحب مبدؤه نظرة : « بدء الحب نظرة ، والذى يدفع أحد العاشقين إلى الآخر ويجعل من الغريبين شخصين متحابين يتبادلان التأثير إنما هو مقابلة ولو هنيهة على الأقل ، يكون فيها تبادل نظرتين ناطقتين عند التقائهما بكلمة (أحبك) ، فالعين رسول تلك الجاذبية التى بين الأرواح ، ومن النادر أن يفتن شخص آخر بالصوت وحده غناء ، أو نداء أو كلاما »[٤] .

ويقول شوقى :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء[٥]

فلست أوافق ابن حزم فى أن الحب من النظرة الأولى يتصف دائماً بأنه سريع الزوال وبأن المحب سريع السلو عنه ، لأن أسرع الأشياء نموا أسرعها فناء ، ولأن أبطأها حدوثا أبطؤها نفاداً ، لذا يدوم الحب إذا كان بعد طول مخافتة ومشاهدة وأنس ، لأن ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً[٦] ، ولست أوافق ابن داود

---

(١) تزيين الأسواق ٧٧ . (٢) الأغانى ٢/١٢ .
(٣) الأمالى ٢/١٦١ .
(٤) الحياة والحب ١٨ . (٥) الشوقيات ٢/١٣٩ .
(٦) طوق الحمامة ٢٠ — ٢٢ .

الظاهرى فى هذه النظرة إلى الحب الذى ينشب سريعاً ، فهو يرى كما رأى ابن حزم أنه لا يستقر فى القلب ، بل يزول إذا ما ابتلى بطارئ ، ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر (١) .

لا أوافقهما لأنهما يقيسان العاطفة بالمادة فيطبقان على العواطف ما يجرى على المواد من بطء النماء وبطء الفناء ، وسرعة النماء وسرعة الفناء ، وكأنهما يقولان إن الحب البطيء كالماء يمتص الحرارة فى بطء ويفقدها فى بطء ، وإن الحب السريع كاليابسة تمتص الحرارة فى سرعة وتفقدها فى سرعة. والحق إن العواطف لا تخضع لهذا الحكم ، لأن العبرة فى الحب بالشرارة الأولى التى تنبعث من عينين أو من قلبين ، أما هذا الحب الذى لا ينشب إلا بعد طول التلاقى ، فإنه إلف وصداقة لاحب وهيام . فليس كل حب من النظرة الأولى ضحلا ، وليس كل حب بعد طول المعاشرة عميقاً ، لأن التعميم هنا يفضى إلى تعسف وخطأ .

ولقد يحب الشاعر ويغيض معين حبه ، ولكنه يذكر ماضيه فى حسرة تشوبها لذة ، وفى عزة تخالطها كآبة ، ولسنا نستطيع أن نقول له إنك غير محب فلماذا تتغزل ؟ لأنه فى الحقيقة محب ولكنه محروم ، يعتز بماضيه ، ويستريح إلى أحاديث الصبابة . يمثل ذلك أن عمر بن أبى ربيعة كان قد آلى ألا يتغزل ببيت شعر إلا أعتق رقبة ، ولكنه رأى محباً ، فتأثر واهتاج وحن ، وقال شعراً (٢) .

وفى مثل هذا يقول هكسلى : « لعل أجمل ما كتبه دانتى من شعر رقيق ، ذلك الذى أوحت به ذكرياته التى انقضت وحرمها » (٣) .

وسنرى أن كثيراً من الشعراء الجاهليين كانوا يحنون إلى ماضيهم السعيد ، يقول ابن حزم : « وإنك لتجد الإنسان السالى بزعمه وذا السن المتناهية إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين » (٤) .

---

(١) الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الظاهرى ٣٣٠ .

(٢) الأغانى ١/١٤٥ .

(٣) Huxley. P. 121.

(٤) طوق الحمامة ٧ .

وقد أحب العرب حباً واقعياً ، أحبوا نساء وذكروا أسماءهن حقيقية مراراً ومجازية مراراً ، وسنجد فى وصفهم لهؤلاء النســاء أن حبهم واقعى لا خيالى كأولئك الذين يتحدث عنهم أدلر أنهم يصورون لأنفسهم فى عالم الخيال غراماً مثالياً لا يتحقق فى عالم الواقع ، فيقضون الحياه سعياً وراءه ، ويقضون العمر ترقباً لمجيئه ، فينقضى بهم العمر دون أن يتحقق لهم ما التمسوه ، فيكون لهم من ذلك ما يبرر قصورهم عن أن يعيشوا كما يعيش الناس ، فيخرجون عما ألف الناس ، ويزهون بذلك (١) .

وبعد فالحب عاطفة فردية محصورة فى نفس المحب لا تتعداه إلى غيره ، فلماذا نحفل بالغزل المصور لهذه العاطفة ؟ .

نحفل به « لأن التشابه فى ألوان الحياة والتجانس فى مظاهرها وأحوالهـا ، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجاً لعواطف غيره ، ولا سيما إذا كان صادق الحس صافى الوجدان ، لهذا يـكون هذا النوع الفردى سهل الاستساغة سريع الاتصـال بالنفوس ، وإن قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من العواطف تأثيراً وقوة ، وتجعل ما نقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا » (٢) .

---

(١) علم النفس الفردى ١٥١ .

(٢) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد حسن ٧٢ .

الفصل الخامس

أنواع الغزل

— ١ —

الغزل العذرى

تمهيد :

انتهيت فى فصل (الغزل) وفصل (الحب) إلى أن الغزل ينبعث عن عاطفة الحب، وأن هذا الحب إما أن يصطبغ بصبغة روحانية عفيفة فيوحى بالغزل العذرى ، وإما أن يصطبغ بميل حسى شهوى فيوحى بالغزل الحسى ، وإذا فالغزل الصادق الصادر عن العاطفة المصور لها لا يعدو هذين القسمين .

على أن هنالك نوعين آخرين من الغزل هما الغزل التمهيدى ، والغزل الكيدى ، وسيتضح من دراسة التمهيدى أنه أحياناً يصور عاطفة فيكون عذرياً أو حسياً ، وأحياناً لا تبعثه عاطفة فيكون هو والكيدى غزلا فى شكله لا فى حقيقته ، وباسمه لا بمعناه .

حقيقة الغزل العذرى :

« أريد بالغزل العذرى هذا الضرب من الغزل الذى تشيع فيه حرارة العاطفة ، وتَنِشعُ منه الأشواق ، ويصور خلجات النفس وفرحات اللقاء وآلام الفراق ، ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدى بقدر ما يحفل بجاذبيتها وسحر نظرتها وقوة أسرها ، »

ثم يقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة طيلة حياته أو ردحاً طويلا من حياته .

ولست أجارى القائلين بأنه غزل روحى خالص لا تخالطه نوازع جسدية وإن ضؤلت ، فقد انتهيت فيما سبق إلى أن هذا الحب ليس مما يقع بين الرجل والمرأة . فهذا الغزل عذرى إذا قيس إلى الغزل المكشوف أو الحسى ؛ لأن نصيب الجسد منه قليل وضئيل ، ونصيب الروح منه غلاب على الجوع الجسدى .

وقد اشتهر بالحب والعذرى والغزل العذرى بنو عذرة ، حتى نسب إليهم ، قال عروة بن الزبير لعذرى : « إنكم أرق الناس قلوباً — يريد أصباهم إلى الحب — فقال نعم لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ما بهم داء إلا الحب [١] » وقال فزارى يوما لعذرى : « أتمدون موتكم فى الحب مزية ، وهو من ضعف اليقين ووهن العقيدة وضيق الروية ؟ فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البُلج ترشق بالعيون الدُّعج من تحت الحواجب الزُّج ، والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغُرّ كأنها شذر الدر لجعلتموها اللات والعذرى وتركتم الإسلام وراء ظهوركم » [٢] .

وقيل لأعرابى من بنى عذرة : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تماث كما يماث الملح فى الماء؟ أما تتجلدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها » [٣] .

والذى يظهر من هذا أن بنى عذرة كانوا مشهورين بالرقة والحساسية وتذوق الجمال ، وأن فى نسائهم جمالا لم يكن فى نساء غيرهم ؛ لذا كثر عشاقهم ، واشتهر أمرهم ، وكثر موتاهم من الحب ، قيل لأعرابى : ممن أنت ؟ فقال : أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا ، فقالت جارية سمعته : عذرى ورب الكعبة [٤] .

ولكن الموت من الحب لم يكن مقصوراً على بنى عذرة ، فقد قيل لرجل من بنى عامر : هل تعرفون فيكم المجنون الذى قتله العشق؟ فقال : هذا باطل ، إنما يقتل العشق هذه اليمانية الضعاف القلوب [٥] .

والعفة — ناشئةً عن حرمان أو عوائق — سمة من سمات هذا الغزل العذرى ،

---

(١) تزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٩ ومصارع العشاق لأبى جعفر السراج ٢٠ .
(٢) تزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٩ ومصارع العشاق لأبى جعفر السراج ١٧ .
(٣) وفيات الأعيان ٢٠٣/١ وعيون الأخبار ١٣١/٤ .
(٤) وفيات الأعيان ٢٠٣/١ وعيون الأخبار ١٣١/٤ .
(٥) الأغانى ٨/٢ .

وقد امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « من عشق فعف فمات مات شهيداً »[١] .

وفي رواية أخرى « من عشق فعف فكتمه فمات فهو شهيد »[٢] .

وفي رواية ثالثة « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة »[٣]

وامتدحها الأدباء ، فعقد لها أبو بكر الظاهري فصلا عنوانه : « من كان ظريفاً فليكن عفيفاً » استدل فيه بالحديث السابق ، ورأى أنها مع أمر الدين بها وحرص الناس عليها تبقى الحب وتصونه من الدنس ، ولو لم تكن الفاحشة منكرة في الشرائع لوجب على كل من المتحابين أن يتركها إبقاء لوده عند صاحبه وإبقاء على ود صاحبه عنده[٤] ويظهر أن ابن سينا وجد أن الحب العذري لا يبرأ من قبلة وعناق فحاول أن يفلسف هذه النزعة الجسدية فقال : « وأما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد — لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها اللمسي ونيلها له بحسها البصري فتشتاق إلى معانقته وتشتاق إلى تقبيله — فليسا بمنكرين في ذاتهما ، لكن استتباعهما بالعرض أموراً شهوانية يوجب التوقي عنهما »[٥] .

متى نشأ الغزل العذري ؟

يرى الدكتور طه حسين أنه نشأ في العصر الإسلامي ، إذ طرأت على المجتمع الإسلامي في الحجاز عوامل اجتماعية وسياسية « فكان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء فلهوا كما يلهو كل يائس ، وكان أهل البادية الحجازية يائسين ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص وليس بالبدوي الخالص ، ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة

(١) محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهاني ٢/٢٦ .

(٢) الزهرة لابن داود الظاهري ٦٦ .

(٣) مصارع العشاق لأبي جعفر السراج ٤ .

(٤) الزهرة ٦٦ .

(٥) رسالة العشق ٨٣ .

إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلي كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ولكنها نغمة زهد وتصوف ، وأنا أعلم أن لفظ التصوف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية ، وظهر هذا الزهد وهذا الميل إلى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما الزهد الديني الخالص . . . . والثاني هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب ، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى » (١)

ويرى الأستاذ ماسينيون أنه مقتبس من الحب الأفلاطوني عند اليونان ومتأثر به ، ولكني لا أرتضي هذا ولا ذاك ، وأبدأ بمناقشة رأي العلامة ماسينيون بأن المسلمين في صدر الإسلام وأوائل العصر الأموي — على فرض أنهم لم يعرفوا الحب العذري إلا حينئذ — لم يكونوا قد عرفوا شيئاً عن فلسفة اليونان ونظريات أفلاطون . ثم إن هذا الحب نشأ في البادية ، فعلى فرض أن العرب كانت لهم صلة بالفلسفة اليونانية فليس من الطبيعي أن تتأثر البادية بما لم تتأثر به الحاضرة ، وأهل الحواضر أرقى مدنية وعقلية وأكثر تجارة وأسفاراً وخلاطاً .

على أن الغزل العذري تصوير لعواطف سامية في شعر ، والشعر لا يجنح إلى الأفكار الفلسفية ، وبخاصة في العصور القديمة ، ثم إن هذا الغزل وليد عواطف ملتهبة ، يصور لواعج الشرق ، وآلام البعد ، وسعادة القرب ، أما الحب الأفلاطوني — كما سبق — فمؤسس على فكرة خرافية لا يسيغها ذوق الموحد ، وهو حب شاذ Homosexial Love لأنه حب ذكر لذكر ، وليس حب ذكر لأنثى ، فليست المرأة محوره ، وقد كان اليونان في عهد أفلاطون يقيمون صلة الرجل بالمرأة على أساس مادي جسدي ، الغرض منه قضاء الحاجة الجسدية .

لم ينشأ الحب العذري إذاً متأثراً بفلسفة يونانية ، فهل نشأ في الإسلام متأثراً بعوامل اجتماعية وسياسية كما ذهب الدكتور طه حسين ؟

---

(١) حديث الأربعاء ١/٢٣٧ .

ليس من الطبيعى أن ينسى الفقير اليائس نفسه وهمومه وحاجاته والفوارق التى بينه وبين الأغنياء القادرين على تحقيق رغباتهم ثم يتجه إلى التفكير فى مثل أعلى ينتج الحب، وجسمه أشد حاجة إلى الطعام والشراب من حاجة روحه إلى مثل أعلى.

والجاحظ على حق فى قوله إن الفقير المدقع مشغول عن الحب [١] .

والمثل اللاتينى يقول : « لا يغنى الحب عن الطعام والشراب ، وإذا احتاج المحب إلى طعام وشراب نسى حبه » [٢] .

ومن الذى حال بين البادين واللهو ؟ نحن نعلم أن الأمويين مدوا للفتيان من أشراف الحجاز فى اللهو ، وأغدقوا عليهم المال ليحولوا بينهم وبين الطموح إلى الحكم أو الاشتغال بالسياسة ، فكان ذلك مساعدا على تفشى الغناء والحب الجسدى لا منشئاً لهما ، فإن العبث واللهو ، والغناء ، والحب العابث ، والخمر ، والميسر وغيرها كانت من أشاغيل العرب فى الجاهلية ، لا فرق بين متحضرين ومتبدين ، فلم تكن سياسة الأمويين إذن خالقة لهذه الأنواع، كذلك لم تكن سياستهم سبباً فى حرمان أهل البادية ، ولم يكن الدين الإسلامى سبباً فى انصرافهم إلى أنفسهم يستخلصون منها نغمة حزينة زاهدة ، ويرسمون لأنفسهم مثلا أعلى يتمثل فى الزهد تارة ، وفى الغزل العفيف تارة ، فإن الإسلام قد أكسبهم خيراً لم يكن لهم فى الجاهلية ، أكسبهم مالا وأكسبهم سموا فى العقيدة ،وكفل لهم أمناً وعدالة ، فأى حرمان هذا الذى جعلهم يوقعون على أوتار حزينة ويفرون من الحقائق الواقعة إلى مثل عليا متخيلة ؟ وهل كان الزهاد فى البادية أكثر عدداً من زهاد الحواضر ؟ لم يكن الأمر كذلك ، فإن الحواضر التى سمرت لياليها بالمجان واللاهين كانت تتجاوب فيها صلوات المصلين ، وضراعات العابدين ، وتوسلات الزاهدين ، ودروس الفقهاء والمفسرين والمحدثين . . . . . .

وقد يقال إن الغزل لم يتميز ولم يستقل بنفسه فيصبح فناً قائماً بذاته إلا فى العصر الأموى ، وفى ذلك يقول الأستاذ جب : « لقد وجد الشعراء فى البلاط

---

(١) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من مجموعة رسائل الجاحظ.

(٢) Benham's New Book of Quotations P. 658.

الأموى استعداداً للترحيب بهم ، وفى قصور الأمويين صدح الشعراء بالشعر كما كان يصدح أسلافهم فى بلاط الحيرة وغسان ، ومضوا ينظمون القصائد فى مدح سادتهم الجدد ، ومدح أسلافهم ، وهجاء خصومهم ، وكان سادة هذا الفن الجديد — ذلك الذى لا يتصل بشعر ما قبل الإسلام لا فى الأسلوب ولا فى الطريقة — الأخطل وجرير والفرزدق .

وبدأت أولى خطوات التجديد فى جو التمدين المحيط بمكة ، ومن الجائز جدا أن هذا الوحى الجديد جاء من بلاد الفرس ، وربما جاء أيضاً من اليونان ، ولكن المهم فى الأمر أن النسيب وهو لم يخرج عن أنه جزء من القصيدة قد تطور فأصبح فناً قائماً بذاته تقال فيه القصيدة كاملة . وهنا يُذكر عمر بن أبى ربيعة أو دون جوان مكة ، وينطوى شعره على رقة تختلف كل الاختلاف عن العواطف الجياشة البدوية التى تملىء بها قصائد امرىء القيس »[1] .

ولكن ما المقومات التى يعتمد عليها فى أن الغزل فن قائم بذاته ؟ ؟ يذكر العلامة جب أن الغزل صار يستغرق القصيدة كلها ، فلا يقال تبعاً لغيره . وقد كان من الممكن أن أسكت عن هـذه الدعوى أو أن أقنع بإثبات أن الغزل العذرى قد نشأ منذ العصر الجاهلى ، ولكن أرى أن دعوى الفنية المستقلة غير صحيحة أيضاً ، فلا هو نشأ فى العصر الأموى ، ولا هو صار فناً مستقلا فى هذا العصر يشغل القصيدة من أولها إلى آخرها .

١ — ذلك بأنى سأبين فى خصائصه أن كثيراً من شعراء الجاهلية قالوا الغزل فى قصائد كاملة . فلم يتخذوه تقدمة وتمهيداً لغرض آخر ، وفى هذا الدليل غناء ومَقْنع .

٢ — ولكن الدعوى تضطرنى إلى مناقشة أخرى ؛ ذلك بأنهم قد اشترطوا فى الغزل ليصير فناً مستقلا أن تحبس القصيدة كلها عليه ، ولا أدرى وجهاً لهذا الاشتراط فى الغزل وحده ، فلماذا لم يشترط أحد مثل هذا فى الأغراض الأخرى؟ لماذا لم يروا هذا الرأى فى المدح مثلا ؟ لقد كانت قصيدة المدح تتناول غزلا ووصفاً

---

(١) Arabic Literature. Gibb. P. 30 — 31.

وتناول أحياناً فخراً وأحياناً حكمة ، وندر أن تنحصر فى المدح وحده ، وظلت كذلك إلى العصور اللاحقة ، فلماذا لم يقولوا إن المدح لم يصرفنا مستقلا ، لأنه لم يستقل بقصائد كاملة ؟ .

وقد يقال إنه صار فناً مستقلا لما قصر بعض الشعراء شعرهم عليه ، ولم يقرضوا فى غيره ، كما صنع عمر بن أبى ربيعة وقيس بن الملوح .

لكن هذه الدعوى ليست بأصح من سابقتها :

١ — لأنه إذا كان عمر وقيس قد حصرا شعرهما فى الغزل فإن أشباههما من الغزلين لم يصنعوا صنيعهما . ذلك بأن جميل بن معمر قال فى غير الغزل ، فافتخر [١] وهجا [٢] ، ومدح أخواله .

وكذلك لم يحبس كثير عزة قريضه على الغزل ، فإنه « كان غالياً فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ ، وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك ، لجلالته فى أعينهم ولطف محله فى أنفسهم ، ولم يدرك أحد فى مديح الملوك ما أدرك كثير » [٣] ، وقد مدح عبد الملك بن مروان [٤] وتشيع [٥] ، ومدح عمر بن عبد العزيز [٦] .

وتناول عبيد الله بن قيس الرقيات فنوناً أخرى غير الغزل ، فتعصب ضد بنى أمية وجاهرهم بالعداء [٧] ، ومدح عبد الملك بن مروان [٨] ، ومدح عبد الله ابن جعفر [٩] .

٢ — ولأن أغراض الشعر الأخرى فنون مستقلة منذ العصر الجاهلى ، ولم يقصر بعض الشعراء عليها قصيدهم ، كالمدح والوصف والرثاء ، فمن من الشعراء قصر شعره على المدح مثلا حتى يصح القول بأنه لم يصرفنا مستقلا إلا حين اختص به بعض الشعراء ولم يتعدوه إلى غيره ؟

٣ — على أن بعض الشعراء فى العصر الجاهلى قد قصروا على الغزل شعرهم

---

(١) الأغانى ٧/٧٤ و ٩٣ . (٢) الأغانى ٧/٨٨ و ٩٦ .
(٣) الأغانى ٨/٢٦ . (٤) الأغانى ٨/٢٨ . (٥) الأغانى ٨/٣١ .
(٦) الشعر والشعراء ١٩٨ . (٧) الأغانى ٥/٧٨ .
(٨) الأغانى ٥/٧٩ (٩) الأغانى ٥/٨٠ و ٨٢ .

فلم يصلنا من نتاجهم غير الغزل مثل عروة بن حزام .

إذاً لم ينشأ الغزل العذرى فى العصر الإسلامى ، ولم يصر فناً مستقلا فى العصر الإسلامى ، وإنما نشأ وكان فناً مستقلا فى العصر الجاهلى .

فلم يكن وليد القرن الهجرى الأول كما قال الدكتور طه والعلامة ماسينيون ، وسأذكر بعض رجاله وأبين من غزلهم أنه يتسم بخصائص الغزل العذرى الإسلامى ، وأوضح من تاريخهم أنهم استشهدوا فى حبهم ، كما استشهد بعض العذريين فى الإسلام ، ولكن هذا لا يمنعنى من تقرير أن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة الحب وعذرية الغزل ، لأن الإسلام نظم علاقة الرجال بالنساء ، وحظر الاستجابة للغريزة الجنسية إلا من طريق الزواج ، وحرم البغاء — وقد كان نادراً فى الجاهلية — وسما بالعقيدة والأخلاق ، فكان منمياً لا منشئاً .

وقد كانت الحياة الجاهلية صالحة لإنشاء الحب العذرى كما فهم فى الإسلام ، فالمرأة ذات مكانة رفيعة كما سبق ، وإن كنت لا أستطيع أن أجمل هذا الحكم عاماً ، لأن تعميمه ينافى طبائع الاجتماع ، فنحن فى عصرنا هذا نقدر المرأة ، ويبيح لها بعضنا أن تساوى الرجل فى حقوقه ، ونراها تنافسه فى كثير من الميادين ، ولكن لا يستطيع أحد أن يعمم هذا الحكم على كل النساء فيقول : إنهن جميعاً عليات القدر ، وكانت ذات جمال وجاذبية وسلطان على قلوب الرجال ، وكان العرب غُيُراً على النساء ، حراصاً على عاداتهم البدوية التى تصون العرض ، وتحمى النساء من قالة السوء ، ثم كان بعضهم يحب حباً عنيفاً حاداً لا يبرده وصل ولا أمل ، ومن هنا نشأ الحب العذرى لأنه كما يقول فرويد « انحراف عن الغاية الجنسية ناشىء عن تعذر إشباعها وعن التسامى بها » ويقول مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب » (١) .

خصائص الغزل العذرى :

نحكم بأن المحب عذرى أو بأن الشاعر عذرى ، إذا أحسسنا فى شعره بعاطفة

(١) Introduction To Social Psychology, P. 365.

حارة تنبيء عن حب عميق غلاب ، فغزله مقصود لذاته ، وإذا وجدناه ثابتاً على حبه لمحبوبة واحدة ، وعرفنا من حياته ومن شعره أنه يؤثر سعادتها وهناءتها وسلامتها على سعادته وهناءته وسلامته ، وأنه يأتى بعظائم الأمور مرضاة لها ، واستجلاباً لإعجابها ، ثم وجدنا حياته مصدقة لشعره ، وشعره مصدقاً لحياته . فهو كما يقول تيوفيل جوتييه : « يسلم نفسه لحبيبته فلا يرى إلا بعينيها ولا يسمع إلا بأذنيها ، لأنه يرى الحياة فيها ، ويكون مستعداً لأكبر التضحيات وإنكار الذات ، ويحس أنه يتضاعف وهو يبذل »[١] .

هذه هى الأسس التى نقيس عليها غزل بعض الشعراء فى العصر الجاهلى ، ونقيس عليها حياتهم ، لنثبت أنهم أحبوا حباً عذرياً ، وتغزلوا غزلا عذرياً .

أما خصائص الغزل العذرى فهى :

(ا) قصر بعضهم على الغزل قصائد كاملة ، فلم يمهد به لغرض آخر ، لأنه غاية يقصد إليها ، وهدف يرمى إليه ، فهو إذاً تعبير متميز عن عاطفة الحب ، فمثلا لعروة بن حزام نونية مشهورة ، عدتها اثنان وثمانون بيتاً كلها غزل حار[٢] ، ولمضرس بن قرط بن الحارث المزنى قصيدة عددها ستة وعشرون بيتاً كلها غزل روحى يصور أشواق المحب[٣] ، وللمنخل بن عامر بن ربيعة اليشكرى قصيدة غزلية أبياتها أربعة وعشرون، فى ثناياها سبعة أبيات فى الفخر، ولكنه مما يتقرب به الشاعر إلى محبوبته[٤] ، وللمرقش قصيدة أو مقطوعة كلها غزل أبياتها ثمانية[٥] ولقيس بن الحدادية قصيدة عدتها أربعة وأربعون بيتاً كلها غزل[٦] ، وله أخرى عدتها ستة عشر بيتاً وهى أيضاً لا تتناول غير الغزل[٧] ، ولحسان بن ثابت قصيدة غزلية أبياتها سبعة عشر ليس بها غير الغزل[٨] ، ولطرفة قصيدة غزلية فى عشرة أبيات[٩] ، ولعنترة قصائد غزلية مستقلة منها قصيدة فى إحد عشر بيتاً[١٠] ،

---

(١) كيف تفهم الناس . دكتور إبراهيم ناجى ١١٨ .

(٢) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ (٣) الأمالى ٢/٢٥٧ — ٢٥٨

(٤) الأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ١/٣٠ (٥) المفضليات ٢/٢٣١

(٦) الأغانى ١٣/٥ (٧) الأغانى ١٣/٧ (٨) ديوان حسان ١٢

(٩) ديوان طرفة ١٤٧ (١٠) ديوان عنترة ٦٥

وأخرى فى ثمانية [١] ، وثالثة فى خمسة عشر [٢] ، ولسوَّار بن المضرَّب غزلية مستقلة طويلة [٣].

(ب) وهذا الغزل روحى لا أثر فيه لوصف الجسم ومطالب الجسد ، أو فيه أثر ضئيل يشبه ذلك الأثر الذى أسلفته فى غزل قيس وجميل وتوبة ، وإنما هو نجوى وشكوى وتنفيس عما يعتلج بالقلب من أشواق ، وما يختلج بالصدر من حنين ولهفة.

يقول النابغة الذبيانى إنه يحن إلى عهد سعادته بحبيبته نُعْم ، إذ كانا يتناجيان بالحب ، وبينها ما يخفى على الناس ، وما يظهر للناس ، وإن حبها مكين فى نفسه ، ولولا تمكنه لنسيها ، ويظهر أنها قد صدت عنه ، أو زوجت من غيره ، ولذلك يتمنى هذا النسيان ، ويرى أنه فى غيبوبة من هذا الحب ، فإن أفاق فحق له أن يفيق ، لأن ضلاله قد طال ، ثم يعود إلى الخضوع لحبه فيقول : إن نُعما هاجرة ولكنها عاتبة ، ويدعو لهذه العاتبة الهاجرة بالخير ، ويصور حاله وقد رآها على عجل وهى مرتحلة أو وهو مرتحل فوجب قلبه وجيباً ، واضطربت نفسه اضطرابا :

وقد أرانى ونُعْماً لاهيين معاً … والدهرُ والعيش لم يَهْمُمْ بإمرار
أيام تخبرنى نعمٌ وأخبرها … ما أكتُمُ الناسَ من بادٍ وأسرار
لولا حبائل من نعم علِقْتُ بها … لأقصر القلب عنها أىّ إقصار
فإن أفاق فقد طالت عمايته … والمرء يُخْلَقُ طوْراً بعد أطوار
تبيت نعمٌ على الهجران عاتبةً … سَقياً ورَعياً لذاك العاتب الزّارى
رأيت نعما وأصحابى على عَجَل … والعِيسُ للبَين قدشدّت بأكوار
فريع قلبى وكانت نظرة عرضت … حيناً وتوفيق أقدار لأقدار [٤]

وكان عنترة قد خرج يوماً فى سفر ، ولما طالت غيبته عن بنى عبس نفّس همه بقصيدة يقول فيها : إنه يتجلد ويقنع بطيف عبلة ، ويتمنى أن تمر به ريح الحجاز لتبرد كبده ، وأن يحيى البرق بنى عبس ، ويمطرهم السحاب ، ثم يدعو على نفسه

---

(١) الديوان ١٧٣

(٢) الديوان ١٧٣ — ١٧٤   (٣) الأصمعيات ١/٧٣

(٤) ديوان النابغة ٣٨ إمرار : تكدير . العيس : النوق البيض . أكوار : رحال .

ألا ينعم بلقائها إن كان قد غفل عن ذكرها فى يقظة أو منام ، ثم يقول إن طائرا ينوح على غصن قد شجاه وشاقه ، ويشبه حال الطائر بحاله :

إذا رشقَتْ قلبي سهامٌ من الصد ... وبَدَّل قربى حادثُ الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الصبر مانعا ... ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدى
وبت بطيف منك يا عبل قانعا ... ولو بات يسرى فى الظلام على خدى
فبالله يا ريح الحجاز تنفسى ... على كبد حرَّى تذوب من الوجد
ويابرق إن عرضْتَ من جانب الحمى ... فحىِّ بنى عبس على العَلَم السَّعْدى
وإن خمدت نيران عبلة مَوْهِناً ... فكن أنت فى أكنافها نيِّر الوَقْد
وخلِّ الندى ينهلُّ فوق خيامها ... يُذَكِّرها أنى مقيم على العهد
عَدِمْتُ اللِّقا إن كنت بعد فراقها ... رَقَدْتُ وما مَثَّلْتُ صورتها عندى
وما شاق قلبي فى الدجى غير طائر ... ينوح على غصن رطيب من الرَّند
به مثل ما بى فَهْوَ يخفى من الجوى ... كمثل الذى أخفى ويبدى الذى أبدى
ألا قاتل الله الهوى كم بسيفه ... قتيل غرام لا يوسَّد فى اللحد(١)

وقد صور عروة بن حزام مشاعره حين تعتريه ذكرى عفراء ، ومشاعره حين يراها ، تصويراً مؤثراً كهذا الذى نجده عند جميل وأبى صخر الهذلى :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة ... لها بين جلدى والعظام دبيب
فما هو إلا أن أراها فُجاءةً ... فَأُبْهَتَ حتى ما أكادُ أجيب
وأصدِف عن رأيى الذى كنت أرتئى ... وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
ويُظْهِر قلبي عذرَها ويَعيبها ... علىَّ فمالى فى الفؤاد نصيب
وقد علمَتْ نفسى مكانَ شفائها ... قريباً وهل ما لا ينال قريب ؟
حلفت بربِّ الساجدين لربهم ... خشوعا وفوق الساجدين رقيب
لئن كان بَرْدُ الماء حرَّانَ صادياً ... إلىَّ حبيبا إنها لحبيب(٢)

---

(١) ديوان عنترة ٦٥ .

(٢) الأغاني ٢٠/١٥٥ والشعر والشعراء ٢٣٨ ،

وتمنى لقاءها وتمنى لكل متحابين أن يلتقيا ، وأضنى عطفه حتى على الأنعام المتحابة ، واشتاق إلى يوم الحشر ليلقاها ، وتمنى أن يعيشا معاً وأن يموتا معاً ، ثم زين له حرمانه أن يود لو أنهما راعيان يبعدان فى الصحراء :

فيا لت كل اثنين بينهما هوًى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لُبانةً ... ويرعاها ربى فلا يُريانه
وإنى لأهوى الحشر إذ قيل إننى ... وعفراءَ يوم الحشر ملتقيان
فياليت مَحْيانا جميعا وليتنا ... إذا نحن متنا ضمَّنا كفنان
ويا ليت أنَّا الدهر فى غير ريبة ... خليّان نرعى القفر مؤتلفان(١)

ويصف المرقش الأصغر وجدانه ، وكان قد أحب فاطمة بنت المنذر ، ثم كاد يسلوها بأن الأرض تدور به إذا تذكرها ، وقد آثرها على النساء جميعا وهام بحبها :

رمتك ابنة البكرىِّ عن فَرْعِ ضالةٍ ... وهُنَّ بها خُوصٌ يُخَلْنَ نعائما
صحا قلبه عنها خلا أن رُوعَه ... إذا ذُكِرَتْ دارت به الأرض قائما
أفاطم لو أن النساء ببلدة ... وأنت بأخرى لاتبعتك هائما(٢)

ويحن الصِّمَّة بن عبد الله إلى ريا وهو بالعراق ، بعد ما تنازع أبوه وعمه على المهر ، فأقام بالعراق آنفا أن يعود إلى وطنه فحن حنينا روحانيا خالصا :

أمن ذِكْرِ دارٍ بالرَّقاشَيْنِ أعْصَفَتْ ... به بارحات الصيف بَدْءاً ورُجَّما
حننتَ إلى ريَّا ونَفْسُكَ باعدَتْ ... مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حَسَنٌ أن تأتِيَ الأمرَ طائعا ... وتجزعَ إن داعِى الصبابة أسمعا
كأنك لم تسمع وداع مفارق ... ولم ترَ شَعْبَيْ صاحبين تقطَّعا

---

(١) النوادر لأبى على ١٥٨

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٦ الضالة : السدرة وهى الشجرة التى تعمل منها السهام يريد أن نظرتها سهم . هن : الضمير عائد على النوق التى كانت مطايا الحبيبة ومن معها يوم فتنه نظرها . خوص : جمع خوصاء : غائرة العينين . نعائم : جمع نعامة

بكت عينىَ اليمنى فلما زجرتها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
ولما رأيت البِشْر أعرض دوننا   وجالت بنات الشوق تحنى نُزَّعا
تلفتُّ نحو الحى حتى وجدتُنى   وجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى   على كبدى من خشيةٍ أن تصدَّعا
فليست عشيات الحمى برواجع   عليك ولكنْ خلِّ عينيك تدمعا
أما وجلالِ الله لو تذكرينني   كذكراك ما كفكفْتُ للعين مدمعا
فقالت : بلى والله ذكرى لوَ انه   تضمنه صُمُّ الصَّفا لتصدَّعا[1]

هذا الغزل ونظائره روحانى خالص ، لا تشوبه متعة جسدية ، ولا يفترق فى شىء عن غزل قيس وجميل .

(ح) وإذا كانت أشواق الروح فى هذا الغزل أغلب لرغبات الجسد ، فليس معنى هذا أنه روحى خالص الروحانية ، فقد أسلفت أن حب الرجل للمرأة لا يخلو من شوائب جسدية ، إعجابا بجمالها ، واشتياقا إلى لمسها أو تقبيلها ، وضربت على ذلك أمثلة من حياة العذريين فى الإسلام ومن شعرهم ؛ وهكذا كان الغزل العذرى فى الجاهلية ، فيه لفتات إلى الجمال الجسدى ، وشوق إلى متعة ضئيلة مما لا يخرج بهذا الضرب من الحب والغزل عن نوعه إلى الغزل الحسى .

قال عبد الله بن العجلان :

خَوْدٌ رَدَاحٌ طَفْلةٌ   ما الفُحْشُ من أخلاقها
ولقد ألَذُّ حديثَها   وأُسَرُّ عند لقائها[2]

وعروة بن حزام وصف بعض جمال عفراء ، وتحدث عن بياضها ، ودقة خصرها ، ولدونة ردفيها :

لِأَدْنُوَ من بيضاءَ خفاقة الحشا   بُنَيَّةِ ذى قاذورة شَنآن

---

(١) تزيين الأسواق ٩٢ . الرقاشان : جبلان بأعلى الشريف (بضم الشين وفتح الراء)، بارحات : رياح حارة فى الصيف . الليت: صفحة العنق . الأخدع : عرق فى المحجمتين . الصفا : الحجر الصلد

(٢) الأغانى ١٥٢/١٩ الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، رداح : ثقيلة الأوراك . طفلة : رخصة ناعمة .

كأن وِشاحَيها إذا ما ارتدتهما وقامت عِنانا مُهرةٍ سَلِسان
يَعَضُّ بأبدانٍ لها ملتقاهما ومتناها رِخوان يضطربان
وتحتهما حِقفان — قد ضربتهما قِطارٌ من الجوزاء — مُلْتَبِدان[١]

وتحدث عن أمنية اللقاء حديثاً لم يصرح فيه بشيء ، لأنه اللقاء الذى يتمناه لنفسه وللمحبين جميعاً ، حتى لقد تمناه للأنعام المتحابة .
الغرض منه قضاء اللبانة ، ولقد تكون هذه اللبانة حديثاً ونجوى وشكوى ، ولقد تكون عناقاً وقبلات :

فياليت كل اثنين بينهما هوًى من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لُبانةً ويرعاهما ربى فلا يُريان
فياليت مَحْيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان
وياليت أنّا الدهر فى غير ريبة خليانِ نرعى القفر مؤتلفان[٢]

على أن الوصف الجسدى والشوق إلى المتعة أكثر ندرة عند العذريين فى العصر الجاهلى من العذريين فى الإسلام ، وهو إلى ندرته أشد خفاء ، وأين هذا من قول جميل :

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

وقوله :

كأن فَتيتَ المسك خالط نشرها تُغَلُّ به أردانُها والمرافق
تقوم إذا قامت به من فراشها ويغدو به من حِضْنِها من تعانق

وقوله :

حلفتُ يميناً يا بثينة صادقاً فإن كنتُ فيها كاذبا فعميت

---

(١) النوادر لأبي على القالى ١٦١ خفافة الحشا : ضامرة . بنية ذى قاذورة : بنت رجل قذر . شنآن : بغض ، أى أن أباها ذو قذارة وذو بغض . الحقف : الكثيب من الرمل ، يصف ردفيها بالضخامة . قطار : قطرات مطر . ملتبدان : متماسكان .
(٢) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ وتزين الأسواق ٧٧ .

إذا كان جلد غير جلدك مسنى وباشرنى دون الشعار شَرِيت[1]

وقوله :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم أُسْقَ ريقك صايا

(ى) وهو أيضاً تحليل لنفسية الشاعر ، يصور دخيلته ويفصح عن آلامه وآماله ؛ لأنه منبعث من أعماق نفسه . فمثلا المرقش الأكبر حيران فى أمره بين وجدانه ونزوعه : أيتغلب وجدانه فيظل محباً أم يتغلب نزوعه فينسى ؟ ولكنه يائس من أن يتغلب نزوعه لأن قلبه هائم بأسماء ، ومن شأن الحب أن يتملك القلوب ، ويعجب من أن يلام فى حب أسماء ، لأنه لا جدوى من لومه ، فقد أصر على حبها واستمسك قلبه بها متغلباً على الوشاة وإن غمته وشايتهم ، وكيف يستمع لمن يلومه أو يسلوها قلبه وهى هم نفسه وشغلها ، وأحاديث قلبه كلها ماخفى منها وما استتر؟ ويصف حاله إذا ذكرها فيصور جسمه يرتعد كأنه محموم :

أغالَبكَ القلب اللّجوج صبابةً وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟

يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمْراره وعواقبه

أيُلْحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى بغمٍّ من الواشين وازورّ جانبه ؟

وأسماء همُّ النفس إن كنت عالماً وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه

إذا ذكرتها النفس ظَلْتُ كأننى يزعزعنى قَفْقَافُ وِرْدٍ وصالبه[2]

وعروة بن حزام يكشف عن أمنيته التى حرم تحقيقها حين يتمنى لكل حبيبين من الناس والأنعام أن يلتقيا ، ولا يغفل عن استكناه شعور الناقة التى ركبها إلى المحبوبة ، فهى تحن إلى ماوراءها لأن لها فصيلا خلفته ، وهو يحن إلى من أمامه لأنه مقبل على ديار من يحب ، ثم يصور حبه العظيم بأنه لاطاقة له باحتماله ولا طاقة للجبال به ، ويصور قلبه الخفاق المضطرب بأنه قد ربطت به قطاة من جناحها فهى لاتفتأ تهز جناحها لتتخلص من هذا الإسار ، ثم يكشف عن استسلام المحب

---

(١) شريت : أصبت بمرض جلدى اسمه الشرى .

(٢) الأغانى ١٨٣/٥ . ورد : اسم للحمى أو يوم من أيامها . صالب : حمى فيها رعدة قفقاف : ارتعاد واصطكاك أسنان .

للأوهام حين يقول إنه استطب عراف اليمامة ، وعراف نجد ، وزعما أنهما قديران على شفائه من الحب اليائس ، فرقياه وسقياه السُّلوة ولكنه لم يبرأ ، فاستسلما للقضاء ودعوا الله أن يشفيه لأنهما لاطاقة لهما بشفائه :

على كبدى من حُبِّ عفراء قرحة ... وعيناى من وجدى بها تَكِفان
فعفراء أرْجَى الناس عندى مودَّةً ... وعفراء عنى المعْرِضُ المتدانى
فياليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لُبانة ... ويرعاهما ربى فلا يُرَيان
هوى ناقتى خلفى وقُدَّامى الهوى ... وإنى وإياها لمختلفان
يقول لى الأصحاب إذ يعذلوننى ... أشوق عراق وأنت يمانى ؟
تحملت من عفراء ماليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان
كأن قَطاةً عُلِّقَتْ بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقان
جعلت لعرّاف اليمامة حُكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا نعم نشفى من الداء كله ... وقاما مع العُوَّاد يبتدران
فما تركا من رُقْيَةٍ يعلمانها ... ولا سُلْوةٍ إلا وقد سقيانى
وما شفيا الداء الذى بى كله ... ولا ذَخَرا نُصْحاً ولا ألوَانى
فقالا شفاك اللهُ واللهَ مابنا ... بما ضُمِّنَتْ منك الضلوع يدان(١) .

ولما انتجع أهل جنوب بنت محصن الجعدى وأرادوا الرحيل وقف مالك بن الصمصامة محب جنوب فى طريقهم يتحسر ويتفجع ، ويستوثق من جنوب أتظل راعية للعهد أم ينسيها البعد ؟ وهو لايريد إلا جوابا يطمئنه ويعزيه عن هذا الفراق البغيض ولو أنه يستطيع أن يزور محلها لزارها ، فتلك أمنية نفسه ، ولكن دونها عوائق ، دونها غيرة أخيها الإصبع بن محصن الذى هدده بالقتل وبالأسر ، فهو فى

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٥ وتزيين الأسواق ٧٧ . تكفان : تدمعان بغزارة . سلوة : خرزة يشرب المحب ماءها فتسليه . ألوانى : قصرا فى علاجى ، والشاعر عدى الفعل اللازم .

حيرة من أمره لأنه يحب حباً يائساً ، لامرجع عنه ولا أمل فيه :

أرَيْتَكَ إن أزمعتم اليوم نِيَّةً وغالكِ مُصطاف الحِمى ومرابعه
أترعَيْنَ ما استُودعت أم أنت كالذى إذا ما نأى هانت عليه ودائعه
ألا إنَّ حِسْياً دونه قُلَّةُ الحمى مُنىَ النفس لو كانت تُنال شرائعه
وكيف ومِنْ دُونِ الورود عوائق وإصْبَعُ حامى ما أحب ومانعه
فلا أنا فيما صدنى عنه طامع ولا أرتجى وصل الذى هو قاطعه(١)

* * *

(هـ) وكثيراً ما يصور هؤلاء المحبون عواطفهم وعواطف حبيباتهم فى أسلوب شبه قصصى ، كما يصور شعراء الغزل الحسى لذاتهم فى هذا الأسلوب ، فقيس بن الحدادية يصف فى حوار مشاعره ومشاعر نعم بنت ذؤيب الخزاعى ، وقد مضت مع أخيها قبيصة وبطون من خزاعة إلى مصر والشام راحلين لما أصابهم من جدب ، فيعبر عن ألمه لرحلتها ، وعن بخلها بالوصل ، ثم يعبر عن حديث دار بينهما بقوله :

وقلت لها فى السِّرِّ بينى وبينها على عَجَلٍ أيَّان من سار راجع ؟
فقالت لقاءٌ بعد حول وحِجَّةٍ وشَحْطُ النوى إلا لذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات ألو النوى ويسترجع الحىَّ السحابُ اللوامع

ويصور أذاها من الوشاة بقوله :

سعى بينهم واشٍ بأفلاق بُرْمَةٍ ليفجع بالأظعان من هو جازع
بكت من حديث بثَّه وأشاعه ورصَّعه واشٍ من القوم راصع
بكت عين من أبكاكِ لا يعرف البكا ولا تتخالجْكَ الأمور النوازع
فلا يسمعَنْ سرِّى وسرك ثالث ألا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين شائع
وكيف يشيع السرُّ منى ودونه حجاب ومِنْ دون الحجاب الأضالع

ويصف حاله وحالها وقد نادى مناد بالرحيـــل فيقول إنه جاء إلى منزلها

---

(١) الأغانى ١٩/٨٣ .

كمستضيف أو سائل ، يتوسل بذلك لأن يلقاها ويحدثها ، فردته ، فاختفى تحت الستر حتى بلله العرق من الحر ، فدهشت من فعله وعضت إصبعها :

وما راعنى إلا المنادى ألا اظعَنوا ... وإلا الرواعى غُدْوَةً والقعاقع
فجئت كأنى مستضيف وسائل ... لأخبرها كلَّ الذى أنا صانع
فقالت تزحزحْ ما بنا كُبْرُ حاجة ... إليك ولا منا لفقرك رَاتِع
فما زلت تحت الستر حتى كأننى ... من الحر ذو طِمْرين فى البحر كارع
فهزت إلىَّ الرأس منى تعجبا ... وعُضِّضَ مما قد فعلْتُ الأصابع[(١)]

وفى مثل هذا الأسلوب يصور عروة بن حزام آلامه فى نونيته المطولة[(٢)] .

(و) وقد قضى كل محب من هؤلاء الغزلين حياته كلها وقلبه يخفق بحبيبة واحدة لم يبدِّلها ، وتحمل فى حبه أهوالا أضنت بعضهم وأذهلته ، وقتلت آخرين ، والموت من الحب سمة العذريين .

فمثلا أضنى الحب مالك بن الصمصامة[(٣)] ، وأذهل المرقش الأصغر حتى قطع إبهامه[(٤)] ، وطوح بعمرو بن كعب بن المنذر بن ماء السماء فى تيه فلا يدرى أين مذهبه[(٥)] ، وقتل عبد الله بن العجلان[(٦)] والمخبل القيسى[(٧)] والصمة بن عبد الله[(٨)]

---

(١) الأغانى ٦/١٣ . أفلاق برمة : قدر مكسرة ، أى سعى بينهم الواشى سعاية تفسد ما بينهم كما يحدث للقدر المكسرة لا تشعب . الرواعى : الماشية الراعية . القعاقع : صوت العمد عند تقويض الخيام . راتع : من رتعت الماشية أى رعت فى خصب وسعة ، وأرتعها صاحبها ، وكان السياق يقتضى (مرتع) ولعل صواب الكلمة (راقع) أى مصلح ، أو (رافع) أى مزيل .

(٢) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ — ١٦٢ .

(٣) الأغانى ٨٣/١٩ .

(٤) الشعر والشعراء ٥٦ ومجمع الأمثال ١٣٤/١ .

(٥) الدر المنثور ٣٤٨ .

(٦) الأغانى ١٠٢/١٩ ، والشعر والشعراء ٢٧٤ ، وتزيين الأسواق ٧٩ ، ومصارع العشاق ٨ .

(٧) الأغانى ١٦٠/٢١ .

(٨) تزيين الأسواق ٩١ .

والمرقش الأكبر[١] ومسافر بن أبى عمرو[٢] وعروة بن حزام[٣] .

ويشير طرفة بن العبد إلى موت المرقش من حبه بقوله :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله ... فهل غيرُ صيد أحرزته حبائله
كما أحرزَتْ أسماء قلبَ مرقش ... بحب كلمع البرق لاحت مخائله
وأنكح أسماءَ المرادىَّ يبتغى ... بذلك عَوْفٌ أن تصاب مقاتله
فلما رأى أن لا قرار يُقرُّه ... وأن هوى أسماء لا بدَّ قاتله
ترحَّلَ من أرض العراق مرقش ... على طَرَبٍ تَهوِى سراعاً رواحله
إلى السَّرْو أرضٍ ساقه نحوها الهوى ... ولم يدر أن الموت بالسرو غائله
فغودر بالفَرْدَيْن أرضٍ نَطيَّةٌ ... مسيرةُ شهرٍ دائبٍ لا يواكله
فوجدى بسلمى مثلُ وجدِ مرقش ... بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نحبه وجداً عليها مرقش ... وعُلِّقتُ من سلمى خبالاً أماطله[٤]

وأشار قيس بن ذريح إلى موت عروة وموت عمرو بن العجلان فى قوله :

وفى عروة العذرِىِّ إن متُّ أسوةٌ ... وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند
وبى مثل ماماتا به غير أننى ... إلى أجل لم يأتنى وقته بعد[٥]

وأشار مجنون ليلى إلى قصة عروة أيضاً .

عجبت لعروة العذرى أضحى ... أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً ... وها أنا ميت فى كل يوم[٦]

---

(١) الأغانى ٥/١٨٠ وديوان طرفه ١١٩ والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ .
(٢) الأغانى ٨/٤٦ .
(٣) الأغانى ٢٠/١٥٢ والأمالى ٣/١٥٧ والشعر والشعراء ٢٣٧ وتزيين الأسواق ٧٣ والنوادر ١٥٧ والدر المنثور ٣٤٦ .
(٤) ديوان طرفة ١١٩ . المرادى : رجل من مراد تزوج أسماء . وتقدير البيت وأنكح عوف أسماء من المرادى ليصيب مقاتل مرقش . السرو : سرو حمير وهو أعلى بلادهم . الفردين : اسم أرض . نطية : بعيدة . لا يواكله : لا يحتبس فى سيره ولا يضعف والضمير عائد على السير .
(٥) الأغانى ٨/١١٦ . (٦) الأغانى ٢/٨٤ .

(ز) وحياة هؤلاء العذريين بليغة الدلالة على ما كابدوا فى حبهم من آلام جسام ، وما بذلوا فى سبيل حبيباتهم من تضحيات عظام ، وليس ينقصها شىء مما حفلت به حياة أبطال الحب العذرى فى الإسلام . ويمتد بى القول لو استعرضت حياتهم جميعاً فى تفصيل . فأجتزئ بالمعالم البارزة والأحداث المثيرة .

ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل التى تروى عن حياة هؤلاء المحبين ، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات ، لذا نجد اختلافاً فى الروايات وتناقضاً أحياناً ، ونجد تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر ، ولكن هذا لا يتعارض مع العنصر الأصيل فى حياة الشاعر وهو أنه أحب واصطلى بنار الحب ، واحتمل فى حبه مبرح الآلام .

١ — المرقش الأكبر :

يقول أبو الفرج إن اسمه عمرو أو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن بكر بن وائل [١] ، ويقول ابن قتيبة إن اسمه ربيعة بن سعد بن مالك أو عمرو ابن سعد بن مالك [٢] . ويتردد داود الأنطاكى بين عمرو وعوف [٣] . ولكنهم جميعاً متفقون على أنه من قبيلة بكر ، وأنه كان يهوى أسماء بنت عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بنت عمه ، وقد أغرم بأسماء منذ صغره وخطبها إلى عمه فرفض أن يزوجه إلا إذا عرف بالبأس — وقيل إلا إذا ترأس وزار الملوك[٤] — وصار يماطله ، ثم انطلق مرقش إلى ملك فأقام عنده زماناً ومدحه فنال جوائزه . وفى غيبته نزلت بعوف أزمة فأتاه رجل من مراد وأرغبه فى المال ، فزوجه أسماء على مائة من الإبل ، فلما عاد المرقش خشى إخوته أن يخبروه فيهلك ، فادعوا أن أسماء قد ماتت ، وأروه قبرها ، فى قصة تناولها الخيال فزاد فيها كثيراً ، فضنى ضنى شديداً . ثم علم بالأمر مصادفة ، فارتحل إلى بلاد المرادى ، واصطحب معه وليدته وزوجها المخلص له ، فمرض فى الطريق حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فنزلوا بكهف أسفل نجران وهى أرض مراد ، وبينما هم فى الكهف سمع زوج وليدته يقول لها : لقد

---

(١) الأغانى ٥/١٨٠ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٤ .
(٣) تزيين الأسواق ٨٨ .
(٤) الأغانى ٥/١٨٠ .

هلك مرقش سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعا ، فبكت الوليدة ، فهددها زوجها أن يتركها مع مرقش إن لم تصخ إلى أمره ، فأصاخت وانطلقا وتركاه ، ولكن القدر ساق إليه راعياً فأبصره ، وتحدث معه مرقش ، فعرف أنه راع عند المرادى زوج أسماء ، فحمله إليها رسالة لعب فيها الخيال كثيراً ، وأعلمت زوجها ، وطلبت أن يعجل فى طلبه ، فركب فرسه وحمل أسماء على فرس آخر ، وسارا حتى وصلا إليه فاحتملاه ، فمات عند أسماء ودفن بأرض مراد [١] .

ويستنتج الأب لويس شيخو اليسوعى أن المرقش مات سنة ٥٥٢ م [٢] . وقد ذكر طرفة قصة المرقش وموته من حبه [٣] كما ذكرها مجنون ليلى [٤] .

٢ — وللمرقش الأكبر قريب أذهله الحب هو المرقش الأصغر ، وهو أخو المرقش الأكبر [٥] أو ابن أخيه [٦] ، واسمه أبو عمرو ربيعة بن سفيان بن سعد ابن مالك ، وقيل اسمه عمرو بن حرملة بن سعد بن مالك [٧] ، كان يهوى فاطمة بنت المنذر الملك ويتشبب بها ، وكان له — كما كان للمرقش الأكبر — مكانة ممتازة فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ، وبأس وشجاعة ونجدة وتقدم فى المشاهد ونكاية فى العدو وحسن أثر [٨] .

وقد كانت فاطمة تبادله حباً بحب ، فلما أفشى سرها لصديق وعلِمتْ قطعت صلته فندم وعض على إصبعه فقطعها وجْداً عليها .

وعبر عن ندمه فى قصيدة طويلة منها :

صحا قلبه عنها على أن ذُكْرَةً ... إذا خطرت دارت به الأرض قائما

أفاطم لو أن النساء ببلدة ... وأنت بأخرى لاتَّبعتك هائما

(١) الأغانى ٥/١٧٩ ، والشعر والشعراء ٥٤ ، وتزيين الأسواق ٨٨ ، وديوان طرفة ١١٨ .

(٢) شعراء النصرانية ٢٨٢ .

(٣) ديوان طرفه ١١٨ — ١٢٠.

(٤) الأغانى ٢/٨٤ .

(٥) الشعر والشعراء ٥٦ .

(٦) الأغانى ٥/١٧٩،١٨٣ .

(٧) الأغانى ٥/١٧٩ والشعر والشعراء ٥٦ .

(٨) الأغانى ٥/١٧٩ .

ألم تر أن المرء يَجذم كفه　　وَيَجْشَم من لوم الصديق المجاشما[1]

٣ — وهذا المحب هو عبد الله بن علقمة العامرى ، أحب حبيش ، وقد ارتبطت قصة حبه وموته بحرب كان يقودها خالد بن الوليد . ذلك أنه بعد فتح مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيوش إلى قبائل شتى . فبعث خالد بن الوليد إلى بنى عامر ، فوافاهم بماء يقال له الغميصاء ، فقاتلهم حتى انهزموا ، ويقص خالد بن الوليد نفسه قصة ابن علقمة العامرى[2] . ويقصها أحد المشتركين فى الموقعة واسمه ابن أبى حَدْرد الأسلمى[3] . وملخصها أن خالد بن الوليد بعد هزيمة بنى عامر رأى غلاما له ذوائب يسير بفرسه فى أخريات القوم ، فوضع خالد رمحه بين كتفيه ، فقال الغلام « لا إله » . فقبض خالد عنه الرمح . فقال الغلام : « إلا اللات أحسنت أو أسأت » . فأسره خالد وشد وثاقه . ثم كلمه فلم يجب ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة قد سباهن المسلمون فقال : ياخالد هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة ؟ فأجابه إلى طلبته . فأقبل على النسوة وفيهن جارية تدعى حبيش فقال لها : ناولينى يدك . فناولته يدها فى ثوبها فقال لها : « أسلمى حبيش . قبل نفاد العيش » . فقالت : « حييت عشراً وتسعا وتراً وثمانيا تترى » . فقال :

أرَأيتكِ إن طالبتكم فوجدتكم　　بحَلْيَةَ أو أدركتكم بالخوانق
ألم يك حق أن يُنَوَّل عاشق　　تكلف إدلاج السرى والودائق
وقد قلت إذ أهلى لأهلك جيرة　　أثيبى بود قبل إحدى الصَّفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى　　وينأى أمير بالحبيب المفارق

فتقدم إليه خالد فضرب عنقه . فأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتقول :

لا تبعدن ياعمرو حياً وهالكا　　لحقّ بحسْنِ المدح مثلك من مثلى
لاتبعدن ياعمرو حياً وهالكا　　فقد عشت محمود الثنا جَيّد الفعل

---

(١) الأغانى ٥/١٨٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١/١٣٤ والشعر والشعراء ٥٦ .
(٢) الأغانى ٧/٢٣ ، ٢٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ٤/٥٩ .

فمن لطراد الخيل تُشْجَر بالقنا وللفخر يوما عند قرقرة البُزْل

وجعلت تبكى حتى ماتت ورأسه فى حجرها[(١)]

٤ — وعروة بن حزام بن مهاصر بطل من أبطال الحب العذرى والغزل العف ، قصر حبه على عفراء بنت عمه عقال بن مهاصر ، وقصر غزله عليها . وهو شاعر مخضرم توفى سنة ٣٠ هـ[(٢)] . وذكر الذهبى أنه توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٠ وقيل سنة ٢٨ هـ[(٣)] . وكان قد نشأ مع عفراء منذ الصغر ، لأن أباه مات وترك عروة فى حجر عمه عقال ، فكانا يلعبان حتى تألف كل منهما صاحبه إلفاً شديداً ، وكان عمه يمنيه أن تكون عفراء زوجة له . فلما نضج عروة ونضجت عفراء أرسل عروة عمته إلى عمه ليزوجه بعفراء ، فاعتذر بأن عروة فقير وليست عليه عجلة . فسكن عروة بعض السكون ، ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأى فيه وتريد لابنتها زوجاً غنياً لأنها ذات كمال وجمال . فلما تكاملت سن عروة وبلغ أشده علم أن غنياً من قومه يخطب عفراء ، فلم يطق صبراً ولم يرسل إلى عمه رسولا بل كلمه بنفسه وكشف له عن حبه وأن عفراء لو تزوجها غيره لمات . فعطف عليه ووعده خيرا ، وطلب منه أن يضرب فى الأرض لعله يغتنى ، وحاول عروة أن يتودد إلى قلب أم عفراء لعلها تخفف من شططها فى المهر فأبت ، فأيقن أن المال وسيلة إلى عفراء ، فعزم أن يقصد ابن عم له موسراً بالرى ، وأخبر والدى عفراء فصوبا رأيه ووعداه ألا يحدثا أمراً حتى يعود . وشد على راحلته ، وصحبه صديقان من بنى هليل ابن عامر ، وكان فى طريقه مشدوها يكلمه صاحباه فلا يفهم حتى يعيدا عليه القول ، لأن فكره مرتبط بعفراء ، ومقسم بين الأمل واليأس ، وأحسن ابن عمه لقاءه ووصله بمائة من الإبل ،

---

(١) الأغانى ٧/٢٣ — ٢٨ ، وسيرة ابن هشام ٤/٥٩ وتزيين الأسواق ٨٥ ، وتاريخ الأمم والملوك ٣/١٢٥ . حلية والخوانق : موضعان ، وفى طبعة ساسى حيلة ، ولكنها فى طبعة دار الكتب حلية ٧/٢٩٠ . الودائق : جمع وديقة وهى شدة الحر . الصفائق : النوائب . تشجر : تطعن . قرقرة : هدير الإبل ، ودعاؤها . البزل : جمع بازل وهو البعير فى السنة التاسعة ، وفى الأصل « وللعجز يوما عند قرقرة البذل » وهو تحريف .

(٢) فوات الوفيات ٢/٣٥ .

(٣) تزيين الأسواق ٧٦ .

فانصرف بها إلى أهله مسروراً عظيم الأمل فى زواج عفراء . ولم يكن يدرى أن أموياً غنياً قدم من الشام فنزل فى حى عفراء فنحر وأطعم ووهب ، ورأى عفراء فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فاعتذر بأنه قد سماها لابن عمها العزيز عليه ، فرغبه الأموى فى عظم المهر فلم يرغب . فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولا ، وما زالت بزوجها حتى قبل ، ولكن عفراء كانت على عهدها لعروة ، وكان هذا الزواج بالرغم منها ، فقد قالت قصيدة منها :

ياعرو إن الحى قد نقضوا ... عهد الإله وحاولوا الغدرا[1]

وفى رواية أخرى أن الذى تزوجها ابن عم لها من البلقاء[2]

وصب عروة غضبه على عمه لأنه نكث بعهده ، فهجاه ، ودعا عليه أن يصيبه من الهم ما أصاب عروة ، وأن يبتلى بشوق عنيف إلى حبيب ميئوس منه كما ابتلى عروة :

فياعمُّ ياذا الغدر لا زلت مبتلًى ... حليفاً لهمٍّ لازم وهوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجية ... فألزمت قلبى دائم الخفقان
وأورثتنى غما وكربا وحسرة ... وأورثت عينِى دائم الهملان
فلا زلتَ ذا شوق إلى من هويتَه ... وقلبك مقسوما بكل مكان
فياعم لا أُسْقِيتَ من ذى قرابة ... بِلالاً فقد زلَّت بك القدمان
ومَنَّيتنى عفراء حتى رجوتُها ... وشاع الذى منَّيتَ كلَّ مكان
فوالله لولا حب عفراء ما التقى ... علىَّ رواقا بيتك الخَلَقان
رواقان هفَّافان لا خير فيهما ... إذا هبت الأرواح يصطفقان[3]

ويقول فى قصيدة أخرى :

فقلت لعراف اليمامة داونى ... فإنك إن أبرأتنى لطبيب

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٣ وفوات الوفيات ٢/٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٧ .

(٣) النوادر للقالى ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٧ .

فما بى من حُمَّـى ولا مس جِـنَّة ولـكنَّ عمى الحِمْيرىَّ كذوب(١)

ويأبى الخيال إلا أن يعمل هنا ما عمله فى قصة المرقش الأكبر ، فهو يضيف إلى قصة عروة ما أضافه إلى قصة المرقش من عنصر التعمية على المحب ، ثم طريقة وصول الحقيقة إليه ، لأن عم عروة عمد إلى قبر عتيق فجدده ، وسأل الحى كتمان أمر عفراء، وقدم عروة بعد أيام فنعاها عقال إليه وأراه القبر، فصار يختلف إليه أياماً وهو هالك مضنى، حتى أخبرته جارية الخبر فركب إلى الشام يريد الأموى ، ولقيه وانتسب إليه فى عدنان ، فأحسن الأموى ضيافته ، ومكث عنده أياماً ثم بعث إلى عفراء خاتمه كما بعث مرقش إلى أسماء خاتمه ، وطرحه فى قعب اللبن كما فعل عبد أسماء بخاتم مرقش ، فعلمت أنه خاتم عروة كما علمت أسماء من قبل ، ثم أعلمت زوجها كما أعلمت أسماء زوجها ؛ فعاتبه الأموى على كتمانه نفسه ، وزاده إكراما وتركه يتحدث مع عفراء ، وأوصى خادما له أن يستمعها . وهذا خيال أيضا لأنه يتنافى مع الغيرة العربية ، ولأن تجسس الخادم منقصة من قدر عفراء ، فتشاكيا ، وبكى عروة وعرضت عليـه عفراء قدحاً من خمر فرفض . ثم أعلمها أنه لا يستطيع البقاء بعد أن علم الأموى حقيقته ، فبـكت وبكى وانصرف ، فلما جاء زوجها أعلمته الخادم حديثهما ، وأعلمته عفراء أن عروة مزمع الرحلة ، فدعاه وألطف له القول ووعده ألا يحول بينهما وبين الاجتماع ، بل تذهب الرواية إلى أكثر من ذلك ، فتدعى أنه قال له : « لئن شئت لا فارقتها ولأنزلن لك عنها(٢) » فجزاه عروة خيراً وأثنى عليه وتجلد ، وادعى أن أموراً تضطره إلى الرجوع إلى وطنه ووعد أن يعود ، ولـكنه بعد رحيله نكس وأصابه غشى وخفقان ، وتختلق القصة شبهاً بينه وبين يعقوب عليه السلام ، فتصوره أنه كان كلما أغمى عليه ألقى صاحباه على وجهه خمارا لعفراء زودته إياه فيفيق ، ولـكن المنية عاجلته قبل أن يصل إلى حيه بثلاث ليال ، وعلمت عفراء فجزعت جزعاً شـديداً ورثته بأبيات لم تزل ترددها وتندبه حتى ماتت بعده بأيام قلائل(٣) . وأرجح أن تشبيه حاله بحال يعقوب تخييل إسلامى متأثر بقصة

---

(١) تزيين الأسواق ٤ : ٧٠

(٢) الأغاني ٢٠/١٥٤ . (٣) الأغاني ٢٠/١٥٥ .

يوسف فى القرآن الكريم .

وفى رواية أخرى أنه لم يمت فى طريقه ، وأنه قد بلغ أهله نحيلا مضنى ، وكانت أخواته وخالته وجدته يعظنه ولكن لا يؤثر فيه وعظهن ، فجئن له بأبى كحيلة رباح بن شداد وهو عراف حجر ليداويه فلم ينفعه دواؤه ، أو أنه أصيب بالهُلاس حتى لم يبق منه شيئاً ، فاستطبُّوا له عند طبيب باليمامة اسمه سالم ، فجعل يسقيه الدواء فلا ينفعه ، فخرجوا إلى طبيب بحجر فلم ينتفع بعلاجه ، وهو يشير إلى ذلك بقوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إن هما شفيانى
فما تركا من حيله يعلمانها ... ولا سُلْوة إلا بها سقيانى
فقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان
فويلى على عفراء ويلاً كأنه ... على الصدر والأحشاء حدُّ سنان
أحب ابنة العذرى حباً وإن نأت ... ودانيت فيها غير ما متدان
تحملت من عفراء ما ليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان (٢)

وبلغ به الشوق أنه كان يأتى حياض الماء التى كانت تردها إبل عفراء فيلصق بها صدره ، فيقال له : مهلاً فإنك قاتل نفسك ، فاتق الله فلا يقبل (٣) ، وما زال على غرامه وهيامه حتى قضى نحبه .

وعلمت عفراء بموته فقالت لزوجها : قد كان من خبر ابن عمى ما كان بلغك ، ووالله ما عرفت منه قط إلا الحسن الجميل ، وقد مات بسببى ولابد لى من أن أندبه ، فأذن لها ، فندبته ثلاثاً حتى توفيت فى اليوم الرابع (٤) ، أو أنها استأذنت زوجها فى زيارة قبر عروة ، فأذن لها ، فصارت تتمرغ على القبر وتبكى (٥) .

ويحاول الخيال القاص أن ينصر المحبَّين فى موتهما بما حرماه فى حياتهما ، فيقول إن عفراء رثت عروة بشعر على قبره وألقت نفسها عليه فماتت ، فدفنت

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٦ .
(٢) الشعر والشعراء ٢٣٨ والأغانى ٢٠/١٥٥ والنوادر لأبى على القالى ١٦١ .
(٣) الأغانى ٢٠/١٥٦ . (٤) الأغانى ٢٠/١٥٧ .
(٥) تزيين الأسواق ٧٥ .

بجانبه ، فنبتت من القبرين شجرتان حتى إذا صارتا على حد قامة التفتا ، فكان المارة ينظرون إليهما ولا يعرفون من أى ضرب من النبات ، وكثيراً ما أنشدوا فيهما شعراً [١] .

ومن رثاء عفراء له ما يكشف عن أنها كانت تبادله الحب ، فهى تدعو على من نعوه ، وتدعو على الفتيان ألا ينعموا بعده بلذة ولا سلامة ، وتوئس النساء أن يلدن مثله وأن يفرحن بوليد :

ألا أيها الركب المخبّون ويحكم   بحقٍّ نعيتم عروة بن حزام ؟
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا   بأن قد نعيتم بَدْرَ كل ظلام
فلا تَهْنَأ الفتيانَ بعدك لذةٌ   ولا رجعوا من غيبة بسلام
وقل للحبالى لا ترجين غائباً   ولا فرحاتٍ بعده بغلام [٢]

وقد ذكر مجنون ليلى قصته :

عجبت لعروة العذرى أمسى   أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً   وهأنا ميت فى كل يوم [٣]

٥ — وكذلك قتل الحب عبد الله بن العجلان بن عبد الأجب من نهد ، فقد رأى على ماء غسان بنجد هنداً فى بنات من العرب كن يقصدن هذا الماء ، ويخلعن ثيابهن ويغتسلن، وكانت هند طويلة الشعر شفافة الجسم ، فأسره جمالها ، وسحرته نظراتها ، وعبر عن حبه بقوله :

لقد كنتُ ذا بأس شديد وهمة   إذا شئت لمساً للسماء لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت   بقلبى ولو أستطيعُ رداً رددتها

وشكا لصديقه فقال له : اكتم مابك واخطبها إلى أبيها ، ففعل وتزوج بها [٤] . وكانت من أقاربه من نهد أيضاً ، وظل أسعد الناس سبع سنوات أو ثمانى سنوات حتى فرق بينهما أبوه .

---

(١) تزين الأسواق ٧٥ .
(٢) الأغانى ٢٠/١٥٥ وتزيين الأسواق ٧٥ .
(٣) الأغانى ٢/٨٤ .   (٤) تزيين الأسواق ٨٠ .

ذلك أن العجلان كان سيداً فى قومه ، وورث ابنه عنه سيادته ، وكان العجلان أكثر بنى نهد مالا ، ولم يكن له ولد غير عبد الله ، ولم تكن هند قد ولدت فى هذه المدة ، فقال العجلان لابنه : إنه لا ولد لى غيرك ولا ولد لك ، وهذه المرأة عاقر ، فطلقها وتزوج غيرها ، فأبى .

فآلى ألا يكلمه حتى يطلقها ، ولكنه أقام على أمره فعمد إليه أبوه يوماً وهو سكران وعاوده فى أمرها وأنّبه وجمع عليه مشيخة الحى وفتيانهم ، فتناولوه بألسنتهم وعيروه شغفه بها وضعف حزمه ، ولم يزالوا به حتى طلقها ، ولكنه أسف عليها أسفاً شديداً ، وعلم أن أباها زوجها لرجل من بنى نمير فدنف عبد الله وسقم ، وعرضوا عليه فتيات الحى جميعاً فلم يقبل واحدة منهن ، وما زال يقول فيها الشعر ويبكيها حتى مات أسفاً عليها [١] ، وكان موته كما ذكر فى « النزهة » قبل عام الفيل بأربعة أعوام [٢] ، وقد ذكر بعض الشعراء موته من الحب .

فإن مت من الحب فقد مات ابن عجلان[٣]

وذكر ابن رشيق فى كتابه « بلغة الإشفاق فى ذكر أيام العشاق » أن عبد الله ابن العجلان عاش يكابد المحنة وغصص الشوق ثلاثين سنة ، ولذا ضرب المثل به كما ضرب بعروة ، من ذلك قول قيس .

فما وجدَتْ وجدى بها أم واحد ولاوجد النَّهدِىُّ وجدى على هند
ولا وجد العذرى عروة فى الهوى كوجدى ولا من كان قبلى ولابعدى

وهو يشير إلى عبد الله بقوله « النهدى »[٤] . وقال البحترى

هوىً لاجميل فى بثينة ناله بمثلى ولاعبد بن عجلان فى هند

ومن أسفه عليها قوله :

فارقت هنداً طائعاً فندمت عند فراقها
فالعين تذرى دمعها كالدُّر من آماقها

(١) الأغانى ١٩/١٠٢ .
(٢) تزيين الأسواق ٨٠ .
(٣) الشعر والشعراء ٢٧٤ .
(٤) تزيين الأسواق ٧٩ .

متحلباً فوق الردا ء يجول من رقراقها[1]

٦ — وكان مسافر بن عمر بن أمية يحب هند بنت عتبة وتحبه ، فخرج إلى الحيرة وأتى النعمان بن المنذر ، ثم أقبل أبو سفيان فى بعض ما كان يأتى الحيرة ، فلقى مسافراً ، فسأله مسافر عن حال قريش والناس ، فأخبره وقال له فيما يقول : وتزوجت من هند بنت عتبة . فدخله من ذلك ما اعتلّ معه حتى استسقى بطنه ، وقال :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرما وأصبحت من أدنى حموتها حما
وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه يقلب بالكفين قوساً وأسهما

فدعا له الملك الأطباء فكووه فما ازداد إلا ثقلا ، فخرج يريد مكة فلما انتهى إلى موضع يقال له « هباله » مات فدفن هناك[2] .

٧ — وتعلق عمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء عقيلة بنت عمه أبى النجاد ، وكان قد رباه عمه بعد وفاة أبيه فنشأ معها فى بيت واحد ، فلما كبرا خطبها إلى عمه فطلب مهراً أعجزه ، فأشار عليه بعض أصحابه بالخروج إلى إبرويز ابن كسرى لما كان بين أجدادهما من الصلة ، ولكنه علم من عرّاف فى الطريق أنه ساع فيما لا يدركه ، فعاد فوجد عمه قد زوج عقيلة لفزارى ، فهام على وجهه باليمامة ، لا يرى إلا شاخصاً إلى السماء وهو ينشد :

إذا جن ليل فاضت العين أدمعاً على الخد كالغدران أو كالسحائب
فما أسفى إلا على ذوب مهجتى ولم أدر يوما كيف حال الحبائب

وكانت عقيلة تبادله حباً بحب ، فلم تمكن الفزارى منها ، حتى قالوا إنها كانت تشده فى الليل إلى كسر البيت وتبيت فى الخدر ، فإذا أصبح الصبح تطلقه فيستحى أن يخبر أحداً بذلك ، ومكثا على ذلك سبعين ليلة ، فلما كثرت ظنون الناس فيه

(١) الأغانى ١٩/١٠٣ وتزيين الأسواق ٨٠ .
(٢) الأغاني ٨/٤٦ ، ٤٨ وقد ذكر أن مسافراً أتي عمرو بن هند أو النعمان بن المنذر وليس من الممكن أن تكون هند معاصرة لعمرو بن هند صاحب عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

خرج فلا يُدْرَى أين ذهب ، وعادت عقيلة إلى بيت أبيها لا تتناول إلا الأقل من الطعام ، وأذابها البكاء على عمرو حتى ماتت(١) .

٨ — وهناك غير هؤلاء أحبوا حباً عذرياً أحرقهم وصبروا على حرقه ، أو توسلوا به إلى زواج ، كأبى مالك بن عبد الله بن مسعود ، أحب ريا بنت مسعود ابن رقاش(٢) ، وعتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح ، أحب ريا بنت الغطريف السلمى(٣) ، والمخبل القيسى ، أحب ميلاء بنت عمه(٤) ، وعدى بن زيد العبادى أحب هند بنت النعمان بن المنذر ، وتزوجها على كره من أبيها ، ثم قتله النعمان فترهبت بعده فى الدير المعروف بدير هند فى ظاهر الحيرة ، وقد أدركت الإسلام وخطبها المغيرة بن شعبة فردته(٥) ، ومالك بن الصمصامة أحب حباً عذريا جنوب بنت محصن الجعدى(٦) .

(١) الدر المنثور ٣٤٨ .
(٢) تزيين الأسواق ٩١ .
(٣) تزيين الأسواق ٩١ .
(٤) الأغانى ٢١ / ١٦٠ .
(٥) الأغانى ٢ / ١٢٨ — ١٣٢ .
(٦) الأغانى ١٩ / ٨٣ .

— ٢ —

الغزل الحِسّى

تمهيد :

الأدب المكشوف والأدب المستور

هل كانت هنالك ضرورة لتصوير الشعراء هذه العلاقة الخاصة بينهم وبين النساء ؟ ألم يكن الأخلق بهذه الأسرار أن يسدل عليها الستار ؟ فلماذا كشف الشعراء عن نفوسهم ما كان يجب أن يخفوا ؟

وهل نجد مدعاة لدراسة هذا الغزل المكشوف الذى كان من واجب الشعراء أن يستروه ؟

نحن الآن أمام مذهبين من المذاهب الأدبية ، يختلف حكمهما على هذا الغزل : مذهب يرى أن الأدب يجب أن يبث فى النفوس خلال الخير والحق والجمال ، وهو إذاً يَزْوَرُّ عن دراسة هذا الأدب المكشوف ، لأنه يجافى الخلق الكريم ، ومذهب يرى أن الأديب حر فى تعبيره عن مشاعره ، بصرف النظر عما فى مضامين أدبه من خير أو من شر ، وهو إذاً يحفل بدراسة هذا الضرب من الغزل .

يقول سدنى فى كتابه (دفاع عن الشاعر) Defence of Poet الذى نشره ١٨٥١ « إن الأدب يرمى إلى أن يصرف العقل عن السوء إلى الخير فى غير ادعاء ، كما تضاف المشهيات إلى طعام الطفل ليستسيغه[1] » .

ويرى الداعون إلى المذهب الأخلاقى أن بين تقدير الجمال ورقى السلوك علاقة خفية متبادلة « لأن تقدير الجمال يرقى السلوك ، ورقى السلوك يؤدى إلى زيادة الميل

---

(١) فلسفة الجمال . جاريت ٦١ ترجمة عبد المجيد يونس وزميليه .

إلى خلق الجمال ، ويظهر أن وردسورث ورسكن وتولستوى قالوا بهذا الرأى ، ولكنهم لم يستمسكوا به على الدوام[١] » .

أما المذهب الآخر فيذهب إلى أن الفنان حر ، لأن الغرض من الفن ليس التهذيب ولا الترقية ، وإنما الغرض منه تعبير الفنان عن خلجاته ، وتصويره لما يحس به ، ولما يروقه أو يؤلمه .

فالغاية من الفن الإمتاع وبعث السرور والإعجاب ، أما المذهب الخلقى ، فإنه كما يقول جاريت « يغض من قيمة جمال الشعر وجاذبيته ، ويصوره حيلة وخداعا . ولعل دريدن Dryden كان أول كاتب إنجليزى عاب هذا المذهب فى كتابه دفاع عن مقال فى الشعر التمثيلى بقوله : إن المتعة هى الغرض الرئيسى للشعر إن لم تكن هى الغرض الوحيد ، أما التعليم فلا يمكن إلا أن يكون الغرض الثانى[٢] » .

وإذا كنا نحبس الفن والأدب فى دائرة التثقيف والتهذيب فإننا نغض من قيمة التمثيليات والروايات الخيالية التى تصور صراعا بين العدل والظلم والخير والشر والأمانة والخيانة ؛ لأن هذه الرذائل عناصر لا غنى عنها ، لذا يلجأ القصاص والوعاظ والكتاب الأخلاقيون إلى تصوير الشخصيات الشريرة وما يلقى أصحابها من محن ليوازنوا بين حالها وحال الأخيار ، ولقد يتأنقون فى تصوير هذه الشخصيات تأنقا .

وكثير من الشعر العالى حافل بنزوات الشاعر وشذوذه ومجافاته للعرف ، ولكنه ممتع ، كخمريات أبى نواس والأعشى ، وغزل عمر بن أبى ربيعة وامرئ القيس « ولعل أقذع ما توصف به قصيدة أنها تهذيبية أو تثقيفية ، ولا يفوق ذلك الوصف إقذاعا إلا قولنا إنها قبيحة[٣] » .

فليس حكمنا على إنتاج الأديب راجعاً إلى ما فيه من خير أو من شر ، وإنما يرجع إلى روعة الإنتاج نفسه ، وصدق الشعور الذى ابتعثه ، والبراعة فى إبرازه . وليست الأخلاق بحاجة إلى تعهد متكلف لتثبت فى تيار الحياة ، ولتدس فى

---

(١) المرجع السابق ٦٥ .

(٢) فلسفة الجمال ٦٢ .

(٣) فلسفة الجمال . جاريت ٦٤ .

الفن على هذا النحو المصطنع ، وكلما كان الفن حراً فى تصويره للواقع كان أتم « وليس الوجدان الفنى بحاجة إلى الوجدان الأخلاقى يستمد منه العفة ، لأنه ينطوى فى ذاته على هذه العفة التى هى الحياء الفنى ، ويعرف متى يجب ألا يستعمل من صوز التعبير غير الصمت . بل إن الفنان حين يتجاوز هذا الحياء فيخرج على الوجدان الفنى ويدس فى الفن ما لا تدعو إليه حاجة فنية أو يسوغه مسوغ فنى — ولو كان من أنبل المسوغات وأشرفها — فإنه لا يكون قد أخطأ من الناحية الفنية فحسب ، بل يكون قد أجرم من الناحية الأخلاقية ، لأنه أخل بواجبه من حيث إنه فنان(١) » .

وبعد فقد صور هؤلاء الشعراء نزعاتهم خاضعين لفنهم وحده ، كما صور آخرون من بعدهم فى الشرق والغرب هذه النزعات ، وإن أنكرها الدين والعرف ، ولا ننسى هنا مجون أبى نواس والحسين والضحاك وبشار بن برد وابن سكرة ، ولا ننسى اعترافات روسو ، وقصائد بيرون .

وما من شك فى أن فى آثارهم متعة فنية وحيوية ، وأن شعرهم صادق التعبير عن خلجاتهم ، صادق التصوير لأحوالهم وأحوال مجتمعهم الخاص ، فمن حقهم أن يدرسوا ، ومن حق أدبهم أن يفرد بكثير من العناية .

ولست أقصد أن ندرس أدبهم لنطبقة فى حياتنا ، أو ندعو غيرنا إلى أن يعيد ظروفه ويحياها ، فإن هذه الدراسة الفنية أبعد ماتكون عن هذا الغرض .

وأنا أدين بما ذهب إليه أفلاطون فى قوله : « يجب أن نراقب شعراءنا فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد وإلا فلا ينظموا ، أو نوسع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، لكى لاينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة نشوء الماشية فى مراع رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها »(٢) .

وهو قد هاجم الشعراء فى كتابه القوانين ، ذلك بأنه مجد هومير ، وبلل ثراه

---

(١) المجمل فى فلسفة الفن . كروتشة ١٧١ .

(٢) جهورية أفلاطون ٧٧ ترجمة حنا خباز .

بندى الزهر والريحان ، ثم قرر أن هؤلاء الفنانين (شعراء وخطباء) لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا . وكثيراً ما أغرى بهم الحكام ليحولوا بينهم وبين التأثير فى نفوس الشباب إلا إذا كتبوا عن فضيلة خلقية ، وإلا إذا صانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التى لا تجد لها ظلالا فى الحقيقة[١] .

وكذلك فعل أرسطو ، لأنه رأى أن الأدب قد يتعرض للرذيلة ولكن ليحاربها ، ويجب أن يمنع من أن يقررها ويشيعها[٢] .

أما شيوع مذهب الفنية أو كما يقال خطأ (الفن للفن) فإنه استغلال للمذهب فى غير ما أريدَ به ، ذلك أنه شاع فى فرنسا وغير فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وَجرِّد من ملابساته التاريخية حتى انصرف إلى معان لم يقصدها من دعوا إليه أول الأمر ، فمن الناس من يظن أن معنى (الفن للفن) هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى فيما يسمى الأدب المكشوف ، وهذا فهم خاطىء ، ومن واجبنا أن نفهم مدلول هذا المذهب فهما تاريخياً يبين المراد منه والظرف الذى نشأ فيه .

ظهر هذا المذهب كما فهمه الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم (تيوفيل جوتييه) رداً على المذهب الرومانتيكى الذى اتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن المشاعر الشخصية قبل كل شىء ، وأسرف فى هذا الاتجاه حتى أصبح فى كثير من الأحيان صرخات عاطفية أو أنات شعورية ، ولم يحفل بغير الترجمة عن العاطفة الشخصية ، وكان فى هذا نزول بالأدب إلى مستوى الوسيلة .

وثار على هذا الاتجاه أدباء رأوا أن من حق الأدب أن يصبح غاية فى ذاته ، وفناً مقصوداً لا مجرد وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، وأخذوا يتجهون نحو الوصف بنوع خاص .

وعلى هذا يبدو أن مذهب (الفن للفن) لاعلاقة له بالمسألة الأخلاقية وارتباطها بالأدب ، والقول بأن الفن غاية فى ذاته لامحل للحكم عليه حكما أخلاقياً بأن يقال

---

(١) كتاب الخطابة لأرسطوطاليس • مقدمة ٢٥ إبراهيم سلامة .

(٢) المرجع السابق ٣٣ .

إن المذهب يماشى الأخلاق أو يعارضها[١] .

حقيقته :

« هو الغزل الحسى المادى الذى أساسه حب تمتزج به ميول شهوانية ، أو عواطف خالية من التحرج وأوصاف ربما لا يرضى عنها إلا أنصار الأدب المكشوف »[٢] هو تعبير عن نوع من الحب أساسه الشوق إلى الاستمتاع بالمرأة الجميلة فى نظر الشاعر ، فليس متسما بالروحانية التى وجدناها عند العذريين ، ولا حافلا بالأشواق الملتهبة والنغم الحزين ، ولا مقصوراً على امرأة واحدة يتغنى الشاعر حياته بحبها ويفى لها ويجتوى غيرها من النساء ، وليس فيه بسطة فى تحليل عاطفة الشاعر كما حلل العذريون عواطفهم ؛ لأنه تصوير لحب عابث من طبيعته الإعجاب المؤقت بالجمال حتى يقضى الشاعر وطراً فينقلب إلى جميلة أخرى وهكذا .

ولقد يجتمع فى قلب الشاعر حب اثنتين فى آن واحد ، فى كل منهما ضرب من الجمال يروقه .

وأصحاب هذا الغزل لا طاقة لهم بالصبر على واحدة ، يقول أدلر : « إن بعض الناس يهوى أكثر من اثنتين فى وقت واحد ، لأنهم يرون أن الحب قيد يحد من سطوتهم ، فهم يلتمسون فى حبين تخففا من قيود الحب الواحد وما يلقى عليهم من تبعة ، ويرون فى التردد بين أعطاف الواحد إلى أعطاف الآخر ما يبقى عليهم قدرهم ويخفف من التبعة الملقاة عليهم[٣] » .

فحبهم قائم على الاستطراف المؤقت ، ولذلك قلما يحفلون بهجر ، ولم يحفلون ؟ أليست الجميلات كثيرات ؟

أليسوا قادرين على النقلة السريعة من امرأة إلى أخرى ؟ بل لقد يتهددون الهاجرة بحب جديد ، قال امرؤ القيس :

---

(١) فى الأدب والنقد ٢٩ محمد مندور .

(٢) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد جسن ٧٤ .

(٣) علم النفس الفردى إسحق رمزى ١٥١ .

أَسْمَاءُ أمسى وُدُّها قد تغيرا سَنُبْدِلُ إنْ أبدلْتِ بالودّ آخَرا[1]

ولم يتحرج أبطال هذا الضرب من الغزل من التصريح بلذاتهم ، أو دعوة غيرهم إلى مثلها كما سيجيء .

نشـــأته

لم ينشأ نشأة عربية .

١ — أرى أن هذا الضرب من إعلان الرجل للذاته ، وتصريحه باستمتاعه بالمرأة ، ومجاهرته بالفحش يناقض الخلق العربى القائم على العفة أو التعفف ، والغيرة على النساء ، والشهامة والسيادة .

وكيف لا يناقض الخلق العربى وقد كانت العفة من الموازين التى توزن بها أقدار الرجال ؟ ولم تكن المجانة والخلاعة مما يتغاضون عنه ، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته ، والمنافرة التى كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر وأنا عفيف »[2] ، فلما تنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب قال لعلقمة : « بأى شىء أنت أسود من عامر ؟

قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر »[3] .

كانت العفة كالشجاعة والكرم فى وزن واحد مما يفخر بها الرجال ، ومما يسوَّدون لها ، لذا كانت السبب فى تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه « ومما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلا ، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً ، فاجتمعت فى بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما »[4] .

---

(١) ديوان امرىء القيس ٦٩ .

(٢) طهارة العرب . الشنقيطى ١٢ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ .

(٤) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ .

وقد لقبوا حسان ملك حمير — وهو أحد الأذواء — بلقب ذو معاهر لأنه كان يرمى بالفجور [١] .

ولم تحم قيس بن الحدادية شجاعته وفتكه من أن تخلعه خزاعة وتشهد الناس أنها خلعته بسوق عكاظ لأنه كان خليعاً [٢] ، وطالما تباهى الرجال بعفتهم [٣] ، وطالما مُدحوا بها ورُثوا [٤] .

وكانت النساء أكثر من الرجال عفة وتصوناً ، حتى لقد عجبت هند بنت عتبة وهى تعاهد الرسول مع نسوة من قريش من أن يعاهدهن على ألا يزنين ، وقالت : وهل تزنى الحرة يا رسول الله ؟ [٥] .

وقد أشاد الشعراء بعفة الحبيبات وتمنّعهن وبعد منالهن [٦] ، وكانت الغيرة من أبرز أخلاق العرب [٧] .

٢ — وكانت علاقة الرجال بالنساء قائمة على زواج يخطب فيه الرجل المرأة إلى أبيها أو أخيها أو الولى عليها ، ويمهرها ، أما أنواع العلاقات الأخرى التى وردت فى حديث السيدة عائشة [٨] ، فقد كانت مقصورة على فئة خاصة من النساء هن أصحاب الرايات ، « بغايا يقصد إليهن الفتيان [٩] » ، وكن ينصبنها على أبوابهن لتكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن [١٠] ، ولم يكن من مفاخر الرجل أن يتسلل

---

(١) طهارة العرب ١٢ . (٢) الأغانى ١٣ / ٢ .

(٣) برذع بن عدى الأوسى . مجالس ثعلب ١ / ٢٥٣ وشاعر آخر ٠ الأمالى ١ / ٤٥ وعنتره . الديوان ١٨٥ .

(٤) الخنساء فى رثاء صخر . ديوان الخنساء ٨٢ ، ٦٨ ، ٧٠ وبلاغات النساء ١٦٨ والخرنق . ديوانها المخطوط . وأعشى باهله فى رثاء المنتشر بن وهب . طهارة العرب ٣٤ .

(٥) الروض الأنف للسهيلى شرح سيرة بن هشام ٢ / ٢٧٧ والإصابة ٨ / ٢٩٥ .

(٦) علقمة بن عبده المفضليات ٢ / ١٩١ وسويد بن أبي كاهل المفضليات ١/١٩٠ وأخبار النساء ٨٦ .

(٧) مجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٧٠ وطهارة العرب ٦ والأغانى ٢٠ / ١٥٩ ، ١٩/٨٣ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩و١١٠ والمحاسن والأضداد ٢١٩ والأغانى ١٥/٨٢،٩/١٧

(٨) إنسان العيون ١ / ٤٧ .

(٩) العقد الفريد ٣ / ٢ .

(١٠) إنسان العيون ١ / ٤٦ .

إليهن ، قالت العوراء بنت سُبَيع في رثاء أخيها عبد الله بن سبيع :

أبكى لعبد الله إذ حُشَّتْ قُبَيلَ الصبح نارُه
طيانَ طاوى الكشح لا يُرْخى لمظلمةٍ إزاره [1]

وكان هؤلاء البغايا من الإماء ، وكن يوهبن ، ويُستمتع بهن ، كما كانت القيان يوهبن .

قال الأعشى مادحاً بهبة القيان :

هو الواهبُ المُسْمِعاتِ الشُّرو ب َ بين الحرير وبين الكَتَن [2]

وقال النابغة يمدح النعمان بهبة الإماء :

الواهب المائةَ المِعْكاءَ زَيَّنها سَعْدان تُوضح في أوبارها اللُّبد
والراكضات ذُيولَ الرَّيْط فانَقها بَرْدُ الهواجر كالغزلان بالَجرَد [3]

وقد مدح الأعشى بذلك [4] وكره النابغة [5] .

وكانت القيان والإماء جميلات كما وصفهن طرفة [6] ، وعبدة بن الطبيب [7] وسلامة بن جندل [8] .

وكن لايتحرزن ولا يتصوّنَّ ، لذا كان يستمتع بهن الرجال ، قال الأعشى :

والبيضُ قد عَنسَت وطال جَراؤها ونشأن في قِنٍّ وفي أذْواد
ولقد أخالِسُهنَّ ما يَمْنَعْنَني عُصُراً يَمِلْنَ عَلَيَّ بالأجياد [9]

وقد أحب الأعشى واحدة منهن وأكثر من التشبيب بها ، أحب هريرة ،

---

(١) مراثى شواعر العرب . لويس شيخو ١٤٧ .

(٢) لسان العرب ١٧ / ٢٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . الكتن : الكتان وثيابه معتدلة فى الحر والبرد .

(٣) ديوان النابغة ٢١ المعكاء : الغلاظ الشداد — سعدان . نبت جيد التغذية للابل توضح : موضع . اللبد : ما تلبد من الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرد : الموضع المجدب .

(٤) لسان العرب ١٨ / ٨٣ (٥) ديوان النابغة ٣٨

(٦) ديوان طرفه ٢٥ (٧) المفضليات ١ / ١٤٣

(٨) المفضليات ١ / ١١٨

(٩) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الفتاء والشباب . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل

وكانت هى وأختها خليـــدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (١) .

وكانت لهن بيوت للهو يسمر فيها الفتيان ويلهون ، يدل على ذلك قول امرئ القيس إنه دخل بيتاً منها آمناً ، وحق له أن يأمن لأن بيت الريبة لا يحميه حام :

وبيتٍ يفوح المسك فى حَجَراته ... بعيدٍ من الآفات غيرِ مُرَوَّق

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامها ... تعفِّى بذيل الدِّرع إذ جئت مَوْدِقى (٢)

وهى تعفى على آثار موضعه لا لأنها تخشى على نفسها ، بل لأنها تخشى عليه أن يفتضح لأنه يغشى بيتها .

ويقول أيضاً :

وبيتِ عذارى يوم دَجْن وَلجْتُه ... يَطُفْنَ بجبَّاءِ المرافقِ مِكْسال

. . . .

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ... ولست بِمَقْلِيِّ الخِلال ولا قالى (٣)

ويقول عبيد بن الأبرص :

وبيت عذارى يرتمين بخِدْرِهِ ... دَخلْتُ وفيه عانس ومريض

فأقرضتُها ودِّى لأُجْزَاهُ إنما ... تَدُقُّ أيادى الصالحين قروض (٤)

وكان بعضهن يقتنى الإماء ويكرههن على البغاء ، يدل على ذلك قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصُّناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

وكان ممن فعل ذلك عبد الله بن أبى بن سلول ، كانت له جاريتان : مسيكة وأميمة أو جارية واحدة اسمها مسيكة أو معاذة ، وكان يؤجرها ويكرهها على البغاء

---

(١) الأغانى ٨ / ٧٧

(٢) ديوان امرىء القيس ١١٩ حجراته : نواحيه . غير مروق : ليس له رواق . جم عظامها : لينة بضة كأنها لا عظام لها فهى جماء . مودقى : موضعى .

(٣) ديوان امرىء القيس ١٤٢ الدجن : ظل الغمام المطبق أو المطر الدائم . جباء المرافق : عظامها متوارية لسمنها . مكسال : مترفة . مقلى الخلال : مكروه الأخلاق أو الصداقة .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٠ ص٣٢ عانس : بكر طال مكثها فى بيت أهلها ولم تزوج . أقرضتها ودى : تقدمت إليها بحبى . تدق : تظهر . أيادى : معروف وجميل

فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فشكت إليه ذلك ، فأنزل الله الآية .

وعن ابن عباس أن بعضهم كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ويأخذون أجورهن (١) ، ولذا عيَّر عمرو بن معد يكرب أعداءه بأنهم أبناء إماء درّبن على الفسوق :

وكنتم أعْبُداً أولادَ غَيْلٍ بنى آمٍ مَرَنَّ على السِّفاد (٢)

ودليلى على أن البغاء كان مقصوراً على الإماء أن القرآن الكريم عبر عنهن بالفتيات ، وكلمة الفتيات لم تطلق فى القرآن الكريم إلا على الإماء ، قال تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » .

فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ماخص النهى عنه بالإماء . وقد كانت أنفة العرب وغيرتهم على النساء الحرائر مغنية عن نهيهم عن إكراه الحرائر على البغاء .

وقد عبر الأعشى عن الإماء بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر اللخمى أوالمنذر ابن الأسود :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجَرَاجِرَ كالبُسْتانِ تحْنو لدَرْدَقٍ أطفال

والبغايا يَرْكُضنَ أكسيةَ الإضْريج والشَّرْعَبيَّ ذا الأذيال (٣)

والبغى فى اللغة : الأمة ، أو الحرة الفاجرة (٤) ، ومن إطلاقها على الأمة قول الشاعر :

نحر البَغِيِّ بجِذْج ربّتها (٥)

---

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ١٠٣ — ١٠٤ والإصابة ٨ / ٢١ ، ١٨٩

(٢) لسان العرب ١٨ / ٤٧ الغيل : اللبن ترضعه المرأة ولدها وهى تؤتى أو وهى حامل . آم : إماء .

(٣) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨ / ٨٣ البغايا هنا الإماء . الاضريج : خز أصفر أو أحمر . الشرعبي نوع من البرود . الجلة : الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجور وهو الضخم من الإبل . دردق : صغار الإبل .

(٤) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى . (٥) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٠٣

ويذكر أبو على القالى أن البغاء : الفجور فى الإماء خاصة ، وأن البغى : الأمة[١] وكانت البغايا محقرات ، ولذا افتخر الرجال ومدحوا بالتعفف عنهن ، ولم يكنّ عربيات غالبا[٢] ، يدل على احتقارهن وبخاصة فى نظر النساء أن عاصية بنت ثابت بن أبى الأفلح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمى ، فسمنى ، فقال أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسما تسمينى به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبى صلى الله عليه وسلم واستسمته فسماها جميلة أيضا فغضبت . وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه[٣] .

هذا الوضع الذى كان للأمة فى الجاهلية كان له ما يشبهه عند الإغريق ، فإن أرسطو أقر الرق ، وما كان للمرأة التى تباع أو تؤسر أن تمتنع من سيدها[٤] وكان الرومان يسرقون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجلبن لمالكهن ثروة من الفجور[٥] .

وكان لزاماً على كل امرأة فى بابل وأشور أن تزاول المهارة المقدسة مرة فى حياتها ، وكان هيكل مليتا ربة الجمال يغص بهؤلاء النساء[٦] ، وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات فى أشور تقديساً للالهة « استار » جرياً على عادة الفينيقيات[٧] . وقد عرف بنو إسرائيل هذه المهارة المقدسة ، فعُدت ضروب البغاء تكريماً لمشتروت[٨] .

وربما كان اقتناء بعض العرب إماء للبغاء أثراً مشوهاً للمهارة المقدسة التى عرفها الأشوريون والبابليون والفينيقيون واليهود ، والعرب على صلة بهؤلاء جميعاً ، وعبد الله بن أبى بن سلول الذى اشتهر بهذا فى الجاهلية كان يهودياً .

---

(١) الأمالى ٢ / ١٧٥

(٢) الأسرة والمجتمع على عبد الواحد ٧٤ — ٧٥ (٣) الإصابة ٨ / ٤٠

(٤) الرق فى الإسلام ١٩ أحمد شفيق . (٥) الرق فى الإسلام ٣٤

(٦) P. A. Rosler, La Question Feministee. P. 137

(٧) المرجع السابق ١٤٠

(٨) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ٥١ جوستاف ولوبن .

ومهما يكن من شيء فإن بغاء الإماء لا يناقض ما سبق من غيرة العربى وأنفته ، وعفة المرأة العربية وعزتها .

الغزل الحسى أجنبى النشأة

ليست المجاهرة بالفاحشة من أخلاق العرب ، لأن العربى يعد العفة من مزايا الرجولة ومرجحات السيادة ، فيتعفف إن لم يكن عفيفاً ، ويتستر ولا يعلن للناس فحشه .

فلماذا جهر بعض الشعراء بهذا الأدب المكشوف ؟

ومن أين جاء هذا الغزل الذى لا يتأثم من ذكر اللذة والعورة والقبيح ؟

أرى أنه ضرب من الأدب دخيل على العرب ، لم يجىء من الفرس ولا من الروم ، وهما الشعبان اللذان عنى تاريخ الأدب بذكر علاقة العرب بهما وتأثيرهما فى الأدب العربى ، وإنما جاء من بلاد اليمن أولا ، لأنها وَصْلة بين العرب والأحباش ، وصادف فى بعض الشبان حياة ماجنة توائمه فنما وازدهر .

والأدلة على هذه النظرية :

١ — فتح الأحباش بلاد اليمن وحكموها أربع مرات .

(الأولى) فى القرن الأول قبل الميلاد حيث نصروا بنى همدان على ملك سبأ وحلفائه من بنى ريدان الحميريين ، وتحالف علهان نهفان زعيم الهمدانيين مع جدرت ملك الحبشة ، وكان هذا التحالف هجومياً ودفاعياً ، ثم اتسع الحلف فشمل يدعاب غيلان ملك حضرموت ، واستطاع ولدا يريم أيمن الهمدانيان أن يحرزا لقب ملكى سبأ وذى ريدان ، ولكن الملك السبئى لم يستسلم ، ولم يستسلم حلفاؤه الحميريون ، وظلوا يدافعون عن ملكهم المغصوب ، والأحباش يعاونون الهمدانيين ردحا من الزمن ، ثم انجلى الصراع عن انتصار الملك السبئي ، واتخاذ الأحباش مدينة (سحرت) فى الجنوب الغربى من اليمن . قاعدة حربية لهم ، واستقرت جاليات حبشية فى اليمن من ذلك الحين[1] .

---

(١) بين الحبشة والعرب ٢٣ — ٢٦

(والثانية) حدثت فى القرن الثالث ، إذ غزا الأحباش اليمن فى عهد إيلا إميدا سنة ٣٤٠ م وقضى هذا الملك على حكم شمر يهرعش وابنه ياريم ، واتخذ لنفسه لقب ملك أكسوم وحمير وذى ريدان وحبشة وسبأ وسلع وتهامه[١] . وكان سبب هذه الحملة الحد من توسع شمر يهرعش فى الجنوب وصد عدوانه على سحرت قاعدة الحبشة فى بلاد العرب .

ويستنتج من دراسة النقود أن حملة الحبشة على اليمن كانت فى نهاية القرن الثالث ، وكان من آثارها أن حكم الأحباش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع[٢] .

ويستنتج جلاسر أن السبئيين كانوا قد احتلوا جزءاً من الحبشة قبيل ذلك[٣]

(والثالثة) حدثت فى القرن الخامس ، وكان سببها أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومانيين الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة ، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج Aidog (٤٨٠ م) وأوغر صدر امبراطور الروم ، فجردا على دميانوس حملة انتهت بهزيمته وقتله ، وولى الأحباش أميراً نصرانياً على حمير ولكنه لم يعش طويلا ، فانتهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكا يهوديا هو ذو نواس[٤] .

(والرابعة) كانت حوالى ٥٢٣ م[٥] لأن ذا نواس اليهودى أغضب النصارى وعدا عليهم . وتختلف الروايات فى سبب عدوانه ، ولكن ذلك ليس من موضوعنا ، وكان طبيعياً أن يلجأ النصارى إلى الحبشة ، وأن تسارع إلى الانتقام من الملك الثائر؛ لأنه تولى بالرغم من إرادة الرومان والأحباش ، ولأن طريق التجارة الرومانية محفوف بالمخاطر حتى لقد انقطعت القوافل ، ولأنه يضطهد النصارى .

وكانت هذه الحملة بقيادة أرياط أو أبرهة ، وانجلت عن هزيمة العرب وغرق

---

(١) Jhe Back ground af islam. glaser, P. 132.

(٢) بين الحبشة والعرب ٣٢ — ٣٤

(٣) Jhe Back ground af islam P. 108

(٤) بين الحبشة والعرب ٤٥ — ٤٧

(٥) بين الحبشة والعرب ٥٦

ذى نواس ، وانتقام أرياط من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها من حنقه[١] .

وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكانت غزوة الفيل ، ويختلف المؤرخون فى زمنها ، فالذين يرون أن النبى عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م ، ولكن فى السيرة روايات أخرى عن مولده صلى الله عليه وسلم ، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وبعضها يرى أنه ولد بعده بثلاث وعشرين سنة أو بثلاثين وقيل بسبعين[٢] .

والذى يستنتج من ذلك أن غزوة الفيل كانت بين ٥٠٠ و ٥٧٠ م « ولكن كثيراً من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالى ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم للأحباش كان فى ٥٧٠ م ، ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم يكسوم ومسروق ابنى أبرهة[٣] » .

وكان حكم الحبشة باليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجوا الأحباش من اليمن ثنتين وسبعين سنة[٤] .

وإذا صح تاريخ بدء الغزوة وهو ٥٢٣ م[٥] وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعده يكسوم ١٩ عاما ثم مسروق ١٢ عاما[٦] كان الزمن الذى حكمت فيه بلاد اليمن فى هذه المرة ثنتين وستين سنة لاثنتين وسبعين كما ذكر الطبرى .

٢ — على أن العرب كانوا على صلة بالحبشة والأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من طريق الغزو والحكم ، أقصد التجارة ، حتى ليرى بعض مؤرخى الأفرنج « أنه كان فى مكة بيوت تجارية رومانية تزاول الشئون التجارية للرومان وكان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية[٧] » .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٠٧ — ١٠٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٦ ومعجم البلدان ٢/٢٤٣
(٢) إنسان العيون ١ / ٦٥
(٣) بين الحبشة والعرب ٦٥
(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ١١٥
(٥) بين الحبشة والعرب ٥٦
(٦) بين الحبشة والعرب ٦٧
(٧) فجر الإسلام أحمد أمين ٥١

وكانت بين الحبشة والعرب معاهدة تجارية بلغة العصر الحاضر ، فقد ذكروا أن بنى عبد مناف أخذوا العِـصَم لقريش من الملوك ، وكان الذى أخذ حبلا من النجاشى عبدشمس .

وبذلك اختلف القرشيون إلى الحبشة متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق واليمن[١] .

وإذا ما رجعنا إلى فجر الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهادا يلجئ مئات منهم إلى الفرار بدينهم ، فإلى أين فروا ؟ فروا إلى الحبشة التى تربطهم بها صلات تجارية ، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان ، وأبى حذيفة بن عتبة ابن ربيعة ، وبعثت قريش مندوبَيْنِ عنها ليزينا للنجاشى ألا يبقى فى مملكته هؤلاء الوافدين، هما عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وجمعت قريش لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، وتحاور مندوبا قريش والمسلمون فى مجلس النجاشى ، وانتصر المسلمون وطاب لهم المقام مدة من الزمان[٢] .

ولم يكن اختيار النبى عليه الصلاة والسلام بلاد الحبشة مهاجراً ناشئاً عن أنها مسيحية مستقلة فحسب ، فليست وثنية تعادى الدين السماوى فتضطهده وتمتدى على معتنقيه ، وليست مسيحية خاضعة لدولة أخرى خضوعا فعلياً يحول بينها وبين حماية دين سماوى كما كان شأن الحيرة وغسان واليمن ، وإنما نشأ هذا الاختيار عن شيئين : صلة تجارية وثيقة بالحبشة ومسيحية الحبشة واستقلالها ، وإن كنت لا أغفل عاملاً ثالثاً له أثره فى هذا الاختيار هو أن المناذرة والغساسنة واليمنيين كلهم عرب ، وقريش التى تناوئ النبى عليه الصلاة السلام وتناصبه العداء عربية مثلهم ، ولهابهم صلات ليست له ، فهم ينفسون على رجل عربى أن يستلب نفوذهم كما نفست عليه قريش .

٣ — ثم كان بين العرب والحبشة طريق آخر للاتصال هو أن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشاً ، وكان العرب ميالين إلى الزواج بالحبشيات والسود عامة ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ١٨٠ ومجمع أمثال الميدانى ٢ / ٦٦

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٤٤ — ٣٦١

فقد روى الأصمعي أن رجلا قيل له : أي الرجال أخف أرواحاً ؟ قال الذين أعرقت فيهم السودان ، وقال على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلىَّ مهرها ، وكان أبو حازم المدنى ينشد :

ومن يك معجباً ببنات كسرى　　فإنى معجب ببنـات حام[١]

وكان اليمنيون يؤثرون فى الزواج الحبشيات وبنات الحبشيات[٢] .

ولم يك هذا ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيراً من العرب فى الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنترة زبيبة وهى أمة حبشية[٣] وأم خفاف بن عمير أمة سوداء اسمها ندبة[٤] وإليها نسب ، وأم السليك بن عمير أو عمرو أمة سوداء اسمها السُّلَكة وإليها نسب[٥] ، وكان سحيم عبد بنى الحسحاس عبداً أسودنوبياً[٦] .

وكانت بركة أم أيمن مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبى صلى الله عليه وسلم من زيد بن حارثة فولدت أسامة[٧] .

وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن (أيضاً) وهى حبشية كانت خادم أم حبيبة وقد ترجم لها ابن حجر[٨] .

ويذكر صاحب المحبَّر عدة من الحبشيات الزوجات والأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبدمناف وولدت نضلةبن هاشم بن عبد مناف ونفيل بن عبد العزى ابن رباح وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حبَّة كانت لجابر بن حبيب وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب بقوله : « يابن السوداء » ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم

---

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٠

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥

(٣) الأغانى ٧ / ١٤١ والمحبر ٣٠٦

(٤) الأغاني ١٦ / ١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢

(٥) الأغانى ١٨ / ١٣٣ والشعر والشعراء ١٣٤

(٦) الأغانى ٢٠ / ٢

(٧) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨ / ٣١٢

(٨) الإصابة ٨ / ٢٧

عسى أن يكونوا خيراً منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأم معمر بن عثمان التيمى ، وأم المتلمس الضبى ، وأم قرظة بن عبد عمرو بن نوفل وهو أبو فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبى سفيان ، وأم عثمان بن الحويرث إلخ[١]

٤ — الحبشى قد اشتهر بهذا الضرب من الغزل الذى ينتهى به إلى المجون ، وهو إذا ماانفعل عبر عن انفعاله فى غير تحرج ، وقد عرف العرب فيهم هذا الطبع ، قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عبيد الحبشة : « إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »[٢] وأراد عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أن يهدى الشاعر الحبشى سُحيما — وقد اشتراه — إلى عثمان بن عفان فكتب إليه : « أنا قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً » فكتب إليه : « لا حاجة لنا فيه ، وإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم »[٣] ، وفى رواية أخرى أنه قال : « إن الشاعر لا حريم له[٤] » .

٥ — فى بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملكىء ، وهو شعر يصف القديس أو الشهيد من رأسه حتى أظفار أصابع رجليه ، لا يتحرج من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاء فى التوراة[٥] .

٦ — إذا تقصينا شعراء الغزل الفاحش الذين مهدوا طريقه لشعراء الإسلام وجدناهم إما أحباشاً وإما عرباً متأثرين بالأحباش .

فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن من كندة « وكانت متجه الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان ، غزاها إفيلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة فى القرن السادس الميلادى »[٦] .

والأعشى كان كثير الشخوص إلى الجنوب ، يزور كل سنة بنى عبد المدان فيمدحهم ويقيم عندهم ، ويسمع الغناء[٧] يقول فى ذلك :

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها

---

(١) المحبر ٣٠٦ — ٣٠٩
(٢) الأغانى ١ / ٦٥
(٣) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغانى ٢٠ / ٣
(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١
(٥) بين الحبشة والعرب ١٢٥
(٦) بين الحبشة والعرب ١٢٣
(٧) الأغانى ١ / ٦٥

نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً همُ خير أربابها
وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها
وبربطنا دائم معمل فأى الثلاثة أزرى بها ؟

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومى[١] .

وفى شعره ما يدل على أنه زار الحبشة مثل قوله :

وطوفت للمال آفاقه عمان وحمص وأريشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبيط وأرض العجم[٢]

وكان سحيم عبد بنى الحسحاس أسود نوبياً[٣] حبشياً قبيحاً[٤] ، اشتراه عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، فلما رفض عثمان بن عفان أن يقبله ، ردّه ، فاشتراه أحد بنى الحسحاس[٥] .

فإذا ما خطونا إلى العصر الإسلامى ، وجدنا عمر بن أبى ربيعة يتزعم هذا اللون من الغزل ، ولم يكن متأثراً بهؤلاء الذين مهدوا له الطريق فحسب ، بل كانت له صلة بالحبشة واليمن ، فقد كان لعبد الله بن ربيعة ، عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، حتى روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى حنين : هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم ؟ وكان عبد الله عاملا للنبى صلى الله عليه وسلم على الجَنَد ومخاليفها ، ولم يزل عليها حتى قتل عمر ابن الخطاب ، وقيل إن عثمان استعمله عليها أيضاً[٦] ، وكانت أم عمر بن أبى ربيعة

---

(١) الأغانى ٦ / ٦٩ ومعجم البلدان ٤ / ١٧٩
(٢) ديوان الأعشى .
(٣) الأغاني ٢٠ / ٢
(٤) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغانى ٢٠ / ٣
(٥) الأغانى ٢٠ / ٣
(٦) الأغانى ١ / ٦٥ الجند : ولاية إسلامية من ولايات اليمن الثلاث : الجند وصنعاء وحضر موت . المخاليف : ج مخلاف وهو الكورة والرستاق (القرى والأصقاع) .

أم ولد يقال لها (مَجْد) سبيت من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل ، يقال غزل يمانٍ ودل حجازى .

وقال عمر بن شبة : هى أم ولد ، سوداء من حبش يقال لهم فَرَسان ، وقيل إن هذه أم أخيه الحارث لا أمه [1] .

وكانت جدته لأبيه أسماء بنت مُخَرِّبة عطارة ، يأتيها العطر من اليمن ، وكان ابنها عبد الله تاجراً موسراً يتجر إلى اليمن ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة ، فولدت له أبا جهل والحارث ، وكانت تبيع العطر بالمدينة [2] .

ثم وجدنا نُصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وكانت أمه سوداء حملت به من سيدها ، وقيل كان أبوه وأمه نوبيين سبيين لخزاعة ، ثم اشترت امرأة من خزاعة سلامة أم نصيب وهى حامل به ، وأعتقت ما فى بطنها [3] .

* * *

أجدنى بعد هذا فى حل من أن أذهب مطمئناً إلى أن الغزل الفاحش نَبْتٌ أجنبي نقل من الحبشة إلى اليمن ، فساعدت حضارة اليمن على نمائه ، وتعهّده بعض الشعراء المتأثرين باليمن وبالأحباش ، فغلظت سوقه وبسقت فروعه ، وكانت ثمراته هذه القصائد العابثة التى أبدع صوغها امرؤ القيس والأعشى وسحيم من قبل ، ثم عمر بن أبى ربيعة من بعد .

خصـــائصه

١ — جاهر أبطاله بما لا يصح إعلانه من صلة بين الرجل والمرأة ، وزينوه للناس ، ودعوهم إلى الاقتداء بهم ، فامرؤ القيس يصف بعض لذاته ، ويحبب إلى غيره الاستمتاع بها ، ويخص النساء الحسان بالذكر :

ليالىَ يدعونى الهوى فأجيبه ... وأعْيُنُ من أهوى إلىَّ رَوَانِ
تمتعْ من الدنيا فإنك فانٍ ... من النَّشوات والنِّساء الحسانِ

(١) الأغانى ١ / ٦٦

(٢) الأغاني ١ / ٦٤

(٣) الأغانى ١ / ٣٢٤

من البيِض كالآرام،والأُدْمِ ، كالدُّمى   حَوَاصِنُها والُمبرِقاتُ رَوَانِ (١)

ولقد يتباهى بصبواته أمام من يريد إغواءها ليغريها ، فلا يتحرز ، وإنما يجهر بما لا يصح الجهر به ، كقوله :

فمثلكِ حُبلى قد طرقتُ ومرضعٍ   فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحْوِل
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بِشِقٍ وتحتى شِقُّها لم يُحَوَّل (٢)

وقوله :

ومثِلك بيضاءِ العوارضِ طَفْلَةٍ   لعوبٍ تُنَسِّينى إذا قمت سِرْبالى
لطيفة طيِّ الكَشْح غيرِ مُفَاضةٍ   إذا انْفتَلَتْ مُرتجَّةً غيرَ مِتْفال
سموت إليها بعد ما نام أهلها   سُمُوَّ حَبَاب الماء حالاً على حال
فقالت سباكَ الله إنك فاضحى   ألستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالى
فقلت يمينُ الله أبرح قاعدا   ولو قَطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حِلْفة فاجر   لناموا فما إنْ مِنْ حديث ولا صال
فلما تنازعنا الحديث وأَسْمَحتْ   هَصَرْتُ بغصن ذى شماريخَ ميَّال
وصرنا إلى الُحسْنَى ورقَّ كلامنا   ورضْتُ فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها   عليه القَتَامُ سيِّءَ الظن والبال (٣)

وسحيم عبد بنى الحسحاس شبب بعميرة بنت سيده أبى سعيد وأفحش :

وبتنا وسادانا إلى عَلَجانَةٍ   وحِقْفٍ تهاداه الرياحُ تهاديا
وهبت شمالاً آخرَ الليل قَرَّةً   ولا ثوبَ إلا بُرْدها وردائيا
تُوَسِّدُنى كفا وتَثْنِى بِمِعْصَمٍ   علىَّ وتَحْوِى رجلَها مِنْ ورائيا

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٨٨ الأدم : السمر . حواصن : ج حاصن وهى المفيفة أو المتزوجة أو الحبلى . المبرقات المتزينات بحلى يبرق . الآرام : الظباء . روان : ناظرات .

(٢) ديوان امرىء القيس ١٢٧ ذى تمائم محول : طفل صغير عمره حول .

(٣) الديوان ١٤٠ مرتجة مهتزة . متفال : كريهة الرائحة . صال : مستدفىء . القتام : غبار الخزى .

فمـا زال بُرْدى طيِّباً من ردائها　　إلى الحول حتى أنهجَ البُرْدُ باليا
وأشهد عند الله أن قد رأيتها　　وعشرين منها إصبعا من ورائيا(١)

وكان تشبيبه وغرامه ببنت مولاه سبب قتله ، فلما غدوا به ليقتلوه رأته امرأة كانت بينها وبينه مودة ثم فسدت ، فضحكت به شماتة ، فنظر إليها وقال :

فإن تضحكى منى فيـارُبَّ ليـلةٍ　　تركتك فيهـا كالـقباء المفرَّج

ولمـا قدم ليقتل قال :

شدوا وِثاق العبد لا يُفْـلِتْـكُمُ　　إن الحيـاة من الممات قريب
فلقد تحَـدَّر من جَبينِ فتاتـكم　　عَرَقٌ على مَـتْنِ الفراش وطيب(٢)

وافتخر المرار بن منقذ بأن له فى هذا الضرب جولات :

وتعـلّـلْتُ وبالى ناعـمٌ　　بغزال أحـور العينين غِرّ(٣)

وافتخر ثعلبة بن صُعَيْر المازنى بأنه طالمـا قضى ليالى فى متعة :

ولرُبَّ واضحـةِ الجبين غريرة　　مثـلِ المهـاة تَرُوقُ عـين الناظر
قد بتُّ ألـعبها وأقْـصُرُ همَّـها　　حتى بدا وَضحُ الصباح الجاشر(٤)

وكذلك كان يفعل الأعشى ، فهو يثير الغيرة فى نفس خولة بذكر صبواته مع غيرها حتى لا تضن عليه وحتى لا تظن أنه غير مجرب :

يا خَـوْل ما يدريكِ رُبَّـت حُرَّةٍ　　خَـوْدٍ كريمةِ حَيِّها ونسائها
قد بتُّ مالـكَـها وشـارب رَيَّةٍ　　قبل الصباح كريمـةٍ بِسِبائها(٥)

---

(١) ديوان سحيم ١٩ وطبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأغانى ٢٠ / ٥ وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ٤٣ علجانة : شجرة معروفة تنبت فى الرمال . الحقف : الكثيب من الرمل . تهاداه الرياح : تنقله من موضع إلى موضع . قرة : باردة . أنهج : بلى .

(٢) ديوان سحيم ٦٠ والأغانى ٢٠ / ٥ وأخبار النساء ٤٣ وطبقات الشعراء لابن سلام ٧١

(٣) المفضليات ١/٨١ تعللت : تمتعت مرة بعد مرة .

(٤) المفضليات ١ / ١٢٩ الجاشر : الدال على إقبال الصباح .

(٥) المفضليات ٢ / ٣٤ خود : حسنة الخلق ناعمة . الرية : المراد بها الخمر . السباء : شراء الخمر ، أى أنه اشتراها ولم يشرب مع قوم اشتروها دونه .

وطرفة بن العبد يعدد من لذاته التى تحبب إليه الحياة أنه يقصر اليوم الغائم المطير بامرأة ناعمة شابة فى خيمته العالية :

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدجنُ معجِبٌ ببَهْكَنَةٍ تحت الطِّراف المعَمَّد
كأن البُرِينَ والدماليج عُلِّقَتْ على عُشَرٍ أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّد(١)

وكان هؤلاء المجان يجتمعون للهو والعبث ، وتربطهم آصرة واحدة هى الخروج على العرف المألوف ، قال الأخنس بن شهاب التغلبى :

وقد عشتُ دهراً والغُوَاةُ صحابتى أولئك خُلْصَانى الذين أصاحب
قرينةَ من أسْفى وقَلِّد حَبْلَه وحاذَرَ جرَّاه الصديق الأقارب(٢)

٢ — ويفخرون بأنهم تجاوزوا إلى المرأة حراسها ، وتغفلوا قومها ونالوا منها أربا . قال امرؤ القيس إنه تجاوز إلى محبوبته المحمية معشراً حراصاً على قتله لو أنهم أمسكوه ، وأنه تسلل إليها فى جنح الظلام وقد نضت ثيابها إلا قميصاً ، فعجبت من جراءته وخرج بها ، واستمتع ، ثم وصف جمالها :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرام خباؤُها تمَتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَل
تجاوزت أحْراساً إليها ومعشراً على حِراصاً لو يُسِرُّون مقتلى
فجئت وقد نضَّتْ لنوم ثيابها لدى الستر إلا لِبسةَ المتفضِّل
فقالت يمين الله مالك حيلةٌ وما إن أرى عنك الغَواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّل(٣)

. . . .

(١) ديوان طرفه ٢٩ البرين : الخلاخيل . الدماليج : ج . دملوج : مايلبس فى العضد . العشر : شجرأملس لين العود . الخروع : كل نبت ناعم : لم يخضد : لم يثن ليكسر . شبه ساقيها وعضديها فى لينهما بالعشر والخروع .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢ / ١٢٤ — بقيت زماناً طويلا لا يطيب عيشى إلا مع الندامى الخلعاء فعشت قرين السفهاء الذين أطلقوا لأنفسهم العنان وتبرأ منهم الأقارب والأصدقاء هروباً من جناياتهم .

(٣) ديوان امرىء القيس ١٢٨ بيضة خدر : غادة مخدرة :لبسة المتفضل : مايلبس عند النوم . مرط : إزار خز معلم . مرحل : فيه صور الرحال . ويروى مرجل فيه صور الرجال .

ويقول :

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حَبَاب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحى ... ألست ترى السُّمَّار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قَطَعوا رأسى لديك وأوصالى
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القَتَامُ سيئ الظن والبال(١)

ويقول الأعشى إنه استمتع بشابة مطيبة ، تسلل إليها فى الظلام وقد غفلت عين زوجها ، فصار سيدها وسيده :

ومثلِك معجبةٍ بالشبا ... ب صَاكَ العبيرُ بأجسادها
تسديتها عادنى ظلمة ... وغفلةُ عين وإيقادِها
فبتُّ الخليفةَ من زوجها ... وسَيِّدَ نُعْمٍ ومستادِها(٢)

ويفصل هذا التسلل فيقول إنه قد صار يراقب زوجة الغيور الحذر الذى لاتغفل عينه . وصار يرعاها ، فلما أقبل الليل انسل إليها منتهزاً غفلة من الزوج ، فتيمها ، وسخر من هذا الزوج الذى راقب نهاراً وغفل ليلا :

وَمَصاب غادية كأن تجارها ... نَشَرَتْ عليه بُرودها ورحالها
قد بِتُّ رائده ، وشاةِ محاذرٍ ... حذراً يُقِلُّ بعينه إغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها ... حتى دنوت إذ الظلام دنالها
فرميت غفلة عينه عن شاتِه ... فأصبت حبة قلبها وطِحالها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلا ... نَخَلَتْ لصاحب لذة وخلالها(٣)

٣ — ويلجئون فى تصوير استمتاعهم الجسدى إلى لون من الحوار أو الأسلوب القصصى يكسب شعرهم طرافة وجمالا ، قال امرؤ القيس إنه أحب حسناء ذات طفل ، وهى حيرى بين أن تستجيب لامرئ القيس وتدع طفلها يبكى، أولاتستجيب

(١) ديوان امرىء القيس ١٤٠

(٢) ديوان الأعشى ٥١ . صاك : لصق. تسديتها : تناولتها . مستادها : سيدها .

(٣) ديوان الأعشى ٢٣

فتغضبه ، وقد بعث إليها فى هَـدْءٍ من الليل حتى لايحس بها أحد ، فجاءت متمهلة الخطا متهيبة السرى ، ولم تجىء وحدها بل كان معها أربع من رفيقاتها الـكواعب ، وقد جردها من ثيابها ، وأقسمت له أنهـا ما خاطرت إلا لمرضاته ، ولم يكن همها أن تحدثه ويحدثها ، فهذا الحديث مأثور بينهما فليس لديهما جديد ، وإنما كان همها شيئاً آخر :

ومنهن سَوْفُ الخَوْد قد بلَّها الندى ... تراقب منظوم التمائم مُرْضَـما
يَعِـزُّ عليهـا ريبتى ويسوءها ... بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا
بعثت إليهـا والنجوم ضواجع ... حِذاراً عليها أن تَهُبَّ فتُسْمَعا
فجاءت تطوفَ المشى هيَّابةَ السُّرَى ... يدافع ركناها كواعب أربعـا
تقـول وقد جرَّدتهـا من ثيابها ... كما رُعتَ مكحول المدامع أتلعا
وَجَـدِّك لو شىء أتانا رسـوله ... سواك ولـكن لم نجـد لك مدفعا
تصـد عن المـأثور بينى وبينها ... وتدنى علىَّ السابرىَّ المضلعا
إذا أخـذتْها هِزَّةُ الرَّوْع أمسكت ... بمَنْكب مِقدام على الهول أروعا (١)

وقال المنخل إنه دخل عليها فى يوم ماطر ، ودفعها ، فمشت كما تمشى القطاة إلى الغدير ، وعطفها فانعطفت ، وأحست حرارة جسمه فسألته ، فأجاب بأنها من لهب الحب :

ولقد دخلت على الفتـا ... ة الخدر فى اليوم المطير
الـكاعب الحسـناء تر ... فـل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـا فتـدافعت ... مَشْىَ القطاة إلى الغـدير
وعطفتهـا فتعطَّـفت ... كتعطُّف الظبى البهـير
فـدنت وقالت يامنخـ ... ـل ما بجسمك من حَرور ؟
ما شـف جسمى غير حبـ ... ـك فاهدئى عنى وسيرى (٢)

---

(١) ديوان امرئ القيس ١١٢.
(٢) الشعر والشعراء ١٥٠ الأصمعيات ١ / ٣٠

٤ — ويحرصون على ألا يقفو أحد آثارهم ، فالمحبوبة تمشى معفية بذيل جلبابها على آثار أقدامها .

أو يعنى الشاعر بذيله ، قال امرؤ القيس :

فلما دنوت تسديتها فثوباً نسيتُ وثوباً أجر
ولم يرنا كالئٌ كاشح ولم يَفْشُ منا لدى البيت سر (١)

وقال :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثَرَيْنا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّل (٢)

وقال سحيم :

ومثلِكِ قد أبرزت من خدر أمها إلى مجلس تجرُّ بُرْداً مسَهَّما
فنفَّضتُ ثوبيها و نَظَّرتَ حولها ولم أخش هذا الليل أن يتصرما
أعفى بآثار الثياب مبيتها وألقط رَضّاً من وُقُوفٍ تحطما (٣)

٥ — وفى شعرهم ما يدل على أنهم استعانوا برسل يسفرون بينهم وبين عشيقاتهم ، ولعل نساء كن يتولين هذا ، بدليل قول السيدة عائشة « ليست الواصلة بالتى تعرفون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً فى شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقياده (٤) » . وهذا طبيعى من نسوة كن بغايا فى شبابهن ، لأنهن إذا ما تغضنت وجوههن ويبست أعوادهن وانصرف الرجال عنهن ، غلبتهن طبيعتهن فسفرن بين الرجال والنساء ، وربما كان من دوافعهن إلى ذلك أيضاً ، أنهن يجدن فى شيوع الفاحشة عزاء لهن ، وثأراً من المجتمع الذى كان يعيبهن ، ويجدن أيضاً مرتزقا .

قال امرؤ القيس :

بعثت إليها والنجوم ضواجع حِذاراً عليها أن تهب فتسمعا (٥)

---

(١) الديوان ٧٩ (٢) الديوان ١٢٩

(٣) ديوان سحيم ٣٥ والأغاني ٢٠ / ٥ رضا : فتاتاً من مسكها كان قد تكسر من ملاعبتها .

(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٠٢ (٥) ديوان امرىء القيس ١١٣

وقال الأعشى :

فعشنا زماناً وما بيننا رسول يحدث أخبارها
وأصبحت ما أستطيع الكلام سوى أن أراجع مِمْسارها[1]

وقال :

لِميثاءَ إذ كانت وأهلك جيرة رِئَاءٌ وإذ يفضى إليك رسولها[2]

٦ — وكثيراً ما كانت المشيقة توافى عاشقها ومعها صواحبها ، قال امرؤ القيس :

فجاءت قطوف المشى هيَّابة السُّرى يدافع ركناها كواعب أربعا[3]

وقال سحيم :

تجمعن من شتى ثلاثاً وأربعا وواحدة حتى كملن ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يَعُدْننى بقية ما أبقين نصلا يمانيا
يَعُدْن مريضاهن قد هِجْنَ داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا[4]

٧ — وإذ كان هذا الغزل منبعثاً عن شهوة جسدية ، فلسنا نجد فيه تحليلا للنفس وخوالجها ، وتصويراً لحرقة الشوق ولذع الحرمان ، وتعبيراً عن تحمل الآلام واستطابتها ، كما وجدنا فى غزل العذريين .

على أنه لا يخلو من لمحات عاجلة خاطفة تتحدث عن ألم الفراق أو الهجر ، ولكنه حديث سطحى لا يتغلغل إلى أعماق نفس الشاعر ، ولا يعدو أن يكون بكاء كما قال امرؤ القيس :

كأنى غداة البين يوم تحمَّلوا لدى سَمُرات الحى ناقف حنظل[5]

وقال :

أمن ذكر نبهانية حلَّ أهلها بِجِزْع الملا عيناك تبتدران

---

(١) ديوان الأعشى ٢١٤ (٢) الديوان ١٢٢
(٣) ديوان امرىء القيس ١١٣
(٤) ديوان سحيم ٢٣ والأغانى ٢٠ / ٥
(٥) ديوان امرىء القيس ١٢٥ . ناقف حنظل : أشقه بأسنانى فتدمع عيناى من مرارته

فدمعهما سَحٌّ وسَكْبٌ ودِيمةٌ ورشٌّ وتَوْكاف وتنهملان
كأنهما مَزادتا متعجل فَرِيَّانِ لم تُسْلَقا بدِهان [١]

وهذه المبالغة التى يصور بها دموعه ، وهذه الألفاظ المترادفة التى يصفها بها ، دليل على أن شعوره مصطنع متكلف . وما الذى يلجئه إلى الحزن أو البكاء الحار ؟

ليست عواطفه مشبوبة نحو هذه المرأة المرتحلة أو الهاجرة ، فليست هى الأولى أو الأخيرة التى أحبها لجسده ، فقد استمتع بغيرها من قبل ، قال امرؤ القيس :

ومثلك بيضاء العوارض طَفْلة لعوب تنسينى إذا قمت سربالى
سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَباب الماء حالا على حال [٢]

وقال الأعشى :

ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبيرُ بأجسادها
تسديتها عادنى ظلمةٌ وغَفْلةُ عين وإيقادها
فبت الخليفة من زوجها وسَيِّدَ نُعْمٍ ومستادِها [٣]

وهو قدير على أن يحب غيرها إن هجرت ، قال امرؤ القيس :

أأسماء أمسى ودها قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا [٤]

٨ — وهم لا يحفلون فى غزلهم بالجاذبية الروحية التى يحسونها فى المرأة بقدر ما يحفلون بأوصافها الجسدية ، وذوقهم فى الجمال قائم على أن هذا الجسم للاستمتاع ، كما سبق فى فصل آخر — جمال المرأة — وبحسبى هنا أن أقول إنهم برعوا فى الوصف الجسدى براعة تناولت كل عضو من أعضاء المرأة ، كما نجد فى شعر امرىء القيس [٥] ، وفى شعر المنخل [٦] ، وفى شعر الأعشى [٧] ، وفى شعر طرفة [٨] .

---

(١) الديوان ١٨٨ — سح وسكب وديمة : انهمال فى غزارة وكذلك الرش والتوكاف . مزادتان : قربتان كبيرتان . فريان : مخروقتان . لم تسلقا : لم تلصقا .

(٢) الديوان ١٤٠

(٣) ديوان الأعشى ٥١

(٤) ديوان امرىء القيس ٦٩

(٥) ديوان امرىء القيس ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٩ — ١٤٠

(٦) الأصمعيات ١ / ٣٠

(٧) ديوان الأعشى ٤٢ — ٤٣

(٨) ديوان طرفه ٥٤

٩ — والمتصفح لغزل هؤلاء الشعراء ، لا بد أن يسترعى انتباهه ترديدهم لأسماء حبيبات عدة ، ولست أريد أن الشاعر سواء أكان من العذريين أم من الحسيين يذكر دائماً الاسم ويريد به علماً خاصاً على امرأة معلومة ، فإن الشاعر كثيراً ما يرمز بالعلم إلى المحبوبة دون أن يكون اسماً لها ، وإن كان الغالب فى غزل العذريين أن يصدقوا فى الدلالة بالاسم كما يصدقون فى قصر الحب على واحدة ، فعنترة يذكر عبلة ولا يذكر سواها ، وعروة يذكر عفراء ولا يتعداها .

وقد ردد هؤلاء الشعراء عديداً من الأسماء ، لأنهم متنقلون فى حبهم أو فى لهوهم فهم كالنحلة ما تلبث أن تمتص من الزهرة رحيقها حتى تطير عنها إلى غيرها ، وتعديد الأسماء دليل على تنقل الحب ، حتى وإن كانت الصناعة هى التى ألجأت إلى هذا التعديد ، وحسبى هنا أن أمثل من شعر امرئ القيس والأعشى .

أما امرؤ القيس فقد ردد أسماء كثيرة منها :

١ — هر

وهرٌّ تصيد قلوب الرجال   وأفلَتَ منها ابن عمرٍو حُجر (١)

٢ — هند

تذكرت هنداً وأترابها   فأصبحتُ أزمعت منها صدودا (٢)

٣ — سليمى :

سما بك شوق بعد ما كان أقصرا
وحَلَّتْ سليمى بَطْنَ قَوٍّ فعَرْعَرا (٣)

٤ — فرتنا :

أغادى الصَّبوح عند هرٍ وَفَرْتَنا   وليداً وهل أفنى شبابى غير هِر ؟ (٤)

٥ — ماوية :

أماوىَّ هل لى عندكم من مُعَرَّس   أم الصرمَ تختارين بالوصل نيأس ؟ (٥)

---

(١) ديوان امرىء القيس ٧٨
(٢) الديوان ٦٤
(٣) الديوان ٦٦
(٤) الديوان ٨٣
(٥) الديوان ١٠٠

٦ — سلمى :

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تَنُوصُ　　فَتَقْصُرعنها خَطْوةً وتَبُوص[١]

٧ — أم الحويرث وأم الرباب :

كدأبك من أم الحوَيْرِث قبلها　　وجارتها أم الرَّباب بمأسَل[٢]

٨ — فاطمة :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل　　وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى[٣]

وأما الأعشى فقد كرر أسماء عدة منها :

١ — هريرة :

ودع هريرة إن الركب مرتحل　　وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟[٤]

٢ — ليلى :

أزْمَعْتُ من آل ليلى ابتكارا　　وشطَّت على ذى هوى أن تزارا[٥]

٣ — سمية :

رحَلَت سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجمالها　　غضبى عليك فما تقول بدالها[٦]

٤ — جُبيرة :

لاتَ هَنَّا ذِكرَي جُبَيرَةَ أو مَنْ　　جاء منها بطائف الأهوال[٧]

٥ — سلمى :

أوَصَلْت صرم الحبل من　　سلمى لطول جَنابها ؟[٨]

٦ — وكرر فى عدة مواضع هذه الإشارة (تَيَّا) :

عرفت اليوم من تَيَّا مقاما　　بجَوٍّ أو عرفت لها خياما[٩]

---

(١) الديوان ١٠٤ تنوص : تتأخر . تبوص : تعجل .

(٢) الديوان ١٢٥　　(٣) الديوان ١٢٨

(٤) ديوان الأعشى ٤١　　(٥) الديوان ٣٤

(٦) الديوان ٢٢　　(٧) الديوان ٣

(٨) الديوان ١٧٥　　(٩) الديوان ١٤٣

ألا قل لتيــاك ما بالُها　　ألِلبيــن تُحْدَجُ أجمالُها[١]

تذكرتَيا وأنَّى بهـــا　　وقد أخْـلَفت بعض ميعادها[٢]

ألا قل لتيا قبـــل مِرَّتِها اسلمى　　تحيـــةَ مشتاق إليها متيم[٣]

أتشفيك تيا أم تُرِكْـتَ بدائـكا　　وكانت قَـتُولاً للرجال كذالـكا[٤]

ولقد تـكون الإشارة إليها بهذه الـكلمة فيها خشونة وقلة مبالاة ، ولـكن هكذا كان شعراء المتعة الجسدية لا يبالون .

أثر الجاهلى فيما بعده :

وبعد فإن عمر بن أبى ربيعة قد كان تلميذاً لسحيم وامرئ القيس والأعشى ، وقد فصل ما أجملوا ، وضخم ما لم يضخموا ، ولـكنه جرى على عرقهم فى كثير من غزله .

فهو يواعد نسوة من قريش على أن يلتقى بهن بالعقيق ليتحدث معهن ويتحدثن معه ، كما كان يفعل امرؤ القيس وسحيم ، ثم يصور هذا فى شعره[٥] ، وهو يوسط رسولا كما وسط امرؤ القيس والأعشى ، ولـكنه يصف التى بعثها بأنها قوادة ذات حيلة ودهاء وسياسة :

فأتتهـــا طَبَّـةٌ عالمـة　　تخـلطُ الجِـــد مراراً باللعب

تغلظ القول إذا لانت لهـــا　　وتُراخى عند سَوْرات الغضب

لم تزل تصرفها عن رأيهـــا　　وتأنَّاها برفـــق وأدب[٦]

ويكرر ذلك فى مواضع أخرى[٧] .

وهو يدب إلى محبوبته كما دب امرؤ القيس والأعشى :

فلما فقدت الصوتَ منهم وأطفئت　　مصـابيح شُبت بالعشـاء وأنْوُر

(١) الديوان ١١٦
(٢) الديوان ٥٠
(٣) الديوان ٩١
(٤) الديوان ٦٤
(٥) الأغانى ١ / ١٥١
(٦) الأغانى ١/١٣٥ تأناها : تتمهل عليها .
(٧) الأغانى ١ / ٩٢ ، ١ / ١٤٠

وغاب قُمَيْرٌ كنت أرجو غُيوبه ... وروَّح رُعيان ونوَّم سمَّر
ونفَّضت عنى النوم أقبلت مشية ال ... حُباب وشخصى خشيةَ القومِ أزْور[١]

ويخرج بمحبوبته إلى الخلاء فتعفى هى وصواحبها على آثار الأقدام بذيولهن كما سبق فى شعر امرئ القيس وسحيم :

غَفَلْنَ عن الليل حتى بدت ... تباشير من واضح أسفرا
فقمن يُعَفِّين آثارنا ... بأكسية الخز أن تُقْفَرا[٢]

وهو يجهر بفحشه كما جهروا :

وناهدةِ الثديين قلت لها اتَّكى ... على الرمل من جَبَّانة لم تُوَسَّد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنتُ قد كُلِّفت ما لم أُعَوَّد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد[٣]

وهو يسلك سبيل الحوار والقصص الذى سلكوا[٤] .

وكذلك فعل جران العود النميرى ، إذ اقتفى أثر امرئ القيس وسحيم والأعشى ، ويمثل مذهبه هذه الأبيات التى أسوقها من فائيته الطويلة ، وفيها يذكر ما دار بينه وبين حبيبته من تواعد ولقاء وتعفية على الأثر ، ويذكر أن صاحباتها كن معها :

فموعدكَ الشط الذى بين أهلنا ... وأهلك حتى تسمعَ الديك يهتف
وتكفيكَ آثاراً لنا حيث نلتقى ... ذيول نعَفِّيها بهن ومُطْرَف
ومَسْحَبُ رَيْطٍ فوق ذاك ويُمْنَةٍ ... يسوق الحصا منها حواش ورَفْرَفُ
فنصبح لم يُشْعَر بنا غير أنهم ... على كل ظن يحلفون ونحلف
فلما علانا الليل أقبلْتُ خفيةً ... لموعدها أعلو الإكام وأظْلِف
فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا ... قصار الخطا منهن راب ومُزْحِف

---

(١) الأغانى ١ / ١٤٤ .
(٢) الأغانى ١ / ١٥١
(٣) الأغانى ١ /١٩٢ جبانة : صحراء .
(٤) الأغانى ١ / ٨٥ ، ٧٩/١

فلما التقينا قلن أمْسَى مُسَلَّطاً   فلا يُسْرِفَنَّ الزائرُ المتلطف
وقلن تمتع ليلة اليأس هذه   فإنك مرجوم غدا أو مسيَّف
وأحرزن منى كل حُجزةِ مئزرٍ   لهن ، وطاح النَّوْفَلِيُّ المزخرف
فبتنا قعوداً والقلوب كأنها   قطا شُرَّعُ الأشراك مما تخوَّف
علينا الندى طوراً وطوراً يَرُشُّنا   رذاذ سرى من آخر الليل أوطف[1]

بين المذهبين فى الغزل :

يختلف مذهب العذريين ومذهب الحسيين فى النظرة إلى المرأة ، فالأولون ينظرون إليها على أنها محبوبة ملهمة تسمو بهم إلى سماء عالية من الروحانية والصفاء والمتع المعنوية ، والآخرون ينظرون إليها على أنها جسد جميل تلذ المتعة به . والأولون لا يصرحون باشتهاء إلا شوقا إلى قبلة أو لمسة ، والآخرون يجاهرون بالاشتهاء ويفتنون فى ضروب من الحيلة والوسيلة ليصلوا إليه .

الأولون يحللون نفسياتهم تحليلا يصور آلامهم وتضحياتهم وقلما يحفلون بوصف الجسد ، والآخرون قلما يكشفون عن حرق وأشواق ولكنهم يحفلون بوصف الجسد .

ثم يختلف المذهبان اختلافا جوهريا فى موضوع الحب نفسه فالمذهب العذرى قائم على حب امرأة واحدة قلما تتبدل ، والمذهب المادى قائم على حب النوع ممثلا فى كل امرأة يستحليها الشاعر . فهو يحب الجنس لا الشخص، وهو لذلك لا يُعَنِّى نفسه بتوحيد الحبيبة والوفاء لها واحتمال الآلام فى حبها .

(١) ديوان جران العود النميرى ١٧ — ٢٤ مطرف : رداء من خز . أظلف : أمشى على الغليظ من الأرض لئلا يظهر أثري . راب : منقطع النفس . مزحف : عاجز عن المشى لوعورة الأرض . النوفلى : ما يدار على الرأس تحت الخمار أو هو ضرب من الحلى أوهو المشط. شرع الأشراك : نشبت فيها الأشراك . أوطف : سحاب متدل له أطراف .

— ٣ —

الغزل التمهيدي

حقيقته :

وهذا ضرب ثالث من الغزل ، فيه من العذرى ، وفيه من الجسدى ، وفيه لون ثالث لا هو عذرى ولا هو جسدى ، وإنما هو فن من القول مصطنع ، وكان لا يقال إلا فى مطلع القصائد .

١ — أما العذرى فيمثله غزل عنترة فى مطالع بعض قصائده مثل قوله :

أشاقك من عبل الخيال المبّهج　　　فقلبك منه لاعج يتوهج (١)

ثم افتخر . ومثل قوله :

طلل لعبلة مستهل المعهد　　　بين العتيق وبين بُرْقة نَهْمَد (٢)

ثم افتخر أيضاً .

٢ — وأما الجسدى — وإن كان هنا أقل فحشاً — فيمثله غزل امرئ القيس فى أول المعلقة (٣) .

٣ — وأما الصناعى الذى لم تبعثه عاطفة حب عذرى أو جسدى فكثير ، منه افتتاح لبيد فخره بهذين البيتين :

عفا الرسمُ أم لا بعد حول تجرّما　　　لأسماء رسم كالصحيفة أعجما

لأسماء إذْ لم تفتُتنا ديارها　　　ولم نخش من أسبابها أن تجذّما

ثم انتقل إلى غرضه بقوله :

فدع ذا وبلّغ قومنا إن لقيتَهُمْ　　　وهل يخطئنّ اللووم من كان ألوما (٤)

---

(١) ديوان عنتره ٣١　　(٢) الديوان ٦٨

(٣) الديوان ١٢٨ — ١٣١　　(٤) ديوان لبيد ٣٩

ومثل هذا الغزل العاجل يقول عمرو بن الأهتم :

أجـــدَّكَ لا تُلِمُّ ولا تزور　　وقد بانت برهنكم الخدور
كأن على الجمال نعاجَ قوٍّ　　كوانسَ حُسَّرا عنها الستور
وأبكاراً نواعم ألحقتـــنى　　بهن جُلالَةٌ أُجدٌ عسير
فلما أن تسايرنا قليلا　　أذِنَّ إلى الحديث فهن صُور (١)

ثم انتقل إلى وصية ابنه رِبْعيٍّ بمكارم الأخلاق ، ثم افتخر بغلبته الأعداء وبمآثره ومآثر أبيه .

كثرة الغزل التمهيدى ، والغرض منه

وكثيراً ما افتتحت القصائد الجاهلية بهذا اللون من الغزل ، فى كل فن من أفانين الشعر ، حتى الرثاء نفسه كما سيجىء ، ولم يك هذا الافتتاح عبثاً أو لغواً من القول ، وإنما كان عملاً فنياً مقصوداً .

١ — يريد الشاعر المحب أن يتناول غرضاً من الأغراض كالحماسة أو الفخر أو الهجاء أو المدح أو وصف الناقة أو الرحلة ، فيبدأ يشقق القول بتعبير عن عاطفته يمد به نفسه لتمثل موضوعه ، والاندماج فيه ، فيسهل عليه المقال ، وتنثال عليه الصور والفكر ، مثله فى ذلك مثل المغنِّى أو المغنية ، لا بد له قبل الغناء من جو موسيقى يثير كوامن الشاعر ، ويهيئه لأن يَطرب ويُطرب .

٢ — والشاعر الذى لا يحب يتكلف هذا الغزل التمهيدى ويصطنعه ، ليثير نفسه بأن يتقمص نفسية المحب ما استطاع ، ثم ليهيئ السامع لأن يتلقى ما يسمع بعاطفة متفتحة ، ووجدان يقظ .

وأى حديث أشهى إلى النفس وأحلى موقعاً فى الأذن من حديث الصبابة ؟ وأى افتتاح أدعى إلى الإنصات والانتباه من وصف المرأة فى جمالها الساحر ، وفى

(١) المفضليات ٢/٢٠٩ أجدك : أجدا منك. الرهن : القلوب هنا. الخدور: ما جللت به الهوادج . الجلالة : الجليلة الخلق يصف ناقته . الأجد : الموثقة. العسير: التى لم تروض . صور: جمع صوراء أى مائلات .

وصلها ، وهجرها ، ورضاها ، وصدها ؟

يقول ابن قتيبة : « إن الشاعر ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، ثم يصف الرحلة ومشقاتها ، ثم يمدح [1] » .

ويوافقه ابن رشيق فى هذا التعليل حيث يقول : « وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول ، بحسب ما فى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج لما بعده . . . [2] »

وقد علل ابن الرومى بدءه قصائد الهجاء بالغزل تعليلا لا يخرج عن هذا ، بقوله :

ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرقا يكوى القلوبا
كصاعقة أتت فى إثر غيث وضحك البيض يتبعه النحيبا [3]

ولكن هذا التعليل لا ينطبق إلا على النوع الثانى من هذا الغزل ، لأن الشاعر فيه لا يصدر عن عاطفة خاصة ، وإنما يتصنع هذا اللون من القول ليستميل إليه القلوب .

لهذا لا نجد له تأثيراً فى عواطفنا يجعلنا نشارك قائله مشاركة وجدانية كما نتأثر ونشارك فى النوع الأول ، وشتان بين غزل نابع من القلب ، وآخر صادر من العقل .

وإنما مثل هذا النوع من الغزل مثل المقدمة فى الخطبة يمهد بها الخطيب للموضوع ويهيىء الحفل لسماعه .

---

(١) الشعر والشعراء ١٤

(٢) العمدة ١ / ١٥٠

(٣) ديوان ابن الرومى ١٥

هل اقتصر الغزل التمهيدى على بعض فنون الشعر :

(ا) فى الرثاء :

لم يحبس الشعراء غزلهم التمهيدى بنوعيه على بعض الفنون دون بعض ، وقد كان الرأى الشائع فى دراسة تاريخ الأدب أن قصائد الرثاء لم تبدأ بالغزل لأنه لا يلائم العاطفة الحزينــة والقلب الملتاع . وفى ذلك يقول ابن رشيق : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء . قال ابن الـكابى : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثّ جديد الحبل من أم معبد ... بعــاقبة أم أخلفت كل موعد

وأنا أقول إنه الواجب فى الجاهلية والإسـلام إلى وقتنا هذا وما بعده ، لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ، وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته »(١)

ولـكن هذا الرأى فى حاجة إلى تمحيص ، فقــد وجدت كثيراً من المراثى مصدرة بغزل . منها :

١ — مرثية دريد بن الصمة ، فى رثاء أخيــه عبد الله ، وقد افتتحها بهذه الأبيات :

أرَثَّ جديد الحبــل من أم معبد ... بعاقبة أم أخْـلَفتْ كل موعد
وبانت ولم أحْمَـدْ إليها نوالهـــا ... ولم تُرْجَ فينا رِدَّةٌ اليوم أوغد

ثم انتقل إلى موضوعه بقوله :

أعاذلَ إن الرزء فى مثــل خالد ... ولا رزء فيما أهلك المرء عن يد
وقلت لعــارض وأصحاب عارض ... ورهط بنى السوداء والقوم شهدى
علانيــةً ظُـنُّوا بألـفَىْ مدجَّجٍ ... سَرَاتهم فى الفـارسىِّ المسرَّد
. . . .

(١) العمدة ٢ / ١٢١

تنادوا فقالوا أرْدَت الخيل فارساً ... فقلت أعبد الله ذلكم الرَّدِى ؟[1]

وأتم رثاءه لأخيه .

٢ — إحدى مراثى المهلهل لأخيه كليب ، أولها :

الدار قفر عفاها بعْد ساكنها ... بالريح بعد ارتحال الحى عافيها

وغالها الدهر إن الدهر ذو غيل ... فأصبحت بلقعاً قفراً مغانيها

دار لمهضومة الكشحين خَرْعَبَةٍ ... كالشمس حين بدا فى الضوء باديها[2]

٣ — مرثية الحارث بن عباد لابنه بجير الذى قتله المهلهل ، مطلعها :

بانت سعاد وما وفَّتك ما تعد ... فأنت فى إثرها حَرَّانُ معتمد[3]

وقد تغزل فى عشرة أبيات ، ثم انتقل إلى تهديد ووعيد .

٤ — مرثية عريقة بن مسافع العبسى لأخيه ، أولها حديث عن المرأة :

تقول سليمى ما لجسمك شاحبا ... كأنك يحميك الشرابَ طبيب

فقلت ولم أعْىَ الجواب ولم أُلِحْ ... وللدهر فى صُم السِّلام نصيب

تتابع أحداث تَخَرَّمن إخوتى ... وشيبن رأسى والخطوب تشيب

ثم انتقل إلى رثاء أخيه[4] .

٥ — مرثية من مراثى المهلهل لكليب ، أولها :

طفْلَةٌ ما ابنة المحلَّل بيضا ... ء لعوب لذيذة فى العناق

فاذهبى ما إليك غير بعيد ... لا يؤاتى العناق من فى الوثاق

ضربت نحرها إلىَّ وقالت ... يا عديا لقد وقتك الأواقى

ما أرجى العيش بعد نداما ... ى أراهم سُقُوا بكأس حلاقِ[5]

ثم تحسر على ثمانية من تغلب .

---

(١) الأصمعيات من مجموعة وليم البروس ١ / ٢٣

(٢) المرأة العربية ١ / ٢٠ وبكر وتغلب ٤٤

(٣) المرأة العربية ١ / ٢٠ وبكر وتغلب ٧٦

(٤) الأصمعيات من مجموعة وليم البروس ١ / ١٥ السلام : جمع سلمة وهى الحجارة .

(٥) الأغانى ٥ / ٥٤

٦ — مرثية النابغة الذبيانى للنعمان بن الحارث الغسانى[1] .

٧ — مرثية حسان بن ثابت لحمزة بن عبد المطلب[2] .

ولست أقصد إلى أن هذا عرف غالب بين الشعراء ، وإنما أقصد إلى أنه لم يكن من الندرة إلى الحد الذى كان مقرراً فى الأذهان ، أو إلى الحد الذى ذهب إليه ابن رشيق .

على أن مواقف الفجيعة كانت تفجر القصيد الرائى فى كثير من الأحيان غير مصدر بغزل ، وغير مصرع ، من ذلك ثلاث مراث لعمرو بن حُممه الدوسى ألقاها على قبره الِهْدم بن امرىء القيس ، وعتيك بن قيس ، وحاطب بن قيس[3] ، ومن ذلك مرثية عنترة لتماضر زوجة الملك زهير بن جذيمة العبسى ، فإنها غير مبدوءة بغزل[4] .

(ب) فى المدح :

ولكن تقدمة الغزل فى قصائد المدح كثير الشيوع ، حتى لقد يستغرق الغزل أحياناً نصف القصيدة ، فمثلا مدحة كعب بن زهير للنبى صلى الله عليه وسلم التى مطلعها « بانت سعاد[5] » عدد أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً ، استغرق الغزل ووصف النوق ثمانية وثلاثين بيتاً ، وبقى للمدح والاعتذار عشرون .

وفى مدحة المسيب بن علس للقعقاع غزل فى ستة أبيات ، ووصف للناقة فى ثمانية ، ومدح فى اثنى عشر[6] .

وفى مدحة عنترة للملك زهير بن جذيمة العبسى غزل فى ثمانية أبيات ومدح فى أربعة[7] .

وفى مدحة الأعشى لأبى الأشعث قيس غزل فى اثنين وعشرين بيتاً ، ومدح فى خمسة أبيات[8] .

---

(١) ديوان النابغة ٥٧
(٢) ديوان حسان ٨٥
(٣) الأمالى ٢ / ١٤٣
(٤) ديوان عنتره ٦٠
(٥) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨
(٦) ذيل الأمالى ١٣٠
(٧) ديوان عنترة ١٦١
(٨) ديوان الاعشى ٢٢٧

(ح) فى الفخر :

وربما كان الغزل أكثر ملاءمة فى مطالع الفخر من مطالع المدح ، لأن النفس فى الفخر منفعلة مهتاجة ، ولأن الغزل ضرب من القدرة والفتوة والسمو يساير الفضائل التى يفخر بها الشاعر .

فمثلا افتخر الشنفرى بقتله حراما قاتل أبيه ، واستفتح فخره بهذا الغزل :

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلت ... وما ودعت جيرانها إذ تولت
فقد سبقتنا أم عمرو بأمرها ... وقد كان أعناقُ المطى أظلَّت
فواندما على أميمة بعدما ... طمعتُ فهبها نعمةَ العيش زَلَّت[1]

وواصل غزله فى أحد عشر بيتاً ثم افتخر وهدد خصومه .

وكذلك فعل خفاف بن ندبة[2] ، والعباس بن مرداس[3] ، وسلامة بن جندل[4] ، وذو الإصبع العدوانى[5] ، وعنترة[6] .

ولقد يكون الغزل أطول من الفخر كما فى قصيدة قيس بن الخطيم التى مطلعها :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ... ماذا عليهم لو أنهم وقفوا ؟[7]

فإن أبيات الغزل فيها تسعة عشر ، وأبيات الفخر والتهديد تسعة ، وكما فى قصيدة عبيد بن الأبرص التى مطلعها :

ليس رسم على الدفين ببال ... فلوى ذروة فجنبى أثال[8]

فأبياتها الغزلة تسعة عشر ، وأبياتها الفاخرة ستة عشر ، وليس من المصادفة أن يكون أكثر فخر عنترة وأضرابه من الصناديد مبدوءا بغزل ، لأن هذا الفخر نزعة فنية ونفسية عند هؤلاء الأبطال ، وما من شك فى أن فخر عنترة كان موجهاً إلى عبلة ، ومراداً به التقرب إليها ، ونيل رضاها وإعجابها ، كما يتبين ذلك من دراسته .

---

(١) الأغانى ٢١ / ٩٠
(٢) الأصمعيات ١ / ١٦
(٣) الأصمعيات ١ / ٣٥
(٤) الأصمعيات ١ / ٥٠
(٥) المفضليات ١ / ١٦٤
(٦) ديوان عنترة ٤١ ، ٥٦ ، ٨٧
(٧) الاصمعيات ١ / ٤٥
(٨) ديوان عبيد القصيدة ١١

(ى) فى الهجاء :

كذلك كانت قصائد الهجاء أحيانا تصدر بالغزل ، ولعل ذلك كان لأن الهجاء كان لا يخلو من فخر ، فالهاجى يعير خصومه ويفخر بفضائل قومه من نجدة وكرم وشجاعة وسطوة الخ ، ثم هو يصدر هجاءه بغزل ليكسبه حلاوة وطلاوة فيذيع ويروى .

فمثلا هجا الأعشى علقمة فبدأ هجاءه بثلاثة عشر بيتاً غزلية(١) .

وهجا شيبان بن شهاب بقصيدة عدتها سبعون بيتاً تغزل فى سبعة وعشرين منها(٢) . وكذلك فعل فى هجاء يزيد بن مسهر إذ تغزل فى سبعة أبيات(٣) .

وهجا عبيد بن الأبرص امرأ القيس بقصيدة بدأها بخمسة أبيات غزلة ثم افتخر وهجا(٤) .

وهدد امرؤ القيس بنى أسد وهجاهم بادئا بغزل فى بيتين :

يا دار ماويّةَ بالحائل ... فالسُّهب فالخَبْتَيْن من عاقل

صُمَّ صَداها وعفا رسمها ... واستعجمت عن منطق السائل

قولا لدُودانٍ عبيد العصا ... ما غرّكم بالأسد الباسل(٥)

(هـ) ولقد يكون الغزل تصديراً لقصائد ذات موضوعات عدة ، فيها وصف للناقة وللرحلة وفيها مدح وفيها فخر وفيها حكمة ، وهو فى تصدره القصيدة المتعددة الموضوعات كتصدره القصيدة الموحدة سواء بسواء .

البدء بغير غزل :

على أن كثيراً من القصائد كانت تبدأ بغير غزل حتى من الشعراء المحبين الذين أكثروا من البدء بالغزل ، فمثلا امرؤ القيس يبدأ بالموضوع فى كثير من قصائده مثل قصيدته التى يتوعد بها بنى أسد(٦) وقصيدته التى يمدح بها المعلى من تيم بن

(١) ديوان الأعشى ١٠٤
(٢) الديوان ١١١
(٣) الديوان ٥٦
(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧
(٥) ديوان امرئ القيس ١٥١
(٦) ديوان امرىء القيس ٦٠

ثعلبة[١] ، وقصيدته التى يمدح بها بنى عوف[٢] .

والأعشى بدأ قصيدته فى مدح قيس بن معد يكرب الكندى بحكم استغرقت أحد عشر بيتاً ، ثم عرج على بعض صبواته الماضية فى عشرين بيتاً ثم مدح[٣] .

وعنترة يدأ بعض نخرياته بغير غزل[٤] .

وعبيد بن الأبرص هددا امرأ القيس وهجاه بقصيدة لا غزل فيها[٥] .

وعمرو بن الطفيل افتخر ببلائه ولم يبدأ بغزل[٦] .

الختام بالغزل والبدء به

وهناك قصائد شذت عن الطريقتين معاً ، فليست مبدوءة بالغزل فحسب ، ولكنها مبدوءة بالغزل ومختومة به ، وقد يكون هذا من خلط الرواة ، ولكنى أستبعده ، لأن الراوى ليس من الغفلة بحيث لا يروى الغزل متلاحقاً وهو يعلم أن هذا نظام شائع فى الشعر . وأرى أن الشاعر أنشد قصيدته على هذا الغرار ، لأن الغزل الأول لم يشف ما بنفسه ، أو لأنه كان قد فتر فانصرف عن غير الغزل إلى الغزل مرة ثانية .

ومثال ذلك قصيدة عبيد التى مطلعها :

يادارَ هنـدٍ عَفَاها كل هطَّال ... بالَجوِّ مثل سَحيق اليُمْـنةِ البالى[٧]

فقد تغزل أولا فى خمسة أبيات ثم وصف ناقته ، وافتخر بشجاعته وشربه الخمر فى تسعة أبيات ، ثم عاد إلى الغزل فى أربعة أبيات ، وقصيدته التى مطلعها :

أمن منزل عافٍ ومن رسم أطلال ... بكيت وهل يبكى من الشوق أمثالى[٨]

فقد بدأها بغزل فى عشرة أبيات ، ثم وصف الناقة فى ثلاثة ، ثم عاد إلى الغزل فى أربعة .

---

(١) الديوان ١٧٩

(٢) الديوان ١٨٩

(٣) ديوان الأعشى ١٣

(٤) ديوان عنترة ١٧٨ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ؛ ١٠٦

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٦

(٦) ديوان عامر القصيدة ١١

(٧) ديوان عبيد القصيدة ٥

(٨) ديوان عبيد القصيدة ١٥

وقد حاكاه فى ذلك من بعد المرّار بن منقذ فى إحدى قصائده [١] .

الانتقال من الغزل إلى غيره

ليس الغزل منفك الصلة بما بعده فى نفس الشاعر ، وإن بدا كذلك فى الظاهر ؛ لأن الشاعر كما قلت ، إما محب وإما متصنع للحب ، ومتصنع الحب يحاكى المحب فى فن القول . والعلاقة بين الغزل وما بعده علاقة نفسية ، لأنهما معاً صادران عن عاطفة ، ويشغلان تفكير الشاعر ، ولأنهما معاً من صور الحياة البدوية التى يحياها الشاعر ويعجب بها ، ولقد يرتبطان فى بعض الحالات ارتباطاً وثيقاً ، كأن ينتقل الشاعر من الغزل إلى الحماسة ، لأن الحماسة فتوة ، ولأن الحب فتوة ، أو ينتقل الشاعر من الغزل إلى وصف الناقة مركب الشاعر إلى حبيبته النازحة ، ومركبه فى التسلى عن حبه ، فهى وثيقة الصلة بالحب .

وقد فطن فرويد إلى أنه « لا بد من علاقة بين أى فكرتين تلى إحداهما الأخرى سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة ، فالعقل لا يستطيع أن يغير الموضوع حينما يشاء من غير إشارة إلى ماضيه القريب [٢] .

ولقد يترسم الشاعر هذا الطريق وهو لا يقصد ؛ لأن الذكريات أفكار مرتبطة ، وحتى فى التفكير المتعمد تكون الروابط لاشعورية ، فيفيض التيار العصبى من غير تفكير فى المسالك العصبية ، ولا يستثير شرارة الشعور إلا عند ما يقفز من طرف لآخر [٣] .

« والحق إن الصحراء هى التى أوحت للشاعر بأسلوب القصيدة وعناصرها ، فهو يمر على ديار الأحبة — وقد ظعنوا — فتهيج آثار الديار مشاعره ، ويتذكر فى حسرة أويقات أنسه وساعات سمره ، ويتذكر الحبيبة فيقف يذرف دمعه على ذلك الماضى الجميل ، ثم يثوب إليه رشده ، فينقطع حبل الذكريات ، وينصرف الشاعر إلى رحلته . وهو فى هذه الرحلة يعتمد على ناقته ، فلا بدع إذا خصها بالذكر ووصفها

---

(١) المفضليات ١ / ٨٠

(٢) كيف يعمل العقل ١ / ٤٥

(٣) كيف يعمل العقل ١ / ٣٠

وصفاً جميلا ، ولقـد يستطرد فى وصفه هـذا فيصور مناظر حية من الصحراء لا تزال لها روعتها وجمالها ، ثم يصل إلى نهاية رحلته ، ويصل فى نفس الوقت إلى الغاية من قصيدته فيمدح أو يحرض على القتال أو يسوق الحـكمة أو يعتذر إلى غير ذلك .

ولا شك أن ثمة وحدة فـكرية تربط بين هذه الأجزاء فى نفس الشاعر ، وأن هذه المراحل والعناصر طبيعية فى تلك البيئة الصحرواية ، وعند أمة ناشئة فى الأدب ، لأن الأدب الغربى لم يتطور ويتغلب على هذه المهنة إلا فى العصور الوسطى. والعربى كان ينشـد الشعر ولم يكن يؤلفه تأليفاً ، إنه كان يرتجل فى كثير من الأحيان وكان شعره نوعا من الخطابة المنظومة .

يقول العـلامة جب فى ذلك « الخلق الفنى لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا تربط بينها غاية أو انسجام أو إتقان ، اللهم إلا وحدة العقل الفردى الذى أبدعها .

أما الفن الغربى ولا سيما منذ العصور الوسطى فقد تطور حتى عاد سلسلة من الأمور المعقدة تضفى على الفن انسجاما ، وتربط بين عناصره الـكثيرة ، وتروق العقل كما تروق الشعور .

بيد أن فن القول — من جهة أخرى — عند الغربيين وعند العرب على السواء لا يزال يحتفظ بطابع البساطة والتفكك ، بل لنا أن نقول بطابع بدائى ، ولهـذا السبب كان له سطوة وقوة قاهرة على خيال الفرد وعلى خيال الجمهور ، وقد تبلغ هذه القوة حداً تعوق فيه المقدرة عن تـكوين وحدة أو انسجام »(١) .

فإذا كانت القصيدة العربية قد جرت على تعدد موضوعاتها فى الغالب الأعم ، فإن هذه الموضوعات المتعددة تلتقى عند نقطة واحدة هى أنها مشغلة الشاعر ، وأنها وحى البيئة التى يعيش فيها ، وإن بدت فى القصيدة مناحى متفرقة من القول .

وندع القول لمستشرق غربى يتحدث عن هذه الأجزاء التى تضمها القصيدة لنرى حكم الذوق الغربى على هذا التعدد ، يقول الأسـتاذ جب : « إن القصيدة

---

(١) النابغة الذبيانى ٥٢ — ٥٣ عمر الدسوقى.

تتألف من سلسلة من الصور تعرض جوانب متعددة من الحياة العربية ، ليس بينها من الروابط إلا القليل ، يطبعها التقليد بطابعه فى ترتيبها وتسلسل أفكارها ، ففى مطلع القصيدة نرى الشاعر على ظهر جمله مع صاحب أو صاحبين ، وينطلق إلى حيث مخيمه أو مخيم قبيلة صديقة رحلت وبقيت أطلالها ، إنه يدعو صاحبيه للوقوف لحظة ، ثم يبدأ فى أسف وأسى يصف أيامه السعيدة التى قضاها مع حبيبته منذ سنين ، أما الآن فقد باعدت بينه وبين حبيبته تصاريف الأيام ، وضربه التوالى فى الأرض . وبين الأطلال وحواليها يقف الشاعر يندب حظه ، ثم يطنب فى وصف الحبيبة فى تفصيل دقيق .

ثم يستعيد شعوره ، ويمضى فى رحلته ، ثم ينتهز الفرصة ليصف فى خبرة وفى إعجاب جمله أو حصانه ، وسرعة حصانه تقوده إلى أن يوازن بينه وبين الحمار الوحشى أو النعامة أو الضبع ، وسرعان ما ينسى هذه الموازنة ويستغرق فى وصف الحيوان الذى شبه به ، أو فى وصف منظر من مناظر الصيد ، وهذا الجزء هو أقرب الأجزاء إلى الذوق الغربى . ثم ينتقل إلى موضوع القصيدة الذى يريده . . . . ويتبين من ذلك كيف سهل الأمر على المصنفين فيما بعد ففصلوا أجزاء القصيدة بعضها عن بعض واعتبروا كل جزء وحدة قائمة بذاتها »[١] .

وقد أخذ النقاد على الشعراء الجاهليين أنهم ينتقلون من الغزل إلى غيره فجاءة بغير أن يربطوا بين الغرضين ويتسللوا من الغزل إلى ما بعده فى مهارة وحبك ، وآثروا أن يتطرق الشاعر من الغزل إلى غيره فى لطف وحيلة كما يفعل أبو تمام وأبو الطيب فى أكثر الأحيان[٢] ومسلم بن الوليد ومنصور النمرى[٣] . ولكنى لا أوافق على هذا المأخذ ، لأن الانتقال المفاجئ دليل على أن الشاعر لم يستوح عقله ومنطقه وتفكيره ، وإنما استوحى عاطفته وقلبه وشعوره ، ولو أنه استوحى عقله ما عجز عن براعة الانتقال التى برع فيها المتنبى مثلا . والشاعر صادق فى تعبيره عن شعوره ؛ لأن المرأة تشغله ، والناقة تشغله ، ولأن الفخر أو المدح

---

(١) Arabic literature. P. 18—20. Gibb.

(٢) العمدة ١ / ١٥٦ (٣) الصناعتين ٤٣٨

أو الهجاء يشغله أيضاً ، فهو يتابع هذه الأغراض فى قوله كما تتتابع فى شعوره ، لذا لم يحاول أن يعقد صلة مصطنعة فى انتقاله من غرض إلى غرض .

وليس أدل على أن هذا التحايل والتلطف فى النقلة من الغزل إلى المدح مثلا عمل عقلى لا فنى من أن البارعين فيه هم الذين تفلسفوا فى شعرهم كأبى تمام وأبى الطيب ومن تأثر بهما إلى العصر الحاضر، مثل شوقى فى تكريم سعد زغلول ، فقد تغزل فى تسعة أبيات ، وصف فيها جمال الحسناء وإعجاب الحسان بها ثم انتقل إلى المدح بقوله :

لو كنتَ سعداً مطلق السجناء لم ... تطلق لساحر طرفها مَصْفُودا(1)

فى حين نرى شاعراً فذاً لا صلة لشعره بالفلسفة كالبحترى ، لا يتلطف هذا التلطف ، فكثيراً ما انتقل من غزله التمهيدى إلى المدح فجأة بغير وشائج ، كقوله فى مدح المتوكل :

أُخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر ... وألام فى كمد عليك وأعذر

وأتم غزله فى تسعة أبيات ، ثم انتقل إلى المدح بقوله :

الله مكّن للخليفة جعفر ... مُلكا يحسّنه الخليفة جعفر(2)

وأكثر مدائحه على هذا الفرار ، يبدؤها بالغزل ولا يتحايل فى الانتقال(3) ، وإنما كانت طريقة الشعراء أن ينتقلوا من الغزل إلى غيره بقولهم دع ذا ، قال لبيد .

عفا الرسم أم لا بعد حول تجرّما ... لأسماء رسم كالصحيفة أعجما

لأسماء إذ لم تُفتنا ديارها ... ولم نخش من أسبابها أن تجذّما

فدع ذا وبلغ قومنا إن لقيتهم ... وهل يخطئنّ اللوم من كان ألوما(4)

وقال امرؤ القيس بعد أن تغزل فى خمسة وعشرين بيتاً :

فدع ذا. وسل الهم عنك بجَسْرَةٍ ... ذَمُولٍ إذا صام النهار وهجّرا(5)

---

(1) الشوقيات ١ / ١٢٥

(2) ديوان البحترى ١٠ مطبعة الجوانب بالقسطنطينية .

(3) الديوان ، ١٢ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٩٨ الخ (4) ديوان لبيد ٣٩

(5) الديوان ٧٠ جسرة : ناقة قوية . ذمول : سريعة ، صام النهار : قامت الظهيرة ،

أو ينتقلون بغير هذا ، كما فعل النابغة الذبيانى فى مدحته لعمرو بن الحارث المعروف بالأعرج ، فإنه تغزل فى ثلاثة أبيات ثم انتقل إلى المدح مباشرة :

علىَّ لعمرو نعمة بعـــد نعمة   لوالده ليست بذات عقـارب (١)

وكقول الأعشى فى مدحه قيساً دهقان اليمن بعد أن تغزل :

عُدَّ هــذا فى قريض غيره   واذكُرَنْ فى الشعر دهقان اليمن (٢)

وكذلك فعل المسيب بن علس ، فقد تغزل فى ثمـانية وعشرين بيتاً ، ثم طفر إلى المدح بقوله :

وإليك أعملت المطية من   سهل العـــراق وأنت بالقفر

وأتم مدحته فى اثنى عشر بيتاً (٣) .

وهذا الانتقال المفاجئ كثير ، ومن أمثلته قصيدة لطرفة (٤) ، وقصيدة لحسان بن ثابت (٥) ، وقصيدة لقيس بن الخطيم (٦) ، وقصيدة لعمرو بن الأهتم (٧) .

ولقد يعرض الشـاعر قوله وفيه ما يصح أن يسمى ربطاً ، ولـكنه أيضاً غير مقصود ، لأنه خواطر تتسـاوق ومعان تتداعى ، وذلك كقصيدة لامرئ القيس وقف فيها على الربع واستنطقه ، ثم ذكر الظعائن ووصفهن ، وصور حزنه لما ارتحلن ، وهذه كلها مرتبطة فى نفسه ، ثم شرع يصف ناقته بقوله ·

فعزَّيْتُ نفسى حين بانُوا بجَسْرةٍ   أَمُونٍ كبنيان اليهودى خَيْفق (٨)

وواصل وصفها ، ولـكن الناقة مرتبطة بوقفته على ربع الحبيبة وبرحلتها وبالألم لفراقها ، وهى وسيلة إلى الرحلة التى يأمل أن تسليه .

---

(١) ديوان النابغة ٥   (٢) ديوان الأعشى ٢٢٨
(٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٣
(٤) ديوان طرفه ٧٠   (٥) ديوان حسان ١١
(٦) ديوان قيس بن الخطيم ٢٥   (٧) المفضليات ٢ / ٢٠٩
(٨) الديوان ١١٨ . بنيان اليهودى : حصنه . خيفق : سريعة .

٤ — الغزل الكيدى

حقيقته :

هذا نوع من الغزل لا هو عذرى ولا هو حسى ولا هو تمهيدى . فليس عذريا ولا حسيا لأنه غير منبعث عن عاطفة ، وليس تمهيديا لأن الغرض منه لم يكن إعداد النفس للانتاج وتهيئة الجو للموضوع ، وإنما كان الغرض منه الكيد والإغاظة وتجريح الخصم والنيل من عرضه بشباة اللسان .

لهذا صح أن أجعله نوعاً مستقلا عن الأنواع السابقة . وهو أقل منها كمّاً ، وأضأل كيفا وفنا ، وآخرها ظهورا لأنه لم يعرف إلا فى آخر العصر الجاهلى ، ولكنه من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية دليل على صيانة العرب لأعراضهم ، وغيرتهم على نسائهم ، ودليل على أن العداوة لم تقتصر على انتضاء السيوف والرماح واللقاء فى ميدان الحرب ، فقد كانت بجانب هذه المعارك المادية معارك أخرى فنية أداتها اللسان والخيال وميدانها الفن ، يمثلها الهجاء ويمثلها هذا الغزل الكيدى .

وهو من حيث المظهر وطريقة العرض لا يختلف عن الغزل التمهيدى فى شىء ، وسأضرب أمثلة له .

١ — فى يوم بعاث تغزل قيس بن الخطيم بعَمْرة بنت رواحة أخت عبد الله ابن رواحة وهى أم النعمان بن بشير ، ثم نخر بانتصار الأوس على الخزرج :

أتعرف رسْماً كاطّراد المذاهب ... لِعَمْرَةَ وَحشاً غير موقف راكب

ديار التى كانت ونحن على مِنًى ... تَحُلُّ بنا لولا نجاء الركائب

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجبٌ منها وضَنَّتْ بحاجب

ولم أرها إلا ثلاثا على منى ... وعهدى بها عذراء ذات ذرائب

ومثلك قد أصبيتُ ليست بِكَنَّةٍ ... ولا جارةٍ ولا حليلة صاحب [1]

وهو غزل لا إفحاش فيه . بل إنه فى مظهره أقرب إلى أن يكون من الغزل

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٩ وديوان قيس بن الخطيم ١٠

العذرى . ولكن عبد الله بن رواحة لم يطق صبرا . فرد العدوان بمثله . فتغزل فى ليلى بنت الخطيم على الوزن والقافية نفسها :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب　　نَعم فرشاش الدمع فى الصدر غالبى[1]

٢ — واقتتل الأوس والخزرج فى يوم الربيع قتالا كاد يفنيهم ، وانهزمت الأوس وتبعتها الخزرج إلى الدور ، ولحسان قصيدة فى هذا اليوم تغزل فيها بليلى بنت الخطيم فى مطلع الفخر :

لقد هاج نفسك أشجانُها　　وعاودها اليوم أديانها
تذكرت ليلى أنَّى بها　　إذا قُطعت منك أقرانها
وحجَّل فى الدار غربانها　　وخف من الدار سكانها
وغيَّرها مُعْصِرات الرياح　　وسَحُّ الجنوب وتَهْتانها
مهاةٌ من العين تمشى بها　　وتَتبعها ثَمَّ غزلانها
وقفتُ عليها فساءلتها　　وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فعَيَّتْ وجاوبنى دونها　　بما راع قلبىَ أعوانُها[2]

فأجابه قيس بن الخطيم بقصيدة من الوزن والقافية وتغزل بعمرة زوجة حسان :

أجدَّ بعمرة غُنْيَانُها　　فتهجرَ أم شأننا شأنها ؟
وإن تُمْسِ شطت بها دارها　　وباح لك اليوم هجرانها

ثم انتقل إلى مناقضة حسان فى فخره[3] .

وقيل إن قصيدة قيس هذه إنما قالها فى عمرة بنت رواحة أم النعمان بن بشير وأخت عبد الله بن رواحة .

٣ — وبعد غزوة بدر شبب كعب بن الأشراف بأم الفضل بنت الحارث يغيظ المسلمين ، فقال :

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦

(٢) ديوان حسان ٤١٦ والأغانى ٣ / ١٢ أديانها : ج دين وهو الداء والمراد الحب القديم .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغاني ٣ / ١٢

أراحلٌ أنت لم تحلل بمَـنقَـبةٍ ... وتاركٌ أنت أم الفضل بالحرَمَ
صفراء رادعةٌ لو تُعصر انعصرت ... من ذي القوارير والحناء والـكَـتَم
يَرْتَجُّ ما بين كعبيها ومَرْفِقها ... إذا تأتَّتْ قياما ثم لم تَقُم
وأشباهُ أم حكيم إذ تواصلنا ... والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامر جُنَّ الفؤاد بهـا ... ولو تشاء شفت كعبا من السَّقَم
فَرْعُ النساء وفرعُ القوم والدُها ... أهلُ المحلةِ والإيفاء بالذِّمم
لم أر شمسا بليـل قبلها طلعت ... حتى تجلَّـت لنا فى ليلة الظُّـلَم

ثم شبب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم فأمر النبي بقتله (١)

خصائصه

وتيسم الغزل الكيدى بالتصون فى التعبير والتعفف فى المعنى ، فليس فيه إفحاش كهذا الذى جدَّ فيما بعد فى تهاجى شعراء العصر الأموى والعباسى . لهذا لا نعجب حين نقرأ أن النعمان بن بشير دخل المدينة أيام يزيد بن معاوية واشتاق إلى الغناء فذهب هو وخواص أصحابه إلى عَزّة وقال لها : غنينى ، فغنته :

أَجد بعمرة غنيانها ... فتهجر أم شأننا شأنها (٢) ؟

فأشار بعض أصحابه إلى عزة وأفهمها أن عمرة أم النعمان فسكتت ، فقال النعمان غنينى ، فوالله ما ذكرت إلا كرما وطيبا ، لا تغنينى سائر اليوم غيره ، فلم تزل تغنيه هذا اللحن فقط حتى انصرف (٣) .

ولـكن العربى لا يطيقه وإن كان عفًّا متصوناً . لأنه تعرض للحرم وتسميع بالنساء ، وقد أسبق أن العرب كانوا لا يزوجون شاعرا فتاة أعلن حبه لها وتغزل فيها حمية وأنفة .

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣ / ٣
(٢) الأغانى ٣ / ١١ ، ١٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩
(٣) الأغانى ٣ / ١٣

لذلك كان الغزل الكيدى أحياناً سبباً فى قتل الشاعر ، كما حدث لكعب بن الأشرف ، فإنه بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله محمد بن سلمة ورهطا من الأنصار بقتله فقتلوه[1] . ولم يكن سبب قتله أنه بكى قتلى بدر ، فقد بكاهم كثير من الشعراء ولم يأمر رسول الله بقتل واحد منهم ، وبكاهم أمية بن أبى الصلت وحرض قريشا على أن تثأر من المسلمين ليوم بدر ، فنهى النبي عن رواية القصيدة ، فكفوا عن روايتها حيناً من الدهر ، فلما تمت للاسلام النصرة زالت علة المنع فرويت القصيدة[2] .

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٠

(٢) الأغانى ٤ / ١٢٢ والبيان والتبيين ١ / ٢٣٦ وسيرة ابن هشام ٢ / ٤٠٥

الفصل السادس

صور غزلية من آثار الحب والحبيبة فى نفس الشاعر

(ا) الأخلاق

١ — أثر الحب فى الطباع :

الحب ولا سيما الموسوم بحرارة العاطفة وصدقها روح يسرى فى الروح ، فيصقل النفس ويجمل الطبع ويهذب الخلق ويغرس فى المحب كثيراً من الفضائل التى تحببه إلى المرأة وتستبيها ، قيل لسعيد بن سالم : إن ابنك يحب ، فقال : دعوه ، فإنه يلطف وينظف ويظرف[1] ، ولو أحسن ما اقتصر على اللطف والنظافة والظرف ، بل لأضاف إليها خلالا آخر كالشجاعة والغيرة والكرم الخ . .

وفى الحق إن الحب يرقق الطباع الجاسية ، ويلين النزعات الجافية ، قال أبوعثمان : « قد ترى الأعرابى وظاهره ظاهر الجفاء فما هو إلا أن يعشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ، ومع ذلك يلقى أحدهم عشيقته فيترشفها ويعانقها دون الثياب ، ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته ، قال ابن هرمة :

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها لحلالها مدفوع[2] »

٢ — المثل الأعلى للرجل فى نظر المرأة :

وقد كانت المرأة المحبوبة ملهمة للشاعر قال عنترة :

(١) تزيين الأسواق ١١
(٢) أخبار النساء لابن القيم ٢٠

عبيلةُ هــــذا دُرُّ نَظمٍ نظمته وأنت له سِلكٌ وحُسنٌ ومَبهج[1]

وكان حبها باعثاً على المحامد ، فهى تعجب بالرجل الشجاع الـكريم الغلاب ، وهذا هو مثلها الأعلى فى الرجال ، يدل على ذلك أن ابنة الخُس سئلت . أى الرجال أحب إليك ؟

فقالت ، السهلَ النجيب ، السمح الحسيب ، الندب الأديب ، السيد المهيب ، وأفضل منه . الأهيف الهفاف الأنِف العَـيَّاف ، المفيد المِتلاف الذى يُخيف ولا يَخاف[2] » .

وسئلت أي الرجال أبغض إليك ؟ قالت : « الأَوْرَه النَّـئوم ، الوكل السئوم الضعيف الحيزوم ، اللئيم الملوم ، وشر منه الأحمق النَّزّاع الضائع المضاع الذى لا يُهاب ولا يُطاع[3] » .

وفى حديث بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يـكرب قال عمرو « كنا نغير على بنى مالك فأتينا على قوم سراة ، فجلست فى موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية قد خرجت من خيمتها ، وجلست بين صواحب لها ثم دعت وليدة من ولائدها ، فقالت : ادعى لى فلانا ، فدعت لها رجلا من الحى . فقالت له ، إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى فـكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ فقال : أفعل وأصنع وجعل يصف نفسه ويفرط . فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وأقبلت على صواحباتها فقالت . ما عنده خير. وقالت لوليدتها : ادعى لى فلانا ، فدعت آخر ، فخاطبته فأجابها بمثـل جوابه ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وقالت لصواحباتها : وما عند هذا خير أيضاً ، ثم قالت للوليدة : ادعى لى ربيعة بن مكدَّم فدعته فقالت له مثل قولها للرجلين ، فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ولـكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يُعذِر ، فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك[4] .

(١) ديوان عنتره ٣٢ (٢) ذيل الأمالى ١١٩

(٣) ذيل الأمالى ١١٩ الأوره : الأحمق. الوكل : العاجز. الحيزوم : مايشد عليه الحزام

(٤) الأغاني ١٥ / ١٣٢

فهى لا تريد من الرجل أن يكون قوالا ، بل أن يكون فعالا ، وهى تعلم بتجاربها أن أكثر الناس قولا أقلهم عملا ، لهذا اختارت ربيعة بن مكدَّم زوجا لها ؛ لأنها علمت من جوابه أنه شجاع ذو بلاء .

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريما أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية ، تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابغة ورجل من الأنصار من النّبيت يخطبونها ، فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعرا يذكر فيه فَعاله ، ثم ينشدونها فى الصباح ما قالوا ، وستصطفى أكرمهم زوجاً لها ، وفى الصباح أنشدها النّبيتى ، ثم النابغة ، ثم حاتم ، وكان من قوله :

أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

فقالت إن حاتما أكرمكم وأشعركم ، ثم قالت له : خل سبيل امرأتك فأبى ، ثم ماتت امرأته فرضيت ماوية به زوجا وولدت له عديا (١) .

وقد أبت حسنية بنت جابر العجلى أن تعود إلى زوجها ابن عمها لأنه فرّ عنها فى الحرب وتركها تُسبى (٢) . وقد ذكر أبو على القالى حديثاً طويلا بين ثلاث بنات وصفن ما يحببن من أزواجهن ، ملخصه أنهن جميعاً يتطلبن من الزوج أن يكون كريماً شجاعا (٣) . وكان السمو الخلقى مفخرة البنت بأبيها كما كان ميزاناً تزن به رجلها ، قالت إحدى صواحب العجفاء فى حديث بينهن :

« كان أبى يكرم الجار ، ويعظم الخطّار ، ويحمل الكبار ، ويأنف من الصغار » . وقالت أخرى : « أبى والله صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رَدُوم الجفان . شديد الطعان (٤) » . وفى رثاء ليلى الأخيلية لتوبة مدح بالفروسية والكرم والشجاعة (٥) .

هذه لمحة عن المثل العالية الخلقية التى تتطلبها المرأة فى الرجل ، فمن الطبيعى إذاً أن يحرص الرجال ولا سيما المحبون على التحلى بهذه الأخلاق ، لهذا كثر فخر

---

(١) الأغانى ١٦ / ٩٩ — ١٠١ وذيل الأمالى ١٥٤

(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ـ ٥٩

(٣) الأمالى ٣ / ١٦

(٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٦٢

(٥) الأغانى ١٠ / ٧١ — ٧٧

الشعراء بمحامدهم ، ووجهوا هذا الفخار إلى المرأة ، ويحسب الفاخر أن تصدقه المرأة فى قوله ، أو أن تشهد بنفسها محامده ليحتل من قلبها المكان الذى يريد .

ومن الطبيعى أن يحرص الرجل على التحلى بالفضائل ، ليتقرب إلى المرأة ، فهو « يبذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب فى نفسه ، فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلّق ، وجبان شجع ، وغليظ الطبع تظرب ، وجاهل تأدب ، وتَفِلٍ تزين ، وفقير تجمل ، وذى سن تفتّى [(١)] .

وهذا هو السر فى أن الشاعر أشاد بمفاخره بعد الغزل ، يهدف إلى استمالتها ونيل إعجابها « فيثنى الشاعر على نفسه ويحب ذلك كما يحب الملك أو الأمير أن يثنى عليه الشعراء ، فالعرب كانوا كالإغريق فى عصر البطولة يحبون أن يسمعوا شعراءهم يشيدون بمفاخرهم [(٢)] » .

٣ — صور من تأثير الحب فى الأخلاق :

وفى الشعر الجاهلى صور كثيرة من هذا ، فمثلا مُضَرِّس بن قُرْط بن الحارث المزنى يقول لحبيبته : إن كنت لم تخبرى أخلاقى فاسألى الرجال عنى ، وستعلمين أننى لم يقطع صديق صداقتى ، ولم يذم صديق سفرى ، وأن صحابتى من الكرام الذى بلونى فى الشدائد ، وأننى كتوم لحبى لا أفشى سره لأحد إذا أفشى سره المازح :

وإن كنتِ لما تَخْبُرينى فسائلى ... فبعض الرجال للرجال رَمُوق
سلى هلى سلانى من عشير صحبتة ... وهل ذمّ رحلى فى الرحال رفيق ؟
وهل يجتوى القومُ الكرامُ صحابتى ... إذا اغبرّ مَخْشِىّ الفجاج عميق
وأكتم أسرار الهوى فأميتها ... إذا باح مَزّاحٌ بهن بَرُوق [(٣)]

ولقد قال عنترة لعبلة إنه ذكرها فى أحرج أوقاته ، وأعظم مفاخره ، ذكرها

(١) طرق الحمامة لابن حزم ١١
(٢) حضارة العرب . جستاف لوبون ٥٣٩
(٣) الأمالى ٢ / ٢٥٨ رموق : لاحظ لحظاً خفيفاً أو حاسد . بروق : مهدد .

والسيوف تتصافح ، والرماح تشتجر ، وبلغت به شجاعته وحبه معا أنه وَدّ أن يقبل السيوف لأنها تبرق كما تبرق ثناياها :

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ ... مني وبيضُ الهند تَقطُر من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغركِ المتبسّم (١)

وطلب منها أن تسأل المحاربين من قومها عن بطولته وخوضه بحر المنايا :

سلي ياعبل قومك عن فَعَالي ... ومن حضر الوقيعة والطِّرادا
وَردْتُ الحربَ والأبطالُ حولي ... تهز أكفُّها السُّمرَ الصِّعادا
وخضت بمهجتي بحر المنايا ... ونار الحرب تتقد اتّقادا (٢)

وأقسم بعبلة أنه لولا حبها ما كثر أعداؤه ، وقل أصدقاؤه ، لأن الرجال ينفسون عليه هذه الشجاعة ، وإنما يشجع ليرضى عبلة ويخاطر ليكون أهلا لها :

أيا عبل ما كنت لولا هواك ... قليل الصديق كثير الأعادى
وحقّك لا زال ظهرُ الجواد ... مَقيلي ، وسيفي ودرعي وسادى
إلى أن أدوسَ بلاد العراق ... وأُفني حواضرها والبوادى (٣)

وكثيراً ما تبرم بالذين عيروه سواد لونه ، وأراد ألا يصرف هذا السواد عبلة عنه ، لأن له ما يعوضه من بعض الخصال :

تعيرني العِدا بسواد لوني ... وبيض خصائلي تمحو السوادا
سلي يا عبل قومك عن فعالي ... ومن حضروا الوقيعة والطرادا (٤)

ولقد يفتخر عنترة ببطولته وبطولة قومه ، ويذكر أنهم قتلوا وأسروا من أعدائهم ، وتركوا نساءهم متفجعات يلطمن الخدود ، وهو في سبيل تقرير الحقيقة الواقعة لم يكتم عن المرأة ما يستثير إشفاقها على بنات حواء :

سلي عنا الفزارِيّينَ لما ... شَفَينا من فوارسها الكبودا
وخلّينا نساءهم حيارى ... قُبَيل الصبح يلطمن الخدودا (٥)

(١) ديوان عنترة ١٥٠ . (٢) ديوان عنترة ٥٧ .
(٣) ديوان عنتره ٥٣ . (٤) الديوان ٥٧ . (٥) الديوان ٥٦ .

ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلو علمت سُلَيْمى علم مثلى   غداة الروْعِ واصلت الكراما[1]

ويقول لها إنك لو رأيت قومك فى الحرب لنعمت عينك .

وإنك لو رأيت أميم قومى   غداةَ قُراقرٍ لنَعِمت عينا[2]

ويحضها على أن تسأل عن بلائه يوم انتصروا على عبس وأسروا هند حبيبة عنترة :

هلا سألت بنا وأنتِ حفِيّةٌ   بالقاع يوم تورَّعتِ هند[3]

وإذا ما عاد من حربه تشوق إلى إعجاب زوجته به ، وسؤالها الصناديد عن إقدامه ، قال فى يوم فَيْف الريح يخاطب زوجته إنها طالق إن لم تسأل الشجعان عن بلاء زوجها :

طُلِّقت إن لم تسألى أىُّ فارس   حليلك إذ لاقى صُداء وخَثْعما

أكُرُّ عليهم دعْلَجاً ولبانُه   إذا ما اشتكا وقع الرماح تحمحما[4]

وود سوَّار بن المضرب أن تسأل سلمى سراة الحى عنه من موالين وأعداء لتعلم أنه كريم شجاع إذا لم يجن فإنه نصير للجناة :

ولو سألْتَ سَرَاة الحى عنى   على أنى تلوَّن بى زمانى

لنَبَّأها ذوو أحساب قومى   وأعدائى فكلٌّ قد بلانى

بدفعى الذمَّ عن حسبى بمالى   وزَبُّونات أشوَسَ تَيَّحان

وإنى لا أزال أخا حفاظ   إذا لم أجْنِ كنت مجنَّ جان[5]

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبى باعثاً أى باعث على بطولة تحقق النصر ؛ فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيبته لميس تجرى كاشفة عن محاسنها

(١) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

(٢) ملحق الديوان ٢٢

(٣) الديوان القصيدة ٣

(٤) ديوان عامر بن الطفيل الملحق ١٩

(٥) الأصمعيات وليم البروسى ١/٧٣ : زبونات : دفعات . أشوس : حصان ينظر بمؤخر عينيه غيظاً أو تكبرا . تيحان : فرس يعترض فى مشيه ويميل على قطريه .

هلعاً وذعراً ، ونســاء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك فى قوله :

لمـا رأيت نساءنا يفْـحَصن بالْمَـعْزَاء شدًّا
وبدت لَمِيسُ كأنها بدر السماء إذا تبدَّى
وبدت محاسنها التى تخفىَ وكان الأمر جِدا
نازلت كبشَهمُ ولم أرَ من نزال الـكبش بُدا(١)

وقد عير عامر بن الطفيل عنترة أنه فر من الموقعة وترك عبلة سبية ، فهو يفخر بالفلب ويعير بترك المرأة :

ونجا بعنترة الأغرُّ من الردَّى يهوى على عجَـلٍ هُوِىَّ الأجدل
وتركتَ عبلة فى السواء لِفِـتْيةٍ باتوا على كُتُف الخيول الجـوَّل
راحوا بهند والوجيهة عنــوة . يوم الوقاع على نجائب ذمَّل(٢)

وليس فى حياة عنترة حسرة كهذه الحسرة التى يصور بها ألمه من سبى عبلة :

فالقتـل لى من بعد عبـلة راحةٌ والعيش بعد فراقها منكود
يا عبل قد دنت المنية فاندبى إن كان جفنك بالدموع يجود
يا عبل إن تبـكى علىَّ فقد بكى صرف الزمان علىَّ وهو حسود
لهفى عليك إذا بقيتِ سَبِـيَّةً تَدْعِينَ عنتر وهو عنك بعيد(٣)

وهذا خفاف بن نُدْبَةَ يباهى بأنه زعيم المنسر الجرىء :

يا هند يا أخت بنى الـصَّادر ما أنا بالبــاقى ولا الخالد
إنْ أُمْسِ لا أملك شيئاً فقـد أملك أمر المِـنْسر الحارد

ثم واصل نخره بحصانه(٤) .

---

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ١/٩٢ . المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يؤثرن من شدة الجرى . لميس : اسم حبيبته ، وقد برزت كاشفة عن وجهها تشبها بالأمة لتأمن السبى أو رعبا .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ١٧ . الأجدل : الصقر . نجائب ذمل : نوق مسريعة

(٣) ديوان عنترة ٦٤ . (٤) الأصمعيات من مجموعة وليم بن الورد البروسى ١/٣٥ .

ولقد يضطر المحارب الشجاع إلى الفرار . فلا يأبه بأحد من الناس إلا حبيبته يكشف لها عن عذره ، قال تميم بن أسد الخزاعى :

الله يعلم ما تركت قتالهم عن طيب نفس فاسألى أصحابى[1]

وفصل أوس بن حجر عذره ، وإن كان فى تفصيله إشادة بشجاعة أعدائه بنى عبس وحلفائهم ودافع عن نفسه بأنه مشهور الإقدام فلا معرة من فراره اليوم :

أجاعلة أم الحصين خزاية على فرارى إذ لقيت بنى عبس ؟
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى إذا جربت منه الشجاعة بالأمس[2]

وكما أشهد الشاعر الحبيبة على شجاعته وقوته أشهدها على وفائه بالعهد ، وقناعته عند الغنيمه ، وكرمه ، وبطولته ألخ . قال الحادرة :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها فى مجمع ؟
إنا نعف فلا نريب حليفنا ونكف شح نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن مالنا أحسابنا ونجر فى الهيجا الرماح وندعى[3]

. . . .

وأشهدها على كرمه ، وشجاعته ، قال عروة بن الورد :

وقد علمت سليمى أن رأيى ورأى البخل مختلف شتيت
وأنى لا يرينى البخل رأى سواء إن عطشت وإن رويت
وأنى حين تشتجر العوالى حوالى اللب ذو رأى زميت[4]

---

(١) حماسة البحترى ٦٧

(٢) ديوان أوس بن حجر ٧ وحماسة البحترى ٥٢ وفى العقد الفريد أنها لعمرو بن معد يكرب مع بعض تغيير ١ / ١٧٢

(٣) ديوان الحادرة ٧ والمفضليات ١/٤٣ وحماسة البحترى ٢١٦ الحادرة : لقب قطبة ابن محصن. رفع اللواء : كانوا فى الجاهلية إذا غدر الرجل رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به . لا نريب : لا نغدر . آمن المال : خالصه وشريفه . نجر : نطعن العدو ونترك الرمح فيه ندعى : ننتسب . لأن الطاعن أو الضارب كان يقول : خذها وأنا ابن فلان أو : وأنا الفلانى ليعرف .

(٤) ديوان عروة بن الورده . زميت : وقور .

وإذا لم يشهدها على محامده فإنه يحدثها بهذه المحامد ليجتذبها ، وهذا كثير أيضاً فى الشعر الجاهلى .

على أنه يستمد من حبها شجاعة خارقة . ولا سيما إذا شهدته يصارع أو يحارب فيغلب وهى تراه ، وقد يُغلب إن لم تره ، من ذلك أن توبة خرج إلى الشام فر ببنى عذرة فرأته بثينة ، فجعلت تنظر إليه ، فشق ذلك على جميل ولم يكن قد أظهر لهاحبه — فقال له جميل : من أنت؟ قال أنا توبة بن الحمير ، قال : هل لك فى الصراع قال : ذلك إليك ، فشدت بثينة على جميل حلة موروسة فاتزر بها ، ثم تصارعا فصرع جميل توبة ، ثم تناضلا فنضل جميل توبة ، ثم تسابقا فسبق جميل توبة ، ثم قال له توبة : يا هذا ، إنما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ، ولكن اهبط بنا الوادى ، فهبطا وتصارعا فصرع توبة جميلا ، ونضله ، وسبقه[١] .

كان الحب إذاً فحولة ودافعاً إلى المجد ، وهكذا فهمه العرب ومن هنا تمجدوا به ، بل إن الحجاج فى العصر الإسلامى وهو المشهور بجده وبطشه كان رقيقاً كل الرقة فى معاملة نسائه . قال له عنبسة بن سعيد : يُفدِّى الأمير أهله ؟ قال : والله إن تعدونى إلا شيطانا ، والله لربما رأيتنى أقبل رجل إحداهن[٢] . ولكن لم نجد عربياً محباً اندفع فى حبه إلى ما يقعد به عن المجد أو ما يصمه بين الرجال ، فى حين نجد أن الإمبراطور قسطنطين constautin فى أوائل القرن الرابع الميلادى ينصاع لعشيقته فيقدم على فعلة شنيعة لا يفعلها أب ، فيقتل ابنه كريسبوس خضوعا لرغبة حظية فاجرة كانت تستفيد من قتله[٣] وقد يقال فى الدفاع عنه إنه كان مسيحياً صورة لا حقيقة ، ولكن هذا لا يبرئه من الجرم الشاذ ولا يخفف عنه اللوم ؛ لأن العرب كانوا وثنيين ولكن لم يستخز عربى فى حبه .

(ب) قوة حب الرجل لها

(١) كانت المرأة المحبوبة ذات تأثير عميق فى قلب الرجل ، يحبها ما وسعه الحب ، قال سويد بن أبى كاهل :

---

(١) الأغانى ١٠ / ٧٦

(٢) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١٦٥

(٣) Histoire des Papes 1 — 260

بسَطت رابعةُ الحبلَ لنا فبسَطنا الحبل منها ما اتّسع[١]

وكأنهم لم يرضهم إلا أن يضرب الحب بجذوره فى أعماقهم فاصطنعوا له مايقويه ، فكان من خرافاتهم أن الرجل والمرأة إذا تحابا ولم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما[٢] وقيل إنهم كانوا يفعلون ذلك ليتذكر كل واحد منهما صاحبه ، وقال العينى : كانت عاداتهم فى الجاهلية أن يلبس كل واحد من الزوجين بُرد الآخر ثم يتداولان على تمزيقه حتى لا يبقى فيه لُبْس طلباً لتأكيد المحبة[٣] . يقول سحيم عبد بنى الحسحاس إنه كان يشق رداءه وإن حبيبته كانت تشق برقعها إبقاء على الحب . ومن شأن المحب أن ينخدع بهذه الوساوس :

فكم قد شققنا من رداءٍ مُحَبَّر على طَفْلَةٍ ممكورة غير عانس
إذا شُقّ بُردٌ شق بالبرد برقع دوَالَيْكَ حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بُقْيا على الهوى
وإلْف الهوى يُغْرَى بهذى الوساوس[٤]

وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله بعدما شق برقع حبيبته وشقت رداءه :

شققتِ ردائى يوم بُرْقةِ عالجٍ وأمكنْتِنى من شق برقمك السَّحْقا
فما بال هذا الود يفسد بيننا ويمحَقُ حبلَ الوصل ما بيننا مَحْقا[٥]

(ب) أحب الرجل المرأة حباً قوياً جارفاً ، ذهب بعقله ، حتى لقد آثر الموت على حبه اليائس الذى لا يبرح ، قال طرفة :

وقد ذهبَتْ سلمى بعقلك كله فهل غيرُ صَيْدٍ أحرزته حبائله
لعمرى لَموتٌ لا عقوبة بعده لِذِى البث أشفى من هوًى لايزائله[٦]

وهو نفسه يشكو لصاحبيه همه ، ويرجوهما أن يصفا لخولة سهده :

---

(١) المفضليات ١ / ١٩٠
(٢) المستطرف للأبشيهى ٢ / ٧٢
(٣) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣٨١
(٤) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣٨٢ وديوان سحيم ١٦
(٥) السحق : الرقيق
(٦) ديوان طرفه ١١٨

يا خليليَّ قفـــا أخبركما ... بأحاديث تَغَشَّتْنى وَهَمّ
وابلغـــا خولة أنى أرِقٌ ... لا أنام الليل من غير سَدَم
كلما نام خـــلىٌّ بالـُه ... بتُّ للهمِّ نَجِيًّا لم أنم
منع التغميضَ جفنى ذكرُها ... فهى همى وحديثى والسَّقَم[1]

وكذلك صور معن بن أوس حبه بأنه خيال وسقم لا نظير له[2] ومثله لبيد[3].
واشتد بالمرار بن منقذ حبه حتى حار أحى هو أم ميت ، وصور الناس حائرين فى أمره يتساءلون أمحموم هو أم مسلول ؟ ثم قال إن حبيبته داؤه ودواؤه ، ولكنها ضنت عليه بالدواء ، وإنه قتيل غرامها ، فلو أن إخوته قتلوها ثأراً له ما أخطئوا واترهم ، على أنه مع ذلك لن ينساها :

تركتنى لست بالحي ولا ... ميتٍ لاقى وفاةً فقُبر
يسأل النـاسُ أحمَّى داؤه ... أم به كان سُلَالٌ مُسْتَتِرٌ
وهى دائى ، وشفائى عندها ... مَنَعَتْهُ فهو مَلْوِىٌّ عَسِر
وهى لو يقتلهـا بى إخوتى ... أدرك الطـالب منهم وظـفِر
ما أنا الدهرَ بناسٍ ذكرها ... ماغدت ورقاءُ تدعو ساق حُر[4]

وكذلك صور الحب بالحمى عبدة بن الطبيب لأنه يرعده ويعاوده[5]. أما المرقش الأكبر فقد تخيل أنه المحب الوحيد الذى يميته حبه ، يقول لحبيبته : إذا سمعت بأن محباً قد مات أو أشرف على الموت فثق أننى هذا المحب الشهيد ، وابكى لمن أسره حبك ولم يقبل منه فدية :

وإذا ما سمعت من نحو أرض ... بمحب قد مات أو قيل كادا

(١) ديوان طرفة ١٤٧ سدم : هم أو هم مع ندم أو غيظ مع حزن .

(٢) ديوان معن بن أوس ٣ (٣) ديوان لبيد ١٧

(٤) المفضليات ١ / ٩١ سلال : سل . مستتر : باطن . ملوى : ممطول . ساق حر : ذكر الحمام القمارى ، سمى بذلك أخذاً من صوته ويسمى صوته أيضاً (ساق حر) اللسان ١٢ / ٣٦ (٥) المفضليات ١ / ١٣٣

فاعلمى غير علم شك بأنى ذاك وابكى لمُصْفَدٍ أن يفادى[1]

(د) وإذا ما ذكرها دارت به الأرض . قال المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أن ذُكْرةً إذا خطرت دارت به الأرض قائما[2]

وقال حسان إن ذكرها يفقده رشاده كأنه مخمور :

وكَلْتُ قلبى بذُكرتها فالهوى لى فادح غالب
وكأنى حين أذكرها من حُمَيّا قهوة شارب[3]

٤ — والمحب لهذا تواق إلى أن يدوم قربها ، ويتمنى ألا يرحل أهلها ، فإذا ما كان رحيل دعا الله أن يرتحل قومه مع قومها ، قال قيس بن الخطيم :

والله ذى المسجد الحرام وما جُلِّلَ من يُمنَةٍ لها خُنُف
إنى لأهواك غير ذى كذب قد شُفَّ منى الأحشاء والشَّغَف
يا ليت أهلى وأهل أثْلَةَ فى دارٍ قريب من حيث تختلف
يا رب لا تبعدَنْ ديار بنى عذرة حيث انصرفت وانصرفوا[4]

(هـ) وإذا ما ارتحلت لم يطق صبراً ، وود لو يلحق بها ، قال عنترة :

ألا هل ترى إن شط عنى مزارها وأزعجها عن أهلها الآن مزعج
فهل تبلغنّى دارها شَدَنِيَّةٌ همَلَّعةٌ بين القفار تُهَمْلج[5]

ومثل ذلك يتمنى علقمه[6] .

و — وحب الشاعر لحبيبته حبب إليه أرضها ، لأنها مقرها وموطنها ، فهو يضفى حبه على ما حولها حتى الجماد . قال القتال الكلابى :

لعمرك إننى لأحب أرضاً بها (خَرْقَاءُ) لو كانت تزار[7]

---

(١) المفضليات ٢ / ٢٣٢ أن يفادى : ألا يفادى . مصفد : مقيد أسير .

(٢) المفضليات ٢ / ٤٥ (٣) ديوان حسان ١٦

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ خنف : جمع خنيف وهو ثوب من كتان أبيض غليظ

(٥) ديوان عنترة ٣٢ شدنية : ناقة يمنية . هملعة : سريعة . تهملج : تسرع وتنقاد .

(٦) شعراء النصرانية ٤٩٩ (٧) معجم البلدان ٢ / ١٤٠

وقال سَوّار بن المضرَّب إنه يحب عمان ، لأنها موطن سليمى ، ويحب ناحية اليمن ، لأن منزلها هناك :

أُحِبُّ عُمانَ من حبي سليمى وما ظني بحب قرى عُمانِ ؟
علاقةَ عاشق وهوًى متاحا فما أنا والهوى متدانيان
فإنْ هواى ما عَلِمَتْ سليمى يمانٍ إن منزلها يمانى(١)

(ز) وإذا ما أومض برق من سمائها خفق قلبه وأرق ليله ، وإذا ما شم ريح الخزامى ذكره بنسيم بلادها ، قال عنترة :

إذا خفق البرق من حُبِّهم أرِقْتُ وبتُّ حليف السهاد
وريح الخُزَامَى يذكّر أنى نسيمَ عذَارَى وذاتِ الأيادى(٢)

(ح) لكن حبه العنيف قد يفقده الرشد ، فيقدم على ما يهلكه أو يوقر بالضغن صدر حبيبته ، مثل ذلك أن خزيمة بن نهد علق بفاطمة بنت عامر الملقب بيذكر ، وتغزل فيها ، كقوله :

إذا الجوزاءُ أرْدَفَتِ الثُّريا ظننتُ بآل فاطمة الظنونا
وحالت دون ذلك من همومى هموم تُخرج الشَّجَن الدفينا
أرى ابنةَ يذْكُرٍ ظعنَتْ فحلَّتْ جنوب الحَزْنِ يا شحطا مبينا

وخطبها إلى أبيها فرفض أن يزوجه ، فقتله غيلة ، ثم قال :

فتاة كأن رضاب العصير بفيها يُعَلُّ به الزنجبيل
قتلت أباها على حُبها فتبخل إن بَخِلَتْ أو تنيل(٣)

(ط) ويلج الحب بالشاعر ، فيهيجه الحمام الذى ينوح على إلفه ، ويشاركه الشاعر مشاركة وجدانية ، لأن بينها رابطة الألم والحرمان من الحبيب .

---

(١) الأصمعيات لوليم البروسى ١ / ٧٢

(٢) ديوان عنترة ٥٢ الخزامى : نبت زهره أطيب الأزهار . عذارى وذات الأيادى : موضعان .

(٣) الأغانى ١١ / ١٥٤

قال عنترة :

وما شاق قلبي فى الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرند
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى كمثل الذى أخفى ويبدى الذى أبدى
فبـالله يا ريح الحجاز تنفسى على كبد حرى تذوب من الوجد(١)

وقال الأعشى :

ويوم الخـُرْجِ من قَرْماءَ هاجت صباك حمامةٌ تدعو حماما(٢)

وقال المرار الفقعسى :

تصيح إذا هجمت بدير توما حمامات يزدن الليـل طولا
إذا ما صِحْـنَ قلت أحس صبحا وقد غادرن لى ليلا ثقيلا(٣)

وعلى هذا التجاوب بين الشاعر المحب والحمام النائح قال الشاعر فيما بعد العصر الجاهلى :

رب ورقاء هتوف فى الصحا ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفـا وعيشـا سالفا وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبـكائى ربمـا أرقهـا وبـكاها ربمـا أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفهـا وهى أيضاً بالجوى تعرفنى
أتراها بالبـكا مولعـة أم سقاها البين ما جرعنى ؟

وهو يمتاز من شعراء العصر الجاهلى ببسطة القول وتوليد المعانى وقوة المشاركة الوجدانية بينه وبين الحمامة .

(ح) الوشاة

يأبى بعض الناس إلا أن يرنقوا على المحب صفوه ، غيرة منه أو حسداً له ، فيجدون فى الوقيعة بينه وبين حبيبته ، وهم أعداء المحب وأعداء المحبوبة . لذا أكثر

(١) ديوان عنترة ٦٥
(٢) ديوان الأعشى ١٣٤ (٣) معجم البلدان ٤ / ١٢٩

الشعراء من التبرم بهم ، وإن كان ذو الإصبع العدوانى قد غاظهم هو وحبيبته بتبهيتهم وتكذيبهم ، والثبات على صفاء غير مشوب :

فقد غَنِينا وشملُ الدار يَجمعنا   أطِيع ريًّا وريّا لا تعاصينى
نرمى الوُشاة فلا نُخْطِى مقاتلهم   بخالص من صفاء الود مكنون(١)

ولكن حبيبة قيس بن الحدادية صدقت الواشى لأنه بارع فى اختلاقه ، فبكت ، فدعا عليه قيس أن يبكيه الله حتى يجف دمعه . وأكد لحبيبته أنه لم يطلع أحداً على ما بينه وبينها :

بكت من حديث بثه وأشاعه   ورصَّعه واش من القوم راصع
بكَتْ عينُ من أبكاكِ لا يعرف البكا   ولا تتخالجْك الأمور النوازع
فلا يسمَعَنْ سِرِّى وسرَّكِ ثالث   ألا كلُّ سِرٍّ جاوز اثنين شائع
وكيف يشيع السرُّ منى ودونه   حجاب ومن دون الحجاب الأضالع(٢)

وكذلك فعلت قُتيلة محبوبة الأعشى ، فقد أخلفت موعده ولم يكن الخلف من شيمتها ، وهو لا يشك فى أن الوشاة هم الذين غيروها :

أخْلَفَتْنِى به قُتَيْلَةُ ميعا   دى وكانت للوعد غير كذوب
كنت أوصيتها بألا تطيعى   فىّ قولَ الوُشاة والتخبيب(٣)

وقطعت شعثاء محبوبة حسان ما كان بينهما من حب لأنها استمعت إلى الوشاة :

قد أدرك الواشون ما حاولوا   فالحبلُ من شعثاء رَثٌّ رَهام(٤)

وكذلك هجرت حاتما حبيبته متأثرة بالوشاة(٥)

لكن الأعشى لم يصدق الوشاة فعصاهم وسعى إلى من يحبها :

ومثلك خَوْدٍ بادن قد طلبتها   وساعيت مُعصيًّا إليها وشاتِها(٦)

---

(١) الأغانى ٣ / ١٠٤ والأمالى ١ / ٢٥٥   (٢) الأغانى ١٣ / ٦
(٣) ديوان الأعشى ٢١٩ وشعراء النصرانية ٣٧٤
(٤) ديوان حسان ١٠٠ رهام : ضعيف
(٥) ديوان حاتم ١٢   (٦) لسان العرب ١٩ / ١٠٩

أما حاجب بن حبيب الأسدى فقد صدقهم وهجر[١] .

واحترق عروة بن حزام بالوشاية والواشين فقد وشى به واشيان فأيأسهما من أن ينالا منه أو من عفراء ، وغاظهما بأن حبها قد هزله وقرح كبده وأبكى عينيه ، فهما يريدان أن يزول حبه فأكد لهما أنه لن يزول ، ثم زادهما غيظا بأن لعن الوشاة وفضولهم ، وترنيقهم على المحبين ، وعجب من ترصد الوشاة له واهتدائهم إليه من بعيد :

فيا واشيَيْ عفراءَ ويحكما بمَنْ · وما وإلى من جئتما تَشِيان ؟
بمن لو أراه غائباً لفديْتُه ومن لو رآنى غائباً لفدانى
أغرَّكما منى قميصٌ لبسته جديداً وبُرْدَا يُمْنَةٍ زَهَيانى
متى تَكْشِفا عنى القميص تَبَيَّنا بىَ الضُّرَّ من عفراء يا فتيانِ
إذن تريا لحماً قليلا وأعظما بَلِينَ وقلباً دائم الرَّجَفانِ
على كبدى من حب عفراء قُرْحَةٌ وعيناى من وجدى بها تَكِفان
ألا لعن الله الوشاةَ وقولَهُمْ فلانةُ أضحت خُلَّةً لفلانِ
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشَوْا بنا حتى أمَلَّ مكانى
تكنَّفنى الواشون من كل جانب ولو كان واشٍ واحدٌ لكفانى
ولو كان واش باليمامة أرضُه أحاذره من شُؤْمِهِ لأتانى[٢]

(د) العـــذال

يقول أبو بكر محمد بن داود الظاهرى :

« يبتلى المحب بمن يلوم فى حُبه ، ويريد أن يثنيه عن حِبه ، فإن كان حبه مكيناً ارتد عنه العازل خاسئاً وهو حسير ، ويتوهم بعض المحبين أن العزل زادهم تشبثاً بالمحبوب ، والحق إنه لم يزدهم شيئاً ، وإنما أثار العذل فى نفوسهم إشفاقاً على

(١) المفضليات ٢ / ١٧٠

(٢) تزيين الأسواق ٧٧ والنوادر ١٦٠

من عوتبوا فى محبته ، فيخافون أن يتأثروا بالعذل ، فيقاوموا ويتشبثوا بالمحبوب[1]»
لكن العزل لا يثير الإشفاق فحسب ، بل قد يزيد الحب ؛ لأن النفس مولعة بالعناد ، وهذا العناد يضخم محاسن المحبوب ويجسمها ، ويعظم من قيمة الوفاء فى نظر المحب .

قال المزرد بن منقذ إن عواذله مللن نصحه ، ولم يزايله حب سلمى إلا بعد المشيب :

صحا القلب عن سَلْمَى وملَّ العواذل ... وما كاد لَأْيًا حبُّ سلمى يُزَايل
فؤادى حتى طار غَىُّ شبيبتى ... وحتى علا وَخْطٌ من الشيب شامل[2]

ووجد القتال الكلابى أن السلامة والراحة فى أن يقلل صاحباه من لومه ، فإنه لا يعذل أحدا فلا يحب أن يعذله أحد ، ورجاهما أن يستحييا من عذله :

يا صاحبيَّ أقِلاَّ بعضَ إملالى ... لا تعذلانى فإنى غير عَذَّال
واستحييا أن تلوما أو ألومكما ... إن الحياء جميل أيَّما حال[3]

أما سوَّار بن المضرَّب فقد جبَه عاذلتيه بأنه لا يطيعها ، وطلب منهما أن تكفا عن عذله لأنه لا جدوى فيه وإنما الجدوى أن تعللاه بذكر حبيبته :

أعاذلتَىَّ فى سلمى دعانى ... فإنى لا أطاوع من نهانى
ولو أنى أطيعكما بسلمى ... لكنت كبعض من لا ترْشِدان
دعانى من أذاتكما ولكن ... بذكر المَذْحِجيَّةِ عللانى[4]

---

(١) الزهرة لابن داود الظاهرى ٣٢٥

(٢) المفضليات ١/٩١ لأيا : بعد جهد ومشقة . فؤادي مفعول يزايل . وخط الشيب : انتشاره فى الرأس .

(٣) معجم البلدان ٢ / ١٤٠

(٤) الأصمعيات . وليم البروسى ١ / ٧٣

(هـ) كتمان الحب

١ ــ لماذا يكتم المحب حبه ؟

هؤلاء وشاة يسعون بين المحب وحبيبته ، وهؤلاء عذال يلومونه أو يلومونها ، فالخير له ولها أن يكتم حبه عنهم ، ولكن هل يستطيع أن يكتم ؟ إن دلائل الحب لا تخفى ، وإن نظراته وإشاراته تنم عليه .

يقول ابن حزم « وللحب علامات يقفوها الفطن ، أولها إدمان النظر ، والعين باب النفس ، تنقب عن سرائرها ، وتعبر عن ضمائرها ، وتعرب عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال[١] » .

لكنه لا يستطيع أن يكتم حبه عمن أحبها ؛ لأن الكتمان « جبن قد يودى بالمحب الكتوم[٢] » . بل لأن الحب كما يقول توماس ديكر T. Dekker : مثل السن لا يمكن إخفاؤه[٣] .

٢ ــ مظاهر كتمان المحبين لحبهم

لهذا أقسم عروة بن حزام أنه لم يكشف لصديق عن سره ، لكنه قال له يوما — وهما على ناقتيهما — مالى أصبر على زفرات الضحا ولا أصبر على زفرات الليل ؟ :

فوالله ما حدَّثْتُ سرك صاحبا　　أخاً لى ولا فاهَتْ به الشفتان
سِوَى أننى قد قلت يوما لصاحبى　　ضُحاً وقَلُوصانا بنا تخِدان
تحملت زَفْرات الضحا فأطقتها　　ومالى بزفرات العشىِّ يدان[٤]

(١) طوق الحمامة لابن حزم ١٠

(٢) الزهرة لابن داود الظاهرى ٥١

(٣) Benhams New book of Quotations. P. 108

(٤) النوادر لأبى على القالى ١٦٠ وتزيين الأسواق . داود الأنطاكى ٧٨

وعنترة معجب بتجلده وكتمانه والتلبيس على عذاله وأعدائه :

إذا لعب الغرام بكل حُرٍّ حمدت تجلدى وشكرت صبرى
وفضلت البعاد على التدانى وأخفيت الهوى وكتمت سرى
ولا أبقى لعذالى مجالا ولا أشفى العدو بهتك سترى[١]

ويكرر ذلك[٢] .

ولقد يتسلل الواشى أو العاذل إلى الشاعر بأنه مخلص أمين ، يريده أن يبوح له بسره ، فيرده المسئول حيران لا يدرى شيئاً ، قال جابر بن الثعلب الطائى :

ومُسْتَخْبِرٍ عن سِرِّ ليلى رددته بعمياءَ عما سال غير يقين
فقال انتصِحْنى إننى لك ناصح وما أنا إن نبأْته بأمين
وقد علمَتْ ربَّا على النأىِ أننى لِمُسْتَوْدَعِ الأسرار غير خئون[٣]

وكتم عطارد بن مَرَّان حبه وإن دمعت عيناه[٤] .

٣ — لكن المحب كثيراً ما يعجز عن الكتمان . وكيف يكتم عاطفة غلابة لا طاقة له باحتباسها أو إخفاء مظاهرها ؟

يقول عنترة إنه عاجز عن كتمان حب تنطق آثاره :

وهيهات يَخْفَى ما أُكِنُّ من الهوى وثوب سقامى كلَّ يوم يُجَدَّد
أقاتل أشواقى بصبرى تجلدا وقلبى فى قيد الغرام مقيد[٥]

ويقول مرة أخرى إنه كان يخفى حبها ، ولكنه الآن يبوح به :

وقد كنتَ تخفى حب سمراء حِقْبَةً فبُح لآنَ منها بالذى أنت بائح[٦]

---

(١) ديوان عنترة ٨١
(٢) الديوان ٣٩
(٣) حماسة البحترى ٢٢٥
(٤) معجم البلدان ٢ / ١٨٩
(٥) ديوان عنترة ٧٤
(٦) ديوان عنترة ٤٢

(و) تبادل الحب

١ ــ الرجل العربى أهل لأن تحبه المرأة

تبين مما سبق أن العربى كان يتحلى بصفات نفسية تأخذ بمجامع قلب المرأة ، وكان فيه جمال أيضاً ، حتى لقد كان بعض الرجال يتعمم بمكة كيلا تفتتن النساء بجماله ، منهم على سبيل التمثيل « حنظلة بن عثمان ، والحضر ، والزبرقان ، وسبيع الطهوى ، وأعفر اليربوعى ، وقيس بن حسان بن عمر ، وزيد الخيل ، وعمر بن حممة وقيس بن سلمة ، وقيس بن الخطيم ، وامرؤ القيس بن حجر »[١] .

وقصة عمر بن الخطاب مع نصر بن سيار مشهورة ، وهى دليل على جمال بعض الرجال إلى درجة تخشى معها الفتنه ، فإذا كان الرجل قد أحب المرأة فإنها أيضاً قد أحبته ، ومن الطبيعى أن يفى كل منهما لصاحبه ، « لأن وفاء الإنسان لمن يفى له فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب ، لايحول عنه إلا خبيث المحتد لاخلاق له[٢] »

٢ ــ حبها له يسعده

ماذا يريد المحب غير الوصال ؟ إنه لا يريد غيره ، فإذا ما وصلته حبيبته انتشى وطرب وسعد ، وصور سعادته فى تعبير جميل ، وإذا ما قلته وصدت عنه ابتسر واكتأب واسودت الحياة فى عينيه ، وضج بشعر باك حزين .

يقول بارنفيلد Barnfild : « إذا ما اقترن السرور بالحب كان نعيماً ، وإذا ما اقترن به الألم كان جحيماً[٣] » .

يقول الأعشى إنها كانت تواصله وتعصى عواذلها :

إذ هى الهمُّ والحديث وإذ تَعْصِى إلىَّ مقالة العُذَّال[٤]

(١) المحبر لابن حبيب ٢٣٢
(٢) طوق الحمامة لابن حزم ٧٤
(٣) Benhams New Book of Quotations. P. 17
(٤) ديوان الأعشى ٥

ويقول طرفة إنها كانت تمنيه ، وتحقق ما تمنّى :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى ... وإذ حَبْلُ سلمى منك دانٍ تواصله
وإذ هى مثل الرِّئْمِ صيد غزالُها ... لها نظرٌ ساجٍ إليك تواغله
غنينا وما نخشى التفرق حقبة ... كلانا غرير ناعم العيش باجله
ليالى أقتاد الصِّبا ويقودنى ... يجول بنا ريعانه ونحاوله (١)

وربما تعد وتفى بوعدها ، قال الأعشى :

أخلفتنى به قُتَيْلَةُ ميعا ... دى وكانت للوعد غير كذوب
كنت أوصيتها بألا تطيعى ... فىَّ قولَ الْوُشاةِ والتَّخْبِيب (٢)

وقد تحدث بعض الشعراء عن حب حبيباتهم لهم فى تصوير عابر عجلان ، فسلامة بن جندل يقول إن الطلل لأسماء التى تهوى أن يواصلها :

لأسماء إذ تهوى وصالك ، إنها
كذى جُدَّةٍ من وحشِ صارةَ مُرْشِقِ (٣)

وقيس بن الحدادية اعتزم الرحلة فبكت حبيبته ، واستحلفته أن يبين لها موعد عودته ، فلما لم يستطع غضبت وتلثمت وبكت :

فقالت وعيناها تفيضان عَبْرَةً ... بأهلى بَيِّنْ لى متى أنت راجع ؟
فقلت لها تالله يدرى مسافر ... إذا أضمرته الأرض ما الله صانع
فَشَدَّت على فيها اللثام وأعرضت ... وأمعن بالكحل السحيق المدامع (٤)

ولما اعتزم أهل الحارثية حبيبة سلامة بن جندل أن يرحلوا ، حزنت لأنها لا تريد فراقه :

هاج المنازلَ رحلةُ المشتاق ... دِمَنٌ وآياتٌ لبثن بواقى

---

(١) ديوان طرفه ٣٨ تواغله : تسارقه . باجل : حسن
(٢) شعراء النصرانية ٣٧٤ ومعجم البلدان ٣ / ٤٣٦ وديوان الأعشى ٢١٩
(٣) ديوان سلامة بن جندل ١٦ . المرشق : الظبية التى تمد عنقها لتنظر .
(٤) الأغانى ١٣ / ٧

للحارثية قبل أن تنأى النوى بهم وإذ هي لا تريد فراق [١]
وعبلة وعدت عنترة أن يلقاها غداً بمنعرج اللوى [٢] .

وقد قص بشامة بن عمرو ما حدث إذ ارتحل ، وصور حبيبته تسائله وتألم من رحلته وتبكي :

هجرْتَ أمامةَ هجراً طويلاً وحمَّلكَ النأيُ عبئاً ثقيلا
وحُمِّلْتَ منها على نأيها خيالاً يوافي ونَيْلاً قليلا
ونظرةَ ذي شَجَنٍ وامقٍ إذا ما الركائب جاوزن ميلا
أتتنا تسائل ما بثُّنا فقلنا لها : قد عزمنا الرحيلا
فبادرتاها بمستعجلٍ من الدمع يَنْضَحُ خدا أسيلا [٣]

والمرأة هي المرأة ، تحب فتتبدع الحيلة ، وتخترع الوسيلة ، حيلة تخفى ، ووسيلة لا تنكشف إلا للحبيب ، فقد تمارضت حبيبة عنترة ليزورها ، فزارها فأسقمته نظراتها الساحرة :

شكت سَقَماً كيما تعاد وما بها سوى فَتْرة العينين سُقْمٌ لعائد [٤]

ولقد يصطبغ حبها بصبغة أخرى فتبين آثاره ولا يبين ، كأن تحرص على سلامة الحبيب ، فتخاف عليه من الغارة أن يقتل فتحرم منه ، ولكنه يعصيها ويغامر ، قال عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفني الحتوفَ كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنيـة مَنْهَلٌ لا بدَّ أن أُسقَى بكأس المنهل [٥]

وقد يقال إن هذا تخيل من الشاعر يريد أن يتطرق منه إلى الفخر بشجاعته ، وأنا لا أنكر ذلك ، ولكنه على الحالين تصوير لإشفاق الحبيبة على حبيبها سواء

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ (٢) ديوان عنترة ٧٠
(٣) المفضليات ١ / ٥٤ : وامق : شديد الحب . ما بثنا : ما حالنا . بادرتاها : الضمير عائد على عينيها ولم يسبق ذكرها . ينضح : يبلل . الخد الأسيل : اللين المستوى الدقيق .
(٤) ديوان عنترة ٧٣ فترة العينين : فتور النظرات وسحرها .
(٥) ديوان عنترة ١٢٠

أكان حقيقيا أم متخيلا . وهذه قصة لا تخيل فيها ، فقد أغار رجل من همدان اسمه حريم على إبل وخيل لعمرو بن براق ، وذهب بها ، فأتى عمرو امرأة كان يهواها فأخبرها بما حدث ، وأعلمها أنه يريد الغارة على حريم فقالت له : ويحك لا تتعرض لتلفاته فإنى أخافه عليك ، نخالفها ، وأغار عليه فاستاق كل شيء له . فأتاه حريم يطلب أن يرد عليه ماأ خذه منه فقال : لا أفعل ، وأبى عليه فانصرف . وفى ذلك يقول عمرو بن براق :

تقول سليمى لا تَعَرَّضْ لتَلْفَةٍ   وليلك عن ليـل الصعاليك نائم

ثم افتخر بسيفه وشجاعته وقلة نومه[1] .

لكن تبادل الحب ليس قاعدة ، فقد يحب الرجل من لا تحبه ، وقد حاول أن يعلل ذلك ابن حزم فى قوله إن المحبة ربما لا تتساوى عند المتحابين « لأن بعض النفوس قد تكتنفها أعراض ساترة وحجب محيطة ، فلا تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى هذا الجسم ، ولو تخلصت لتساويا فى الاتصال والحب ، ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له[2] » وهذا التعليل مشتق من نظريته التى تحدث عنها . ولكن الواقع أن المرأة ربما لا تجاوب الرجل حبه ؛ لأنه لا يحقق مثلها الأعلى أو لأنها مشغوفة بغيره ، أو لغير هذين من الأسباب ، والأعشى يصور هذه الحالة تصويراً لطيفاً فى قوله :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا   غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل
وعُلِّقَتْهُ فتـاةٌ ما يحاولها   ومن بنى عمها مَيْتٌ بها وَهِل
وعلقتنى أُخَيْرَى ما تلائمنى   فاجتمع الحب حباً كله تَبِل
فكلنا مُغْرَمٌ يَهْذِى بصاحبه   ناءٍ ودانٍ ومخبولٌ ومختبل[3]

وليس أقتل فى نظر المحبين من حب لا مبادلة فيه ، قال طرفة إن الوت

(١) الأغانى ٢١ / ١١٣
(٢) طوق الحمامة ٧   (٣) ديوان الأعشى ٤٣

— وهو أقسى عقوبة — أهون منه :

لعمرى لموت لا عقوبة بعده لدى البثّ أشفى من هوًى لا يزائله
فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نحبه وَجْداً عليها مرقش وعُلِّقْتُ من سلمى خَبالا أماطله[(1)]

ولكن الشعراء الجاهليين ، أقلوا من تصوير الحبيبات مبادلات لهم حباً بحب ، وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من ذلك ، لأن العرب حراص على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنّعة البعيدة المنال ، وهم يجدون فى تصويرها طالبة للرجل أو متهالكة عليه غضًا من حيائها وأنوثتها ، وإعجاباً من الرجل بنفسه لأنه يتغزل فى شخصه لا فى حبيبته .

وإذا كان عمر بن أبى ربيعة قد أكثر من هذا نحو قوله :

قالت لِتِرْبٍ لها تحدثها لَنُفْسِدَنَّ الطواف فى عمر
قومى تصدَّىْ له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبَطَرَّتْ تَسْعَى على أثرى[(2)]

وكرر مثل ذلك[(3)] ، فقد كان خارجاً على الذوق العربى حتى فى العصر الإسلامى . ولذا استهجن كثير قوله : « ثم اسبطرت تسعى على أثرى » وفى رواية أخرى : « ثم اسبطرت تشتد فى أثرى » . وقال : « لقد أسأت وقلت الهجر ، ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع[(4)] » .

وقال ابن عتيق لما أنشده أبياتاً منها :

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر ؟

أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت

---

(١) ديوان طرفة ١٢٠ خبال : فساد عقل
(٢) لأغانى ١ / ١٠٣
(٣) الأغانى ١ / ١١٩ ، ٩٤ ، ٨٥
(٤) الأغانى ١١ / ١١

لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه[١] .

(ز) الفراق : الهجر والرحلة

١ — لم يتألمون منه ؟

الفراق جحيم لا يطيقه المحب ، لأن القرب يحييه ، سواء أكان يسعد باللقاء أم يأمل أن يسعد ، بل إن القرب يندى حرارة قلبه وإن لم يأمل أن يلتقى محبوبته ، ويكفيه أنه يحيا بقربها ، ويتنفس من الجو الذي تمطره بأنفاسها .

على أن « الفراق مستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق فى وصفه[٢] » .

ولكن الحياة العربية كانت ذات نجعة وتنقل ، فكان فراق الحبيبة كثير الحدوث متوقعه ، وسأبين فى تأثر الغزل بالحياة البدوية أن هذا الترحال أوحى بنزل باك متفجع .

« ورحيل المحب أو المحبوب من المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب عين كل جمود ، ويظهر مكنون الجوى . ولعمرى لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً . . . . وإنها ساعة ترق القلوب القاسية ، وتلين الأفئدة الغلاظ ، وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لهاتكه حجاب القلب وموصلة إليه كثيراً من الجزع[٣] » .

٢ — تشاؤمهم بنعيب الغراب :

وقد كرهوا الغراب ، وتشاءموا بنعيبه ، لأنهم اعتقدوا أنه ينذرهم بفراق الأحباب[٤] ، وكيف لا وقد اشتقت من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[٥] ، واغتراب الأحباب[٦] ، وقد فصلت ذلك فى كتاب آخر[٧] . ويكفى هنا قول

---

(١) الأغانى ١ / ١١٩

(٢) الزهرة ١٩٢

(٣) طوق الحمامة ٨٥

(٤) الحيوان للجاحظ ٣ / ١٣٦

(٥) الحيوان ٣ / ١٣٥

(٦) ديوان حسان ١٢

(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٧٩ — ٣٨١

عنترة إن الغراب الأبقع قد أنذره ببين أحبابه ، وإنه غراب كريه المنظر منسول الريش مولع بتفريق الأحبة ، كأن فكيه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فِرَاقُهُمْ أتوقَّعُ ... وجرى ببينهم الغراب الأبقعُ
حَرِقُ الجناح كأن لَحْيَيْ رأسه ... جَلَمان ، بالأخبار هَشٌّ مولع
فزجرته ألا يُفرِّخَ عُشُّهُ ... أبدا ويصبح خائفا يتفجع
إن الذين نعبت لى بفراقهم ... هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا[1]

٣ — تصوير ألمهم من الرحلة :

وقد برع الشعراء فى تصوير آلامهم من الرحله ، وافتنوا فى هذا التصوير . قال سويد بن أبى كاهل إنها رحلت وقلبه مقيد معها ولن يرُد :

بَكَرَتْ مُزْمِعَةً نيَّتَها ... وحدا الحادى بها ثم اندفع
وكريمٌ عندها مُكْتَبَلٌ ... غَلِقٌ إثْرَ القطين المتبَّع[2]

وبشر بن أبى خازم يرى قوم الحبيبة مرتحلين ، وينظر ولكن يكذب نفسه لأنه لا يريد أن يوقن برحلتهم ، فيسأل صاحبه أحقًّا هم مرتحلون ؟ ويتابعهم بنظره ودمعه القانى ، ولعله ساءل صاحبه أيضاً ليعمى عليه فلا يفطن إلى وجده الذى يخفيه .

ألا بأن الخليطُ ولم يُزاروا ... وقلبك فى الظعائن مستعار
أسائلُ صاحبي ولقد أرانى ... بصيراً بالظعائن حيث ساروا
فَلاَياً ما قَصَرْتُ الطَّرف عنهم ... بقانيةٍ وقد تَلَعَ النهار[3]

(١) ديوان عنترة ١٠٣ الأبقع : الذى فيه بقع . حرق الجناح : نسل شعره وتقطع وصفه بهذا تطيراً به . لحياه : جانبا وجهه . الجلم : المقص الكبير . شبه منقاريه إذا نعب بالجلمين لأنها يفرقان مثلهما . ألا يفرخ عشه : يصير وحيداً . فزجته : تطيرت عليه .

(٢) المفضليات ١/١٩٤ مكتبل : موثق ومقيد ، يريد أن قلبه معها . غلق : ذاهب . القطين : الأهل والحشم .

(٣) المفضليات ٢ / ١٣٨ الخليط : الأحباب . قانية : عين محمرة من الدمع ، وقد فسرها شارحا المفضليات بأنها ماء لبنى سليم . تلع النهار : ارتفع.

وكذلك تابع الحادرة ركب المحبوبة بنظره الذى لا يطرف[١] .

وصور بعضهم الفراق أليماً حتى لقد تمنوا الموت قبل أن يصطلوا بناره . قال قيس بن الحدادية : إنه كان يؤثر أن يموت ذبحاً :

وإن الذى أمَّلْتُ من أم مالك ... أشاب قَذالى واستهام فؤاديا
فليت المنايا صبَّحَتْنى غُدَيَّةً ... بذَبْحٍ ولم أسمع لبَيْنٍ مناديا
وقد أيقَنتْ نفسى عشية فارقوا ... بأسفل وادى الروح أن لا تلاقيا
إذا ما طوالِحُ الدهر يا أم مالك ... فشأنُ المنايا القاضيات وشانيا[٢]

وجعله أوس بن حجر هلا كا .

وكان له الحَيْنَ المتاحَ حُمولُها ... وكل امرىء رهنٌ بما قد تحملا[٣]

وأيقن حسان بن ثابت لما رأى قوم الحبيبة يقوضون خيامهم بفرقة تشمل رأسه شيباً :

وأيقَنْتُ لما قوّض الحيُّ خيمَهمْ ... بِرَوْعات بَينٍ يترك الرأس أشيبا[٤]

وجزع عروة بن حزام من البين ، وتمنى لو أن الغربان تأكله على أن تبقى جنبيه ، يريد ألا تأكل قلبه لأن فيه عفراء :

ألا يا غُرابَىْ دِمْنَةِ الدار بيِّنا ... أبا لهجر من عفراء تنتحبان ؟
فإن كان حقاً ما تقولان فاذهبا ... بلَحْمِى إلى وَكْرَيكُما فكُلانى
كُلانى أكلاً لم يَرَ الناسُ مثله ... ولا تَهضِما جَنْبَىَّ وازدردانى
ولا تُعلِمَانِ الناس ما كان قصتى ... ولا يأكُلَنَّ الطير ما تَذَران[٥]

وجعل ربيعة بن مقروم الفراق ذاهباً بعقله[٦] .

---

(١) المفضليات ١ / ٤٢
(٢) الأغانى ١٣ / ٧
(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٠
(٤) ديوان حسان ١٢ الخيم : الخيام .
(٥) النوادر ١٦٠ وتزيين الأسواق ٧٧
(٦) المفضليات ٢ / ١٣

وصور بشر بن أبى خازم عقله ذاهباً أيضاً :

فظللتَ من فَرْط الصبابة والهوى طَرِفاً فؤادك مثل فعل الأَيْهَـمِ(١)

ويصور امرؤ القيس حزنه وبكاءه حين الفراق بقوله :

كأنى غـداة البَـيْنِ يوم تحَـمَّلوا لدى سَمُـرات الحىّ ناقف حنظل(٢)

٤ — تذرع المحب بألمه حين الفراق لتنيله الحبيبة .

وإذا كان من خلق الحبيبة الاحتجاز والامتناع والدل فإن المحب يتذرع إليها حين الفراق بشوقه ولهفته لعلها أن تنيله بعض الوصال .

قال المثقِّب العبدى :

أفاطم قبـل بَـيْنك متِّعينى وَمَنْـعُكِ ماسألت كأنْ تَبينى
ولا تعِـدى مواعدَ كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصيف دونى
فإنى لو تخالفنى شِمــالى عنـادك ما وصَـلْتُ بها يمينى
إذاً لقطعتهــا ولقلت بينى كذلك أجتوى من يجتوينى(٣)

٥ — عاطفة الشاعر بعد الفراق .

(ا) وتفارق الحبيبـة حبيبها فلا يفتأ يذكرها ويحن إليها ، ويدعو لدارها بالسقيا ، قال النابغة :

سَـقَى دَارَ سُـعْدَى حيث حلت بها النوى
فأَفْـعَمَ منهـــا كل رَبْعٍ وفَدْفد(٤)

---

(١) المفضليات ٢ / ١٤٦ الأيهم : المجنون .

(٢) الديوان ١٢٤ سمرات : شجرات من نوع يشبه السنط . ناقف حنظل : من يشق الحنظل بأسنانه فتدمع عيناه .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٨ ومنعك ما سألت كان تبينى : بخلك بتمنيعى يماثل الفراق . وشطر البيت فى الطبقات كان (ومنعك ما سألتك أن تبينى) ولا معنى له . رياح الصيف : خصصها بالذكر لأنها تثير الغبار ولا تمطر . أجتوى : أكره .

(٤) ديوان النابغة ٥٠ ربع : منزل . فدفد : فلاة أو المكان الصلب الغليظ ، والمرتفع والأرض المستوية .

(ب) ويكره المكان الذى نأته به ؛ لأنه مرتبط بذكرى مرة ، قال عبيد :

وحنت قلوصى بعد وَهن وهاجها مع الشوق يوماً بالحجاز وميض
فقلت لها لا تضجرى إن منزلا نأتنى به هند إلىَّ بغيض[١]

(حـ) ويستشرف من بعيد لعله يرى ناراً فى ربعها ليأنس برؤيتها ، كأنها حبل يصل بينهما ، قال الصمة بن عبد الله القشيرى :

نظرْتُ وطرف العين يَتَّبعُ الهوى بشرقى بُصْرَى نظْرةَ المتطاول
لأبصر ناراً أوقدت بعد هَجْعَةٍ لِرَيَّا بذات الرِّمْثِ من بطن حائل[٢]

(ء) يشيم البرق من ناحيتها .

ويتحسس مهب النسيم لعل نسمة تمر به حاملة شذى محبوبته ، ويشيم البرق إذا أومض من ناحيتها . قال ضبعان بن عَبَّاد النميرى :

ألا حبذا البرق اليمانِى وحبذا جَنوبٌ أتانا بالغَبيط نسيمها
هى المسك أو أشهى من المسك نشوة إذا هى اُشْمَّتْ لو يُنال شميمها[٣]

(هـ) يرتاح إلى ريح الصبا .

وهم جميعا تهيج ذكراهم إذا ما هبت الصَّبا ، فما الصبا ؟ ومن أين تهب ؟ ولم أولعوا بها ؟ ولم اقترنت بذكرى الحبيبة ؟

قال النويرى : إنها ريح تهب من المشرق إلى المغرب . وسميت كذلك لأن النفوس تصبو إليها ، لطيب نسيمها وروحها . والعرب تحبها لرقتها ، ولأنها تجىء بالسحاب ، وفيها المطر والخصب[٤] . ونقل عنه الألوسى تعريفه لها وسبب حب العرب لها[٥] ويظهر أنها اقترنت بذكر الحبيبة لأنها نوع من نسيم البحر يهب على الصحراء بعد توهجها فيلطف الجو ، ويبعث فى النفس نشاطا وخفة فتصفو من أوهاق الحر وضيقه ، وإذاً تنتعش النفس وينطلق الخيال ، وتتوافد الأحلام

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ١٠ قلوصى : ناقتى الفتية ، وهن : نصف الليل أو بعده بقليل
(٢) معجم البلدان ٢ / ٢١٨ (٣) معجم البلدان ٢ / ١٠٠
(٤) نهاية الأرب للنويرى ١ / ٩٥
(٥) بلوغ الأرب للألوسى ٢ / ٣٧٣

والذكريات والأمانى ، وإن حملت الصبا مطراً تمنى الشاعر أن يجود ديار المحبوبة لأنه الخير العظيم الذى يتمناه الحبيب لحبيبه ، ولأن نزوله يبهج المحب فيود أن تشترك معه فى بهجته حبيبته . قال طرفة فى هجاء عبد عمرو بن بشر بن مرثد :

فأنت على الأعلى شمالٌ عريَّه شآمية تَزْوِى الوجوه بليل
وأنت على الأقصى صَباً غير قَرَّةٍ تَذَاءبُ ، منها مُرْزِغٌ ومُسيل[١]

فريح الشمال مكروهة لبرودتها وذهابها بالغيم والخصب ، وهى عندهم الشامية[٢] وريح الصبا محبوبة لأنها بشير الخير .

٣ — والمحب يستطيل الأيام وإن قصرت ، قال قيس بن الحدادية :

وحسبك من نَأْىٍ ثلاثة أشهر ومن حَزَنٍ أن زاد شوقك رابع[٣]

لذا يمنى نفسه شتى الأمانى ، فيرجو الحادرة أن يلقاها يوم الدوار :

أمست سُمَيَّةُ صَرَّمَتْ حبلى ونأت وخالف شكلها شكلى
ورجاؤهم يومَ الدَّوار كما يرجو القامر نَيْلَةَ الخصْل[٤]

وإذا ما هدل حمام أو رجع طير هاج شوقه وذكراه . قال عنترة :

وما شاق قلبى فى الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرَّند
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى كمثل الذى أخفى ويبدى الذى أبدى[٥]

وكذلك اهتاج شوق الأعشى[٦] .

---

(١) ديوان طرفة ٧٨ شمال عرية : ريح من الشمال باردة . تزوى الوجوه : تقبضها . بليل : باردة : تذاءب . تجىء من هاهنا مرة ومن هاهنا مرة : مرزغ : قليل من المطر أوهو دون السيل .

(٢) بلوغ الأرب ٣ / ٣٧٣ (٣) الأغانى ١٣ / ٦

(٤) ديوان الحادرة ١٤ يوم الدوار : يوم الطواف بالأصنام . نيلة الخصل : كما يرجو المقامر أن ينال الغلب ، لأن النيلة ما يناله الإنسان والخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس ، وأحرز نصله أى غلب . يشك الشاعر أو ييأس من لقاء الحبيبة يوم الدوار كما يشك لاعب القمار فى فوزه . وفى الديوان (نيل)

(٥) ديوان عنترة ٦٦

(٦) ديوان الأعشى وشعراء النصرانية ٣٨٦

٦ — تجلد بعضهم عند الرحيل . ورحلة بعضهم للتسلى

على أن بعضهم يتجلد عند الرحيل فلا يبكى أنفة ، أو إخفاء لما به عن الناس قال أوس بن حجر :

لا تحزُنيني بالفراقِ فإنني ... لا تستهلُّ من الفراق شئوني [1]

وقال عنترة إنه يدّرع بالصبر :

إذا رشقت قلبي سهام من الصد ... وَبدّلَ قربي حادثُ الدهر بالبعد

لبست لها دِرعا من الصبر مانعا ... ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدى

وبت بطيف منك يا عبل قانعا ... ولو بات يسرى فى الظلام على خدى [2]

وكذلك عزى نفسه وتجلد النابغة [3] والأعشى [4] .

وبعضهم يضرب فى الأرض ليتسلى ويرى مناظر وأحوالا تنفس عنه . قال بشامة بن عمرو :

وما كان أكثرُ ما نوّلَتْ ... من القول إلا صِفاحاً وَقِيلا

كأن النّوى لم تكن أصْقَبَتْ ... ولم تأتِ قومَ أديمٍ حُلولا

فقربت للرحل عَيْرَانَةً ... عُذَافِرَةً عَنْتَرِيساً ذَمُولا [5]

وصرح المسيب بن علس بأن الرحلة للتسلى :

فتسلَّ حاجَتَها إذا هى أعرضت ... بخميصة سُرُحِ اليدين وَسَاعِ [6]

وصرح لبيد بأن الرحلة كانت مسلاة له إذا هجر :

وكنت إذا الهموم تحضّرَتْني ... وَصدّت خُلَّةٌ بعد الوصال

صرمت حبالها وصددت عنها ... بناجية تَجِلُّ عن الكلال [7]

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٢٩ (٢) ديوان عنترة ٦٥

(٣) ديوان النابغة ٥٣ (٤) شعراء النصرانية ٣٧٠

(٥) المفضليات ١/٥٤ . صفاح : إعراض . عيرانة : ناقة صلبة كالعير . عذافرة : شديدة. عنتريس : جريئة قوية . ذمول : سريعة .

(٦) المفضليات ١/٥٩ وساع : واسعة السير . سرح اليدين : منسرحة الضبعين فى المشى.

(٧) معجم البلدان ٢ / ١٤٨ خلة : حبيبة ناجية : ناقة سريعة .

وكثير من الشعراء رحلوا للنسابة كربيعة بن مقروم[١] والمثقب العبدى[٢] وبشر بن أبى خازم[٣] والمرقش الأكبر[٤] .

٧ — رحلة بعضهم وراء المحبوبة .

ولم يطق بعضهم صبراً فرحل وراء المحبوبة ، يصور ذلك قول النابغة :

فلأيا بعد لأى الحقتنى بأولى الظعن ذعلبة أمون[٥]

والمثقب العبدى أضجر ناقته من كثرة مارحل :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضينى أهذا دينه أبدا ودينى ؟

أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى على وما يقينى ؟[٦]

٧ — علاج الحب .

مسكين هذا العاشق . يحيا لحبه وحبيبته ولا يرى الحياة إلا بعينيها . ولا يأنس إلا بقربها ، فهو كما قالت أعرابية للعتبى : « مسكين ، كل شىء عدوه ، هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، ورسوم الديار تحرقه ، والعذل يؤلمه ، والتذكير يسقمه . وإذا دنا الليل منه هرب النوم عنه[٧] » .

لهذا لجأ الحريصون على حياته إلى علاج أساســه الوهم والإيحاء ، فيرقونه أو يسقونه ماء السلوة — أو السلوانة — وهى خرزة شفافة يسقاها فتسليه ، أو تسحق ويشرب ماؤها فيسلو شاربه عن حب ابتلى به :

ياليت أن لقلبى من يعلله أو ساقيا فسقانى عنك سلوانا

وأنشد ابن برى :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى

(١) المفضليات ١ / ١٧٩ (٢) المفضليات ٢ / ٩٠
(٣) المفضليات ٢ / ١٤٦ (٤) المفضليات ٢ / ٢٩
(٥) ديوان النابغة . ذعلبة : ناقة سريعة . أمون : متينة الجسد .
(٦) المفضليات ٢ / ٩١ الوضين : الحزام . درأت : مددت وشددت .
(٧) أخبار النساء لابن قيم الجوزيه ٣٤

فما تركا من رقيـة يعلمانهـا ولا سَلْوة إلا بها سقيانى[1]

(ج) الظعائن والهوادج

ترتحل المرأة الحبيسة فى ركب صواحبها فيشهد المحب هذا الركب فيحترق قلبه ، ويشد نظراته بهودج المحبوبة ويعلق به ، ولا ينسى فى هذا الموقف أن يصف الهوادج والنساء وصفاً فيه تفصيل أحياناً وإجمال أحياناً ، ولا ينسى أيضاً أن يذكر الطريق أو الطرق التى سيقطعها الركب فى دقة وإحاطة كأنه جغرافى يرسم طريق السير . وهو فى موقفه هذا يصور حزنه ووجيعته من هذا الرحيل كما سبق .

١ — ذكر الشعراء طريق الظعائن فى تفصيل كأنهم يتعزون حيناً بمرافقتهم لهن فى رحيلهن حين يتابعونهن بخيالهم فى الانتقال من مكان إلى مكان ، قال المثقِّب العبدى :

لمن ظُعُنٌ تطالع من ضُبَيبٍ فما خَرَجَتْ من الوادى لِحين
مررن على شراف فذاتِ رَجْل ونكَّبن الذَّرارِحَ باليمين
وهن كذاك حين قطعن فَلْجاً كأن حُمولهن على سَفين[2]

وقال عبيد :

تبصر صاحبي أترى حُمولا تساق كأنهـا عوم السفين
جعلن الفج من رَكَكٍ شمالا وَنكبنّ الطَّوِىَّ عن اليمين[3]

وكذلك ذكر زهير طريق الرحلة فى تفصيل[4]:

٢ — تشبيه الحدوج

وشبهوا الحدوج بالسفن ، وفى هذا تصوير لضخامتهـا وغنى أهل الحبيبة ،

(١) لسان العرب ١٩ / ١١٩
(٢) المفضليات ٢/٨٨ خبيب : موضع . لحين : بعد حين وإبطاء . شراف وذات رجل والذرائح : مواضع. نكبن : عدلن عنه .
(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣
(٤) شرح المعلقات العشر للشنقيطى ١٨

وفيه تصوير آخر لنفسية القائل ؛ لأن السفينة تفرق الأحباب ، والناقة مركب البين ، قال طرفة :

كأن حُدوجَ المالكية غُدْوَةً ... خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أو من سفين ابن يامنٍ ... يَجُور بها المَلَّاح طَوْراً ويهتدى
يشق عبابَ الماء حيزومُها بها ... كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ باليد[1]

وقال المثقب العبدى :

وهُنَّ كذاك حين قطعن فَلْجاً ... كأن حُمولَهن على سفين
يُشَبَّهن السَّفِينَ وهُنَّ بُخْتٌ ... عُراضاتُ الأباهر والشئون[2]

وكذلك شبهها معن بن أوس[3] والنابغة الذبيانى[4] .

وشبهها آخرون بالنخل ، يصورون علو الهوادج ، واهتزازاتها ، كما تُهَزْهِز الريح النخيل ، قال امرؤ القيس :

وحدَّثْ بأن زالت بليل حُمولهم ... كنخل من الأعراض غير منبَّقِ[5]

وجمع معن بن أوس الصورتين ، فشبه الحدوج بالسفائن والنخيل :

بعينيك راحوا والحدوجُ كأنها ... سفائن أو نخلٌ مذلَّلَةٌ عُمُ[6]

وكذلك النابغة[7]

وشبهها آخرون بشجر الدَّوم ، قال عمرو بن شاس :

ومن ظعن كالدَّوم أشرف فوقها ... ظباء السُّلَىِّ واكنات على الخمْل[8]

---

(١) ديوان طرفة ٦ الخلايا : السفن العظام . النواصف : متسع الأدوية أو مجارى الماء إلى الأدوية . دد : اسم موضع . عدولية : نسبة إلى قرية بالبحرين تسمى عدولى . ابن يا من : ملاح من هجر .

(٢) المفضليات ٢/٨٨ . بخت : جمال طوال الأعناق . عراضات : عريضات . الأباهر : الظهور . الشئون : مجارى الدموع إلى العينين أو شعب الرأس .

(٣) ديوان معن بن أوس ٣ (٤) ديوان النابغة ٥٦

(٥) ديوان امرىء القيس ١١٧ غير منبق : غير مسطور فى سطر واحد .

(٦) ديوان معن بن أوس ٣ (٧) ديوان النابغة ٥٣

(٨) السلى : اسم موضع . واكنات على الخمل : جالسات على الطنافس . الوكن : عش الطائر .

فشبه الهوادج بشجر ، وشبه النساء بظباء ، وصور جلستهن فى الهوادج على الطنافس فى دعة وأمن بطيور فى أعشاشها . وشبهها المرقش الأكبر بالدوم والسفن[١] .

وجمع امرؤ القيس الصور الثلاث ، فشبه الهوادج بالدوم وبالسفن وبالنخيل .

فشبهتهم فى الآل لما تَكَمَّشوا حدائقَ دَوْمٍ أو سفينا مُقَيَّرا
أو (المُكْرَعَاتِ) من نخيل ابن يامنٍ
دُوَيْنَ الصَّفا اللائى يَلِينَ المُشَقَّرا

وأوغل فى وصف النخيل[٢] .

وقد ظل هذا التصور والتصوير إلى ما بعد الجاهلى ، فمثلا نابغة بنى شيبان يقول :

كواعب أتراب كأن حمولها من النخل عُمْرِىُّ النخيل المواقرُ
تَمَلَّقَ ديباج عليهن باجلٌ وعَقْلٌ ورَقْمٌ يملأ العين فاخرُ[٣]

٣ — عزة الظعائن :

ووصفوا الظعائن بأنهن عزيزات مكرمات محميات ، فهن كما قال عنترة :

حفت بهن مَنَاصِلٌ وذوابلٌ ومشت بهن ذَوامل ونواجى[٤]

٤ — غطاء الهوادج

وكثيراً ما استرعت فُرُش الحدوج وأغطيتها أنظار الشعراء الغزلين وقلوبهم ،

---

(١) المفضليات ٢ / ٢٧ .

(٢) ديوان امرىء القيس ٦٧ تكمشوا : جدوا فى سيرهم . مقير : مطلى بالقار . مكرعات : نابتات على الماء . ابن يامن : رجل له نخيل بهجر . المشقر : حصن بين نجران والبحرين

(٣) ديوان نابغة بنى شيبان ١٣ عمرى : قديم . مواقر : مثقلات . باجل : حسن ناعم . عقل : ثوب أحمر تجلل به الهوادج أو هو ضرب من الوشى يكون نقشه طولا . الرقم : ضرب من الوشى يكون نقشه مستديراً .

(٤) ديوان عنترة ٣٨ مناصل : سيوف . ذوامل : سريعات وكذلك نواج .

فذكروها ، ولقد يدهش بعضنا من هذا الترف الذى كان يستمتع به كثير من سكان البادية ، ولكن الذى يعرف حياة ذوى اليسار من سكان البوادى فى العصر الحاضر ، والذى درس حياة الموسرين من العرب فى الزمن القديم ، لا يجد فيما ذكر الشعراء إلا تصويراً صادقاً لما رأوا .

قال المسيب بن علس :

ولقد أرى ظُعُناً أُخَيِّلُها   تَحْدِى كأن زُهاءها نَخْلُ

فى الآل يرفعها ويخفضها   رِيعٌ كأن متونه سَحلُ

عَقْلاً ورَقْماً ثم أَرْدَفَهُ   كِلَلٌ على أطرافها الخَمْلُ (١)

وأجمعوا على أن غطاء الهوادج أحمر ، ويظهر أنه كان أحب الألوان إلى العرب كما سبق فى ملابس المرأة ، ووصفوه بأنه منقوش طولا وعرضاً .

قال امرؤ القيس :

عَلَوْنَ بأنطاكيَّة فوق عِقْمة   كِجرْمَةِ نخل أو كجنة يثرب (٢)

وقال علقمة :

عَقْلاً وَرَقْماً تظل الطير تتبعه   كأنه من دم الأجواف مدموم (٣)

ومن ترف المرأة وغنى آلها أن تكثر أغطية الهودج وأستاره ، وأن تكون مرقشة ، قال عبيد :

عالَيْنَ رقماً وأنماطاً مُظَاهَرَةً   وكِلَّةً بعتيق العقل مقرومة

للعبقرىِّ عليها إذ غدوا صَبَحٌ   كأنها من نجيع الجوف مدمومه (٤)

---

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٧ ريع : تل مرتفع أو فج وطريق. سحل: ثوب لا يبرم غزله . العقل :وشى مستطيل أوثوب أحمر تجلل به الهوادج . الرقم: ضرب من الوشى نقشه مستدير .

(٢) ديوان امرىء القيس ٣٢ أنطاكية : منسوجة بأنطاكية . العقمة : ضرب من الوشى . الجرمة : ما صرم من البسر .

(٣) ديوان علقمة ١٣ مدموم : مصبوغ .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢١ . الرقم : وشى مستدير . العقل : وشى مستطيل . صبح : من الصبحة سواد إلى الحمرة أولون يضرب إلى الشهبة أو إلى الصهبة .

وقال ربيعة بن مقروم إن أنماط الظعائن عتيقة فاخرة ، وإنهن يلبسن الحرير :

جعلن عتيق أنماطٍ خدورا وأظهرن الكراكى والعهونا
على الأحداج واستشعرن ريطا عراقياً وقَسِّياً مصوناً (١)

ويقول زهير فى معلقه إن الكلة تشبه الدم :

علون بأنماط عِتاقٍ وكِلَّةٍ وِرادٍ حواشيها مشاكهة الدم(٢)

٥ — جمال الظعائن :

ولم يغفل الشعراء عن وصف جمال النساء الظاعنات ، ووصف حليهن ، وكيف يغفلون وهذا وقت الزينة ؟ إن المرأة إذا ما سافرت أخذت زينتها لأنها تعلم أن نساء الحى سيرينها حين يودعنها ، ولأنها تعلم أنها قد تلقى فى الطريق نساء آخر مرتحلات مثلها ، فيوم سفرها يوم زينتها ، وهن يسبين بجمالهن وحليهن وحركاتهن قلوب الرجال .

قال المثقب العبدى بعد أن ذكر طرق الرحلة :

وهن على الرجائز واكناتٌ قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذَلْنَ بذاتِ ضالٍ تَنُوشُ الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن أخرى وثَقَّبْنَ الوصاوص للعيون
وهن على الظِّلام مُطَلَّبَاتٌ طويلات الذوائب والقرون
أرينَ محاسنا وكَنَنَّ أخرى من الأجياد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تَرِيبٍ كلون العاج ليس بذى غضون(٣)

(١) القسية ثياب مصرية حريرية نسبة إلى القس قرب الفرما والعريش أو نسبة إلى القس بلد بالهند تجلب منه أنواع من الثياب والمآزر الملونة وهى أخر ما يجلب من الهند من ذلك الصنف (معجم البلدان ٧ / ٨٥) والقاموس المحيط مادة قس .

(٢) المعلقات العشر .

(٣) المفضليات ٢/٨٨ . الرجائز : مراكب النساء . واكنات : مطمئنات . الأشجع : الطويل . خذلن : تخلفن عن صواحبهن وأقمن على أولادهن . الضال : السدر البرى . تنوش تتناول . الوصاوص : البراقع الصغار ، أراد أنهن حديثات الأسنان فبراقعهن صغار ، وقيل إنه لقب بالمثقب لهذا البيت . الظلام : الظلم .

وذكر المرقش الأصغر حلى الظعائن :

تحملن ياقوتاً وشذراً وصيغة   وجزعاً ظفارياً ودراً توائما[1]

(ط) الطيف

هذا المحب الذى نأت عنه الحبيبة أو نأى عنها ، لا يفتأ يذكرها ويتذكرها . ويتمثلها فى حله وارتحاله ويقظته ومنامه . ولقد يسعده طيفها فى حلمه فإذا صحا لم يجد إلا نفسه ، فيصور مشاعره تصويراً يختلف باختلاف طبيعته .

١ — فمن الشعراء من اتجه إلى العجب من قدرة الطيف على قطع المفاوز ، واحتمال مشاق الرحلة الطويلة ، ويظهر أن هؤلاء كانوا بعيدين عن الحبيبات . قال طرفة :

سما لك من سلمى خيالٌ ودونها   سوادُ كثيبٍ عرضُه فأمائله

فذو النير فالأعلامُ من جانب الحمى   وقُفٌّ كظهر الترس تجرى أساجله

وأنى اهتدت سلمى وسائلَ بيننا   بشاشةَ حب باشر القلبَ داخله

وكم دون سلمى من عدوٍّ وبلدة   يحارُ بها الحادى الخفيفُ ذلاذله

يظل بها عيرُ الفلاةِ كأنه   رقيبٌ يخافى شخصَه ويضائله

وما خلت سلمى قبلها ذات رحلة

إذا قسوريُّ الليل جيبَتْ سرابله[2]

وكرر مثل هذا فى قصيدة أخرى[3] .

---

(١) المفضليات ٢ / ٤٥ شذرا : لؤلؤا أو قطعا صغارا من الذهب . صيغة : مصوغ من الذهب . الجزع : الخرز اليمانى . ظفار : بلد باليمن . توائم : مثنى مثنى .

(٢) ديوان طرفة ١١٧ . أمايله : ج أميل وهو جبل من رمل عريض طويل . ذو النير والحمى : موضعان . القف : ما ارتفع من الأرض . أساجله : سرابه . ذلاذله : أسافل قميصه الطويل . قسورى : نصف الليل أو أوله أو معظمه . جيبت : جعلت كالجيب والمراد أنها قطعت . سرابله : قمصانه والمراد ظلامه .

(٣) ديوان طرفه ٤٦ .

واتجه هذا الاتجاه خفاف بن ندبة فى قوله :

ألا طرَقَتْ أسماءُ من غير مَطرق ... وأنىَّ وقد حَلَّتْ بنجران نلتقى ؟
سرَتْ كلَّ واد دون رَهْوَةَ دافعٍ ... وجِلْذانَ أو كرم بِليّة محدق
تجاوزت الأعراض حتى توسدت ... وسادى لدى باب بجِلْذان مغلق[1]

واتجه الاتجاه نفسه حسان بن ثابت[2] . والمرقش الأكبر[3] .

واقتصر هؤلاء الشعراء على هذه الوجهة . فلم يصفوا شعورهم حين ألم بهم هذا الخيال الزائر .

٢ — واتجه آخرون إلى وصف المشاعر ، فعنترة يجد فى طيف عبلة حياته ومسلاته :

أيا عبل مُنىٍّ بطيف الخيال ... على المستهام وطِيبَ الرقاد
عسى نظرة منك تحيا بها ... حُشاشة مَيْتِ الجفا والبعاد[4]

والأعشى ألم به طيف قتيلة فهاج ذكرياته وأشعله فصار كأنه ثمل :

ألمَّ خيال من قُتيلة بعدما ... وهى حبلها من حبلنا فتصرما
فبت كأنى شارب بعد هَجْعَةٍ ... سُخامِيَّةً حمراء تُحْسَبُ عندما[5]

وسويد بن أبى كاهل وافاه خيال سليمى وهو فى باكورة نومه فأرقه الليل كله :

أرَّقَ العين خيال لم يَدِعْ ... من سليمى ففؤادى مُنْتَزَع
حل أهلى حيث لا أطلبها ... جانبَ الحِصْنِ وحلت بالفَرَع
لا ألاقيها وقلبى عندها ... غير إلمام إذا الطَّرف هجع[6]

(١) معجم البلدان ٣/١٢٢ . جلذان : موضع قرب الطائف بين لية وسبل . رهوة ولية والأعراض : أماكن .

(٢) ديوان حسان ٤٢ (٣) المفضليات ٢/٥٥

(٤) ديوان عنترة ٥٣

(٥) ديوان الأعشى ٢٠٠ سخامية : خمرا سلسة . العندم : دم الأخوين أو البقم وهو شجر يصبغ بطبيخ سوقه .

(٦) المفضليات ١/١٩٣ وشعراء النصرانية ٤٢٩ لم يدع : لم يسكن ويستقر. الحصن: موضع وفى رواية ابن الانبارى (الحضر) وهى مدينة بالموصل والفرع بين الكوفة والبصرة

ويذكر الخيال فى القصيدة نفسها فيسلك مسلكا فيه مزج بين وصف الرحلة الشاقة والتأثير فى الوجدان :

هيج الشوقَ خيالٌ زائرٌ من حبيب خَفِرٍ فيه قَدَع
شاحطٍ جاز إلى أرْحُلِنا عُصَبَ الغاب طَرُوقا لم يُرَع
آنس كان إذا ما اعتادنى حال دون النوم منى فامتنع
وكذاك الحب ما أشجعه يَرْكب الهول ويَعْصِى من وَزَع
فأبيت الليل ما أرقده وبعينىَّ إذا نجمٌ طلع (١)

٣ — وهناك فريق ثالث من الشعراء آلمهم الخيال لأنه أوهام وأحلام كالمرقش الأصغر فى قوله :

أمِنْ بنتِ عجلانَ الخيالُ المطرَّح ألمَّ ورحلى ساقطٌ متزحزح
فلما انتبهت للخيال فراعنى إذا هو رحلى والبلادُ تَوَضَّح
ولكنه زَوْرٌ يُيَقِّظُ نائماً ويحدث أشجَاناً بقلبك تجرح
بكل مبيت يَعْترينا ومنزل فلو أنها إذ تُدْلِج الليل تُصْبح (٢)

٤ — والشعراء الذين كانوا يصلون بهجر الحبيبة ويروضون أنفسهم على نسيان الحب لم يأنسوا بالخيال كما أنس غيرهم ، ولم يشقهم كما شاق سواهم ، بل قابلوه فى جفاف وخشونة ، يقول طرفة :

---

(١) المفضليات ١ / ١٨٩ وشعراء النصرانية ٤٢٧ خفر : حيى . قدع : حياء ، امرأة قدعة : قليلة الكلام حيية . شاحط : بعيد . عصب الغاب : المراد جماعات الرماح التى تحمى لأن الغابة الرمح الطويل وليس المراد الأجمات والغابات كما شرح البيت لأن كلمة عصب تعين أن المراد الرماح ، ولأن الأرض التى تفصل بين الشاعر وحبيبته ليست بها غابات ، ولان الشعراء كثيراً ما يطرقون هذا المعنى . طروقا . زائراً فى الليل . وبعينى إذا نجم طلع : أرقب كل نجم يطلع بعينى .

(٢) شعراء النصرانية ٣٢٨ والمفضليات ٢ / ٤٢ بنت عجلان . هند بنت عجلان جارية فاطمة بنت المنذر. المطرح: المترامى من بعيد . ساقط متزحزح : متباعد. توضح : تتوضح أى تظهر يريد أنه رأى خيالها فى نومه فلما انتبه لم يجد إلا رحله والبلاد التى أمامه . زور : زائر . تدلج : تسير ليلا ، أى ليتها إذا زارنا خيالها ليلا يدوم إلى الصباح .

فقل لخيال الحنظليـةِ ينقلب إليها فإنى واصلٌ حبلَ من وصل [١]

ويقول سلمة بن الخرشب :

تأوّبهُ خيالٌ من سـليمى كما يعتـاد ذا الدَّين الغريم
فإن تُقبِلْ بمـا علمـتْ فإنى بحمد الله وصّـال صَروم [٢]

(ى) الأطلال

١ – لم احتفوا بها ؟

هنا كانت الحبيبة تقيم ، وإلى هنا كان قلب الشاعر يخفق ونظره يمتد وخياله يحوم ، وربما كان هنك لقاء ومناجاة ورجاء ووصل ، ومن هنا ظعنت الحبيبة فى بكرة مشقية مبكية . هنا كان الحب وكان الحبيب ، ثم قضت حياة الانتجاع أن يَعْطل المنزل الذى كان حالياً ، وأن يقفر المكان الذى كان خصباً موحياً ، وأن يعود إلى طبيعته جماداً بعدما أضفت عليه الحبيبة حياة وجمالا ، فقد تناوبته الرياح والأمطار ، فلم يبق منه إلا أطلال ورسوم ، لـكنها كالعنوان من الكتاب .

أليس من حق هذه الأطلال أن يعزها الشاعر وأن يقف بها ويطوف حولها ؟ بلى . وقد وقف واستوقف وبكى واستبكى ونطق واستنطق .

وإذا كانت الحبيبة هى المثير الطبيعى لعاطفة الحب فإن الأطلال هى المثير المقارن أو الصناعى « وتفسير ذلك أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر ، فديارها حلت محلها فى إثارة عاطفة حبها ، فحين ثارت هذه العاطفة أقبل المحب يقبل جدران دارها ، فالديار وجدرانها هى المثير الصناعى ، والذى سوغ ذلك أن الحبيبة كانت تسكن الديار فوجود هذه اقترن بوجود تلك . ومرت على ذلك الأيام حتى صارت الحبيبة ودیارها وحدة متماسكة الأجزاء ، فإذا كان جزء قد رحـــل فإن الجزء الآخر

---

(١) ديوان طرفة ٨٨ الحنظلية . من بنى حنظلة بن مالك .

(٢) المفضليات ١ / ٣٧ تأوبه : عاوده ، ومعنى البيت أن خيالها كثير المعاودة . كالدائن يعاود المدين أو هذا تشبيه يدل على كراهية للخيال . ومعنى البيت الثانى فإن وصلتنى وصلتها وإن هجرتنى هجرتها . بما علمت : بما عرفت من المودة التى كانت بيننا .

قد حل محله »[١] .

لهذا أضافوا الأطلال إلى اسم المحبوبة ، فهما معا مقترنان اقترانا معنويا فى ذهن الشاعر . وقد كانا مقترنين اقترانا محسوسا من قبل . قال امرؤ القيس :

يا دارَ ماويّةَ بالحائل فالسُّهب فالخَبْتَين من عاقل[٢]

وقال طرفة :

لخولة أطلالٌ ببُرقة ثَهْمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد[٣]

وقال لبيد :

ألم تُلمِمْ على الدِّمَنِ الخوالى لسلمى بالمذانب فالقفال

وقال :

طللٌ لخولة بالرسيس قديمُ بمعاقل فالأنعمين وشوم[٤]

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تَكلَّم بحومانة الدرّاج فالمتثلّم[٥]

وكثيرا ما ذكر الشعراء الأطلال مقترنة باسم الحبيبة هذا الاقتران .

٢ — عنايتهم بتحديدها :

لم يكتف الشعراء بذكر الأطلال مقترنة باسم الحبيبة ، بل حددوا موقعها تحديدا دقيقا كأنما يرسمونها على الورق ، أو كأنهم جغرافيون يخطون الخرائط والبلدان ، ولعل سبب ذلك تخوفهم من أن تمحوها عوادى الطبيعة ، لأنها ليست دوراً مشيدة ولكنها آثار قوم رحل ضربوا خيامهم حيناً من الدهر ثم ارتحلوا وخلفوا نؤيا وأحجاراً وآثاراً تعفى عليها الرمال والرياح والسيول ، والشعراء يودون أن تبقى وإن فى تصورهم ، فيشيدونها بأحجار صلدة وطيدة لا تقوى على محوها سيول ولا رياح ولا رمال ، يشيدونها بشعر خالد يحدد مكانها ، ويرفع سَمْكها .

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٥٦ حامد عبد القادر .
(٢) ديوان امرئ القيس ١٥١
(٣) ديوان طرفة ٥
(٤) الأغانى ١٤ / ٩٧
(٥) المعلقات العشر للشنقيطى ٨٠

حدد امرؤ القيس الطلل من جهاته الأربع فى قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمل
فتُوضِحَ فالمقراة ، لم يَعْفُ رسْمُها　　لما نسجتها من جنوب وشمأل[١]

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم　　بحومانة الدّراج فالمتثلَّم[٢]

وكذلك حدد لبيد[٣] والحارث بن حلزة[٤] والنابغة[٥] وعبيد بن الأبرص[٦].

٣ — أثرها فى نفس الشاعر :

يقف الشاعر على الأطلال فلا يرى إلا رسوما وبقايا تهيج ذكراه ، فيحزن ، ويسكب عبرات لعل فيها شفاء لنفسه الملتاعة ، ويستعيد صوراً من سعادته بقرب الحبيبة ، ويبكى لوعته وحرمانه ، وتدور به الأرض كأنه مخمور ، ولقد يحس برعدة وسخونة كأنه محموم ، ومع ذلك لا يريد أن يريم عنها ، لأن فيها من الحبيبة أثرا .

وكثيراً ما كان يضفى على الطلل صفات الحى ، فيخبره ويستخبره ، ويناجيه ويستلهمه ، ويتبرم به حين لا يجيب سؤاله ، ويحييه ، ويدعو له بالسقيا والسعادة .

وكثيراً ما كان يتحسر لأن مغنى الحبيبة صار مرتعاً للوحش .

قال عنترة :

ولقد حبست بها طويلا ناقتى　　أشكو إلى سُفْع رواكد جُثم
يا دار عبلة بالجواء تكلمى　　وعِمى صباحا دار عبلة واسلمى
فوقفت فيها ناقتى وكأنها　　فَدَنٌ لأقضىَ حاجة المتلوم
حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقدم عهده　　أقْوَى وأقفر بعد أمِّ الهَيثم[٧]

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٢٤
(٢) المعلقات العشر ٨٠ الشنقيطى .　　(٣) المعلقات العشر ٨٧
(٤) المعلقات العشر ١٢١　　(٥) المعلقات العشر ١٤١
(٦) ديوان عبيد القصيدة ١ والقصيدة ١٣
(٧) ديوان عنترة ١٤٢ فدن : قصر . أم الهيثم : كنية عبلة . السفع : الأثافى وهى أحجار الموقد . الجواء : بلد . المتلوم : المتمكث المتمهل يريد نفسه .

وقال امرؤ القيس :

ألا عِمْ صباحا أيها الطلل البالى
وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُر الخالى
وهل يعِمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّدٌ قليلُ الهموم ما يَبيتَ بأوجال(١)

فهو يحييه ويتمنى له السعادة ، ثم يستدرك فيقول : وهل يشعر بالسعادة من تقادم به الزمن وتناوبته الأحداث ؟ لقد تعاورتك أيها الطلل هموم العمر الطويل ، حتى صار من البعيد أن تتناسى آلامك وتشعر بسعادة ، وإنى مثلك فى شقاء حاضرى ، لأنى هرمت وفَوَّقَتْ إلى الأيام سهامها ، ومثلك فى سعادة ماضىَّ يوم كنت شابا أنعم بالحب ، وما النعيم إلا للصبىّ الذى لم تعركه السنون أو للرجل الخلى الذى لم يشب .

ولقد يبكى الشاعر لوعته وشوقه وحرمانه ، تحدث بذلك امرؤ القيس ، ووقف واستوقف صاحبيه ، واستبكاهما معه ، وأشفقا عليه فنصحا له أن يتجلد حتى لا يبخع نفسه ، فرد عليهما أن شفاءه فى أن يبكى ليتخفف من بعض ما يحمل من هم .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقْط اللوى بين الدخول فحومل
فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعفُ رسْمُها لما نسجتها من جنوب وشمْأل
وُقوفاً بها صحبى علىَّ مطيَّهُمْ يقولون لا تهلك أسىً وتجمل
وإن شفائى عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ وهل عند رسم دارس مِنْ مُعَوَّل(٢) ؟

وكذلك بكى المرقش الأكبر :

هل تعرفُ الدارَ عفا رسمها إلا الأثافِىَّ ومَبْنَى الخِيَم

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٤٨ عم صباحا : انعم فى الصبح ، وهى تحية جاهلية . مخلد : صبى مقرط ، أو رجل لم يشب وسنه قد تقادمت . أوجال : مخاوف .

(٢) ديوان امرىء القيس ١٢٤ . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان شرقى اليمامة . توضح والمقراة : موضعان قرب الدخول . لم يعف رسمها : لم تذهب آثارها . تجمل : تصبر وتجلد . عبرة : دمعة . مهراقة : منصبة . معول : معتمد .

أعرفها داراً لأسماء فالدّ مع على الخدين سَحٌّ سَجم(١)

وبكى عبيد بن الأبرص بكاء حمامة تحن إلى إلفها :

وقفت بها أبكى بكاءَ حمامة أراكيَّة تدعو حماما أواركا
إذا ذكرَتْ يوما من الدهر شجوها على فرع ساق أذرت الدمع سافكا(٢)

ووقف بها عوف بن عطيه الرّبابى فدارت به الأرض من تباريح الحب كأنه مخمور :

وقفت بها أصُلاً ما تُبِين لسائلها القول إلا سِرارا
كأنى اصطبحت عُقارِيَّةً تصَعَّد بالمرء صِرْفاً عُقارا
سلافةَ صهباءَ ماذيَّةٍ يَفُضُّ المسابىءُ عنها الجرارا(٣)

ووقف بها الأخنس بن شهاب التغلبي فأحس برعدة وسخونة كأنه محموم :

ظللتُ بها أُعرى وأُشْعَرُ سُخْنَةً كما اعتاد محموماً بخَيْبَرَ صالب(٤)

ولم تطاوع طرفة نفسه أن يريم عنها :

حابِسِى رسمٌ وقفت به لو أطيع النفس لم أرِمُه(٥)

وتبرم امرؤ القيس لأن الأطلال استعجمت فلم تنطق :

يادارَ ماوية بالحائل فالسّهْب فالخَبْتين من عاقل
صمّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل(٦)

---

(١) المفضليات ٢ / ٢٩ الأثافى : جمع أثفية بضم الهمزة وكسرها وتشديد الياء وهى الحجر توضع عليه القدر . الخيم : جمع خيمة . أسماء : بنت عمه عوف بن ضبيعة . السح : الصب . السجم : السائل .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٧ أوارك : ترعى الأراك ، السافك : هنا بمعنى المسفوك أى المصبوب .

(٣) المفضليات ٢ / ٢١٣ عقارية : خمر معتقة . صهباء : فى لونها بياض من قدمها ، ما ذية : سهلة الإساغة . يفض : يكسر ، المسابىء : المشترى الخمر ليشربها .

(٤) المفضليات ٢ / ٤ أعرى : أرتعش . أشعر : أبطن . صالب : حمى شديدة وخيبر مشهورة بها .

(٥) ديوان طرفة ٧٠ لم أرمه . لم أتركه . (٦) ديوان امرىء القيس ١٥١

ولكنه فى مرة أخرى حيا الطلل . وتمنى أن يتكلم ، وأن يطيل معه الحديث عن الحبيبة وركبها ومشاعرها حين الرحيل صادقا فيما يحدث به :

ألا عِمْ صباحا أيها الرَّبْعُ فانطق
وحدِّثْ حديث الركب إن شئتَ فاصدُق
وحدث بأن زالت بليل حُمُولُهم كنخل من الأعراض غير مُنَبَّق (١)

وتمر الأعوام وتتبدل الأحداث ولكنها لا تنقص من عزازة الأطلال ، لأن قلب الشاعر خفاق بحب من سكنتها . وتكاد عوادى الطبيعة تمحو معالمها محوا ، ولكن الشاعر يتحسسها بقلبه قبل أن يتنورها بعينه . قال النابغة الذبيانى :

توهمت آياتٍ لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع (٢)

وقال بشامة بن الغدير .

لمن الديار عَفَوْنَ بالجِزْع بالدَّوْم بين بُحارَ فالشِّرْع
درَسَتْ وقد بقيَتْ على حجج بعد الأنيس عفونها سَبْع
إلا بقايا خَيْمَةٍ دَرَسَتْ دارت قواعدها على الرَّبْع (٣)

وإذا كان النابغة وبشامة قد وقفا بالأطلال بعد سنوات سبع فان عَمِيرة بن جُعَل قد وقف بها بعد سنوات ثمان :

ألا يا ديار الحى بالبرَدَان خَلَتْ حججٌ بعدى لهن ثمان (٤)

وليس أدل من هذا على وفاء الشاعر فى حبه .

٤ — معالمها الباقية :

وماذا يبقى فى الصحراء من آثار قوم رحل ؟

تبقى نؤى وأحجار وأثافى ورمال ودخان يصبغ الأحجار .

(١) ديوان امرىء القيس ١١٧ نخل من الأعراض . نابت فى أعراض الحجاز وهى قراه . غير منبق : غير مستو ولا مهذب ولا مسطور فى سطر واحد أى متفرق .

(٢) ديوان النابغة ٤٩ (٣) معجم البلدان ٢ / ٦٥

(٤) معجم البلدان ٢ / ١١٤ والمفضليات ٢ / ٥٨

ولكن هذه البقايا عميقة الأثر فى نفس الشاعر ؛ لأنها مرتبطة بمن يحب . فليست جمادات ولا نسياً منسيا ، وإنما هى أحياء ذوات معان ودلالات . قال المخبل السعدى إنه لم يبق إلا الرماد وبعض النؤى :

وأري لهـا داراً بأغدرة السِّـيـ دان لم يَدْرُسْ لهـا رسم
إلا رماداً هامداً دَفَعَتْ عنه الرياحَ خوالدٌ سُحْم
وبقيَّة النُّؤْيِ الذى رُفِعَتْ أعضاده فثوى له جِذْم(١)

وقال عَميرة بن جُعَل إنه لم يبق منها غير نؤى ومواقد وحطب كانت الإماء تجمعه :

فلم يبق منها غيرُ نُؤْيٍ مهدم وغيرُ أوَارٍ كالرَّكِىِّ دِفان
وغير حَطوبات الولائدِ ذَعْذَعَتْ بها الريحُ والأمطار كلَّ مكان(٢)

وقال أعشى طرود إن الآثار الباقية هى الموقد المنصوب وساحة الدار :

يادار أسماء بين السَّفح فالرَّحَب أقوى وعفَّى عليها ذاهب الحقب
فما تبيَّن منهـا غير مُنْتَضِدٍ وراسيات ثلاثٍ حول مُنْتَصِب
وعَرْصَةَ الدار تستَنُّ الرياح بها تحنُّ فيها حنين الواله السَّلِب(٣)

ولقد ينبت فيها الزهر ويترعرع ، لأنه يجد سماده وغذاءه ، قال المرقش الأكبر :

أضحت خـلاء نبتها ثَئِدٌ نَوَّرَ فيه زَهْوُه فاعتمّ(٤)

---

(١) المفضليات ١/١١١ أغدرة : جمع غدير ولم يرد هذا الجمع فى المعاجم ، ونص عليه ياقوت فى معجم البلدان . السيدان : أرض لبنى سعد . لم يدرس لها رسم : لم يذهب أثرها كله . هامداً : خامداً . الخوالد : البواقى . أراد بها أثافى القدور . سحم : سود ، أى أن الأثافى حفظت الرماد من أن تذروه الرياح . النؤى : الحاجز الذى يرفع حول البيت ليمنع عنه السيل أو الحفيرة التى تحفر حول الخيمة لذلك .. أعضاده : جوانبه . الجذم الأصل .

(٢) معجم البلدان ٢ / ١١٤ والمفضليات ٢ / ٥٩ أوار : جمع أرى وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه . الركى : جمع ركية وهى البئر . دفان : مدفونة . حطوبات : جمع حطوبة وهى ما جمعته الإماء من الحطب . الولائد : . الإماء . ذعذعت : فرقت .

(٣) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٧ السلب : المسلوب العقل .

(٤) المفضليات ٢/٣٧ ثئد . مندى . زهوه : لونه أحمر وأبيض وأصفر . اعتم : كثر .

٥ — مسرح للحيوان :

إذا ما غادر الدار قاطنوها أوى إليها الحيوان الذى كان يألفها ثم فر منها لما خيموا . وأوى إليها حيوان لم يكن قد ألفها ليطعم مما خلفوا ، ولقد صور الشعراء هذا . قال المرقش الأكبر فى حسرة إنها قد خلت من سكانها ، وليس بها إلا أبقار الوحش ترعى فى دعة وتمشى مختالة كالفرس فى قلانسهم :

أمست خلاء بعد سكانها مقفرة ما إن بها من أرَم
إلا من العين ترَعَّى بها كالفارسيِّين مشوا فى الكُمَم(١)

وصور زهير تصويرا جميلا منظر البقر الوحشى والظباء وهى ترعى فى الدمنة . صورها أسراباً يتبع صغارها كبارها ويمشى بعضها فى إثر بعض ، ويمشى بعضها فى اتجاه وبعضها فى اتجاه ، ترعى متنقلة من مكان إلى مكان ، وبين الفينة والفينة تنهض صغارها من مراقدها لتلحق بأمهاتها :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِين خِلْفَةً وأطلاؤها ينهضْنَ من كل مَجْثَم(٢)

ورسم المخبل السعدى صورة أخرى ، وجعل الأبقار تتنقل من مكان إلى آخر وراء العشب . وفى رعيل الأبقار ظباء بيض البطون سود الظهور ، وظباء بيض البطون والظهور ، وكأن صغار الأبقار والغزلان معزى .

تَقْرُو بها البقرُ المساربُ واخْ تلطت بها الآرام والأُدْم
وكأن أطلاءَ الجآذر والـ غزلان حول رسومها البَهْم(٣)

وصورها عبيد مرعى للنعام والظباء :

تبدلن بعدى من سليمى وأهلها نعاماً تَرَعَّاها وأُدْماً ترائكا(٤)

---

(١) المفضليات ٢/٢٩ الكمم : القلانس. الفارسيين : الفرس . أرم : أحد . العين: البقر الوحشى .

(٢) المعلقات العشر ٨٠ الآرام : الظباء . الأطلاء : صغار الظباء والبقر . مجثم . موضع رقود .

(٣) المفضليات ١ / ١١٢ تقرو : تتبع . المسارب : المراعى . البهم : صغار أولاد المعزى

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧ ترائك: جمع تريكة وهى بيضة النعام بعد أن يخرج منها الفرخ . أدم : فى لونها أدمة وهى هنا البياض الواضح أو اللون المشرب ببياض .

وصورها الأخنس بن شهاب مسرحا للنعام يمشي متمهلا متثاقلا

تظل بها رُبْدُ النعام كأنها إماء تُزَجَّى بالعشيِّ حواطب[١]

وصورها المرقش الأصغر مرعى للغزلان وصغارها ، وأضاف الحركة إلى الصورة فجعل الكبار تسوق صغارها سوقا هينا :

تُزَجِّي بها خُنْسُ الظباء سخالَها جآذرها بالجو وَرْدٌ وأصبح[٢]

ورأى عَميرة بن جُـمَل سباعا تتعارك فى الدمن فتثير غباراً يسربلها :

قفارٌ مَرَوْرَاةٌ يحار بها القطا يظل بها السَّبْعان يعتركان

يثيران من نسج التراب عليهما قميصين أسْماطاً ويرتديان[٣]

٦ — الأطلال من الوجهة الفنية

تأنق بعض الشعراء فى تصوير أسراب الحيوان التى ترعى بها كما مر فى قول زهير والمرقش الأصغر .

وكانت الأطلال نفسها ينبوعاً آخر للافتنان من حيث تشبيهها بغيرها مما تداعى إلى خاطر الشاعر حين رآها . فقد شبهها الشعراء بالوشم ، وبالطراز الموشى ، وبالوشى ، وبالكتابة كما سأفصل . وأرى أن هذا التشبيه ليس قائماً على الشكل والمظهر فحسب ، ولكنه قائم أيضاً على علاقة نفسية ، لأن الشاعر يتذكر حبيبته ويستغرق فى ذكراها وهو واقف بآثارها وقوف الذاكر الخاشع ، فأسرع الصور إلى ذهنه ما يتصل بالمحبوبة من قريب أو من بعيد ، هو يرى الرمال قد موجتها الرياح وتناثرت بها الآثار ، ونبتت بها الأعشاب الخضر ، فيشبهها بالوشم ، والوشم من حلى الحبيبة

(١) المفضليات ٢/٤ ربد : جمع أربد وربداء والربدة سواد فى بياض .تزجى : تساق. خص العشى بالذكر لأن المحتطبات يرجعن فيه إلى بيوتهن .

(٢) المفضليات ٢ / ٤١ تزجى : تسوق سوق ضعيفاً . الخنس : جمع خنساء وهى قصيرة الأنف. سخالها : أولادها. الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقر. الورد :الذى تعلوه حمرة. الأصبح :أشد حمرة من الورد .

(٣) المفضليات ٢/ ٥٩ مروراة : لا تنبت شيئاً ولا ماء فيها. يحار بها القطا : بعيدة لا يهتدى فيها هذا الطير الخبير بالطرق . الأسماط : الأخلاق البالية وليست فى المعاجم بهذا المعنى

وضروب تجملها كما سبق فى التجمل .

وهو يرى هذا المنظر فيشبهه بالوشى والطراز الموشى ، وذلك من ملابس الحبيبة. ويشبهه أيضاً بالكتابة . فهل كان الشعراء يعرفون الكتابة ، فشبهوا بها التجعدات التى صنعتها الرياح بالرمال ؟ أو أن بعضهم كان على علم بالكتابة فشبه بها ثم حاكاه غيره ممن ليسوا على علم بها ؟ أعتقد أن بعض الشعراء كانوا يعرفون الكتابة ، لأن فى تشبيههم تفصيلاً ودقة يدلان على ذلك كقول معاوية بن مالك ، وقول حاتم ، وقول ثعلبة بن صعير ، كما سيجىء ، وأما غير هؤلاء فربما كانوا يعرفون الكتابة وربما كانوا يحاكون تشبيه العارفين .

١ — شبه زهير الأطلال بالوشم :

ودار لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنها ... مراجيع وشم فى نواشِرِ مِعْصَم (١)

وشبهها معن بن أوس بالوشم على المعصم الجميل :

يلوح وقد عفَّى منازلَهُ البِلَى ... كما لاح فوق المعصم الحسن الوشم (٢)

وكذلك طرفة :

لخولة أطلال بِبُرْقة ثَهْمَدَ ... تَلُوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد (٣)

٢ — وارتبطت فى خيال عبد الله بن سَلمة الغامدى بذيل العروس وبالوشم أيضاً

أمست بِمُسْتَنّ الرياح مُفِيلَةً ... كالوشم رُجِّع فى اليد المنكوس

وكأنما جَرَّ الروامسِ ذيلها ... فى صَحْنِها المعفُوِّ ذيلُ عروس (٤)

وارتبطت فى خيال طرفة بثوب جميل زخرفه أهل ريدة وأهل سحول

وبالسفح آياتٌ كأن رسومها ... يَمَان وشَتْه رَيْدَةٌ وسُحُول (٥)

---

(١) المعلقات العشر ٨٠ (٢) ديوان معن بن أوس ٣

(٣) ديوان طرفة ٥

(٤) المفضليات ١٠٣/١ مستن الرياح : موضع جريها . مفيلة : مطموسة. خفية المعالم. منكوس : أعيد عليه الوشم : الروامس : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار .

(٥) ديوان طرفة ٧٦ ومعجم البلدان ٣٤٨/٤ . يمان : ثوب يمنى . ريدة وسحول : مدينتان باليمن مشهورتان بالنسيج .

وشبهها قيس بن الخطيم بالثوب المذهب :

أتعرف رسماً كالطِّراز المذَهَّب لعَمْرةَ وَحشاً غير موقف راكب [١]

وشبهها النابغة الذبياني بالوشي :

تذكرني أطلال هند مع الهوى دعائم منهـا قائم ومنزَّع

على العُصُر الخالي كأن رسومها بتَنْهِيَةِ الركنين وشيٌ مُرَجَّع [٢]

٣ — ولقد أكثر الشعراء من تشبيه هذه الآثار وتموجاتها والخطوط المنتظمة التي تصنعها الرياح فيها بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من هذا التصوير كثرة تدعو إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلي ، فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التي تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه بها ينبئ عن معرفة بالورق وبالكتابة عند بعض الشعراء المشبهينَ على الأقل . ومن خصائص التشبيه فى العصر الجاهلي أنه لا يجنح إلى العلائق الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما يجنح إلى الربط الوثيق بين المشبه والمشبه به . كذلك التشبيه بالكتابة ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة فحسب وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين الرسوم والكتابة . وأوثر أن أعرض هنا التشبيه بالكتابة والأوراق أولا ، ثم الدليل على معرفتهم الكتابة .

(ا) قال معاوية بن مالك بن جعفر ، عم لبيد ، إن آثار الدار مثل كتابة ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق ، يتخوف أن يلحقه عيب .

فإن لها منازل خاويات على نَمَلَى وقفت بها الركابا

من الأجزاع أسفل من نُمَيْلٍ كما رَجَّعْتَ بالقلم الكتابا

كتاب مُحَبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ ينمقه وحاذر أن يُعابا [٣]

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٤٧ الطراز المذهب : الثوب المنقوش بالذهب. وحشا :مقفرا

(٢) ديوان النابغة الذبياني ٣٩ . منزع : مهدم . التنهية : حيث ينتهى الماء من الوادى

(٣) المفضليات ٢/١٥٧ نملى : ماء بقرب المدينة الأجزاع : منعطفات الوادى . نميل : تصغير نملى على حذف الزيادة كما قال البكرى. رجعت الكتابة عدت بالقلم عليها . محبر: محسن. هاج : قارىء والهجاء القراءة .

وقال الأخنس بن شهاب الثعلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان لأن كتابته واضحة مجوّدة :

لابنة حِطانَ بن عَوْفٍ منازل كما رَقّشَ العنوانَ في الرّقِّ كاتب(١)

وقال امرؤ القيس ، إن الآثار كخط الزبور في سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصرته فشجاني كَخَطِّ الزَّبُور في العَسيب اليماني(٢)

وقال طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التي نمقها كاتب في وضح النهار وذلك أحكم :

أشجاك الرَّبْعُ أم قِدَمه أم رَمَادٌ دارسٌ حُمَمه

كسطور الرق رَقّشه بالضُّحا مرقشٌ يَشِمه(٣)

وقال حاتم إنها كالكتابة المنسقة المزخرفة :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدَّما كخطك في رقٍّ كتاباً مُنَمْنَماَ(٤)

وقال المرقش الأكبر :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم(٥)

وكذلك صورها ثعلبة بن عمرو العبدي ، وجعل الكاتب لا يسوى سطوره :

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكثيب فواصف

أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف(٦)

(ب) على أن هناك أدلة أخرى على معرفتهم الكتابة والورق ، ولقد تكون هذه الأدلة بعيدة عن موضوعي ولكن الحاجة تدعو إليها .

---

(١) المفضليات ٢ / ٤ وهو جاهلي لا صحابي كما توهم الفيروزابادي ، إذ التبس عليه بالأخنس بن شريق .

(٢) ديوان امريء القيس ١٨٦

(٣) ديوان طرفة ٦٨ والأمالي ٢ / ٢٤٦ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٤) شعراء النصرانية ١١٨

(٥) البيان والتبيين ١ / ٢٨٨ والأمالي ٢ / ٢٤٦ (٦) المفضليات ٢ / ٨١

يقول الحارث بن حلزة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لمن الديار عَفونَ بالحِبْس آياتها كمهارق الفُرْس[١]

وهو نفسه يذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوباً .

واذكروا حِلْف ذى المجاز وما قُدِّ م فيه العهودُ والكُفلاء

حَذَرَ الخوْنِ والتعدى وهل تنـقضُ ما فى المهارق الأهواء[٢]

ويقول البعيث بن حريث الحنفى :

لمن طلل كروضات السخال تأبد كالمهاريق البوالى[٣]

وفى اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه[٤] ، وقد ذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا يوما بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :

ألهى قصيّاً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما تُرْشَى السَّفاسير

وأكلها اللحم بَحْتاً لا خليط له وقولها رحلت عِيرٌ أتت عير

فأنكروا ذلك وقالوا ما قالها إلا ابن الزبعرى[٥] . وقد جاء فى حديث رجل كندى من دومة الجندل يمنُّ على قريش أن بشر بن عبد الملك أخا أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل قد علم قريشا الكتابة[٦] ، وروى أن ورقه بن نوفل كان فى الجاهلية يكتب الكتاب العبرانى أى يكتب كتابة عبرية[٧]

وقد جاء ذكر الورق الشامى فى وصف طرفة لناقته وتشبيهه بياض خدها بالقرطاس[٨] . وجاء ذكر المجلة فى مدح النابغة للغساسنة ، والمجلة الصحيفة[٩] وقد تآمرت قريش على النبي والمسلمين فتعاقدوا فى صحيفة مكتوبة على أن يقاطعوا بنى

---

(١) المفضليات ١ / ١٣٠

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٦ والمعلقات العشر ١٢٧

(٣) معجم البلدان ٤ / ٣١٧

(٤) بلوغ الأرب ٣ / ٣٨٥ — ٣٨٨

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩١ الأساطير : الخرافات . السفاسير : جمع سفسير . ومن معانيه السمسار .

(٦) بلوغ الأرب ٣ / ٣٨٢

(٧) الأغانى ١٣ / ٢٠

(٨) ديوان طرفة ١٩

(٩) الأمالى ١ / ٢٤٥

هاشم وبنى عبد المطلب بِعلقوا الصحيفة فى الكعبة . وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاتبها فشل بعض أصابعه[(١)] .

وقد قلت فى كتابى الحياة العربية إن المعلقات أخذت تسميتها هذه من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد وغيرها ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزائنى. وقال ابن رشيق مثل ذلك[(٢)] ، وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر لأن ابن سلام يقول « وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه[(٣)] » وابن جنى يقول « أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج — وهى الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له إن تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[(٤)] » .

واستدللت على أن الشعر قد دون بعضه فى العصر الجاهلى وفى صدر الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب[(٥)] .

٧ — بين الأدب الغربى والأدب العربى

لم ينفرد شعراء العرب بوقفاتهم على الأطلال ، فإن شعراء الغرب يشركونهم فى مثل هذه الوقفات وإن لم تكن على أطلال بل كانت على بحيرات .

وقف لا مرتين على بحيرة بورجيه ، ووقف روسو فى قصته (هلواز الجديدة) وفى (أحلام متنزه وحيد) ووقف هيجو فى قصيدته (أحزان أوليمبيو) وألفريد دى مسيه فى قصيدته (الذكرى)[(٦)] . ولبيرون قصيدة على بحيرة ليمان تحسر فيها على حبه الذى انقضى ، وتذكر أنغام محبوبته على خرير أمواه البحيرة .

ويصح أن آخذ لامرتين مثالا لهؤلاء جميعاً ، فأورد قصيدته على بحيرة بورجيه ،

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٢
(٢) العمدة ١ / ٦١
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧
(٤) الخصائص لابن جنى ٣٩٣
(٥) الأغانى ٤ / ١٤١
(٦) فى الأدب المقارن ٦٦ عبد الرزاق حميدة

وأوازن بينها وبين وقفات شعرائنا القدامى على الأطلال ، وأستخرج وجوه التشابه ووجوه التغاير بين الفنين والنفسيتين :

هكذا نندفع دائماً نحو شطآن جديدة
ونُحْمل فى الليالى الخالدة ولا نعود
ألا نستطيع على خضم الزمن
أن نلقى المرساة يوماً واحداً ؟

أيتها البحيرة أوشك العام أن ينقضى
أنظرى . إننى قادم وحدى لأجلس على ذلك الحجر
الذى رأيتها تجلس عليه
قريباً من تلك الأمواج التى كان يجب أن تراها ثانياً

إنك كنت تزأرين — كذلك الآن — تحت هذه الصخور الغائرة
وكنت تتحطمين كذلك على جوانبها المحطمة
وكذلك كانت الرياح تلقى زبد الأمواج
على قدميها المحبوبين

وفى إحدى الليالى — ألا تذكرين — سار بنا الزورق فى صمت
وما سمعنا — إلى مدى بعيد — فوق الماء وتحت السماء
إلا ضربات النوتى ، المستوية اللحن
لأمواجك المؤتلقة الأنغام

ثم فاجأتنا ألحان لاعهد للأرض بمثلها
من الشاطىء الساحر ، هاجت الصدى
وأصغى الموج ، وذلك الصوت الحبيب إلى نفسى
أطلق فيه تلك الكلمات :

أيها الزمن قف دورتك ، وأنت أيتها اللحظات المسعدة
كفى عن المسير

ودعينا نستمتع بهذا السرور العاجل
الذى ننعم به فى أهنأ الأيام

هناك كثير من البائسين يضرعون إليك
فأسرع أسرع إليهم
واقض آجالهم ، وأفن معها ما يحطمهم من الأوصاب
وانس السعداء

لكن رجائى أن أستمتع لحظات أخرى كان خائباً
لقد أفلت منى الزمان وطار
قلت لتلك الليلة : لا تعجلى ولكن طلع الفجر
فمحا آية الظلام

فليحب بعضنا بعضاً ، وفى الزمن الفانى
فلنسرع إلى الاستمتاع
ليس للانسان مرفأ وليس للزمن من شاطئ
إنه يسير ، ونحن ذاهبون

أيها الزمن الغيور : أيمكن لساعات الحبور هذه
وهى التى سقانا فيها الحب السعادة ونحن فوق الأمواج
أن تنأى عنا مسرعة
كما تسرع إلينا أيام الشقاء ؟

عجباً ألا نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ؟
ما هذا ؟ أتنقضى ولا تعود ؟ ما هذا ؟ أ كلها قد نسيت ؟
ذلك الزمن الذى جاد بها ، ذلك الزمن الذى محاها
ألا يردها من جديد ؟

أيتها الأبدية ، والعدم ، والزمن الغابر ، وغيابات الماضى
ما ذا فعلت بالأيام التى التهمتها ؟

انطق أتردين إلينا تلك المسرات العظيمة
التى انتزعتها من أيدينا ؟

أيتها البحيرة والصخور الصامتة والمغاوات ، والغابات الغامضة
أنت أيتها التى يبقى عليها الزمن ، أو يعيد إليها الشباب
لتحفظى تلك الليلة ، ولتعيها أيتها الطبيعة الحسناء
أو — على الأقل — فلتذكريها .

احفظيها فى وقت سكونك وفى ثورتك
أيتها البحيرة الجميلة ، وفى مرأى جنباتك الباسمة
وفى أشجار الأرز المظلمة ، وفى تلك الصخور القاسية
التى تشرف على أمواهك

احفظيها فى نسيمك الذى يخطر ثم يسير
احفظيها فى اصطخاب شطآنك الذى ترده هذه الشطآن
وفى لمان وجهك الفضى الذى يلألئ سطحك
وفى أنوارك الناعمة

فلتنطق الريح الحنون ، واليراع الزافر
والشذى الخفيف الذى يحمله هواؤك العاطر
وكل شىء يرى أو يسمع أو يتنفس
ولتقل جميعها : إنهما قد تحابا(١)

الموازنة :

١ — ابتعثت الذكريات قصيدة لامرتين كما كانت تبتعث قصائد الشعراء الجاهليين . وهى تصور عواطف الشاعر نحو المكان ، وحسدته على سعادة منقضية كما تصور قصائدهم .

---

(١) فى الأدب المقارن ٦١ عبد الرزاق حميدة

ولامرتين يضفى على البحيرة صفات الأحياء كما أضفى بعض الجاهليين صفات الأحياء على الأطلال ، فقد ناجى البحيرة ، وأسمعها نفثاته ، ودعاها ودعا ما حولها من صخور ومغارات ونسيم وغابات ، وثورة وسكون ، ونسيم وشذى ، دعاها كلها أن تذكر ليلة الزورق ، ولا تنساها ، وتسجل أنه وجولى قد تحابا ، وكذلك حيا الجاهليون الأطلال ، ودعوا لهـا أن يسقيها المطر ، وأن تسعد ، وناجوها واستخبروها ، وبرموا حين لم تجب .

٢ — على أن لامرتين يمتاز ببسطة فى التأمل ، وبنزعة إلى التفلسف فى حياة الإنسان وأنه يضرب فى طريقه إلى غير رجعة .

ويمتاز بطول النفس فى تصوير صلة المحبوبة بالبحيرة ، حين قال إن البحيرة كانت تصطخب أمواجهـا وتتحطم وكان زبد الموج يرتمى على قدمى جولى . وإن الموج كان ينصت إلى صوتها الرخيم . وتحدث عن ليلة الزورق حيث كان السكون مطبقاً ، فلم يسمع غير صوت المجداف المنتظم الوقعات على صفحات الماء المتسق النغمات .

وامتازوا هم بالحديث عن معالمها الباقية من نؤى وأحجار وأثافى ورمال ودخان ، وبالحديث عن النعام والغزلان والحيوان الذى يعمرها ، وبالتصرف فى تشبيه الأطلال بصور شتى .

٣ — وبذلك اتفق لامرتين مع شعراء العصر الجاهلى فى أشياء ، وتميز منهم بأشياء وامتازوا هم بأشياء .

وليس المقام مقام موازنة بين الأديبين ، لأن ثمة اختلافا فى البيئة والعقلية ، وزمناً متطاولا يفصل بين لامرتين وشعراء الجاهلية ، ولا بد من مراعاة ذلك فى الموازنة .

على أن هذه الموازنة توضح أن الطلل وأن البحيرة يشتركان فى أنهما المثير المقارن لعاطفة الحب ، وأنهما يبعثان فى نفس الشاعر ذكرى سعادته الماضية ، وحسرته على نعيم لن يعود ، وفى أنهما عزيزان على الشاعر ، لأنهما متصلان بالحبيبة اتصالا يخوله أن يتمثلهما من الأحياء الأعزاء ، فيناجيهما ، ويستخبرهما ، ويتمنى لهما السعادة .

٨ — الأطلال بعد الجاهلى

كان الشاعر الجاهلى يعزى قلبه الموله بوقفة أو وقفات على أطلال الحبيبة ، يحاول بها أن يستعيد أطيافا من ماضيه ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الأطلال مرابع الحبيبة ومراتع لهو العاشقين ولقائهما ؟

حدث عصمة بن مالك أنه وافق ذا الرمة فى زورة لحبيبته مَىّ وأنه كان يختلف إليها حتى تقضّى الربيع ، ثم أتى ذو الرمة إلى عصمة وقال : قد رحلت مى ولم تبق إلا الآثار والنظر فى الديار ، فاذهب بنا ننظر فى ديارها ونقفو آثارها، فخرجنا حتى أتينا منزلها ، فوقف ينظر ، ثم قال :

ألا يا اسلمى يا دار مَىَّ على البِلى ... ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطْر

قال عصمة : فما ملك عينيه ، فقلت : مَهْ . فانتبه ، وقال : « إنى لجلد وإن كان منى ما ترى » ، فما رأيت أحداً كان أشد منه يومئذ صبابة ، وأحسن عزاء وصبراً ، ثم انصرفنا وتفرقنا (١) .

ولم ينفك الشعراء فى كل عصر يفتتحون بعض قصيدهم بالوقوف على الأطلال ، ولقد يكون هذا الضرب من الغزل صادق التعبير عن العاطفة إذا كان الشاعر ممن خبروا البادية وقروا بها حينا كالحطيئة وابن الدمينة ، أما الشعراء الذين لم يقروا بالبادية ، بل لم يعرفوا عنها إلا مثل ما نعرف لأنهم عاشوا فى بيئات متحضرة كالبحترى وأبى نواس وابن الخياط والبارودى فإنهم فى غزلهم بالأطلال محاكون مقلدون ، غير ما نحين من عاطفة ولا مصورين لشعور .

وسأضرب أمثلة من العصر الإسلامى والعباسى والحاضر تكشف عن تغلغل تأثير العصر الجاهلى فيما وليه من عصور ، من حيث الوقوف بالأطلال ، والبكاء عليها ، واستنطاقها ، والتحسر على أنها عطلت من ساكنيها وعمرت بالوحش ، ومن حيث التعبير نفسه .

---

(١) مجالس ثعلب ١/٤٢

١ — فى العصر الإسلامى .

تردد ذكر الأطلال فى شعر الحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وذى الرمة وجران العود النميرى وجرير والفرزدق وغيرهم .

قال الحطيئة :

لمنْ الديار كأنهن سطور ... بِلوى زَرُودَ سَفَا عليهن المُور
نُؤْىٌ وأطلس كالحمامة ماثل ... ومُرَفَّع شرفاته محجور [١]

وكذلك بدأ مدحته لأبى موسى [٢] ، والوليد بن عقبة [٣] ، وسعيد بن العاص [٤] .

وقال عمر بن أبى ربيعة :

لمن الديار رسومها قفر ... لَعِبَتْ بها الأرواح والقطر [٥]

وقال :

لمن خلل موحش أقفرا ... فأصبح معروفه منكرا [٦]

وقال :

أوقفت من طلل على رسم ... بلوى العقيق يلوح كالوشم
أقوى وأقفر بعد ساكنه ... غير النعام بَرُودُ والأُدْم
فوقفت من طرب أسائله ... والدمع منى بيِّن السَّجْم [٧]

وقال إنه استوقف أصحابه معه :

ألم تَرْبَعْ على الطلل ... ومَغْنَى الحى كالخلل
فلما أن عرفت الدا ... ر عُجْتُ لرسمها جملى
وقلت لصُحبتى عوجوا ... فعاجوا هِزَّةَ الإبل

---

(١) ديوان الحطيئة ١٣ المور : التراب . أطلس : المراد به الرماد .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٥
(٣) ديوان الحطيئة ٣٧ (٤) ديوان الحطيئة ٣٩
(٥) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٨ الأرواح : الرياح .
(٦) ديوان عمر ٢١ (٧) ديوان ٥٧

وقالوا قف ولا تعجل وإن كنا على عجل (١)

وقال ذو الرمة :

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه (٢)

وحاكى الكميت امرأ القيس بن عابس بن المنذر بن السمط فى وقوفه على الأطلال وتعبيره ، قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتَأَنَّ إنك غير آنس

ماذا عليك من الوقو ف بهامدِ الطَّلَلَيْنِ دارس

فأخذه الكميت فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتَأَنَّ إنك غير صابر

ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطللين داثر (٣)

وافتتح جرير كثيراً من أهاجيه وفخرياته بالوقوف بالأطلال مثل قوله :

عرفت الدار بعد بِلَى الخيام سُقِيَتْ نجاءَ مُرْتكز ركام

كأن أخا اليهود يخط وَحْياً بكافٍ فى منازلها ولام (٤)

ومثل قوله فى هجاء جفنة بن جعفر :

ألا قل لربع الأَفَاقَيْنِ يا اسلم يُحَيَّى على شَحْطٍ وإن لم يُكلم (٥)

وقال فى هجائه لعمر بن لجأ :

حى الديار وأهلها بسلام ربما تقادم أو صريع خيام (٦)

وفى مدح مسلمة بن هشام :

ماهاج شوقك من عهود رسوم بادت معارفها بذى القيصوم (٧)

---

(١) الأغانى ١ / ١٨٢ تربع : تحبس نفسك عليه . الخلل : ج خلة وهى بطانة يغشى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره .

(٢) ديوان ذى الرمة ٣٨ . وراجع أيضاً ٦٤٩

(٣) المؤتلف والمختلف للآمدى ٩ (٤) ديوان جرير ٢ / ٨٩

(٥) ديوان جرير ٢ / ٩٦

(٦) ديوان جرير ٢ / ١٠٤ (٧) ديوان جرير ٢ / ١١٠

وفى هجاء الأخطل :

قل للديار سَقَى أطـلالك المطر قدهجت شوقاًفماذا تُرجِعُ الذكر(١)

وقال الفرزدق :

أَلِمّا على دار بمنقطع اللّوى خلاء تعفيها رياح الجنائب(٢)

وقال :

عرفت المنـــازل من مَهْدَد كوحى الزبور لدى الغرقد(٣)

وقال :

أعرفت بين رُوَيّتَيْنِ وَحنْبل دمنا تلوح كأنها الأسطار(٤)

٢ — فى العصر العباسى :

وأكثر الشعراء من الوقوف بالأطلال فى العصر العباسى ، وكرروا معانى سابقيهم .

قال أبو تمام فى مطلع مدحته لأبى الحسن محمد بن عبد الله الهاشمى :

إن بكاءً فى الربع من أرَبه فشايعــا مغرما على طربه(٥)

وقال :

قف بالطلول الدراسات عُلاثا أضحت حبال قطينهن رثاثا(٦)

وقال البحترى فى مدح المتوكل :

سُقيتِ الغؤادى من طلول وأربع وحييت من دار لأسماء بلقع(٧)

وفى مدح ابراهيم :

وقوفك فى أطـــلالهم وسؤالها يريك غروب الدمع كيف انهمالها(٨)

---

(١) ديوان جرير ١/١١٤
(٢) ديوان الفرزدق ١ / ٣٩
(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٢٠٢
(٤) ديوان الفرزدق ٢ / ٤٦٥
(٥) ديوان أبي تمام ٥١
(٦) ديوان أبى تمام ٦٣ وراجع ١١٤
(٧) ديوان البحترى ٥٦
(٨) ديوان البحترى ١٤٤

وفى رثاء المتوكل..

محل على القاطول أخلق داثره   وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره[1]

وكان أبو نواس برماً بالاستهلال الطللى ، ساخراً من البادئين به ، يؤثر أن يفتتح بعض قصائده بالخمريات والزهريات أو لوم من يستهلون بالأطلال .

مثل قوله :

لا تبك رسماً بجانب السَّنَد   ولا تَجُدْ بالدموع للجرَد

ولا تعرج على مُعَطَّلة   ولا أثاف حَلَّتْ ولا وتد

ومل إلى مجلس على شرف   بالكوخ بين الحديق معتمد[2]

ومثل قوله :

عاج الشقىُّ على رسم يسائله   وعُجْتُ أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد   لا درَّ درُّك قل لى من بنو أسد[3]

ويكرر هذا الاتجاه فى مواضع شتى من ديوانه[4] .

لكنه لم يستطع أن ينفلت من قيد الأطلال ، فقد كان يبدأ بها بعض مدائحه مثل افتتاحه لمدح الرشيد :

لقد طال فى رسم الديار بكائى   وقد طال تردادى بها وعنائى

كأنى مُرِيع فى الديار طريدة   أراها أمامى مرة وورائى

فلما بدا لى اليأس عَدَّيت ناقتى   عن الدار واستولى علىَّ عزائى[5]

على أن نزعته الشعوبية ربما كانت الباعث على اجتوائه للأطلال والذاكرين لها ، ولكنه كان يخفى هذه النزعة إذا مدح الخلفاء ، فيبدأ أحياناً بوقفات على الأطلال .

وقال المتنبى فى مدح سيف الدولة :

(١) ديوان البحترى ٢٨

(٢) ديوان أبى نواس ١٣٨   (٣) ديوان أبى نواس ١٣٨

(٤) الديوان ٧٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٧٥ ، ١٨٣

(٥) ديوان أبى نواس ٦٦

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا[1]

ووقف على الأطلال يستخبرها فاستعجمت ، ولم تساعده ببكائها فدعا عليها دعاء مبيرا :

مُلِثَّ القطر أعْطِشْها ربوعا وإلا فاسقها السم النقيعا

أسائلها عن المتدَيِّريها فلا تدرى ولا تذرى دموعا[2]

٣ — فى العصر الحديث :

وتمشى تأثير الأطلال ، واستخبارها ، والوقوف بها إلى العصر الحديث ، فلم تباعد هذه الحياة الحضرية بين بعض الشعراء المحدثين ومظاهر البداوة والاستمداد من بعض ينابيعها ، فالبارودى يحيي الأطلال ، ويصف أثر الريح فيها ، ويذكر أنه عرفها بعد لأى وتفرس ، وأنها صارت مراحاً للغزلان . وهذه كلها من معانى العصر الجاهلى والبيئة البدوية :

ألا حَىِّ من أسماء رسم المنازل وإن هى لم تُرْجع بياناً لسائل

خلاء تعفتها الروامس والتقت عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

فلأيا عرفت الدار بعد ترسم أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى

غدت وهى مرعى للظباء وطالما غَنِيَتْ وهى مأوى للحسان العقائل

فللعين منها بعد تزيال أهلها معارف أطلال كوحى الرسائل[3]

وشوقى متأثر بالأطلال فى مطلع أول قصائده بعد عودته من المنفى ، وإن أسبغ على معانيه جدة وتصرفا .

أنادى الرسم لو ملك الجوابا وأُجْزيه بدمعى لو أثابا

وقَلَّ لحقه العبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا

سَبَقْن مقبلاتِ الترب عنى وأدين التحية والخطابا

---

(١) ديوان المتنبى ١ / ٤٠ (٢) ديوان المتنبى ١ / ٤١٧

(٣) ديوان البارودى ٢/٤٤٦ شرح محمود الإمام المنصورى

نثرت الدمع فى الدمن البوالى   كنظمى فى كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاءوا   وقوفاً عَلَّمَ الصبر الذهابا
لها حق وللأحباب حق   رَشَفْتُ وصالهم فيها حُبابا
ومن شكر المناجم محسناتٍ   إذا التبر انجلى شكر الترابا (1)

---

(1) الشوقيات ١ / ٥٤

الفصل السابع

أثر البيئة والطبع في الغزل

لا أشك فى أن الغزل فى العصر الجاهلى أصدق فنون الشعر دلالة على نفسية قائليه ، وارتباطاً بالبيئة التى عاشوا فيها .

ذلك بأن الصدق الشعورى موفور فيه ؛ لأنه قيل تسرية عن النفس ، وتعبيراً عن المشاعر ، وتصويراً للعواطف ، ولم يكن يقال تزلفا لكبير أو مرضاة لأمير أو مجلبة لمال . فهو إذن فن خالص ، يصدر عن الشاعر كما يصدر الضوء عن الشمس ، وكما يفوح الشذى من الزهر ، وكما يشقشق العصفور ، ويغرد الكروان ، فليس للشاعر الغزل من أرب إلا أن يبوح بما يجد فى لغة ممتازة أخاذة .

وذلك أيضاً بأن الصدق الفنى موفور فيه ؛ لأن الشاعر صور عاطفته فأحسن تصويرها ، فى رضا الحبيبة وصدها وقربها وبعدها .

وهذا الغزل ينبىء عن تذوقهم للجمال ، وأنهم ذوو بصيرة وبصر بالجسدى منه والنفسى ، مدركون لما فى بيئتهم من أنواع الجمال الطبيعى والصناعى ، لذا شبهوا به كثيراً واستمدوا منه المعانى .

وإذ كان هذا الغزل متسما بالصدق الشعورى والصدق الفنى فإنه وثيق الصلة بالبيئة العربية ، والطبع العربى ، وأنا أشعر أن هذا التعبير لا يكفى ، وأشعر أن خيراً منه أن أقول إنه تصوير دقيق للبيئة وللطبع .

ويتمثل هذا فى عدة نواح :

أولا : الاستمداد من البيئة

متح الشعراء من بيئتهم الخيال الذى صوروا به عواطفهم ، فكانوا صادقين

فى تجاوبهم مع ما فى البيئة من حيوان ونبات وجماد ، لأنهم أحسوا بجماله ، وتخيروا من صفاته صفة بارزة تمتُّ إليها الحبيبة بصلة ، أو تمتُّ إلى الحبيبة بسبب ، فشبهوا الحبيبة بها ، يريدون أن يصوروا مقدار جمالها ، وأن يزينوها ، لأن هذا الذى يشبهون به متعارف الجمال بينهم ، مسلم بتميزه فى هذه الناحية ، لذا يلحقون الحبيبة به ليدلوا على تفوقها فى جمالها .

ولو أن عندهم أجمل مما شبهوا به لألحقوا الحبيبة به أيضاً . ولكن بحسبهم أن التفتوا إلى ما فى البيئة من جمال منوع ، وعقدوا بينه وبين المرأة الحسناء صلة أو صلات ، مع علمهم أن جمال المحبوبة أقوى فتوناً ، وأحلى فنوناً .

يقول الجاحظ فى هذا المعنى : « وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية ، وأحسن من البقرة ، وأحسن من كل شىء تشبهه ، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، فيقول بعضهم كأنها القمر ، وكأنها الشمس . والشمس وإن كانت بهية فإنما هى شىء واحد ، وفى وجه الجارية الحسناء وخَلْقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب . ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية ؟ »(١) .

١ — فهم استمدوا تصويرهم من الطبيعة الحية المتحركة ، فراقهم من البقرة الوحشية سعة عينيها ، وشدة سوادها ، ونصاعة بياضهما ، فشبهوا عينى المحبوبة بهما ، وراقهم من الغزالة جمال عينيها وخفتها ورشاقتها وجمال لفتتها ، فشبهوا بها المحبوبة ، وأعجبهم من القطاة خطوها فشبهوا مشى المرأة بمشى القطاة .

(ا) قال سلامة بن جندل :

وعندنا قَيْنَةٌ بيضاء ناعمة ... مثلُ المهاةِ من الحُور الخراعيب(٢)

وقال عمرو بن الأهتم :

كأن على الجمال نعاج قَوٍّ ... كوانس حُسَّراً عنها الستور(٣)

---

(١) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١١٨
(٢) المفضليات ١ / ١١٨ الخراعيب : اللينات
(٣) المفضليات ٢٠٩/٢ نعاج : بقر وحشى

وقال ثعلبة بن صُعَيْر :

ولرب واضحة الجبين غريرة   مثل المهاة تروق عين الناظر
قد بتُّ أُلْعِبها وأقصر همها   حتى بدا وَضحُ الصباح الجاشر (١)

وقال النابغة :

كأن على الحدوج نعاج رمل   زهاها الذعر أو سمعَتْ صياحا (٢)

وقال لبيد :

منازل من بيض الخدود كأنها   نعاج الملا من مُعْصِرٍ وعوان (٣)

(ب) ووصف قيس بن الخطيم ظبية حسناء طيبة المرعى ، ثم قال إنها ليست بأحسن منها :

فما ظبيةٌ من ظباء الحسا   ء عَيْطاء تَسْمَعُ منها بُغاما
تُرَشِّح طفلا وتحنو له   بِحقْف قَدَ انْبَتَ بَقْلاً تُؤاماَ
بأَحسَنَ منها غداة الرحيـ   ـل قامت تُريك أثيثاً رُكاما (٤)

وهو يشبه القتال الكلابى فى قوله :

وما مُغْزِلٌ ترعى بأرض تَبالةٍ   أَراكا وسِدْراً ناعماً ما يَنالها
وترعى بها البَرْدَيْنِ ثُمَّ مَقيلها   عَياطِلُ ملتفٌّ عليها ظلالها
بأحسن من ليلى وليلى بشبهها   إذا هُتِكَتْ فى يوم عيد حِجالها (٥)

---

(١) المفضليات ١/١٢٩ الجاشر : الواضح

(٢) ديوان النابغة ١٦

(٣) ديوان لبيد ٤٧ الملا : الصحراء . معصر : بلغت الشباب أو العشرين . عوان : امرأة متزوجة أو كبيرة .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٣٩ الحساء : جمع حسى وهو السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ، أو مرتفع من الأرض فوقه رمل يجمع ماء المطر . عيطاء : طويلة العنق . البغام : صوت الظبية الرخيم تنادي به ولدها . ترشح : تلحس ولدها ساعة يولد . حقف : كثيب من الرمل . تؤاما : متشابكا . أثيثار كاما : شعرا غزيرا كثيفا

(٥) معجم البلدان ٢/٣٥٨ البردين : الغداة والعشى . عياطل : غصون طوال . حجالها : جمع حجلة وهى حجرة العروس

وقال بشر بن أبى خازم :

أسائل صاحبي ولقد أراني ... بصيراً بالظعائن حيث ساروا

. . . .

كأن ظباء أَسْنُمَةٍ عليها ... كوانسَ قالصاً عنها الْمُغار (١)

وقال المثقب العبدى :

وهن على الرجائز واكنات ... قواتل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال ... تنوش الدانيات من الغصون (٢)

وقال ربيعة بن مقروم :

كأنها ظبية بكر أطاع لها ... من حومل تلعات الجو أو أُودا (٣)

(حـ) ولقد يجمع الشاعر الصورتين فيشبهها بالمهاة وبالغزال .

قال لبيد فى الحدوج :

كأن نِعَاجاً من هجائنِ عازف ... عليها وأرآمَ السُّلَىّ الحواذلا (٤)

وقال زهير :

نازَعتِ المها شبهاً ودُرَّالْ ... بحور وشاكَهتْ فيها الظباء

فأما ما فويق القَدّ منها ... فمن أَدْمَاءَ مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مَهَاةٍ ... وللدر الملاحة والصفاء (٥)

وقال خداش بن زهير :

(١) المفضليات ٢/١٣٨ أسنمة : موضع . المغار : ج مغارة والمراد به الهودج يريد أن هوادجهن ضاقت بهن

(٢) المفضليات ٢/٨٨ الرجائز : مراكب النساء . واكنات : مطمئنات . أشجع : أسد . خذلن : تخلفن عن صواجهن . تنوش : تتناول

(٣) المفضليات ٢/١٣ أطاع لها : كثر المرعى أمامها واتسع . أود : موضع .

(٤) ديوان لبيد ٢١ هجائن : بيض . أرآم : ظباء . السلى : واد . الحواذل : جمع خاذل وهى الظبية التى تقيم على ولدها ترعاه

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥ . شاكهت : شابهت . أدماء : ظبية مشربة بياضا.

وإذ هى خودٌ كالوذيلة بادنٌ ... أسيلة ما يبدو من الجيب والنحر
كَمُغزلة تغذو بِحَوْمَلَ شادنا ... ضئيل البُغام غير طِفْلٍ ولا جَأْر [1]

(د) وقال النابغة مشبهاً بالقطاة :

تدعو قطا وبه تُدْعى إذا انتسبت ... ياصدقها حين تدعو فتنتسب [2]

٢ — واستمدوا تصورهم من الطبيعة الحية غير المتحركة ، فشبهوا رشاقة المرأة وانعطافها وتثنيها وليونتها بغصن البان ، وشبهوا ساقيها بالبردى بياضاً واستدارة ونعومة ، وشبهوا ثديها بالرمان حجما واستدارة وشكلا ، وأسنانها بالأقحوان بياضاً واستواءً واتساقا .

(ا) قال قيس بن الخطيم :

حَوْراء جَيْدَاء يُستضاء بها ... كأنها خُوط بانة قِصف [3]

(ب) وقال المخبل السعدى :

بَرْدِيَّةٌ سَبَقَ النعيم بها ... أقرانها وغلا بها عظم [4]

وقال امرؤ القيس :

وكشحٍ لطيف كالجديل مُخَصَّرٍ ... وساق كأنبوب السَّقِيِّ المذَلَّل [5]

(حـ) وقال الأعشى :

وثديان كالرمانتين ، وجيدها ... كجيد غزال غير أن لم يعطَّل [6]

(د) وقال أيضاً :

---

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى ١٩١ . خود : حسنة الخلق شابة ناعمة . الوذيلة : المرآة أو القطعة من الفضة المجلوة . بادن : عظيمة الجسم . مغزلة : ظبية ذات غزال . حومل: موضع . شادن : ظبى . طفل : صغير . جأر : المراد كبير .

(٢) لسان العرب ٢٠/٥١

(٣) ديوان قيس ابن الخطيم ١٧ ولسان العرب ٢١٩/١٦ خوط : غصن ناعم . قصف : لدن .

(٥) المفضليات ١١٢/١ غلا : ارتفع أى زادها النعيم حتى فاقت أترابها و كبرت قبلهن

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٠

(٦) ديوان الأعشى ٢٢٦

ومهـــا يرف غُروبه يَشْـفى المتــيَّم ذا الحرارة
كذُرَى منوّرِ أقحـــوا ن تسامَقَ فى قرارة (١)

٣ — واستمدوا التصوير أيضاً من الطبيعة غير الحية ، فشـبهوا بالشمس والبدر ، والدر .

(ا) شبهوا وجه الحبيبة بالشمس والبدر وضاءة وإشراقا .

قال قيس بن الخطيم :

فرأيت مثل الشمس عند طلوعها في الحسن كدُنُوِّها لغروب (٢)

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

والبيض تمشى كالبدور وكالدُّمى ونواعم يمشين بالأَرْفاد (٣)

وقال عنترة :

رفعوا القبــاب على وجوه أشرقت فيهـا فَغَيَّبت السُّها فى الفرقد
والشمس بين مضرَّج ومبلَّج والغصن بين موشَّح ومقلَّد (٤)

(ب) وشبهوا الوجوه باللؤلؤ لوناً وصفاء .

قال الأعشى إنها كدرة نفيسة نادرة صعبة المنال حاول استخراجها الغواص مذ كان شاباً .

كأنهـا درة زهراء أخرجهـــا غواص دَارِينَ يخشى دونها الغرقا
قد رامهـا حججـا مذ طرَّ شاربه حتى تسعسع يرجوها وقد خفقـا
لا النفس توئسه منهـا فيتركها وقد رأى الرَّغب رأى العين فاحترقا
ومارد من غواة الجن يحرسهـا ذو نيقةٍ مســتعدٌّ دونها تَرَقا
ليست له غفلة عنها يطيف بهـا يخشى عليها سُرى السارين والسَّرقا

---

(١) ديوان الأعشى ١١٢ مها : بلور . غروبه : الغرب الفيضة من الخمر
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ٥
(٣) المفضليات ٢/١٨ الأرفاد : قداح الخمر وهو يصف الساقيات
(٤) ديوان عنترة ٦٩

في حوم لجة آذى له حَدَبَ ... من رامها فارقتها النفس ، فاعتلقا
من نالها نال خلداً لا انقطاع له ... وما تمنى فأضحى ناعماً أنِقا
تلك التي كلفتك النفس تأملها ... وما تعلقت إلا الحين والحرقا[1]

ويشبهه المخبل السعدى في رسم صورة للدرة النفيسة كهذه الصورة ثم تشبيه المحبوبة بها [2] :

وقال قيس ابن الخطيم :

كأنها درة أحاط بها الغوا ... ص يجلو عن وجهها الصَّدف[3]

وقال سويد بن أبي كاهل :

كالتُّؤَاميَّة إن باشرتها ... قرت العين وطاب المضطجع[4]

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ... ونواعم يمشين بالأرفاد[5]

٤ — وصوروا بما في البيئة من مصنوعات .

(ا) شبهوا الحسناء بالدمية « وكان بين العرب في اليمن والحجاز وغيرهم فيما يظهر مصورون ومثالون ملأوا معابدهم بتماثيل آلهتهم من الحجر والمعدن والخشب »[6] ، ولا بد أن الكنائس المسيحية والبيع اليهودية كانت حالية بالتماثيل . ووجه الشبه بين الحسناء والدمية الجمال والانسجام والملاسة وغيرها .

قال عدى بن زيد :

بناتِ كرام لم يُرَبْنَ بَضرَّةٍ ... دمىً شَرِقاتٍ بالعبير روادعا[7]

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها في فصل الجمال (٢) المفضليات ١/١١٣
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٨
(٤) المفضليات ١/١٩٤ التؤامية : الدرة المنسوبة إلى تؤام قصبة عمان التي تلى الساحل
(٥) المفضليات ٢/١٨
(٦) موجز تاريخ الحضارة العربية ٢٥٤ لناجى معروف وعبد العزيز الدروى
(٧) الأغانى ٢/١٥٠

وقال :

كدمى العاج فى المحاريب أوكال ... بيض فى الروض زهره مستنير[١]

وقال امرؤ القيس فى صاحبتيه هر وفرتنا :

هما نعجتان مـــن نعاج تبالة ... لدى جؤذرين أو كبعض دمى هكر[٢]

وقال الأعشى :

وقـــد أراهـا وسط أترابهـا ... فى الحى ذى البهجة والسامر

كدميـة صُـــوّر محرابُهـا ... بمذهّب فى مرمر مائر[٣]

وقال سحيم :

وما دميه من دمى ميْسَنـا ... نَ معجبةٌ نَظَراً واتصـــافا

بأحسن منها غداة الرحيـــ ... ـل قامت تُرائيك وَحْفا غُدافا[٤]

(ب) وشبهوا قوامها بالرمح اعتدالا وليناً ، قال مزرد ابن ضِرار الذبيانى يمدح بنى الدّماء من قيس :

مصاليت كالأسياف ، ثمّ مصيرهم ... إلى خَـفِرات كالقنا المترائد[٥]

(حـ) وشبهوا وجهها بالدينار لمعاناً واستدارة .

قال قيس بن الخطيم :

تبـــدّتْ لى لتقتلنى فأبدت ... معاصمَ فخمةً منها وجيـــدا

ووجهاً خِلْتُه لمـا بدا لى ... غداة البين ديناراً نقيـدا[٦]

وما من شك فى أن التشبيه بالدينار ، وبالدمية ، كان نابعاً من بيئة حضرية

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٥

(٢) ديوان امرىء القيس ٨٤ تبالة : موضع باليمن . هكر : موضع لابد أن كانت به تماثيل حسان .

(٣) ديوان الأعشى ١٠٤ مائر : مستو مصقول

(٤) ديوان سحيم ٤٣ غداف : شعر طويل أسود . الوحف : الشعر الكثير الأسود

(٥) المفضليات ١/٧٨ المترائد : المتثنى يمنة ويسرة

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ٢٦ نقيد : مختار صحيح .

لا بدوية ، ولذا نجده من تخييل الحضريين مثل قيس بن الخطيم والأعشى وعدى ابن زيد وامرئ القيس .

(ى) وشبهوا الوجوه بمصباح الراهب ، لأنه ينير فى الفضاء والظلمات من حوله ، وذلك أبين لنوره ، ثم لأنه يهدى ويبعث الانشراح والارتياح .

قال امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعِشاء كأنها ... منارة مُمْسَى راهب متبتل[(١)]

(هـ) وشبهوا الريق بالخمر كقول زهير :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتَبَقتْ ... من خمر عانَةَ لما يَعدُ أن عَتَقا[(٢)]

وقد افتنوا فى ذلك كما سبق فى (جمال المرأة) .

ثانياً : الوقوف بالأطلال

وقد سبق أن الشعراء ربطوا ذكريات الحب بهذه الأطلال ، لأنها تمثل عهوداً عزيزة عليهم وحياة سعيدة لديهم ، فتملوا فيها ماضيهم وبكوا حاضرهم ، واستخبروها وناجوها . والأطلال وثيقة الصلة بالغزل عندهم ، لأنها آثار المحبوبة التى ارتحلت . وقد سبق تفصيل القول فى ذلك .

ثالثاً : ترديد أسماء الأماكن

وقد أكثروا من ذكر أسماء الأماكن لأنها مثل الأطلال مرتبطة بالحب والحبيبة، فهم يجدون فى ذكرها عزاء ومسلاة ، كقول امرىء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمل
فتُوضِحَ فالمقراة لم يَعْفُ رسمها ... لِما نسجَتْها من جَنوب وشمْأل

---

(١) الديوان ١٣١

(٢) لسان العرب ١٧/١٧٥ اغتبقت : شربت الخمر بالعشى . عانة : بلدة على الفرات تنسب إليها الخمر العانية .

وقول لبيد :

عفت الديار محلُّها فمُقامها بِمنىً تأبَّدَ غُولها فرِجامها

وقول طرفة :

لخولة أطلال ببُرْقةِ ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقد حاكاهم من بعدهم من شعراء العصر الإسلامى والعباسى كما سبق فى الأطلال .
حاكاهم شعراء يعرفون البادية كابن الدمينة :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد لقد زادنى مسراك وجداً على وجد[1]

وحاكاهم شعراء لا عهد لهم بالبادية كمهيار :

نظنُّ لياليَنا عُوَّدا على العهد من بُرْقتَىْ ثهمدا
خليلىَّ لى حاجة ما أخف بِرامة لو حمَلْتُ مُسْعِدا[2]

رابعاً : الشكوى من البين والتوجع من الفراق

وذلك أن الحياة فى البادية ليست حياة استقرار وإقامة ، ولكنها حياة رحلة ونجعة ، فلا يلبث قوم أن يقيموا بمكان مدة من الزمان تطول أو تقصر ، فيعلق شاب من قوم آخرين بفتاة من هؤلاء ، وإذا بهم يرتحلون للنجعة ، فيتوجع من آلام الفراق ، ويرسل قلبه وراء الظعائن والأحداج .

وقد مضى القول فى تفصيل ذلك .

خامساً : الابتكار والمحاكاة فى المعانى

كثيراً ما تتشابه المعانى التى يعبر عنها الشعراء ، ويكون مرد ذلك إلى المحاكاة والاحتذاء ، فللشاعر راوية أو رواة يتأثرونه ويحاكونه ، كما حاكى الأعشى خاله وأستاذه المسيب بن علس . ولقد يحاكى الشاعر غيره وإن لم يكن أستاذه لأن اللغة تقليد ومحاكاة .

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣/١٤٥
(٢) ديوان مهيار الديلمى ١/١٦٣

وقد يكون مرد ذلك إلى أن أكثر هذه المعانى ، وأكثر هذا التصوير تعبير عن عاطفة الحب ، وهى تتشابه فى الناس ، وتتقارب فى البيئة الواحدة ، وقد صور الشعراء عواطفهم مستمدين من بيئتهم وحياتهم ومن الطبيعة التى يرون ، فمن الطبيعى أن تتحد معانيهم أحياناً وأن تتقارب وتتماثل أحياناً ، وليس فى اتحادها أو تقاربها ما يقطع بأن فيها سرقة أو محاكاة ، ما دامت من المعانى العامة الشائعة .

وقد ذهب أبو هلال العسكرى إلى أن المعانى كلها مشاعة بين الأدباء لا تفاوت فيها بين عربى وعجمى وقروى وبدوى(١) ، ولكنى أخالفه ؛ لأن المعانى تختلف باختلاف البيئة والثقافة والتجربة ، ولأن بعض المعانى ليس مما تتوافى عنده الخواطر ، إذ هو نتاج عبقرية وفيض إلهام .

فمن المعانى العامة أنهم شبهوا جمال عيون النساء بعيون المها ، وشبهوا خفة النساء ورشاقتهن ولفتاتهن وأعناقهن بالغزلان ، وشبهوا قوامهن بغصن البان وبالرمح ، وقالوا إن نظراتهن ساحرة الخ الخ . .

ومن المعانى العامة أنهم وقفوا على الأطلال وتحسروا على انقضاء عهد سعيد ، وشكوا من العذال والوشاة ، ولست أستطيع اليقين بأن هذه المعانى المتشابهة ناشئة عن المحاكاة وحدها أو من اتحاد العاطفة والبيئة ، وإن كنت أرجح أن المعانى العامة ليست مجالا لكثير من المحاكاة ؛ لأنها فى مقدور كل شاعر ، ولأنها ليست من ابتكار شاعر .

لكنى أحكم بالمحاكاة إذا كان المعنى مما لا يتوافق عليه شاعران ، لأنه من اختراع شاعر ، أو كانت طريقة التعبير عن هذا المعنى جديدة لم يسبق إليها الشاعر ، ثم جاء شاعر آخر بعده فكرر هذا المعنى نفسه أو أضاف إليه شيئاً ليس بذى بال ، أو سلك مسلك الشاعر الذى سبقه فى تعبيره وأسلوبه وطريقة تصوره للمعنى وإبرازه له . ولأضرب أمثلة على ذلك :

١ — صور المسيب بن علس(٢) جمال حبيبته بأن وصف درة فى بحر هائج ، بذل

---

(١) الصناعتين ٥٥

(٢) المسيب مات ٥٨٠ م (شعراء النصرانية ٣٥٠)

الغواصون جهوداً مضنية فى اصطيادها ، حتى لقد ترصدوها شهوراً فعجزوا ، ولم يظفر بها إلا صياد صبور طويل خفيف طلى جسمه بالزيت ، وعزم على الظفر بها لأنه مملق يريد أن يستغنى بها ، ولأن أباه حاولها من قبل فغرق ، فهو يريد أن يثأر منها ، فأخرجها لساعة كالجمر ، وأغلى ثمنها ، ولما رآها الملاحون ملكت مشاعرهم فسجدوا لها ، وصار الغواص يضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة اليتيمة تشبه الحبيبة وقد أشرقت من خدرها .

ثم جاء الأعشى — وكان راويته وتلميذه وابن أخته — فترسم خطاه فى تخيله وتخييله ، وتصرف فى تصويره بعض التصرف ، فقال إن هذه الدرة كان يحرسها مارد من الجن ، يراقبها ليله ونهاره ليحميها من يد الغواصين ، وقال إن الغواص الذى ظفر بها كان يترقبها منذ كان شاباً .

قال المسيب :

كجمانة البحرىّ جاء بها	غواصها من لجة البحر
صَلِبَ الفؤاد رئيس أربعة	متخالفى الألوان والنّجر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا	ألقوا إليه مقالد الأمر
وعلت بهم سَجْحاءُ خارمة	تهوِى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ما ساء ظنهم	ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيَه بتهلكة	ثبتت مراسيها فما تجرى
فانصبَّ أسْقَفُ رأسه لَبِدٌ	نزعت رباعيتاه للصبر
أشْفَى يمجُّ الزيتَ ملتمسٌ	ظمآن ملتهبٌ من الفقر
قَتَلَتْ أباه فقال أتبعها	أو أستفيد رغيبة الدهر
نَصَفَ النهارُ ، الماء غامره	ورفيقه بالغيب لا يدرى
فأصاب مُنْيَتَهُ فجاء بها	صَدَفية كمضيئة الفجر
يُعْطَى بها ثمناً ويمنعها	ويقول صاحبه ألا تشرى ؟
وترى الصَّرارىّ يسجدون لها	ويضمها بيديه للنحر

فتلك شبه المالكية إذ   طلعت ببهجتها من الخدر [١]

وقال الأعشى [٢] :

كأنها درة زهراء أخرجها   غواص دارين يخشى دونها الغرقا
قد رامها حججاً مُذْ طرَّ شاربه   حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا
لا النفس توئسه منها فيتركها   وقد رأى الرَّغْب رأى العين فاحترقا
ومارد من غواة الجن يحرسها   ذو نيقَةٍ مُستعدٌّ دونها تَرَقا
ليست له غفلة عنها يطيف بها   يخشى سُرَى السارين والسرقا
فى حوم لجة آذىٍّ له حَدَب   من رامها فارقتها النفس فاعتلقا
من نالها نال خلداً لا انقطاع له   وما تمنى فأضحى ناعماً أَنِقا
تلك التى كلفتك النفسُ تأملها   وما تعلقت إلا الحين والحرقا [٣]

٢ — كذلك يتشابه ربيعة بن مقروم [٤] والنابغة الذبيانى فى تصوير سحر الحبيبة وفى طريقة التصوير وأسلوبه .

يقول النابغة إنها لو تصدت لراهب أشيب أعزب متبتل لاجتذبته فأطال النظر إليها ، وأرهف أذنيه لسماع حديثها ، وأحس أن حديثها رشاد وهداية وإن خلا من رشاد ، ومن هداية :

لو أنها عرضت لأشمَط راهبٍ   عبد الإله صرورةٍ متعبد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها   ولخاله رَشَداً وإن لم يَرْشُد [٥]

وقال ربيعة بن مقروم إنها قديرة على أن تصبى الراهب الأشيب الذى أشرب الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين اللذات ، فهو فى ديره دائم الضراعة والعبادة

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ وقد سبق شرحها فى فصل الجمال

(٢) مات الأعشى ٦٢٩ م (شعراء النصرانية ٣٥٧)

(٣) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها فى فصل الجمال

(٤) شاعر مخضرم (شرح المفضليات ١/١٧٨) والنابغة مات ٦٠٤ م (شعراء النصرانية ص ٦٤٠)

(٥) ديوان النابغة ٣٠

حتى ضنى واغضوضن وجهه واخدودد لحمه ، ولكنه لو عرضت له هذه الحبيبة وتصدت لتسحره لبلغت منه ما تريد ، فصبا ، وهم أن يهجر ديره ويخلع رهبانيته :

لو أنها عرضت لأشمط راهب — فى رأس مشرفة الذرى متبتل
جارِ ساعاتِ النهار لربه — حتى تخدد لحمه مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها — ولهمَّ من ناموسه بتنزل[١]

٣ — وصور سويد بن أبى كاهل اليشكرى[٢] حلاوة حديثها وجاذبيتها بالقدرة على اجتذاب الوعول من أعالى الجبال :

ودعتنى برقاها إنها — تنزل الأعصم من رأس اليَفَع[٣]

فأشبهه النابغة فى هذا التصوير أو أشبه هو النابغة لأنهما متعاصران :

وإن ضحكت للعصم ظلت دوانيا — إليها وإن تبسم إلى المزن يبرق[٤]

٤ — وقال المرقش الأصغر : ليست الخمر الطيبة الريح المعتقة التى ثوت فى دنها عشرين عاماً بنجوة من الهواء ، ووفد بها على جيلان تجار من اليهود يبالغون فى ثمنها ، ليست بأطيب من فم المحبوبة ليلا ، بل إن فاها ألذ وأطيب :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها — تُعَلَّى على الناجود طوراً وتُقدَح
ثوت فى سِباء الدن عشرين حجة — يُطان عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّح
سباها رجال من يهود تواعدوا — لجيلانَ يُدْنيها إلى السوق مُرْبح
بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً — من الليل بل فوها ألذ وأنصح[٥]

فحاكاه الأسود بن يعفر[٦] فى قوله إن ريقتها كأنها بعد النوم ممزوجة بخمر صرف تخيرها الخمارون ، قد ثوت فى دن نصب على نصائب لتعرضه للريح والشمس ،

---

(١) الأغانى ٢٠/٩٢ . مستعمل : جاد فى عبادته حتى تعب .

(٢) مات ٦٠٠ م (شعراء النصرانية) ٤٢٥

(٣) المفضليات ١/١٩٠ — (٤) ديوان النابغة ٣٩

(٥) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢١١ والمفضليات ٢/٤٢

(٦) المرقش الأصغر ٥٧٠ م (شعراء النصرانية ٣٢٨) والأسود بن يعفر ٦٠٠ م (شعراء النصرانية ٤٧٥)

وكأنه من طيب رائحته قد وضعت عليه قلادة من فَغْو وريحان ، وقد أحكم غطاؤه إحكاماً ، وقد ثوى هذا الدن نصف حول بموضع يقال له أَفَّان يختبر ويمتحن ، ويصعد سلماً بعد سلم ، لأنه قد وضع على السطح ليضحى للشمس ويبرز للريح ، ثم نضجت خمره وبلغت الغاية ، فتعاطتها هذه الحبيبة أو تعاطاها ريقها صهباء من عنب أبيض ، يغلى صاحبها ثمنها لتجارها و نُدُلها أو لتجارها وباعتها من العجم :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ... صِرْفاً تخيرها الحانونَ خُرْطوما

سلافةَ الدنِّ مرفوعاً نصائبه ... مُقَلَّدَ الفَغْوِ والريحان ملثوما

وقد ثوى نصف حول أشهرا جدُدا ... بباب أَفَّانَ يَبْتار السلاليما

حتى تناولها صهباءَ صافية ... يرشو التِّجارَ عليها والتراجيما[1]

ثم أشبههما سحيم فى قوله :

كأن على أنيابها بعد هجعة ... من الليل نامتها سُلافاً مبرَّدا

سلافة دنٍّ أو سلافة ذارعٍ ... إذا صب منه فى الزجاجة أزبدا[2]

المحاكاة والعاطفة :

لكن هذه المحاكاة لا تجرد الشاعر من عاطفته ، لأن المحبين يتفاوتون كثيراً فى مقدرتهم على التعبير ، وحتى القادون على التعبير تختلف قدرهم باختلاف مواهبهم لذا قد يجد الشاعر المحب فى تصوير غيره لعاطفته إفصاحاً عن عاطفته هو أيضاً فيعجبه هذا التصوير فيتأثر به . يقول الدس هكسلى Aldous Huxley فى قريب من ذلك : « كما يحاول غير المتمدين أن يحاكى المتمدين وإن لم يكن هذا المتمدين جديراً بالمحاكاة فكذلك الحياة تحاول جادة أن تحاكى الفن حتى ولو لم يكن فيه ما هو جدير بالتقليد ، ومن هنا نشأت الضرورة لوجود فن جميل . وقد ورد

(١) المفضليات ٢/٢١٨ التراجيم : خدم الخمارين وليس هذا المعنى فى المعاجم وكذلك زيادة الياء فى الجمع . ويصح أنه يريد التراجمة لأن باعة الخمر عجم يحتاجون إلى من يفهم الناس كلامهم . الحانون : ج حان وهو الخمار . الخرطوم : أول ماينزل من الدن . ملثوم : عليه اللثام. جدد : ج جديد . باب أفان : موضع .

(٢) ديوان سحيم ٤٠ ذارع : زق طويل

فى إحدى قصائد دانتى لمحة عن هذا المعنى ، فقد وصف قبلة فى إحدى قصائده ، ثم رأى عاشقين يتبادلان قبلة ، فقال : « قبلتها ، لقد قبلها كما وَصَفْت »(١) .

ويقول أيضاً : « ليس معنى ضعف الشخص عن التعبير أنه ضعيف المشاعر فاتر العاطفة ، لأن القدرة على التعبير الرائع هبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس ، ومن المؤكد أن عدد المعبرين أقل من عدد المحبين » (٢) .

سادساً : الأسلوب

١ — يتميز أسلوب الغزل بالرقة والعذوبة والطلاوة ، وتخير الكلمات الفنية بالعاطفة المثيرة للذكريات ، لأن الغزل ترجمان عن عاطفة الحب ونابع منها ، وهى لا يلائمها إلا هذا الضرب من المقال .

لذا نجد أسلوب الشاعر الواحد يتباين فى القصيدة الواحدة ، فيرق ويعذب فى الغزل ، ويضخم ويفخم فى الفخر أو المدح أو الهجاء أو وصف الصيد مثلاً .

ومن أمثلة ذلك :

تغزل امرؤ القيس ووصف الوحش فى قصيدة واحدة ، فكان سهلاً ليناً وادعاً فى غزله ، وكان ضخماً متعالياً فى وصفه :

غَشيتُ ديار الحى بالبَكرات ... فعارمةٍ فبُرقةِ العِيَرات

. . . .

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً ... أعد الحصى ما تنقضى عبراتى

أعِنّى على التَّهمام والذِّكَرات ... يبتْنَ على ذى الهم معتكرات

ثم ينتقل إلى وصف الوحش وصيده :

أرنَّ على حُقْب حيال طَروقةٍ ... كذَود الأجير الأربَعَ الأَشرات

عنيفٍ بتجميع الضرائر فاحشٍ ... شتيم كذَلْق الزُّج ذى ذَمَرات

---

(١) Aldous Huxley. Text and Pretexts. P. 1

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩

ويأكلن بُهْمَى جَعْدَةً حبشية ... ويشربن بَرْدَ الماء فى السَّبرات[1]

ويستمر فى أسلوبه هذا .

ونجد مثل ذلك عند طرفة ، يتغزل بقوله :

وفى الحى أحوى ينفض المَرْدَ شادن ... مُظاهر سِمْطَى لؤلؤ وزبرجد

وتبسم عن ألمى كأن منوراً ... تخلل حر الرمل دِعص له ند

ووجه كأن الشمس حلت رداءها ... عليه نقى اللون لم يتخدد

وفى القصيدة نفسها يصف الناقة بمثل قوله :

وإنى لأمضى الهم حين احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

أمون كألواح الإران نسأتُها ... على لاحب كأنه ظهر بُرْجد

صهابية العثنون مُؤْجَدَة القَرا ... بعيدة وَخْد الرجل مَوَّارة اليد[2]

ويطول القول لو أكثرنا من النصوص الدالة على هذا ، ففى الإشارة غنية .

ومن البديهى أن الغزلين الذين لم يصلنا من شعرهم غير الغزل مثل عروة بن حزام يتميز أسلوبهم بالرقة والسهولة .

٢ — وكثيراً ما يجنح الشعراء الغزلون إلى أسلوب قصصى يصورون به عواطفهم ، ويصفون لقاءهم لحبيباتهم ، ويذكرون ما دار فى اللقاء ، كما نجد فى غزل امرئ القيس والأعشى وسحيم وغزل عروة بن حزام .

٣ — وأسلوبهم موجز ، إذ لم يعنوا إلا بالخطوط البارزة ، ولم يحفلوا بالتفاصيل ، ولو أنهم عنوا بها فذكروا كثيراً مما أهملوا أو بسطوا القول فيما أغفلوا كما يفعل

---

(١) ديوان امرىء القيس ٥٧ أرن : صوت يريد حمار الوحش . الحقب : الأتن الوحشية البيض الأعجاز . حيال : ج حائل لم تحمل فى سنتها . طروقة : مستعدة للضراب . الأشرات : القويات . زالق الزج : حد الرمح الأسفل . ذو ذمرات : صاحب زجر ودفع .

(١) ديوان طرفة ٧ — ١٦ عوجاء : ناقة ضامرة . مرقال : شديدة الإسراع . الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى شبه الناقة فى سعة جنبيها وشدة خلقها به . نسأتها : زجرتها . البرجد : كساء مخطط . صهابية العثنون : الوبر الذى تحت لحييها تخالط بياضة حمرة . مؤجدة : موثقة . القرا : الظهر

القُصّاص الغربيون ، ولو أنهم عددوا الشخصيات وأداروا على ألسنتها أنواعاً من الحديث ، وأجروا أحاديث على لسان صواحب الحبيبة مثلاً ، لو أنهم فعلوا ذلك لخلقوا شعراً قصصياً رائعاً .

ولست أقصد بالإيجاز هذه النواحى البلاغية من حذف وقصر وغيرها ، إنما أريد الإيجاز الذى يدمج المعانى ويركزها . ويكتفى باللمحة ويدع التفصيل ، ويعبر فى صور متلاحقة ليس بينها فترة أو سكون أو فاصل .

مثل قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل

فى هذين البيتين صور عدة متلاحقة ، والتعبير عنها موجز . ذلك أن الأعشى لم يلبث أن دعا نفسه إلى توديع هريرة على ما فى التوديع من مرارة وألم حتى ألحق بهذه الصورة صورة أخرى هى أن الركب وشيك الرحلة ، ثم ألحقها بصورة ثالثة هى أنه استبعد أن يطيق موقف الرحيل . ثم وصفها بأنها غراء ، وألحق الصفة بثانية أنها فرعاء ، وبثالثة أنها صقيلة ، وبرابعة أضافت إلى هذه الصور حركة وحياة أنها تمشى متمهلة مترفقة الخطا كما يمشى الوجى فى طريق موحل أو كما يمشى الوجى وهو خائف يترقب (الوجِل أو الوحِل) .

المحاكاة فى الأسلوب :

مما يكشف عن المحاكاة أن يتشابه الأسلوبان كما مر فى أسلوب المسيب والأعشى ، وفى أسلوب المرقش والأسود بن يعفر ، وما أشك فى أن هذا الأسلوب الذى تذكر فيه أداة نفى ويذكر بعدها شىء ، ثم يوصف هذا الشىء ، ثم يجىء الخبر اسم تفضيل مسبوق بالباء ، ما أشك فى أن هذا الأسلوب نادر فى اللغة العربية ندرة تخولنى أن أحكم بأن الشاعر اللاحق قد حاكى فيه السابق .

وذلك كقول قيس بن الحدادية :

وما إن خَذُولٌ نازعت حبل حابل لتنجو إلا استسلمت وهى ظالع

بأحسن منها ذات يوم لقيتها ... لها نظر نحوى كذى البث خاشع
فما نُطْفة بالطود أو بَبَصرية ... بَقِيَّةَ سيل أحرزتها الوقائع
يطيف بها حرانُ صادٍ ولا يرى ... إليها سبيلا غير أن سيطالع
بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً ... من الليل واخضلت عليك المضاجع (١)

ثم قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مُسْبل هَطِل
يضاحك الشمس َمنها كوكب شرق ... مؤزَّر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (٢)

ثم اقتفى سحيم أثرهما أو أثر أحدهما فى قوله :

فما بيضة بات الظليم يحُفُّها ... ويرفع عنها جُؤجؤاً متجافيا
ويجعلها بين الجناح ودفِّه ... ويُفْرشها وَحْفاً من الزِّف وافيا
فيرفع عنها وهى بيضاء طَلَّةٌ ... وقد واجهت قرناًمن الشمس ضاحيا
بأحسن منها يوم قالت : أراحلٌ ... مع الركب أم ثاوٍ لدينا لياليا ؟ (٣)

وفى قوله :

وما دمية من دُمَى مَيْسنَا ... ن مُعْجِبة نَظَراً واتصافا
بأحسن منها غداة الرحيـ ... ـل قامت تُرائيك وَحْفاً غُدافا (٤)

وكذلك صنعت الخنساء وإن كان أسلوبها فى الرثاء :

فما عَجُول على بَوٍّ تُطيفُ به ... قد ساعدتها على التحنان أظآر
ترتع مارتعت حتى إذا ادَّكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار
لاتسمن الدهر َفى أرض وإن رُبعت ... فإنما هى تحنان وتجسار

(١) الأغانى ١٣/٦ خذول : ظبية تعطف على ابنها . اخضلت : نعمت
(٢) شعراء النصرانية ٣٦٧ كوكب شرق : زهر أبيض
(٣) ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ١٨ . الزف : الريش . وحفا : أسود
(٤) ديوان سحيم ٤٣ ميسنان : موضع بالشام . وحف : شديد السواد كثيف لين . غداف : أسود طويل .

يوماً بأوجد مني يوم فارقني   صخر وللدهر إحلاء وإمرار[1]

ولقد يكون الاتفاق في بعض التعابير دالاً على المحاكاة أيضاً مثل قول النابغة

لو أنها عرضت لأشمط راهب   عبد الإله صرورة متعبد

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها   ولخاله رشـــداً وإن لم يرشد

وقول ربيعة بن مقروم :

لو أنها عرضت لأشمط راهب   في رأس مشرفة الذرى متبتل

جـــآر ساعات النهار لربه   حتى تحدد لحمه مستعمل

لصبا لبهجتها وحسن حديثها   ولهمَّ مـــن ناموسه بتنزل

فالشطر الأول من البيت الأول واحد في قول النابغة وقول ربيعة ، وفي البيت الثالث اتفاق في (حسن حديثها) وتشابه بين (لرنا لرؤيتها) و (لصبا لبهجتها) والفكرة واحدة في القولين ، وهذا يرجح أو يؤكد أن ربيعة جرى على أثر النابغة وحاكاه .

كذلك نتبين المحاكاة في الانتقال من الغزل إلى غيره ، فمثلا تغزل المسيب ابن علس ، ثم انتقل إلى وصف ناقته بقوله :

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت   بخميصة سُرُح اليدين وَسَاع[2]

وأخذ يفتنُّ في وصف الناقة .

وصنع سحيم مثل ذلك فقد تغزل ، ثم انتقل إلى وصف الناقة ، وذكر أنها وسيلته في التسلي كما ذكر المسيب .

فلولا تَسَلِّي النفسُ عنك بجَسْرَةٍ   لها حين تكبو الناجيات رسيم[3]

وتغزل امرؤ القيس ثم انتقل إلى وصف ناقته التي تسليه همه بقوله : دع هذا الغزل وسر عن نفسك الهم بناقتك :

---

(١) ديوان الخنساء ٧٦ وخزانة الأدب للبغدادي ١/٢٩٢ طبعة دار العصور . عجول : ثكلى . تجسار : حنين . بو : ولد الناقة

(٢) ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى)

(٣) ديوان سحيم ٣٧

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرا[١]

فحاكاه سحيم إذ انتقل إلى وصف ناقته بقوله :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة جُمالـيَّةٍ تُنْـبِى القتودَ ضلوعها[٢]

ولم يحاكه فى طريقة الانتقال فحسب ، بل اقتبس الشطر الأول من البيت .

سابعاً : الأصالة والصدق

هذا الغزل يمثل الطبع العربى والبيئة العربية ، حتى الغزل الحسى الذى نشأ دخيلا لم يغرق فى حسيته وتكشفه كما أغرق من بعد فى شعر أبى نواس وبشار والحسين الضحاك وكثير من شعراء يتيمة الدهر كابن سكرة ، لأن الخلق العربى كان فى العصر الجاهلى فتىّ غلاب ، أما بعد ذلك فقد انحل وخضع لمؤثرات أجنبية شتى ، ففحش تعبيره ، وتناول الذكور كما تناول الإناث .

وقد سبقت أمثلة شتى دالة على أصالته ، كوصف الغزلين لجمال المحبوبة وتجملها ونفسيتها وأخلاقها ، وكوقوفهم بالأطلال وحرصهم على ذكر الأماكن بأسمائها ، واستمدادهم الصور من البيئة فى ذلك كله .

وقد سبق أن الغزل العذرى وليد عاطفة حادة تغلب فيها الروحانية نزوات الجسد ، وقد أحسن شعراؤه تصوير مشاعرهم فى صدق وقلة مغالاة ، وسبق أن الغزل الحسى وليد شهوة ولذة ، وقد صدق شعراؤه أيضاً فى التعبير عن أحاسيسهم فلم يحبسوها ولم يغالوا فى الترجمة عنها .

ولكنا نجد الشعراء بعد ذلك يغالون فى تصوير مشاعرهم فمثلا يقول أبو الطمحان القينى :

هل الوجد إلا أن قلبى لودنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

ويقول العباس بن الأحنف :

يا قابس النار قد أعيَتْ قوادحه اقبس إذا شئت من قلبى بمقياس

---

(١) ديوان امرىء القيس ٧٠

(٢) ديوان سحيم ٥٣

ويقول المتنبي :

جربت من نار الهوى ما تنطفى … نار الغضا وتكل عما يحرق

ويقول :

بجسمى من برته فلو أصارت … وشاحى ثقب لؤلؤة لجالا

ولولا أننى فى غير نوم … لكنت أظننى منى خيالا

ويقول مجنون ليلى :

ألا أنما غادرت يا أم مالك … صدى أينما تذهب به الريح يذهب

ويقول ديك الجن .

ولو أن أحداث الزمان أردننى … بخير وشر ما عرفن مكانى

وقد يبالغون فى وصف دموعهم مبالغة ممجوجة تدل على خلاء من العاطفة ، وعلى أنهم متصنعون متكلفون ، مثل قول أحدهم :

لا أبتغى سقيا السحاب لها … فى مقلتى خلف من السقيا

وقول ابن المعتز :

مررت على الفرات وليس تجرى … سفائنه لنقصان الفرات

فلما أن ذكرتك فاض دمعى … فأجراهن جرى العاصفات

وقول ابن طباطبا :

فما مدَّ واديكم ولان أديمه … ولكننى أمددته بدموعى

على أنهم إذا كانوا يبالغون متأثرين بالعقل لا بالعاطفة فإنهم لجئوا أحياناً إلى معان عقلية صرف لا تمت إلى العاطفة بسبب ، مثل قول أبى الشيص إنه يستلذ اللوم فى حبها ، وإنه صار يحب أعداءه لأنهم يشبهونها فى الصد والبخل بما ينفعه ، وإنه صار يهين نفسه لأنها مهينة عندها :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى … متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة فى هواك لذيذة … حباً لذكرك فليلمنى اللوم

أشبهت أعدائى فصرت أحبهم … إذ كان حظى منك حظى منهم

وأهنتني فأهنتُ نفسي عامداً ما مَنْ يَهونُ عليكَ ممن يكْرَم[1]

ثامناً : الحيوية والقوة

أريد بالحيوية الصفات التي كفلت لهذا الغزل أن يتخطى الأحقاب ويغالب عوادي النسيان والإغفال ، فيبقى خالداً يروى ويدرس ويحاكى ويبعث الإعجاب .

وهل أدلّ على حيويته وقوته من بقائه قوى التأثير في الشعر الإسلامي والعباسي والمعاصر ؟

وقد أسلفت في الفصول الماضية كثيراً من ضروب هذا التأثير .

وإذا كان اللاحقون يحاكون السابقين في بعض مناحي غزلهم كالوقوف بالأطلال ووصف الجمال ... الخ فإن هذا أمر طبيعي ؛ لأن المحاكاة غريزة ذات آثار شتى في الحياة ، تضرب جذورها في أعماق الإنسان والحيوان ، والحب عاطفة شائعة في الأحياء ، ومظاهره وآثاره قوية التشابه في الناس ، فليس من البعيد أن يتشابه تصوير الناسَ لجوهره في البيئات المتباينة والأجيال المتعاقبة وإن اختلفوا في وسائل التصوير .

لكن شعراء العصر الإسلامي والعباسي شابهوا شعراء العصر الجاهلي في التعبير عن الحب ، وشابهوهم أيضاً في وسائل هذا التعبير وفي كثير من حواشيه وفروعه ، مما يدل على حيوية الشعر الجاهلي وقوة نفاذه إلى القلوب وقدرته على تمثيل عواطف قائليه ، لأنه ليس تعبيراً عن عاطفة فردية بل هو تعبير عن النفس الإنسانية ، تعبير عن عاطفة خالدة يتساوى في رحابها الناس جميعاً .

ومن الإنصاف أن أقرر أن هذه الحيوية لم تكن وحدها السبب في محاكاة الشعراء للشعر الجاهلي ؛ لأن هناك عوامل أخرى أسهمت معها ، لعل أهمها سلطان الوراثة الذي كان ينحو بكثير من الشعراء المنحدرين من أصل عربي إلى محاكاة أسلافهم ومشابهتهم في شعورهم وتعبيرهم ، وسلطان اللغة والأدب الذي كان يجنح بالشعراء المستعربين إلى محاكاة القوالب التي درسوها ، ولست أزعم أن الجمود وحده كان

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٣/١٧٤

ذا سلطان على نفوس الشعراء ربطهم بآثار القدماء ؛ لأن الجمود لم يكن من سمات العلماء والفقهاء وغيرهم سواء انحدروا من أصل عربى أو غير عربى ، فلماذا يختص بالشعراء وحدهم ؟ ولو أن الجمود من طبيعة العربى لكان أولى به أن يقيد رجال الفكر قبل أن يغل رجال العاطفة والروح .

وقد تجلى تأثير الشعر الجاهلى فيما بعده من ناحيتين :

١ — من حيث المعانى .

متح شعراء الجاهلية معانيهم وخيالهم من بيئتهم ، فغزلهم أصيل نابع من نفوسهم ، فهم حين يشبهون المحبوبة مثلا بالشمس أو البدر أو الدرة أو المهاة يستمدون من البيئة أجمل ما فيها ويلحقون جمال المحبوبة به .

لكن الذين بعدهم حاكوهم ، أحياناً لأن البيئة واحدة ، وأحياناً لأنهم مأخوذون بحيوية هذا الشعر الجاهلى وصدقه وقوته .

فمثلا عمر بن أبى ربيعة يشبه محبوبته كما شبهها الجاهليون . يشبهها بالدرة فى قوله :

دُرةٌ من عقائل البحر بِكرٌ ... لم تنلها مثاقب اللآل(١)

وبالقمر فى قوله :

كم قد ذكرتك لو أجدى تذكركم ... يا أشبه الناس كل الناس بالقمر(٢)

وبالشمس فى قوله :

لم أحسَب الشمس بليلٍ بدت ... قبلُ لذى لحم ولا ذى دم(٣)

وبالمهاة فى قوله :

مهاتان شيعتا جؤذرا ... أسيلا مُقَلَّدُه أحورا(٤)

وقد مر بنا أنه يحاكى امرأ القيس فى كثير من تصويره للدبيب والاتصال .

فمثلا قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

---

(١) الأغانى ١/٢١٣
(٢) الأغانى ١/١٠٧
(٣) الأغانى ١/١٨٨
(٤) الأغانى ١/١٥١

فقال عمر :

فلما تقضى الليـل إلا أقله   وكادت أوالى نجمه تَتَـغَوَّر
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه   ورَوَّح رعيان ونَوَّم سمر
. . . .

وقال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا   علىّ حِراصاً لو يُسرون مقتلى

فقال عمر :

أريتَكَ إذ هُـنَّا عليك ألم تخف   رقيباً وحولى من عدوك حـُـضَّر

وقال امرؤ القيس :

فقالت يمين الله مالك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

فقال عمر :

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً   أما تستحى أو ترعوى أو تفـكر ؟

وشبه المرار بن منقذ حبيبته بالشمس ، وبالدمية كما شبه الجاهليون ، قال :

أملح الخلق إذا جردتها   غير سِمْطين عليها وسُوُر
لحسبت الشمس فى جلبابها   قد تبدت من غمام مُنْسَـفِرِ
صورة الشمس على صورتها   كلما تغرب شمس أو تذر[1]

وقال :

قد نرى البيض بها مثل الدمى   لم يخنهن زمان مقشعر[2]

وصور كُـثَـيِّر جاذبيتها بأنها قديرة على أن تنزل الوعول من أعالى الجبال إلى السهل الذى فيه الحبيبة ، كما صور سويد بن أبى كاهل وغيره .

وأدنيتنى حتى إذا ما ملـكتنى   بقول يُحِـلُّ العصمَ سهلَ الأباطح
تناهيت عنى حين لا لى حيلة   وغادرت ما غادرت بين الجوانح[3]

---

(١) المفضليات ١/٩٠ سؤر : أساور . منسفر : منقشع .
(٢) المفضليات ١/٨٧   (٣) حماسة أبى تمام ٢/٩٨

وتأثر جران العود النميرى بالنابغة وربيعة بن مقروم فى تصويرها لجاذبية المحبوبة بأنها تفتن الراهب كما سبق . فقال :

ينازعننا لذاً رخيما كأنه ... عوائر من قطر حداهن صَيِّف
رقيق الحواشي لو تسمَّع راهب ... بِبُسْطنانَ قولا مثله ظل يرجف (١)

وفى غزل البارودى كثير من التصوير البدوى ، لأنه كان كلفا بمحاكاة الشعر القديم . فمثلاً يقول إن قوامها ألين من الرمح ، ولحظها أمضى من السيف ، وقوامها غصن بان ، وخدها ورد وجلنار :

ذو قوام أعدى من الرمح ليناً ... ولحاظ أمضى من السيف حداً
غصنُ بان قد أطْلَعَ الحسنُ فيه ... بيد السحر جُلَّنارا ووردا (٢)

ويقول .

ألقته فى شرك المحبة غادة ... هيهات ليس بصاحبي إن أفلتا
كالورد خداً والبنفسج طُرَّةً ... والغصن قداًّ والغزالة ملفتا (٣)

٢ — أما من حيث الأسلوب فيكفي أن أضرب مثالاً للمحاكاة فى طريقة العرض وإبراز المعنى ، هى أن بعض شعراء الجاهلية كانوا يصفون شيئاً ويسبقون وصفهم بنفى ، وينسابون فى هـذا الشيء وتزيينه حتى إذا ما بلغوا الكمال الذى يريدون جاءوا باسم التفضيل ليدلوا به على أن هـذا الشئ ليس بأحسن من المحبوبة ، مثل قول قيس بن الخطيم :

فما ظبية من ظباء الحسا ... ء عيطاءُ تسمع منها بُغاما
تُرشِّح طفلا وتحنو له ... بِحِقْفٍ قد انْبَتَ بقلاً تُؤاما
بأحسن منها غداة الرحيـ ... ـل قامت تريك أثيثاً رُكاما

وقول الأعشى :

---

(١) ديوان جران العود ٢١ عوائر : قطرات .
(٢) ديوان البارودى ١/٢٣٦ شرح الجارم ومعروف
(٣) المرجع السابق ١/٩٤

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليهـا مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتمـل

. . . .

يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

ثم حاكاهم مَنْ بعدهم فى هذا الأسلوب ، مثل قول جميل بن معمر:

وما صائبٌ من نابل قذفت به يد وممَرٌّ العقدتين وثيق
له من خوافى النسر حُمٌّ نظائرٌ ونصل كنصل الزّاعِبِى فتيق
على نبْعَـةٍ زوراء أما خِطامها فَمَتْنٌ وأما عودها فعتيق
بأوشك قتلا منك يوم رميتنى نوافذ لم تظهر لهن خروق(١)

وقول حافظ إبراهيم :

ما البالية فى صفاء مزاجها والشُّرْبُ بين تنافس وسباق
والشمس تبدو فى الكئوس وتختفى والبدر يشرق من جبين الساقى
بألذ من خلق كريم طاهر قد مازجته سلامة الأذواق(٢)

---

(١) الأغانى ٧/٨٨ ساسى و ٨/١٢٣ دار الكتب . حم نظائر : المراد ريشات سود متشابهة . زاعبي: رمح شديد الاهتزاز كله . فتيق : حاد دقيق . نبعة : شجر تتخذ منه أجود القسى . زوراء : معوجة ليكون سهمها أمضى . خطام : وتر . متن : قوى .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١/٢٨٠

خاتمـــة المطاف

أما بعد :

فآمل أن تـكون هذه الرسالة قد شعت على الحياة العربية نوراً يـكشف عن مجهول أو مستور ، ولعلنى على حق فى أن أطرب لهـذا الشعور ، وأن أغتبط بالنتائج التى وصلت إليها غبطة تنسينى ما كابدت وما عانيت . كالزارع الذى كدَّ وكدح ، وتفَـصَّدَ جبينه بالعرق ؛ إذا ما رأى غرسه قد استحصد وأينع غمرته الهشاشة والطرب ، ونسى ما احتمل من جهد ومن نصب .

وقد زادتنى هذه الدراسة يقيناً بأن الأدب العربى فى حاجة إلى أن يُدْرَس بأسلوب جديد يـكشف عن ينابيعه ، ويسايره وهو يسرى فى جداول تروى ما حولها ، وتحمل مما فى مجراها وحول ضفافها ، حتى ينتهى بها المطاف إلى أن تصب فى ينابيع جديدة ، فى بيئات أخر ، وفى عصور لاحقة . فندرسه على أنه مصدر لفـهْم الحياة العربية وتصويرها فى شتى مناحيها ، كما بينت فى المقدمة . وندرس الغزل لأنه ذو قيم عظيمة كما بينت فى الفصل الأول .

وقد اهتديت بهذه الدراسة إلى أن الشعر الجاهلى هو الصدى القوى الصحيح للحياة العربية ، نفَّس به الشعراء عن عواطف صادقة حية ، وتغنوا به ما اختلج بنفوسهم من آمال وآلام ، وأودعوه قدرهم على التخيل والتعبير ، وهَدَرُوا به مصورا ميولهم ونزعاتهم وأخلاقهم ودخائل نفوسهم ، فمن أراد أن يتصور الحياة الجاهلية ويصورها للناس واضحة المعالم بارزة القسمات فليعمد إلى الشعر الجاهلى يستنطقه ويستخبره .

وانتهيت إلى أن الغزل العذرى وليد العصر الجاهلى لا الأموى ، وإذاً فهذه القصص — التى رويت عن العشاق فى العصر الأموى ، وكان لها أثر عظيم فى الغزل وفى قصص الغرام بأوروبا فى العصور الوسطى — امتداد لقصص العشاق العذريين فى العصر الجاهلى ، ومتأثرة بها ، وملونة بألوانها .

ورأيت أن الغزل الحسى يجافى الأخلاق العربية ، ونظام الاجتماع العربى ، وتكشف لى أنه فسائل صغار نقلت من الحبشة إلى بلاد العرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت فى أعماق الثرى جذورها ، واستغلظت سوقها ، وبسقت فروعها ، وأثمرت ، وكان الغزل الحسي ثمرها ، وإذاً فلم يكن الشعر الجاهلى بنجوة من تأثير الأمم الأخرى .

واهتديت إلى أن الغزل الجاهلى أصدق فنون الشعر ، وأجدرها بالدراسة ، وأقواها أثراً فيما بعده من أعصار ، تعبيراً وتصويراً وطريقة عرض . وليس مرد هذا إلى حيويته وحدها ، وإنما مرده إلى هذه الحيوية التى لا ريب فيها ، وإلى بواعث أخر كانت تجنح بالشعراء إلى محاكاة القدماء . منها جلال القديم وروعته ، ومنها التعصب له والإعجاب به ، ومنها باعث آخر يكاد يكون ضرباً من الجمود هو الدعة إلى المألوف ، والاطمئنان إليه ، والجولان فى نطاقه ، بحيث لا يعنّى الشاعر نفسه كثيراً فى الابتكار والتميز بضرب من فن القول ينصب لصاحبه تمثالا فريداً فذاً فى معرض البلغاء .

وقد جنى هذا التقليد على الشعر وعلى الشعراء ، لأنهم حبسوا عواطفهم فى مجال السابقين ، فمرت على الشعراء أحقاب تلو أحقاب ، وتغيرت عليه بيئة بعد بيئة ، ونطق به جيل من الشعراء بعد جيل ، ولكنه فى عصوره المختلفة ، وبيئاته المتباينة ، وعلى ألسنة قائليه من شتى الأمم — صدي للشعر الجاهلى فى أغراضه ومعانيه . ولولا هذا التقليد لتفجرت عواطف بعض الشعراء الغزلين بقصص غزلية ، وبأفانين من الغزل تستوحى البيئة والزمن .

واتضح لى أن العرب لم يكونوا — كما قيل — شعباً مادياً عمياً عن الجمال المعنوى والنفسى ، وإنما كانوا ذوى بصيرة بالجمال المعنوى والمتعة النفسية ، لذلك قدروا جمال المرأة جسداً ونفساً ، وصوروا حبهم لها وحنينهم إليها واستئسارهم لجمالها تصويراً شائقاً صادقاً جذاباً .

وما أشك فى أن أصدق الغزل وأشده حرارة وأبعده عن التكلف والزخرف هو ذلك الذى تغنى به الشعراء عواطفهم فى العصر الجاهلى وفى الأموى . فالى

أى شىء نرد ذلك ؟ أرده إلى أن الشعر العاطفى لون من القول لا تجيده الأمم إلا فى بداوتها وسذاجتها ، وأن الحضارة تباعد بين الشعراء والعواطف الفردية الخالصة ، وتطبع شعرهم بطابع التكلف والبهرج والزينة ؟ أحسب ذلك حقاً ، لأن وسائل الحضارة لا شاعرية فيها ، فالقصور الآهلة الحالية بقطانها لا تثير من الشاعر ما تثيره الأطلال ، والسفن والقطر لا تهيج منه ما تهيج النوق ؛ لأن الأطلال تناجى بما لا تناجى به القصور ، ولأن النوق كائنات حية صالحة لأن يشعر نحوها شعوراً وجدانياً لا تشعره بمثله الوسائل المادية .

فإذا ما وثبنا إلى العصر الحاضر هالنا أن الغزل قليل ، وأن أقله وحى العاطفة الصادقة الحارة العالية ، ولقد يكون مرجع ذلك إلى أن سفور المرأة وتبذلها قد كشف للرجال عن حقيقتها ، وذهب بكثير من وسائل فتونها وإغرائها ، فلم تلهم كما كانت تلهم المرأة المتصونة المحجبة ، ولقد يكون مرجعه أيضاً إلى أن المرأة المعاصرة تزاحم الرجال ، وتطالب بالمساواة ، وتزاول من الأعمال ما يزحزح عنها هالة الأنوثة الجذابة ، وبذلك تبدو للرجال كالتمثال الجميل الأنيق من الشمع ؛ لا ينبض بالحياة ، ولا تترقرق فيه الروح . ولقد تحسب المرأة أنها قد انتصرت ، ولكنها واهمة ، لأنها كسبت قليلا يرضى غرورها ونزقها ، وخسرت كثيراً كان خيراً لها . خسرت سلطان الجمال الذى كانت تغزو به قلوب الرجال .

ولقد يكون مرد ذلك أيضاً إلى أن الناس قد عكفوا على المادة عكوفاً طمرَ معين الشاعرية ، فلم يعودوا يحفلون بغير المتع الحسية ، ومغانم المال والجاه ، حتى ليسمون من يتعلق بالمتع الروحية (خيالياً) .

وقد تبينت من هذه الدراسة أن المرأة التى تنسل للأمة الأطفال ، قديرة على أن تلهم الرجال ، وتهذب الخلال ، وتحبب البطولة إلى الأبطال . لذلك أطمح إلى أن تكون المرأة المصرية والعربية ملهمة ومهذبة ، وذات خلق عظيم ، وممتزة بكرامتها وشخصيتها ، ومشاركة للرجال فى الحياة العامة بالقدر الذى لا يطغى على أنوثتها ، ولا ينسيها أنها أم وربة بيت ترأم أبناءها ويسكن إليها زوجها .

وأتوق — إذا ما كان بين فتى وفتاة حب — أن تكون الفتاة ملهمة لغزل

روحى عفّ ، وأن يكون هذا الحب حافزاً إلى المجد والوطنية والابتداع والتفوق فى شتى نواحى الحياة .

وأدعو الشباب المصرى والعربى إلى أن يعكف على دراسة الأدب العربى ، ويتذوق الأدب الغربى ، ليستمد منه غذاء لروحه ، ورِيّاً لعواطفه ، وحياة لقلبه . فإذا ما عبر محب عن حبه جلاه فى أدب مستور عف ، ينبىء عن سمو العاطفة التى أزْجَتْه ، وصفاء الروح التى أملْته ، ويهذب من عواطف القراء ، ويحلق بهم فى سماء الخيال الرفيع ، والوجدان الحى . فليس الأدب تزجية للفراغ ، وتلهية للبطالة ، وتغذية للميول المنحرفة ، وإنما الأدب رسالة الحق والخير والجمال .

المراجـــــع

١ ــ المراجع العربية (مرتبة ترتيباً هجائياً)

(ا)

١ — إحياء علوم الدين ، الغزالى . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٤٠ هـ .

٢ — أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام ، شرح حسن السندوبى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

٣ — أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .

٤ — إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، القسطلانى طبعة بولاق .

٥ — الأسرة والمجتمع ، الدكتور على عبد الواحد وافى .

٦ — أشعار النساء للمرزبانى [جـ٣ مخطوط بدار الكتب ٤٢٨٩٨ (٨ ش أدب)]

٧ — الإصابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

٨ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب ، نشره وليم بن الورد البروسى . طبعة ليبسغ .

٩ — الأصنام ، هشام بن محمد الكلبى ، نشره أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

١٠ — الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن ، نشرته مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٩ م .

١١ — الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ، الدكتور موريس الديك . مطبعة الاعتماد بمصر .

١٢ — أعلام النساء ، عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .

١٣ — الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى ، الأجزاء الخمسة الأولى طبعة دار الكتب والأجزاء الباقية طبعة ساسى .

١٤ — ألف باء للبلوى . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .

١٥ الإلياذة ، هوميروس ، ترجمة البستانى . مطبعة الهلال بمصر .

١٦ — الأمالى أبو على القالى ، طبعة دار الكتب .

١٧ إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية ، على بن برهان الدين الحلبى ، الطبعة الثانية . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .

١٨ — أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء ، الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .

١٩ — أيام العرب ، محمد أحمد جاد المولى وعلى البجاوى وأبو الفضل إبراهيم .

(ب)

٢٠ — بلاغات النساء ، ابن طيفور . مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م

٢١ — بلال داعى السماء ، عباس محمود العقاد .

٢٢ — بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، السيد محمود شكرى الألوسى ، الطبعة الأولى . مطبعة دار السلام ببغداد ١٣١٤ هـ .

٢٣ — البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبى ، الطبعة الثانية . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ م .

٢٤ — بين الحبشة والعرب ، عبد الحميد عابدين . مطبعة الاعتماد بمصر .

(ت)

٢٥ — تاج العروس من جواهر القاموس السيد محمد مرتضى الزبيدى ، طبع مصر ١٣٠٧ هـ .

٢٦ — تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، السباعى بيومى ، مكتبة النهضة ١٩٤٨ .

٢٧ — تاريخ الأمم والملوك ، الطبرى . المطبعة الحسينية .

٢٨ — تاريخ التمدن الإسلامى ، جرجى زيدان مطبعة الهلال .
٢٩ — تاريخ اليعقوبى ، نشره هوتسما . M. Th. Houtsma
٣٠ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، الحسين بن المبارك الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .
٣١ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق ، داود الأنطاكى . المطبعة البهية المصرية .
٣٢ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .
٣٣ — تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
٣٤ — تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .
٣٥ — تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .
٣٦ — تفسير النيسابورى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، على هامش الطبرى .

(ج)

٣٧ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى طالب القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م .
٣٨ — جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى . طبعة بومبى بالهند .
٣٩ — جمهورية أفلاطون ، ترجمة حنا خباز . مطبعة المقتطف ١٩٣٩

(ح)

٤٠ — الحب العذرى ، أحمد عبد السلام الجوارى . مطبعة دار الكتاب العربى .
٤١ — حديث الأربعاء ، الدكتور طه حسين . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٣٧
٤٢ — حضارة العرب ، جستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٤٣ — الحضارة المصرية القديمة ، جستاف لوبون ، ترجمة محمد صادق رسم . المطبعة المصرية بالقاهرة .
٤٤ — الحماسة ، للبحترى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .
٤٥ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، أحمد محمد الحوفى . مطبعة نهضة مصر .
٤٦ — الحياة والحب ، إميل لودفيج ، ترجمة عادل زعيتر . مطبعة دار المعارف بمصر
٤٧ — الحيوان ، للجاحظ . طبعة ساسى .

(خ)

٤٨ — خزانة الأدب ، البغدادى . مطبعة دار المصور .
٤٩ — الخصائص ، ابن جنى ، مطبعة دار الكتب .

(د)

٥٠ — الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ، زينب على فواز . المطبعة الأميرية ببولاق .
٥١ — دراسات فى علم النفس الأدبى ، حامد عبد القادر . نشرته لجنة البيان العربى بالقاهرة .
٥٢ — ديوان ابن الرومى ، نشره كامل كيلانى .
٥٣ — ديوان أبى تمام ، أخرجه محمد محيي الدين .
٥٤ — ديوان أبى نواس . مطبعة التقدم بمصر .
٥٥ — ديوان الأعشى (الصبح المنير فى شعر أبى بصير ميمون بن قيس بن جندل) مع شرح أبى العباس ثعلب ، نشره رودلف جيير Rudolf Geyer ، مطبعة آدلف هلزهوسن ١٩٢٧
٥٦ — ديوان امرىء القيس ، شرح السندوبى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الثانية .
٥٧ — ديوان أوس بن حجر ، نشره رودلف جيير . طبعة ڤينا ١٨٩٢

٥٨ — ديوان البارودى ، شرح الجارم ومعروف . طبعة دار الكتب ١٩٤٢ ، ونسخة أخرى شرح محمود الإمام المنصورى .
٥٩ — ديوان البحترى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
٦٠ — ديوان جران العود النميرى رواية أبى سعيد السكرى . طبعة دار الكتب ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م .
٦١ — ديوان جرير . المطبعة العلمية بمصر ١٣١٣ هـ .
٦٢ — ديوان حاتم طى . طبعة بيروت .
٦٣ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محصن) إملاء أبى عبد الله اليزيدى ، نشره دكتور أنجلمان Dr. G. Engelmann طبعة برل .
٦٤ — ديوان حافظ إبراهيم ، طبعة دار الكتب .
٦٥ — ديوان حسان بن ثابت ، نشره محمد شكرى المكى . مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ هـ .
٦٦ — ديوان الحطيئة بشرح أبى الحسن السكرى . مطبعة التقدم بمصر .
٦٧ — ديوان ذو الرمة ، نشره كارليل هنرى هيس مكارتنى Carlile Henry Hayes. Macartney. مطبعة كلية كمبرج ١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م .
٦٨ — ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ، بتحقيق عبد العزيز الميمنى . طبعة دار الكتب ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م .
٦٩ — ديوان سلامة بن جندل رواية أبى سعيد الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى وأبى العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠ م .
٧٠ — ديوان شوقى (الشوقيات) .
٧١ — ديوان الصبابة ، تأليف شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة . على هامش تزيين الأسواق . المطبعة البهية المصرية .
٨٢ — ديوان طرفة بن العبد مع شرح الأعلم الشنتمرى . مطبعة برطرند بمدينة شالون ١٩٠٠ م .

٧٣ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى ، رواية أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، نشره المستشرق السير تشارلس ليال Lyall .

٧٤ — ديوان عبيد بن الأبرص ، نشره ليال .

٧٥ — ديوان عروة بن الورد وعليه شرح ابن السكيت . طبعة بيروت .

٧٦ — ديوان علقمة الفحل ، طبعة بيروت .

٧٧ — ديوان عمر بن أبى ربيعة . مطبعة اللبابيدى ببيروت .

٧٨ — ديوان عنترة بن شداد ، نشره عبد المنعم عبد الرءوف شلبي . مطبعة شركة فن الطباعة بمصر .

٧٩ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .

٨٠ — ديوان قيس بن الخطيم ، نشره رودلف جيير ١٩١٤ ، طبعة ڤينا .

٨١ — ديوان لبيد نشره دكتور هابر Dr. A. Huber طبعة ليدن ١٨٩١ م

٨٢ — ديوان المتنبى ، شرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

٨٣ — ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى) نشره رودلف جيير ١٩٢٧م .

٨٤ — ديوان معن بن أوس المزنى رواية أبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى ، نشره باول سكوارز . Paul Schwarz ليبزج ١٩٠٣م

٨٥ — ديوان مهيار الديلمى ، طبعة دار الكتب ١٣٤٥ هـ ١٩٢٥ .

٨٦ — ديوان النابغة الذبيانى وعليه شرح البطليوسى ، طبعة بيروت .

٨٧ — ديوان نابغة بنى شيبان ، طبعة دار الكتب ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م .

(ذ)

٨٨ — ذيل الأمالى . أبو على القالى . مطبعة دار الكتب .

(ر)

٨٩ — رسائل إخوان الصفا ، طبعة بومبى .

٩٠ — رسائل العشق لابن سينا ، من جامع البدائع . مطبعة السعادة بمصر ١٩١٧

٩١ — رسالة العشق والنساء ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٢ — رسالة فخر السودان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٣ — رسالة القيان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٤ — الرق فى الإسلام ، أحمد شفيق بك . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
٩٥ — الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام ، السهيلى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

(ز)

٩٦ — الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الظاهرى ، نشره المستشرق ا. ر. نيكل.

(س)

٩٧ — سحر المطور ، الدكتور أحمد على الشحات . نشرته لجنة البيان العربي بالقاهرة .
٩٨ — سفر أشعيا .
٩٩ — سيرة ابن هشام ، نشره محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .

(ش)

١٠٠ — شاعر الغزل ، عباس محمود العقاد . مطبعة المعارف بمصر .
١٠١ — شرح ديوان الحماسة ، التبريزى . مطبعة بولاق .
١٠٢ — شرح المفضليات ، ابن الأنبارى .
١٠٣ — شرح نهج البلاغة ، ابن أبى الحديد . مطبعة البابى الحلبى .
١٠٤ — شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، دكتور سيد نوفل .
١٠٥ — الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تصحيح مصطفى السقا ، الطبعة الثانية .
١٠٦ — شعراء النصرانية ، الأب لويس شيخو اليسوعى . مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١م .

١٠٧ — الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ، دكتور شوقى ضيف .

(ص)

١٠٨ — الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، الطبعة الثانية . مطبعة صبيح .

(ط)

١٠٩ — طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحى . مطبعة السعادة بمصر .
١١٠ — طهارة العرب ، أحمد الشنقيطى .
١١١ — طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، ابن حزم الأندلسى . مكتبة عرفة بدمشق

(ع)

١١٢ — العقد الفريد ، ابن عبد ربه . الجزء الأول والثانى طبعة لجنة التأليف والترجمة ، والجزء الثالث طبعة المطبعة العامرية الشرفية بمصر .
١١٣ — العقل الباطن ، سادلر . ترجمة عباس حافظ .
١١٤ — علم النفس الفردى ، إسحق رمزى ، مطبعة دار المعارف بمصر .
١١٥ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيروانى ، مطبعة أمين هندية .
١١٦ — عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب .

(ف)

١١٧ — فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ، عبد الله الشرقاوى ، مطبعة البابى الحلبى بمصر .
١١٨ — فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الثانية .
١١٩ — فقه اللغة وسر العربية ، الثعالبى ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م .
١٢٠ — فلسفة الجمال ، جاريت ، ترجمة عبد الحميد يونس وزميليه .
١٢١ — فوات الوفيات ، ابن شاكر ، مطبعة بولاق .

١٢٢ — فى الأدب المقارن ، عبد الرزاق حميدة ، مطبعة العلوم بمصر .
١٢٣ — فى الأدب والنقد ، محمد مندور ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩
١٢٤ — فى علم النفس ، محمد عطية الإبراشى وحامد عبد القادر ، المطبعة المصرية .

(ق)

١٢٥ — القاموس المحيط ، الفيروزابادى .

(ك)

١٢٦ — الكامل ، المبرد ، طبعة المستشرق ريت . ليبزج .
١٢٧ — الكامل فى التاريخ ، ابن الأثير ، المطبعة الأميرية .
١٢٨ — كتاب الخطابة لأرسطو طاليس ، ترجمه وقدمه له الدكتور إبراهيم سلامه ، مطبعة مخيمر بمصر ١٩٥٠
١٢٩ — كيف تفهم الناس ، الدكتور إبراهيم ناجى .
١٣٠ — كيف يعمل العقل ، سرل برت ، ترجمة محمد خلف الله وفؤاد جلال .

(ل)

١٣١ — لسان العرب ، ابن منظور ، مطبعة بولاق .

(م)

١٣٢ — المؤتلف والمختلف ، الآمدى ، نشره الدكتور فريتس كرنكو ، مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
١٣٣ — مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٩ م
١٣٤ — مجمع الأمثال ، الميدانى ، المطبعة البهية المصرية .
١٣٥ — المجمل فى فلسفة الفن ، كروتشة ، ترجمة سامى الدروبى ، مطبعة الاعتماد بمصر .
١٢٦ — المحاسن والأضداد ، الجاحظ ، مطبعة السعادة بالقاهرة .

١٣٧ — محاضرات الأدباء ، الراغب الأصفهانى ، مطبعة المويلحى بمصر .
١٣٨ — المحبر ، أبو جعفر محمد بن حبيب ، رواية أبى سعيد السكرى ، نشرته الدكتورة إيلزه ليحتن شتيتر الأمريكية ، مطبعة جمعية المعارف العثمانية بحيدر أباد ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م .
١٣٩ — المخصص لابن سيده ، مطبعة بولاق .
١٤٠ — المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفى ، الطبعة الثانية ، مطبعة المعارف ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .
١٥١ — المرأة فى التاريخ والشرائع ، جميل بيهم . بيروت ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م .
١٤٣ — المرأة فى مختلف العصور ، أحمد خاكى ، مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ م .
١٤٣ — مراجعات فى الأدب والفنون ، عباس محمود العقاد .
١٤٤ — مركز المرأة فى الإسلام ، السيد الأمير على الهندى ، ترجمة على فهمى محمد مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .
١٤٥ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودى ، مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
١٤٦ — المستطرف من كل فن مستظرف ، الإبشيهى ، المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ هـ .
١٤٧ — مصارع العشاق ، أبو جعفر السراج ، مطبعة الجوائب بالآستانة .
١٤٨ — مطالعات فى الأدب والحياة ، عباس محمود العقاد .
١٤٩ — المعارف ، ابن قتيبة ، المطبعة الإسلامية بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
١٥٠ — معجم البلدان ، ياقوت الحموى ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
١٥١ — المعلقات العشر ، الشنقيطى ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ .
١٥٢ — المفضليات ، الضبى ، شرح شاكر وهارون ، مطبعة المعارف بمصر .
١٥٣ — موجز تاريخ الحضارة العربية ، ناجى معروف وعبد العزيز الدروى ، مطبعة النجاح ببغداد ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

(ن)

١٥٤ — النابغة الذبيانى ، عمر الدسوقى ، مطبعة نهضة مصر .

١٥٥ — النوادر ، أبو على القالى ، مطبعة دار الكتب .

١٥٦ — النهاية فى غريب الحديث ، ابن الأثير ، طبعة مصر ١٣١١ ﻫ .

١٥٧ — نهاية الأرب ، النويرى ، مطبعة دار الكتب .

(ﻫ)

١٥٨ — هذه الشجرة ، عباس محمود العقاد .

١٥٩ — هلال نوفبر ١٩٣٤ م .

(ى)

١٦٠ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، جستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

٢ — المراجع الإفرنجية

(1) On love. Standhall. Translated by Holland.

(2) Texts and Pretexts. by Aldous Huxley.
Phoenex. 1935.

(3) Benham's. New Book of Quotations. London.

(4) Plato's, Lysis Sumposium Gorgias, Edited. by Lamb.

(5) Greek Love. in The Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(6) Muslem Law.An Historical Introduction to The Law of Inheritance. by Alexander David. Russell and Abdullah Al Mamun Suhrawardy. London.

(7) A Literary History of The Arabs, by Nicholson. London. 1907,

(8) A History of Arabian Music. by Farmer. London 1929.

(9) Arabic Literature. by Gibb.

(10) Psychology of Sex by Havelock Ellis.

(11) Social Psychology. by Thouless.

(12) The Back Cround of Islam. by Glaser.

(13) Histoire Des Papes. Paris 1842.

(14) La Question Feministe. Rosler.

الفهرس

سلطان الغزل على النفوس :

غزل الشعراء من طبقات شتى . احتفاء الناس بسماعه . غزل الشعراء وإن هددوا بالأذى . غزل بعضهم مع تعرضهم للحرمان من زواج الحبيبات . غزل بعضهم فى زوجته .

الفصل الثاني

٢١ — ٨٦

جمال المرأة

تمهيد :

مظاهر الجمال . ولع الإنسان به .

حقيقة الجمال : موضوعى أم ذاتى أم فيهما معاً ؟

إدراك العرب للجمال : فى الطبيعة ، فى الشعر ، فى المرأة .

جمال المرأة الجسدى :

إدراك الشعراء له . هل أضفوا على جمال المرأة من خيالهم ؟

مقومات جمال المرأة فى نظرهم .

الجمال الجسدى عامة فى نظر الشعراء :

أمثلة من امرئ القيس ، وقيس بن الخطيم ، وكعب بن زهير ، وطرفة ... ...

الجمال الجسدى تفصيلا فى نظر الشعراء :

الطول . اللون والوجه ، بم صوروه ؟ . العين ، بم صوروها ؟

الفم (الشفتان والأسنان والريق) ، افتنانهم فى وصف الريق وتشبيهه ، تشبيههم الأسنان ، عناية المرأة بأسنانها ، جمال الشفة ، جمال اللثة .

العنق والنحر ، جمالها ، بم شبهوهما ؟ الصدر ، جاذبيته ، جماله .

الشعر ، إعجابهم بطوله وغزارته ، عناية المرأة به ؛ تشبيهه .
المعصم والأصابع ، بم شبهوها . الساق ، بم صوروا جمالها ؟
الوسط (الخصر والردف والبطن) ، جمال كل منها .

جمال المرأة فى نظر المرأة :

وصف عصام لبنت عوف ، وصف حواء لثلاث فتيات ، اتفاق وصفهما مع نموذج الجمال فى نظر الرجال .

جمال المرأة النفسى والمعنوى

أثره فى الإعجاب بها ، وفى حبها .

أنواعه : الجاذبية العامة ، سحر النظرات ، رشاقة الحركات ، حلاوة الصوت ، عذوبة الحديث ، سحر البسمات .

العفة : حبهم المرأة العفيفة ، امتداحهم العفة ، شهرة المرأة العربية بالعفة منذ القدم .

الحياء : صلته بالعفة ، هل المرأة أقل حياء من الرجل ؟ قسوة شوبنهور فى هذا الحكم ، امتداحهم لحياء المرأة ، أثر الحياء والعفة فى تقليل الشعراء من الحديث عن حب المرأة للرجل .

التقلب والغدر : أسبابه ، حديثهم عنه وألمهم منه .

ندرة الكلام : مناقضة هذه الصفة لطبيعة المرأة ، حب الرجال للمرأة النزرة المقال ، امتداحهم لهذه الصفة .

حب المرأة للمال والشباب : بم تستمال ؟ أكثر الشعراء على أنها تستمال بالمال والشباب ، وبعضهم على أنها تستمال بالمداهنة ، حديثهم عن استمالتها .

الشيب والحب : تفجع الشعراء الشيب على شبابهم ، تصريح بعضهم بأن الشيب لا يلائم الحب ، استعاضة بعضهم عن الشباب المولى بحديث عن صبوات الشباب . دفاع بعضهم عن الشيب .

نفسية المرأة وأخلاقها فى الشعر بعد العصر الجاهلى .

نموذج الجمال بعد العصر الجاهلى :

دلالة اتحاد النموذج فى رأى الجاهليين ومن بعدهم . جمال الجسد عامة ، أمثلة له: الشعر ، العين ، العنق ، الأسنان ، الريق ، الثدى ، اللون ، الحديث ، الحركة .

الفصل الثالث ٨٧ — ١١٤

تجمل المرأة

ضرورة التجمل عند المرأة :

لماذا تتجمل ؟ ذوقها فى التجمل .

أنواع تجملها :

(ا) ملابسها : الحجاب ، السفور ، لم يكن كل منهما عاماً ، إبقاء الإسلام على نوع من السفور .

أنواع ملابسها : ١ — ما على الرأس : الخمار ، شكله ، أسماؤه : القناع ، النصيف ، النقاب ، اللفام ما على الأنف ، اللثام ما على الفم ، البخنق .

٢ — ما على الجسد : الريطة ، المرط ، الوصيلة ، البرد ، المجسد ، الصدار ، الوشاح ، السارى ، المذهب ، الخال ، المرجل والمرحل ، المطير .

٣ — لون ملابسها : غلبة اللون الأحمر ، ميل العرب إليه .

(ب) حليها : غرام النساء بالحلى . شيوع الحلى فى الأمم التى اتصل بها العرب : عند العبرانين ، والرومانيين ، والمصريين .

أصناف الحلى : كثرتها . حلى العنق ، حلى الأذن ، حلى الساعد والعضد ، حلى الساق

(ح) طيبها : أثر العطور فى الجاذبية . عناية الأمم القديمة بالعطور : المصريين ، الإغريق ، الرومان ، الهنود ، الصينيين .

عناية الأمم الحديثة بالعطور : فرنسا ، انجلترا وغيرها .

أنواع طيبها : المسك ، الزنبق ، السنا ، البان ، الألوى ، الرند ، الكباء ، العنبر ، الكافور ، الزعفران .

دلالة العطر على الترف . غرام الرجال من العرب بالطيب .

لماذا أوصى بعض الرجال بناتهم يوم الزفاف بالماء وحده ؟

(د) خضابها : خضاب النساء ، خضاب الرجال .

(هـ) أنواع أخرى من التجمل والتجميل : التنميص ، التزجيج ، التفليج ، التلمية ، الوشر ، الوشم ، الوصل .

الفصل الرابع ١١٥—١٥٠

الحب

علاقة الغزل بالحب .

سلطان الحب .

لماذا نحب ؟

رأى ابن حزم ؟ . رأى أفلاطون . رأى أبى القاسم الأصبهانى . تأثر ابن حزم والأصبهانى برأى أفلاطون . رأى آدلر ، ولاكير ، وبران .

الغاية من الحب :

عند أفلاطون . عند ابن سينا . عند ابن حزم . عند إخوان الصفا . عند ابن داود الظاهرى . عند الغزالى . عند بويس جيبون . مناقشة هذه الآراء . رأى ماكس نوردو ، وفرويد . مناقشة هذا الرأى . رأى أدلر. الرأى الذى أطمئن إليه . لا يبرأ الحب من نزعات جسدية . الأدلة على ذلك من شعر العذريين أنفسهم .

ومن حياتهم . كلمة لإميل لودفيج فى هذا . أفلاطون يميل إلى أن لا عذرية فى حب رجل لامرأة .

البيئة العربية والحب :

ملاءمتها للحب .الحياة فى الصحراء . العربى حساس ذواق لجمال الطبيعة وجمال المرأة . علو مكانة المرأة فى الحياة العربية بصفة عامة. أدلة على علو مكانتها . فراغ العرب .اختلاط الفتيان بالفتيات القريبات .اختلاطهم بغير القريبات . أثر الاختلاط والمحادثة فى نفوس الشبان . الاجتماع فى الدوار حول الأصنام . الاجتماع فى المواسم والحج . أثر هذا الاجتماع فى نفوس الشبان . اللقاء فى الأديار . لباقة المرأة العربية وظرفها وجمالها وأثر ذلك فى نفس الرجل .

مجالس الغناء . أثر القيان فى نفوس الشعراء . هل كانت القيان أجنبيات ؟ رأى فون كريمر وليال . مناقشة هذا الرأى . هل كن يغنين بلغة أجنبية ؟ رأى فون كريم وليال . مناقشة هـذا الرأى . إثبات أنهن كن يغنين أيضاً بالشعر العربى . أثر النظرة الأولى فى الحب . أحب العرب حباً واقعيا صادقا. لماذا نحفل بدراسة الغزل؟

الفصل الخامس ١٥١ — ٢٣٠

أنواع الغزل

١ — الغزل العذرى

حقيقته :

شهرة بنى عذرة به

لماذا كانت العفة من سماته ؟

نشأته : رأى الدكتور طه حسين أنه أموى النشأة ، أدلته . رأى العلامة ماسينيون أنه متأثر بالحب الأفلاطونى . مناقشة رأى ماسينيون :

لم يكن المسلمون حينئذ على صلة بالفلسفة اليونانيـة . على فرض أنهم

كانوا على صلة بها فليس من الطبيعى أن تتأثر البادية بها ولا تتأثر الحاضرة . لا صلة للغزل العذرى بالفلسفة . الحب الأفلاطونى حب ذكر لذكر ، أى صداقة عالية .

مناقشة رأى الدكتور طه حسين :

الفقير البائس ليس فارغاً للغزل والحب . لم يحل أحد بين البدو واللهو . كانت حال البدو فى الإسلام خيراً من حالهم فى الجاهلية ، فلماذا انصرفوا إلى اليأس والزهد ؟ لم يكن زهاد البادية أكثر عدداً من زهاد الحاضرة .

مناقشة رأى الأستاذ جب فى أنه صار فناً مستقلاً فى العصر الإسلامى . إذا كان الأساس تناول الغزل فى قصائد كاملة فقد فعل بعض الجاهليين ذلك . لماذا نشترط هذا فى الغزل وحده لنحكم بأنه فن مستقل؟ إذا كان الأساس أن بعض الشعراء قصروا عليه شعرهم ، فقد فعل بعض الجاهليين ذلك . لم يحبس كثير من شعراء الغزل فى العصر الإسلامى شعرهم على الغزل . لماذا لا نشترط هذا فى الفنون الأخرى ؟

رأيى :

أن الغزل العذرى فن جاهلى ، وأن الإسلام ساعد على نمائه .

خصائص الغزل العذرى :

قصر بعض الشعراء عليه قصائد كاملة . هو غزل روحى . فيه أثارة من نزعة جسدية لم يسلم منها غزل عذرى . فيه تحليل لنفسية قائله . يجنح أحياناً إلى الأسلوب القصصى . اقتصار الشاعر على حبيبة واحدة . حياة المحبين تنبىء عن عذريتهم وتحملهم الآلام الجسام فى حبهم :

المرقش الأكبر ، المرقش الأصغر ، عبد الله بن علقمة ، عروة بن حزام ، عبد الله بن العجلان ، مسافر بن أبى عمرو ، عمرو بن كعب ، مسعود بن رقاش ، عتبة بن الحباب ، المخبل القيسى ، عدى بن زيد ، مالك بن الصمصامة .

٢ — الغزل الحسى

حقيقته :

لم ينشأ نشأة عربية .

الأدلة على ذلك :

عفـة العرب وتعففهم ، وغيرتهم على النساء . الفجور العلنى كان مقصوراً على الإماء . لهن بيوت للدعارة . إكراه الإماء على البغاء . الدليل على أن البغاء مقصور عليهن . احتقار الإماء . بغاء الإماء فى الأمم القديمة . الطهارة المقدسـة . هل كان إكراه بعض العرب للاماء على البغاء أثراً مشوهاً للطهارة المقدسة ؟

الغزل الحسى حبشى النشأة :

الأدلة على ذلك :

فتح الأحباش اليمن وحكموها أربع مرات منذ القرن الأول قبـل الميلاد إلى القرن السادس بعد الميلاد . كان العرب على صلة تجارية بالأحباش . كان أكثر العبيد والإماء أحباشاً . شهرة الأحباش بهذا الغزل الحسى والتصريح باللذات . فى بعض أناشـيدهم الدينية تصريح بوصف الجسد كله . الشعراء الذين مهدوا لهذا الغزل الحسى أحبـاش أو متأثرون بالأحباش : امرؤ القيس ، الأعشى ، سحيم . فى العصر الإسلامى : عمر بن أبى ربيعة ، نصيب بن رباح .

خصائص الغزل الحسى :

المجاهرة باللذة ، الفخر بتغفل الحراس ، اللجوء إلى الأسـلوب القصصى ، التعفية على الآثار ، الاستعانة بالرسل ، ذكر صواحب المحبوبة ، خلوه من تحليـل النفس تحليلا يكشف عن شوق وحرارة وحركة ، العناية بوصف الجسد ، تعدد المحبوبات .

أثر الجاهلى فيما بعده :

بين المذهبين الغزليين :

العذرى ، والحسى .

٣ — الغزل التمهيدى

حقيقته :

بعضه عذرى وبعضه حسى ، وبعضه صناعى .

كثرة الغزل التمهيدى :

والغرض منه . لماذا بدءوا به ؟

هل اقتصر على بعض فنون الشعر ؟

يرى بعض النقاد أن قصائد الرثاء لم تبدأ به . مناقشة هذا الرأى . بدئت به مرات شتى . بدئت به قصائد المدح ، وقصائد الفخر ، وقصائد الهجاء ، وقصائد الوصف . البدء بغير غزل . الختام بالغزل والبدء به .

الانتقال من الغزل إلى غيره :

الصلة النفسية بين الغزل وما بعده . حياة الصحراء وأثرها فى الجمع بين الغزل وغيره . مآخذ النقاد على الشعراء الذين ينتقلون من الغزل إلى غيره بغير ربط . الرد على هذا المأخذ . كيف كان الشعراء ينتقلون ؟

٤ — الغزل الكيدى

حقيقته :

موازنة بينه وبين العذرى والحسى والتمهيدى . دلالته من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية . وجه الشبه بينه وبين الغزل التمهيدى . أمثلة له . خصائصه .

الفصل السادس ٢٣١—٢٩٥

صور غزلية من آثار الحب والحبيبة في نفس الشاعر

الأخلاق :

أثر الحب فى الطباع . المثل الأعلى للرجل فى نظر المرأة . صور من تأثير الحب والحبيبة فى أخلاق الرجل .

قوة حب الرجل للمرأة :

مظاهر هذه القوة : شق الرداء ، إيثار الموت على الحب البائس ، الحب خبال وسقم ، لا يدرى المحب أهو حى أم ميت ، لا يعجب إذا مات ، أثر ذكراها فى نفسه ، تمنيه أن يدوم قربها ، تفجعه إذا رحلت ، حبه لأرضها ، ذكرها وقت البرق ، قد يفقده الحب رشاده ، مشاركته الوجدانية للحمام النائح .

الوشاة :

لماذا يشون؟ تغلب بعض المحبين عليهم . تغلبهم على بعض المحبين . كيد عروة لهم

العذال :

أثرالعذل فى نفس المحب. هل العذل لايزيد الحب كما رأى ابن داود الظاهرى؟ أمثلة من تبرم الشعراء بالعذل .

الكتمان :

لماذا يكتم المحب حبه ؟ مظاهر كتمانه . عجز بعضهم عن الكتمان .

تبادل الحب :

الرجل العربى جدير بأن تحبه المرأة . سعادته بحبها له . تصويرهم للمبادلة . بعض المبادلة صريح . بعضها غير صريح .

هل يحب الرجل من لا تحبه ؟ مرارة هذا الحب . قلة تصوير الشعراء الجاهليين للمبادلة . السبب فى هذا .

الفراق

(الهجر والرحلة) : لماذا يتألم منه المحب ؟ تشاؤمهم بالغراب . تصويرهم لآلام الرحيل . تذرع المحب بألمه من الفراق لنيل بعض الوصل .

عاطفته بعد الفراق : الدعاء لدارها بالسقيا . كره المكان الذى نأته به . استشراف نارها . شيم البرق من ناحيتها . ارتياحه إلى الصبا . استطالته الأيام . تجلد بعضهم عند الرحيل . رحلة بعضهم للتسلى . علاج المحب الذى لا يسلو .

الظعائن والهوادج :

ذكر الشعراء طريق الظعائن فى تفصيل . تشبيه الحدوج . دلالة هذا التشبيه. بقاء هذا التشبيه إلى ما بعد العصر الجاهلى . عزة الظعائن . غطاء الهوادج . جمال الظعائن .

الطيف :

منازع الشعراء فى الشعور نحوه . عجب بعضهم من رحلة الطيف . شدة الشوق ببعضهم . تألم بعضهم من الطيف لأنه وهم . بعض المحبين رد الطيف . لأنهم هاجرون أو مهجورون .

الأطلال :

لماذا احتفوا بها ؟ هى المثير القارن لعاطفة الحب . إضافة الأطلال إلى اسم المحبوبة أحياناً . عنايتهم بتحديد الأطلال . السر فى هذه العناية .

أثر الأطلال فى نفس الشاعر . معالمها الباقية . مسرح للحيوان .

الأطلال من الوجهة الفنية :

تشبيهها بالوشم ، وبالطراز الموشى ، وبالكتابة . الخ . دلالة هذا التشبيه .

موازنة بين قصيدة لامرتين على بحيرة بورجيه وبين شعر الأطلال .

الأطلال بعد العصر الجاهلى :

محاكاة الشعراء فى العصور اللاحقة لشعراء العصر الجاهلى .

الفصل السابع ٢٩٦—٣٢٢

أثر البيئة والطبع فى الغزل

الصدق الشعورى والصدق الفنى . اجتماعهما فى الغزل الجاهلى .

مظاهر البيئة والطبع فى الغزل الجاهلى :

الاستمداد من البيئة . اختيارهم أجمل ما فيها لتشبيه المرأة .

استمدادهم من الطبيعة الحية المتحركة : التشبيه بالمهاة ، بالظبية ، بالقطاة .

استمدادهم من الطبيعة الحية غير المتحركة : التشبيه بغصن البان ، بالبردى ، بالرمان ، بالأقحوان .

استمدادهم من الطبيعة غير الحية : التشبيه بالشمس ، والبدر ، واللؤلؤ .

استمدادهم من المصنوعات : التشبيه بالدمى ، بالرمح ، بالدينار ، بالمصباح ، بالخمر .

الوقوف بالأطلال . ترديد أسماء الأماكن . الشكوى من البين والتوجع من الفراق

الابتكار والمحاكاة فى المعانى :

المعانى العامة المشتركة . المعانى المبتكرة . متى نحكم بالمحاكاة ؟ أمثلة من المحاكاة فى المعانى : الأعشى يحاكى المسيب بن علس ، ربيعة بن مقروم يحاكى النابغة ، النابغة يحاكى سويد بن أبى كاهل أو سويد يحاكيه ، الأسود بن يعفر يحاكى المرقش الأصغر . هل تجرد المحاكاة الشاعر من عاطفته ؟

كتب مطبوعة للمؤلف

١ — وحى النسيب فى شعر شوقى .
٢ — فن الخطابة ، قررته جامعة فؤاد الأول .
٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، قررته جامعة فؤاد الأول .
٤ — الغزل فى العصر الجاهلى .

[تم طبع كتاب « الغزل فى العصر الجاهلى » فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم الأربعاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ (الموافق ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٥٠ م) .
والحمد لله أولاً وآخراً]

سيد محفوظ

المدير الفنى للمطبعة

تصويب أغلاط مطبعية

رقم الصفحة	السطر	الصواب	رقم الصفحة	السطر	الصواب	رقم الصفحة	السطر	الصواب
٣٥	١٨	النابغة	١٠١	١٠	الأولى	١٩٧	١٤	الإنشاد
	٢٠	«	١٠٦	١٤	تَذُرُّه	٢٠٤	٩	قطوف
	٢٧	حرير		١٧	حصى لبان	٢١٣	١٨	اللوم
٣٨	٢٣	علس	١١١	٤	أنظر	٢١٧	٢١	البروسي
٤٢	٢٠	الأسنان	١٢٦	٦	أنى		٢٤	«
٥١	١٠	الخطيم		١٨	روى	٢٢١	٤	بدأ
	١٢	السعدي	١٣١	٢١	بلوغ الأرب		٥	هدد
٥٣	١٧	سُوِّدا بِحُمَم	١٣٣	٢٦	ابن قتيبة		٦	عامر
٥٤	٢١	ابن طلحة	١٣٦	٢١	الحياة والحب	٢٢٥	١٢	وألام
		زينب	١٤٧	١٧	النظرة	٢٢٨	٢٠	الأشرف
٥٨	٤	واستوكفوا	١٥٢	١٢	العُزَّى	٢٢٩	١٩	سبق
٦٤	٨	عفتها	١٥٦	١١	تمتلئ	٢٣٤	٢٢	طوق
٦٧	٥	جبيلة	١٦٤	٢٤	تزيين		٢٣	حضارة
	١٨	تصونها	١٦٥	٣	صاديا	٢٣٦	٨	حربه
٦٨	٢٢	الأدباء	١٦٦	١٦	والله ما بنا بما	٢٣٧	٦	نزال
٦٩	١٩	عليها	١٦٧	١٤	أولو		٩	الرُّدى
٧٤	٩	الطبيب		١٨	ولا تتخالجْك	٢٣٨	٢٦	الورد
٧٩	٦	منقذ	١٧٦	٤	ابن	٢٤١	١	يا خليلي
٨٢	١٠	ذوق		٨	حيلة		٥	خبال
٨٣	٢٣	ديوان	١٨٣	١١	الحسين الضحاك	٢٥٦	١٦	بان
		الزوزني						
٨٤	٢٢	عمامة	١٨٦	٢٣	الشنقيطي	٢٦٥	١١	تَعَلَّق
٩٥	١٩	أعجازهن	١٨٧	٢٠	أعشى باهلة	٢٧٣	١٩	تقادم
	٢٠	صريعة		٢١	الروض الأنف	٢٧٦	١٤	ابن
٩٩	١٦	الإناث		٢١	ابن هشام	٢٨٠	١٠	نواشر
١٠٠	١٣	زبرجد	١٩٦	٩	الحسحاس	٢٨٣	١٢	ابن